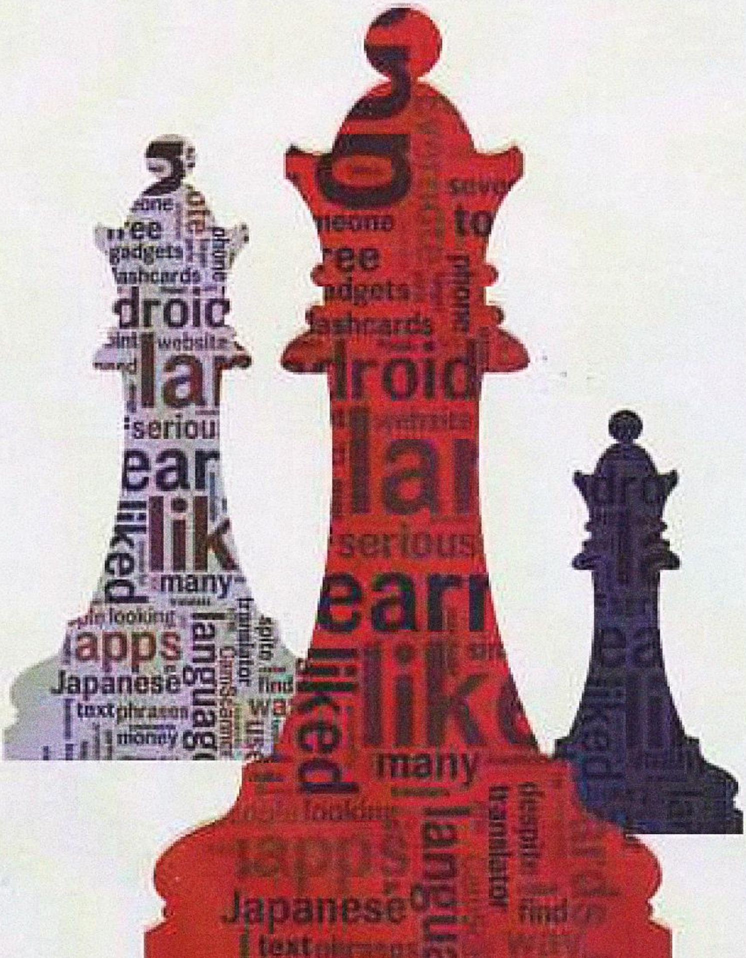
نورمان فِيركلَف

اللغة والسلطة

ترجمة: محمد عنانى



المركز القومي للترجمة

2555

اللغة والسلطة

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

- العدد: 2555
- اللغة والسلطة
- نورمان فيركلف
- محمد عنانى
- اللغة: الإنجليزية
- الطبعة الأولى 2016

هذه ترجمة كتاب:
Language and Power – 2nd Edition
By: Norman Fairclough

شارع الجبلاية بالأوبرا– الجزيرة– القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

اللغة والسلطة

تــــأليف : نورمـــــان فيركلـــــف

ترجمـــة : محمـــــد عنــــانى

2016

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

فيركلف، نورمان، ١٩٤١
اللغة والسلطة ؛ تأليف: نورمان فيركلف ؛ ترجمة: محمد عنانى
ط ١ – القاهرة : المركز القومي للترجمة، ٢٠١٦
٣٦٤ ص، ٢٤ سم
١ – اللغة السياسى ، علم .
٢- السلطة – علامات دولية
(أ) عنانى ، محمد، ١٩٣٩ (مترجم)
(ب) العنوان ٣٢٠,٠١٤

رقم الإيداع ٩٠٦٦ / ٢٠١٦
الترقيم الدولي: I.S.B.N - 978 - 977- 92 - 0634 - 9
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

الفهرس

هذا الكتاب صادر ضمن سلـسلة "language in Social life series"

التى يحررها كريستوفرن. كاندلين Christopher N.Candlin، أستاذ اللغة بقـسم اللغة الإنجليزية بجامعة المدينة، هونج كونج، ومن الكتب المنشورة ضـمن هـذه السلسلة:

- Language and Power
Second edition
Norman Fairclough

- Discourse and the Translator
Basil Hatim and Ian Mason

- Planning Language, Planning Inequality
James W Tollefson

- Language and Ideology in Children's Fiction
John Stephens

- The Cultural of English as an International Language
Alastair Pennycook

- Literacy Practices: Investigating Literacy in Social Contexts
Mike Baynham

- Critical Discourse Analysys: the Critical Study of Language
Norman Fairclough
Fictions at Work: Language and Social Practice in Fiction
Mary M Talbot

- Knowledge Macbines: Language and Information in a Technological Society
Denise E Murray

-Mediated Discourse as Social Interaction
Ron Scollon

- Interpreting as Interaction
Cecilia Wadensjo

- Language and Literacy in Workplace Eduction
Giselle Mawer

-Writing Business: Genres, Media and Discourses
Francesca Bargiela – Chiappini and Catherine Nickerson (eds)

- Identity and Language Learning: Gender, Ethnicity and Educational Change
Bonny Norton

- Small Talk
Justine Coupland (ed.)

-Typography and Language in Everyday Life.
Susan Walker

- The Power of Tests: A Critical Perspective on the Uss of Language Tests
ElanaShohamy

- Sociolinguistics and Social Theory
Nikolas Coupland, SrikantSarangi and Christopher N. Candlin (eds)

- Language and Minority Rigbts: Ethnicity, Nationalism and the Politics of Language
Stephen May

تصدير المؤلف للطبعة الثانية

كتاب اللغة والسلطة يدور حول العمل الذى تؤديه اللغة للحفاظ على علاقات السلطة وتغييرها فى المجتمع المعاصر، وحول أساليب تحليل اللغة بحيث تكشف عن هذا العمل بشقيه، وحول زيادة وعى الناس به، وزيادة قدرتهم على مقاومته وتغييره. وقد وُضع الكتاب بحيث تسهل قراءته على من لا يتمتع بخبرة سابقة فى هذا المجال. ولكن تصدير الطبعة الثانية يبدو لى فرصة سانحة حتى أشرح، خصوصًا لمن يحيطون إحاطة أكبر بهذا المجال، سبب إصدارى طبعة ثانية، وكيف تختلف هذه الطبعة عن الطبعة الأولى، والعلاقات بين كتاب اللغة والسلطة وبين المطبوعات التى تلته.

تصدر هذه الطبعة بعد نحو عقد كامل من ظهور الطبعة الأولى من كتاب اللغة والسلطة عام ١٩٨٩، وباستثناء تحديث إشاراتى إلى المراجع وإجراء بعض التغييرات الطفيفة، فقد أبقيت على الفصول التسعة الأولى دون تعديل يذكر. ولكننى رأيت من الضرورى إضافة فصل جديد، هو الفصل العاشر. صحيح أن مسألة اللغة والسلطة لاتزال قضية مهمة ومُلِحَّةً مثلما كانت عام ١٩٨٩، ولكن الحياة الاجتماعية شهدت تغييرات كبيرة فى العقد الماضى، أدت إلى حد ما إلى تغيير طبيعة علاقات السلطة غير المتكافئة، ومن ثم إلى تغيير 'برنامج' الدراسة النقدية للغة. وأقول إن علاقات السلطة على المستوى الدولى، بل والعالمى، بصفة خاصة، أصبحت تشكل وتحدد ما يحدث على المستويين الوطنى والمحلى إلى درجة تفوق ما كانت عليه الحال، حتى منذ عشر سنوات وحسب. وينْصَبُّ تركيز الفصل العاشر على هذه التغييرات، وما تتضمنه من دلالات لمسألة اللغة والسلطة. وليس معنى هذا أن هذه التغييرات تنفى اهتمامات الطبعة الأولى أو تجعلها من القضايا التى تجاوزها الزمن، ولكنها تعنى أننا عندما نجرى بحوثًا فى علاقة اللغة بالسلطة فى أطر وطنية أو محلية، فلابد لنا أن ندرك أن هذه الأطر تتعرض للتأثر بالأحداث الدولية والعلاقات القائمة على هذا المستوى وأن هذه الأطر يمكن أن تسهم فى تشكيل هذه الأحداث والعلاقات.

كما شهد العقد الماضى تغييرات أخرى متنوعة ترتبط بمسألة اللغة والسلطة. ولأكتف بذكر تغيير يحظى باهتمام بالغ، ألا وهو نشأة الإنترنت وتطورها. إذ إن الإنترنت تعتبر وسيطًا رئيسيًّا جديدًا أدى إلى نشأة أشكال جديدة للتواصل. كما أدت الإنترنت إلى تفاؤل معين بشأن أوجه التفاوت فى السلطة، إذ تتسم بحرية الدخول إليها لكل من يحيط بالتكنولوجيا اللازمة (على الرغم من أن الانقسام بين من يملكون التكنولوجيا ومن لا يملكونها داخل كل بلد وفيما بين البلدان يمثل فى ذاته مشكلة كبرى) كما إنها شكل من أشكال التواصل الذى يتسم نسبيًّا بالمساواة، إذ تسمح بأشكال من التواصل خلالها تَعِدُ بإمكانات جديدة للتعبئة الاجتماعية والسياسية، وما إلى ذلك بسبيل. ويبدو أن التواصل من خلال الإنترنت يمكن أن يؤدى إلى تغييرات مهمة فيما أطلق عليه فى الفصل الثانى 'نظام الخطاب' المجتمعى، وإن كان علينا، إذا أردنا تقدير مدى هذه التغييرات أن ننظر إلى موقع الإنترنت فى 'الاقتصاد' الشامل لنظام الخطاب، لا أن ننظر إليها بمعزل عن سواها.

كان نشر الطبعة الأولى من كتاب **اللغة والسلطة** يتفق مع نشأة وتطور ما أطلقت عليه فى الفصل الأول تعبير 'الدراسة النقدية للغة': ألا وهو ظهور 'التحليل النقدى للخطاب'، وهو الذى اجتذب أعدادًا متزايدة من الباحثين فى العقد الماضى. ولا شك أن الباحثين كانوا يبذلون جهودًا مهمة قبل نشر الكتاب (خصوصًا فى 'علم اللغة النقدى' وفى المنهج الفرنسى لتحليل الخطاب) كما استمر تطور هذا المجال منذ ذلك الحين. وأما أعمالى اللاحقة فقد وَسَّعَتْ من نطاق البحوث فى الخطاب باعتبارها من جوانب عمليات التغير الاجتماعى الأوسع نطاقًا (وهو ما أناقشه خصوصًا فى الفصلين السابع والثامن) وكذلك، ولو إلى درجة أقل، فى 'الوعى النقدى باللغة' (انظر الفصل التاسع). وقد نشرتُ منذ مدة قصيرة دراساتٍ فى لغة أجهزة الإعلام والخطاب السياسى لحكومة حزب 'العمال الجديد' فى بريطانيا. وكانت إحدى الأفكار التى ترددت فى المراجعات المنشورة عن كتاب **اللغة والسلطة** تقول إن التناول النظرى للخطاب وعلاقته بسائر عناصر الحياة الاجتماعية كان غير ناضج وإلى حد ما غير مُرْضٍ، ولقد اهتممتُ أيضًا بمحاولة علاج هذا الأمر. وكان من الأفكار الأخرى

الواردة فى مراجعات اللغة والسلطة أن التحليل النقدى للخطاب لابد أن يُستخدم مع مناهج أخرى، مثل الإثنوغرافيا [علم وصف الأعراق] وهو الذى تولاه عدد من الباحثين. ولقد اشتغل كثير من الباحثين بتطوير التحليل النقدى للخطاب وتطبيقه، بحيث أصبح اليوم مجالًا مهمًّا من مجالات البحث اللغوى. وأرجو أن يستمر كتاب **اللغة والسلطة** فى أداء مهمته باعتباره مقدمة يسهل استيعابها نسبيًّا لدراسة هذا المجال (انظر المراجع الواردة فى ذيل هذا التصدير).

والواقع أن التحليل النقدى للخطاب قد اجتذب اهتمامًا كبيرًا خارج إطار علم اللغة والدراسات اللغوية، فقد سبقت لى الإشارة إلى العمل فى مجال الوعى النقدى باللغة، وهو الذى يقوم به المعلمون فى المدارس والمؤسسات التعليمية على مستويات أخرى. كما يستخدم التحليل النقدى للغة فى شتى العلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية لأغراض البحث والتعليم، مثل علم الاجتماع، والدراسات الثقافية، ودراسات أجهزة الإعلام، ودراسات الجنسين، والسياسة والتاريخ وهلم جرًا. ولأذكر مثالًا واحدًا: قام قسم دراسات المدن فى جامعة جلاسجو بتنظيم مؤتمرين ناجحين فى عام ١٩٩٨ و١٩٩٩ حول 'الخطاب والتغير المدنى'، و'الخطاب وتغير السياسات'، وكان كل منهما يستند إلى حد بعيد إلى تحليل الخطاب النقدى وغيره من مداخل تحليل الخطاب. ويبدو أن تحليل الخطاب النقدى قد بدأ يؤتى ثمارًا تتمثل فى تشجيع الباحثين فى العلوم الاجتماعية على إدراج تحليل اللغة فى عملهم. ولكن الكتاب يتضمن النظر إلى التحليل النقدى للخطاب أيضًا باعتباره من الموارد التى يُعتمد عليها فى الصراعات الاجتماعية والسياسية من أجل العدل والمساواة. وقد يتعذر تقدير تأثيره فى هذا المجال، ولكنه يبدو لى أن القضايا الخاصة باللغة والسلطة تحظى اليوم باهتمام أكبر فى السياسة والمجال العام مما كانت تحظى به منذ عقد أو عقدين (ولدىَّ معيار عام ويعتبر انطباعيًّا تمامًا، ألا وهو عدد المقالات السياسية التى تناقش اللغة مناقشة نقدية فى الصحيفة التى أقرؤها أكثر من غيرها، وهى صحيفة **الجارديان** [البريطانية]). أما مدى إسهام كتب مثل **اللغة والسلطة** فى هذه الظاهرة فأمر لا أستطيع القطع فيه.

مراجع

يناقش كتاب تشولياراكى (Chouliaraki) وفِيْركِلَفْ (١٩٩٩) الجوانب النظرية للخطاب فى الحياة الاجتماعية و'البرنامج' المعاصر للتحليل النقدى للخطاب. وأما أعمالى الحديثة فتمثلها: دراسات فيركلف (1992a) و(1995a) و(1995b) و(2000a) و(2000b). وفيما يتعلق بالوعى النقدى باللغة انظر فيركلف (1992b) وكلارك وإيڤانيتش (1999). ودراسة فيركلف وڤوداك (1997) تقدم صورة شاملة للعمل الحديث فى مجال التحليل النقدى للخطاب. ويمكن لمن يريد الاطلاع على محاولات الجمع بين التحليل النقدى للخطاب والإثنوغرافيا أن يجدها فى تشولياراكى (1995) وپويولار (1997) وڤوداك (1996). ودراسة تشيرنى (1999) للغة فى الإنترنت. وأدى أول مؤتمرى جلاسجو المشار إليهما إلى إصدار طبعة خاصة من المجلة العلمية دراسات مدنية (1999) موضوعها 'الخطاب والتغير المدنى'. وأما المجلة العلمية **الخطاب والمجتمع** فهى المجلة العلمية الدولية الرئيسية فى مجال التحليل النقدى للخطاب. والدراسات التى نشرها بعض الباحثين الرئيسيين فى هذا المجال تتضمن ڤان ديك (1993)، وفاولر (1991)، وكريس (1995)، وكريس وڤان لويڤن (1996)، وليمكى (1995)، وتيبولت (1991) وڤوداك وآخرين (1990).

شكر وتقدير

We are grateful to the following for permission to reproduce copyright material:

Text 3.4 from The Paras' new leader in the *Daily Mail*, 1 June 1982, © Atlantic Syndication Partners; Text 8.1 Advertisement of the Miele Washing Machine, © Miele Company Ltd, N.B. Advertisement produced 1988 (no longer current); Texts 8.2, 8.3, 8.4 from Department of Health and Social Security, Crown copyright is reproduced with the permission of the Controller of Her Majesty's Stationery Office; Atlantic Syndication Partners for Headline and text from *Daily Mail* 3 May 1982; the Editor – *Blue Jeans* for extracts from *Blue Jeans* No. 488, 24 May 1986; The author, Michael Bretherton for an extract from 'Employment Counselling' in *Options* originally broadcast by BBC Radio 4. 7 December 1986; Constable L Houghton Mifflin Company for an extract from *On Becoming a Person* by Carl Rogers. US Copyright ©1961 Houghton Mifflin & Co; Deakin University for information drawn from G Kress 'Linguistic Process in sociocultural practice' pubd. Deakin University Press Victoria, Australia; Granada TV for an extract from '*The Boys from Horseferry Road*', Granada TV 1980; the author, Ted J Kaptchuck for an extract from *The Healing Arts*, BBC 2, 8 August 1986; R W Heap (Publishing) Company Ltd for an extract from their sales booklet *Good English*, The Language of Success, © R & W Heap Publishing Co Ltd 1986; Lancaster and Morecambe Newspapers Ltd for headlines and short articles from *Lancaster Guardian* 12 September and 7 October, 1986;' New York Times Syndicate for an extract from an interview in *New York Times*

1973: 512; the author, Shiela Shah and Outwrite for headline and article text 'Misogynist hysteria unleashed over Molesworth rapes' in *Outwrite* No. 52, November 1986; The Rt. Hon. The Baroness Thatcher and the BBC for an extract from inter-view between Michael Charlton and Margaret Thatcher, *BBC Radio* 3, 17 December 1985: Thorson's Publishing for list 'Just 23 vital steps to success' from *Twenty Three Steps to Success and Achievement*, Lumsden R, 1984; Times Newspapers Ltd for headline and an extract from the article 'The still small voice of truth' in *The Times* 20 May 1982. © Times Newspapers Ltd 20.5.82.

Whilst every effort has been made to trace the owners of copyright material, in a few cases this has proved impossible and we take this opportunity to offer our apologies to any copyright holders whose rights we may have unwittingly infringed.

الفصل الأول

مقدمة: الدراسة النقدية للغة

"كيف نتبين الأصفاد التى كَبَّلَتْنَا بها التقاليد؟ فإننا إذا استطعنا أن نتبيَّنَها استطعنا أيضًا أن نكسرها" فرانزبوس

موضوع هذا الكتاب اللغة والسلطة، أو بمزيد من الدقة، الروابط بين استعمال اللغة وعلاقات السلطة غير المتكافئة، خصوصًا فى بريطانيا الحديثة. وقد كتبتُه لغرضين رئيسيين: الأول نظرى، وهو المساعدة على تصحيح ظاهرة واسعة الانتشار ألا وهى التقليل من أهمية الدور الذى تضطلع به اللغة فى إنشاء علاقات السلطة الاجتماعية والحفاظ عليها وتغييرها. والثانى عملى، وهو المساعدة على زيادة الوعى بالأسلوب الذى تسهم به اللغة فى تمكين بعض الناس من السيطرة على البعض الآخر، لأن الوعى يمثل الخطوة الأولى على طريق التحرر.

أما الهدف النظرى فيرجع إلى خلفيتى الأكاديمية، وهى علم اللغة. إذ إن الباحثين فى علم اللغة، وخصوصًا فى علم اللغة الاجتماعى (الذى كثيرًا ما يقال إنه يتناول 'اللغة فى سياقها الاجتماعى') قد قالوا الكثير فعلًا عن اللغة والسلطة ولم يوفوها حقها. فلقد شهدنا، على سبيل المثال، دراسات كثيرة عن اللهجات الاجتماعية 'المعيارية' و'غير المعيارية'، وكيف تعتمد الهيبة المرتبطة بهذه اللهجات على سلطة من يستعملها. كما شهدنا أيضًا دراسات عن أساليب ممارسة السلطة فى المحادثة وغيرها من صور التخاطب بين الأفراد، وإن كانت دراسات قليلة، وهو أمر قد يدعو إلى الدهشة. والواقع أن هذه الدراسات تنشد، بصفة عامة، وصف الأعراف السائدة الخاصة بعلم اللغة الاجتماعى من حيث تفاوتها فى توزيع السلطة، ولكنها لا تنشد شرح هذه الأعراف باعتبارها من ثمار علاقات السلطة وضروب الصراع على السلطة. والقضية أن الأعراف المذكورة ذات علاقة مزدوجة بالسلطة، إذ إنها من ناحية تتضمن أشكال

الاختلاف فى السلطة، ومن ناحية أخرى تنشأ من علاقات محددة للسلطة، وتنشئها أيضًا.

وتركيزى فى هذا الكتاب يَنْصَبُّ على الناحية الثانية، أى محاولة شرح الأعراف القائمة باعتبارها من ثمار علاقات السلطة وضروب الصراع على السلطة. وسوف يؤكد مدخلى الافتراضات 'المنطقية' الكامنة فى الأعراف التى تحدد التفاعل اللغوى بين الناس، والتى لا يتمتع الناس عادة بالوعى بها. ومن الأمثلة على هذا كيف أن أعراف الاستشارة التقليدية بين الطبيب والمريض تجسد افتراضات 'منطقية' تعتبر السلطة والمراتبية أمرًا طبيعيًا، بمعنى أن الطبيب يعرف الطب والمريض يجهله، وأن الطبيب فى موقع يسمح له بالبت فى كيفية التصدى لمشكلة صحية، والمريض لا يتمتع بهذا الموقع؛ وأنه من الصحيح (و'الطبيعى') أن يتولى الطبيب اتخاذ القرارات والتحكم فى مسار الاستشارة والعلاج، وأن على المريض أن ينصاع له ويتعاون معه، وهلم جرًّا. ومن القضايا الجوهرية أننا نستطيع، كما سوف نرى، أن نجد افتراضات من هذا النوع كامنة فى الأشكال اللغوية المستخدمة.

إن أمثال هذه الافتراضات أيديولوجيات. والأيديولوجيات ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالسلطة، لأن طبيعة الافتراضات الأيديولوجية الكامنة فى أعراف محددة – ومن ثم طبيعة هذه الأعراف نفسها – تعتمد على علاقات السلطة التى ترتكز عليها الأعراف؛ ولأنها وسيلة لإضفاء الشرعية على العلاقات الاجتماعية القائمة ومظاهر التفاوت فى السلطة، من خلال التواتر وحسب لطرائق السلوك العادية المألوفة، وهى التى تقبل دون مناقشة وجود هذه العلاقات وأوجه التفاوت فى السلطة. والأيديولوجيات وثيقة الارتباط باللغة، لأن استعمال اللغة أشد صور السلوك الاجتماعى شيوعًا، كما إنها صورة السلوك الاجتماعى الذى نعتمد فيه أكثر من غيره على الافتراضات 'المنطقية'. ولكن مفهوم الأيديولوجيا، على الرغم من أهميته للغة، نادرًا ما كان يظهر فى المناقشات حول اللغة والسلطة فى إطار علم اللغة الاجتماعى، وهذا فى ذاته دليل على أوجه قصورها.

ولكن التجاهل النسبى للبعد الأيديولوجى لم يكن السبب الوحيد الذى دعانى إلى التركيز عليه، وأما السبب الرئيسى لاختياره فهو أن ممارسة السلطة فى المجتمع الحديث يزداد اعتماد تحقيقها على الأيديولوجيا، وبصفة أخص على الجوانب الأيديولوجية الفعالة للغة. فنحن نعيش فى حقبة لغوية، وهو ما يشهد عليه كبار المنظرين بين الاجتماعيين المعاصرين من أمثال پيير بورديو وميشيل فوكوه ويورجن هابرماس، إذ عبروا عن إدراكهم للأهمية المتزايدة التى يولونها للغة فى نظرياتهم. ويشير البعض إلى التحول إلى 'المدخل اللغوى' فى النظرية الاجتماعية، وإن كان من يكتبون عن 'ما بعد الحداثة' فى الآونة الأخيرة يزعمون أن الصور البصرية بدأت تحل محل اللغة، ويشيرون إلى ثقافة 'ما بعد الحداثة' باعتبارها ثقافة 'ما بعد اللغة'. ولا تنحصر المسألة فى أن اللغة قد أصبحت ما يمكن وصفه بالوسيط الأوَّلى للسيطرة الاجتماعية والسلطة، وإن كان ذلك مبررًا كافيًا فى ذاته؛ ولكن اللغة قد شهدت نموًّا هائلًا من حيث المهام الملقاة على عاتقها؛ ومن حيث النطاق [الواسع] لأنواع اللغة، ومن حيث تعقيد الطاقات اللغوية المتوقعة من المواطن الحديث. فإذا صحت الحجة التى سوف أقيمها على أن اللغة تزخر فى ثناياها بالأيديولوجيا، فلابد أن تعنى هذه الحقيقة أن الطبيعة الأيديولوجية للغة يجب أن تكون من بين الموضوعات الرئيسية للعلوم الاجتماعية الحديثة.

ومن ثم فإن أهمية اللغة جديرة باجتذاب اهتمام جميع المواطنين. وبصفة خاصة، وفى حدود موضوع هذا الكتاب، لا يملك شخص مهتم بالمجتمع الحديث، وقطعًا إذا كان مهتما بعلاقات السلطة فى المجتمع الحديث، أن يتجاهل اللغة. وهذا يعنى، إلى حد ما، جميع الناس. ومع ذلك، فإن عددًا من الأشخاص الذين يبدون الاهتمامات المذكورة على وجه الدقة يعتقدون أنهم يستطيعون آمنين أن يتجاهلوا اللغة. وربما لم يكن فى هذا ما يدعو للدهشة، نظرًا للقصور فى المستوى العام للاهتمام باللغة والحساسية لها، وخصوصًا لأن تعليم اللغات فى المدارس قد تمكن إلى حد كبير من تجاهل أشد وظائفها الاجتماعية حسمًا، وهو أمر يدعو للأسى. وليس الذنب فى هذا ذنب المعلمين، فإن هذه الحقيقة تصدق على معظم وجوه العمل الأكاديمى فى مجال اللغة وهو الذى يُقَدَّمُ إلى المعلمين باعتباره نماذج [تعليمية]. وهكذا فإن هذه الفجوة بين مستوى الوعى الذى

يتطلبه الموقع المعاصر للغة وبين المستوى الذى تمثله فى الواقع الفعلى، سبب آخر من أسباب اختيارى هذا الموضوع.

ومن المهم أن أؤكد أننى لا أقول إن السلطة تنحصر وحسب فى اللغة. فنحن نواجه دائمًا، عند التركيز على جانب واحد من جوانب علاقة اجتماعية أو عملية اجتماعية، خطر الإغراء باختزالها فى ذلك الجانب وحده، خصوصًا إذا كان هذا الجانب يعانى من التجاهل، كما هو الحال هنا. فالسلطة قائمة فى شتى الصور والأشكال، ومن بينها الشكل المادى الذى لا يمكن أن تخطئه العين، أى القوة المادية. ومن الحقائق، وإن كانت هذه حقيقة مؤسفة، أن السلطة كثيرًا ما يمارسها البعض بحرمان الناس من وظائفهم، ومن منازلهم، ومن أرواحهم، على نحو ما ذَكَّرَتْنَا به الأحداث الأخيرة فى جنوب إفريقيا. وربما يكون من المفيد أن نميز تمييزًا عامًّا بين ممارسة السلطة من خلال القسر بشتى أنواعه، بما فى ذلك العنف المادى، وممارسة السلطة من خلال خلق الرضى بها، أو على الأقل قبولها والانصياع لها. وعلاقات السلطة تعتمد على هذا وذاك، ولو بنسب متفاوتة. والأيديولوجيا هى الوسيلة الأولى لخلق الرضى.

وأما الهدف العملى المذكور فى الفقرة الافتتاحية فهو زيادة الوعى باللغة والسلطة، وخصوصًا كيف تسهم اللغة فى سيطرة البعض على غيرهم. ولما كان تركيزى ينصبُّ على الأيديولوجيا، فإن هذا يعنى مساعدة الناس على أن يتبينوا إلى أى حد تستند لغتهم إلى افتراضات منطقية، والأساليب التى يمكن أن تؤدى علاقات السلطة بها إلى التشكيل الأيديولوجى لهذه الافتراضات المنطقية. وعلى الرغم من أننى سوف أرسم صورة تدعو إلى بعض الانقباض للغة التى يزداد استغلالها للسيطرة والقهر، فإننى أرجو أن أضع فى الكفة الأخرى إيمانى بقدرة البشر على تغيير ما خلقه بشر مثلهم. وأما المقاومة والتغيير فليسا ممكنين وحسب بل إنهما يحدثان باستمرار، ولكن فاعلية المقاومة وتحقيق التغيير يعتمدان على نشأة الوعى النقدى لدى الناس بالسيطرة وأشكالها، لا الاقتصار على مكابدتها. وهكذا فإن الهدف العملى لهذا الكتاب الإسهام فى الرفع العام لمستوى الوعى بالعلاقات الاجتماعية القائمة على الاستغلال، من خلال التركيز على اللغة.

كان هدفى أن أكتب كتابًا لا يقتصر فهمه على الطلاب والمعلمين فى التعليم العالى، بل كتابٌ يستطيع أن يفهمه شتى الأشخاص فى ميادين أخرى، ومن ثم لم أفترض أن القراء يتمتعون بخلفية متخصصة فى دراسة اللغة، بل ولا فى النظرية الاجتماعية، وإن كنت أتصور أن معظم القراء يتمتعون ببعض الإحاطة بهذه أو تلك. وكنت أقصد بصفة خاصة من يتمتعون أو سوف يتمتعون بما يؤهلهم لممارسة التعليم بمعناه الواسع، أو قل من يستطيعون الاستفادة من كتب مثل هذا الكتاب فى إعداد مواد علمية أو تعليمية مناسبة تلبى الاحتياجات والظروف الخاصة لجماعات خاصة من الناس. ومن الواضح الجلىّ أن هذه الجماعات تشمل الطلاب والمعلمين، ومن يتولون تدريب المعلمين، وكل من يعمل فى شتى أشكال التدريب المهنى والحِرَفى (للاختصاصيين الاجتماعيين أو الصحيين على سبيل المثال). ولكننا قد نصادف آخرين، مثل النشطاء السياسيين أو النقابيين، أو الناشطين فى الحركات السلمية أو النسوية أو الخاصة بالسود أو غيرها من الحركات الاجتماعية، الذين نصف جانبًا من جوانب نشاطهم بأنه تعليمى بهذا المعني الواسع.

لقد حاولت أن أجعل هذا الكتاب سهل التناول وذا نفع عملى قدر الطاقة، لكنه مهما يبلغ توجيه كتاب مثل هذا للإتيان بفائدة عملية، فالواضح أنه لن يكفى وحده لبلوغ معظم الذين يستطيعون أن ينتفعوا خير انتفاع بشكل ما من أشكال التحليل النقدى للغة، وهذا، كما قلت، يعنى فى الواقع جميع الناس. إذ لابد من استكماله بكتيبات منوعة وبغيرها من المواد (مثل الأفلام والڤيديوهات والرسوم الكاريكاتيرية) التى يجد الكثير مِنَّا أنها أيسر هضمًا من الكتب. وأرجو أن يكون من بين قراء هذا الكتاب رجال التعليم القادرين على المضى قُدُمًا بهذا العمل.

إننى واثق أن القراء قد تكوَّن لديهم انطباع ما، بعد قراءة ما كتبت، عن الموقف السياسى الذى انطلقت منه لكتابة هذا الكتاب. فمن المفهوم على نطاق واسع أن من يبحثون القضايا الاجتماعية ويكتبون عنها، يتأثرون فى أسلوب النظر إليها، وكذلك فى اختيارهم للموضوعات ومداخلهم إليها، بخبراتهم وقيمهم الاجتماعية والتزاماتهم

السياسية. وأعتقد أنه من المهم أن نعترف بهذه المؤثرات لا أن نصطنع حيادًا زائفًا إزاء القضايا الاجتماعية، ولكن علينا أيضًا أن نصارح قراءنا بالمواقف التي نتخذها. ولسوف أفصح بالتفصيل – إلى حد ما – عن رأيي في المجتمع الذي أنتمي إليه في الفصل الثاني، وأما الآن فدعني أقول إنني اشتراكي وإنني لا أُعْلِي من قدر العلاقات الاجتماعية في مجتمعي، وإن عندي التزامًا بتحرير الأشخاص الذين يتعرضون للقهر بسببها. وأرجو ألا يعني ذلك أنني أكتب دعاية سياسية. إذ إن الفحص العلمي للمسائل الاجتماعية يتفق تمام الاتفاق مع عمل الباحثين الملتزمين ذوي الآراء الثابتة (لا يوجد غير هؤلاء!) وإن الالتزام يعفيك من إقامة الحجج العقلانية أو تقديم الأدلة التي تثبت بها صحة ما تقوله.

والمدخل إلى اللغة الذي سوف أتبعه يسمى الدراسة النقدية للغة. فأما صفة النقدي فتستخدم هنا بالمعنى الخاص الذي يفيد السعي إلى تبيان الروابط التي قد تخفى عن عيون الناس، مثل الروابط بين اللغة والسلطة والأيديولوجيا المشار إليها عاليه. فالمدخل المذكور يحلل وجوه التفاعل الاجتماعي بأسلوب يركز على عناصرها اللغوية، ويسعى إلى الكشف عن العوامل التي تتحكم فيها، والتي تختبئ بصفة عامة في نظام العلاقات الاجتماعية، إلى جانب ما يمكن أن تحدثه في النظام من آثار خفية.

المداخل إلى دراسة اللغة

المداخل القائمة لدراسة اللغة كثيرة، فلماذا نحتاج إلى الدراسة النقدية للغة؟ يقول السبب إنه إذا كان كل مدخل من المداخل التي أعرضها أدناه يسهم بشيء ما في الدراسة النقدية للغة، فإنها تتسم جميعًا بأوجه قصور كبرى من وجهة النظر النقدية. ومن المهم أيضًا أن أذكر أن العلاقة التي تعتبر – معياريًا – قائمةً بين هذه الفروع المنوعة لدراسة اللغة معيبةٌ من المنظور النقدي، وهي مسألة سوف أتناولها بالتفصيل في آخر هذا القسم. وأما مداخل الدراسة اللغوية التي سوف أعرضها فهي مداخل: علم اللغة، وعلم اللغة الاجتماعي، والتداولية، وعلم النفس المعرفي، والذكاء الاصطناعي، والمحادثة، وتحليل الخطاب. وسوف أقول شيئًا ما عن الآراء في اللغة وفق النظرية

الاجتماعية الحديثة. وينحصر هدفى فى تقديم تعريف موجز لهذه المجالات المعقدة من مجالات الدراسة من منظور نقدى. وسوف أشير فى معظم الأحوال إلى العمل الجارى فى 'التيار الرئيسى'، وإن كان معظم المجالات المذكورة يتضمن أعمالاً أخرى تخالف التيار الرئيسى، وأحيانًا ما تكون أقرب إلى المنظور النقدى منها إلى التيار الرئيسى.

علم اللغة

يُستخدم مصطلح علم اللغة (أو اللغويات) استخدامًا يكتنفه الغموض داخل التيار الرئيسى: فأحيانًا ما يشير إلى جميع فروع دراسة اللغة داخل المبحث الأكاديمى لعلم اللغة (وبعضها لا ينتمى إليه) ولكنه يشير أحيانًا إلى الفرع الذى يتمتع بأقصى درجة من درجات التميز، أى 'علم اللغة الحقيقى' كما يسميه البعض أحيانًا. وأنا أشير هنا إلى 'علم اللغة الحقيقى' الذى يتضمن دراسة 'النحو' بمعناه الواسع، والنظم الصوتية للغة ('الصوتيات') والأبنية النحوية للألفاظ ('علم الصرف') وللجمل ('علم التراكيب') والجوانب الشكلية للمعنى ('علم الدلالة'). ولقد ظفر علم اللغة بقبول واسع النطاق داخل العلوم الإنسانية وما يتجاوزها بسبب المكانة المركزية للغة بين الظواهر البشرية، ولدراسة اللغة بين العلوم الإنسانية. وكان سبب نجاحه فى هذا قدرته على وضع مجموعة منتظمة باهرة من التقنيات المنهجية لوصف اللغة، التى أصبحت منهلًا واسع النطاق للنماذج المستعملة فى العلوم الإنسانية الأخرى، والتى يستطيع كذلك أى مدخل حديث لدراسة اللغة (بما فى ذلك الدراسة النقدية للغة) أن ينتفع بها.

ومع ذلك فإن الثمن الذى دُفع فى شراء علم اللغة كان تصورًا ضيق النطاق لدراسة اللغة. فمن المفارقات أن علم اللغة لم يلتفت إلا التفاتًا ضئيلًا نسبيًا إلى الكلام المنطوق أو الكتابة المكتوبة فعلًا، إذ يصور اللغة فى صورة الطاقة الممكنة، أو النظام أو المقدرة المجردة، بدلاً من محاولة وصف الممارسة اللغوية الفعلية. وحسبما يقول فرديناند دى سوسير، أحد مؤسسى علم اللغة الحديث، يهتم علم اللغة بدراسة اللغة (*langue*) لا الكلام (*parole*). وقد أخذ التيار الرئيسى لعلم اللغة افتراضين حاسمين عن اللغة

من سوسير، الأول يقول إن لغة أى مجتمع معين يمكن، من زاوية الأغراض العملية جميعًا، أن تعتبر ثابتة لا تتغير فى شتى أرجاء ذلك المجتمع، وأن دراسة اللغة يجب أن تكون آنية لا زمنية، أى يجب أن تدرس باعتبارها نظامًا ساكنًا فى أى لحظة زمنية، لا باعتبارها نظامًا ديناميًّا يتغير عبر الزمن. ويؤدى هذان الافتراضان، وتجاهل الممارسة اللغوية، إلى نشأة صورة مثالية للغة، تعزلها عن إطارها الاجتماعى والتاريخى الذى لا تستطيع أن توجد فى الواقع خارجه. فالتيار الرئيسى لعلم اللغة أسلوب غير اجتماعى لدراسة اللغة، وليس لديه ما يقوله عن العلاقات بين اللغة والسلطة والأيديولوجيا.

علم اللغة الاجتماعى

نشأ علم اللغة الاجتماعى، إلى حد ما، تحت تأثير بعض المباحث من خارج علم اللغة (وأهمها الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع) وكان يمثل رد فعل على التجاهل الذى يبديه 'علم اللغة الحقيقى' للتنوع اللغوى نتيجة للأحوال الاجتماعية. ويرى بعض الدارسين أن علم اللغة الاجتماعى يتكامل مع علم اللغة الحقيقى، بمعنى أن الأخير يدرس النظام اللغوى الثابت، وأن الأول يدرس الممارسة اللغوية المتغيرة اجتماعيًّا ('الاستعمال'). ويرى آخرون أن علم اللغة الاجتماعى يطعن فى الجوانب غير الواقعية اجتماعيًّا للتيار الرئيسى لعلم اللغة. ولقد بين الباحثون فى علم اللغة الاجتماعى بعض جوانب التوافق المنتظمة بين الاختلافات فى الشكل اللغوى (صوتيًّا وصرفيًّا وتركيبيًّا) وبين المتغيرات الاجتماعية، مثل الطبقات الاجتماعية التى ينتمى إليها المتحدثون، والعلاقات الاجتماعية بين المشاركين فى ضروب التفاعل اللغوى، والاختلافات فى الأطر أو المناسبات الاجتماعية، والاختلافات بين الموضوعات المطروحة، وما إلى ذلك بسبيل. ويرجع الفضل إلى أصحاب علم اللغة الاجتماعى فى اعتبارنا أن الممارسة اللغوية التى يشكلها المجتمع مقدمة منطقية عامة للدراسة النقدية للغة.

ولكن علم اللغة الاجتماعى يبدو فيه التأثر الشديد بالتصورات الوضعية للعلوم الاجتماعية، إذ يميل الباحثون إلى النظر فى الاختلافات 'اللغوية الاجتماعية'، فى مجتمع معين، باعتبارها مجموعات من الحقائق التى يلاحظونها ويصفونها باستخدام مناهج

مناظرة لمناهج العلوم الطبيعية. أى إن علم اللغة الاجتماعى يبدى القوة فى طرح الأسئلة المبدوءة بالحرف 'ماذا؟' ("ما حقائق الاختلاف؟") ولكنه يبدى الضعف من حيث الأسئلة الخاصة بالسبب والكيفية ("لماذا أصبحت هذه الحقائق على هذا النحو؟ وكيف - من حيث نشأة علاقات السلطة فى المجتمع وتطورها - جاء إلى الوجود النظام اللغوى الاجتماعى الحالى؟ وكيف يتسنى له البقاء؟ وكيف يمكن تغييره حتى يعود بالفائدة على الذين يخضعون لسيطرته؟").

وترتبط المعاملة السطحية للحقائق بتناول الطبقة الاجتماعية. وأنا أستخدم تعبير الطبقة الاجتماعية هنا، وإن كان الغالب أن تستخدم فى الإشارة إلى ما يستحسن وصفه بتعبير 'الطبقات الاجتماعية'، أى مجموعات الأشخاص الذين يتشابهون فى العمل أو التعليم أو غير ذلك من المتغيرات الاجتماعية. والطبقات الاجتماعية، طبقًا للمعنى الماركسى الكلاسيكى، قوى اجتماعية تشغل مواقع مختلفة فى الإنتاج الاقتصادى، ولها مصالح مختلفة ومتعارضة، وصراعها هو الذى يحدد مسار التاريخ الاجتماعى. وفى ضوء هذا التصور للطبقة الاجتماعية، يمكن النظر إلى الحقائق اللغوية الاجتماعية باعتبارها نتيجة للصراع الطبقى، والقول بأنها تمثل توازنًا معينًا للقوى بين الطبقات. وهذا التصور للطبقة الاجتماعية يتعلق بالأسئلة الخاصة بالسبب وبالكيفية.

ويرتبط كذلك بالتوجه الوضعى إلى الحقائق عدم حساسية أصحاب علم اللغة الاجتماعى، بصفة عامة، إزاء علاقة التوجه المذكور بالنظم اللغوية الاجتماعية التى يسعى إلى وصفها. فحين يركز المرء على الوجود المجرد للحقائق، دون أن ينتبه إلى الأحوال الاجتماعية التى أوجدتها، والأحوال الاجتماعية التى تجعل تغييرها ممكنًا، فلن يفطن إلى أن الباحث فى علم اللغة الاجتماعى قد يساهم هو نفسه فى التأثير فى هذه الحقائق. ولكن المرء يفطن إلى ذلك فى السيناريو البديل الذى رسمت خطوطه العريضة. أى إذا اعتُبرت حقائق النظام اللغوى الاجتماعى خطوط توتر، بمعنى أنها تشكيل مؤقت يمثل التوازن الراهن للقوى الطبقية، فإن تأثير البحث فى علم اللغة الاجتماعى قد يؤدى إما إلى إضفاء الشرعية على هذه الحقائق، وإما إلى إثبات أن هذه

حقائق عارضة طارئة على الرغم من صلابتها الظاهرة، وبالتالى – وبطريق غير مباشرة – الإشارة إلى أساليب تغييرها. فعلى سبيل المثال، كثيرًا ما يصف علم اللغة الاجتماعى الأعراف اللغوية الاجتماعية من حيث تحديد الأشكال اللغوية 'المناسبة' لحالة اجتماعية معينة، ومهما يكن القصد من ذلك، فإن استعمال هذا المصطلح من المحتمل أن يضفى الشرعية على 'الحقائق' وما تستند إليه من علاقات السلطة.

التداولية

لا بد لنا من التمييز بين التصور الأوروبى القارى الواسع النطاق للتداولية (Pragmatics) باعتبارها "علم استخدام اللغة" (وفقًا لما جاء فى العدد الأول من مجلة التداولية) وبين التصور الأنجلو أمريكى ذى النطاق الضيق للتداولية باعتبارها مجرد مبحث فرعى من بين عدة مباحث فرعية تتناول استعمال اللغة، ومن بينها علم اللغة الاجتماعى وعلم اللغة النفسى. وتتضمن التداولية بالمعنى الأول اتجاهات تناظر ما أسميه الدراسة النقدية للغة. ومع ذلك فسوف أقتصر فى تعليقى على التقاليد الأنجلوأمريكية لأنها أكثر ما نألفه فى الكتابات باللغة الإنجليزية.

ترتبط التداولية الأنجلو أمريكية ارتباطًا وثيقًا بالفلسفة التحليلية، وخصوصًا بعمل أوستن وسيرل فى مجال 'أفعال الكلام'. واللمحة الثاقبة الرئيسية تقول إن اللغة يمكن اعتبارها شكلًا من أشكال الفعل، بمعنى أن الكلام الملفوظ أو المكتوب يمثل أداء لأفعال الكلام مثل الوعد أو الطلب أو التأكيد أو التحذير؛ أو، على مستوى آخر، الإشارة إلى الناس أو الأشياء، أو الافتراض المسبق لوجود أشخاص أو أشياء أو صدق مقولات معينة، والإحالة إلى معانٍ ضمنية لم يعبر المتحدث عنها تعبيرًا سافرًا. وفكرة التلفظ باعتباره فعلًا فكرة مهمة، وهى تشغل مركزًا رئيسيًّا أيضًا فى الدراسة النقدية للغة، وتتخذ صورة المقولة التى أقدمها فى الفصل الثانى، وهى أن الخطاب ممارسة اجتماعية.

وأما الضعف الرئيسى فى التداولية من وجهة النظر النقدية فهو طابعها الفردى: إذ يُنظر إلى الفعل نظرة أحادية باعتباره نابعًا برمته من الفرد، وكثيرًا ما يدرج فى نظرية عن

'الاستراتيجيات' التى يستخدمها المتحدث الفرد لتحقيق "أغراضه" أو "مقاصده". وهذا يستهين بمدى سيطرة الأعراف الاجتماعية على الناس، ومدى القيود التى تفرضها عليهم، ومدى ما يستمدونه منها فى تشكيل هوياتهم الفردية، كما يوحى بانطباع لا يقبله المنطق يقول إن المتحدث "يعيد ابتكار" الطرائق العرفية أو التقليدية للكلام أو الكتابة فى كل مناسبة، ويصطنع استراتيجية خاصة تلائم أهدافه الخاصة. وفى مقابل هذا تبالغ التداولية فى تصويرها لمدى تلاعب الأشخاص باللغة لأغراض استراتيجية. ولا شك أن الأشخاص يتصرفون بأساليب استراتيجية فى ظروف معينة، ويستغلون الأعراف بدلاً من الاقتصار على اتباعها، ولكنهم فى ظروف أخرى يقتصرون فعلًا على اتباعها، والذى نحتاج إليه يتمثل فى نظرية للفعل الاجتماعى — أو الممارسة الاجتماعية — تستطيع تفسير التأثير المسيطر للأعراف والإبداع الاستراتيجى للمتحدث الفرد، من دون قصر الممارسة على أيهما وحده.

وإلى جانب ذلك فإن التداولية تفترض فيمن تصوره من الأفراد أنهم، عمومًا، يشاركون فى ضروب تفاعل 'تعاونية' يتمتعون فيها بالسيطرة المتكافئة على قواعدها الأساسية، ويستطيعون الإسهام المتكافئ فيها. وهكذا فإنها ترفع من مكانة التفاعل القائم على التعاون بين الأكفاء بحيث تجعله نموذجًا أوليًّا للتفاعل الاجتماعى بصفة عامة، بدلًا من اعتباره شكلًا من أشكال التفاعل الذى يحدث فى حالات محدودة ويخضع لقيود اجتماعية. والنتيجة أن تنشأ صورة مثالية يوتوبية للتفاعل اللفظى، وهى صورة تتناقض تناقضًا صارخًا مع الصورة التى ترسمها الدراسة النقدية للغة. أى صورة نظام لغوى اجتماعى يتشكل فى غمار الصراعات الاجتماعية وتغشاه الصدوع الناجمة عن ضروب التفاوت فى السلطة. وهكذا يبدو أن التداولية تصف الخطاب كما ينبغى أن يكون عليه فى عالم أفضل، لا على نحو ما هو عليه فى الواقع.

كما تتسم التداولية بنطاقها المحدود، إذ إنها نشأت أساسًا استنادًا إلى أقوال مفردة موضوعة، لا استنادًا إلى خطاب حقيقى مديد، واتضح أيضًا أن بعض أفكارها الرئيسية، مثل فكرة أفعال الكلام، تكتنفها الإشكاليات كلما حاول الناس استخدامها

فى تحليل الخطاب الواقعى. وأخيرًا فإن التداولية الأنجلو أمريكية تحمل الندوب التى أصابتها عند نشأتها من رحم 'علم اللغة الحقيقى'. وإذا كانت قد أتاحت المساحة اللازمة للبحث فى اعتماد اللغة والسياق الاجتماعى على بعضهما البعض، ولم تكن تلك المساحة متاحة قبل نشأة التداولية، فإنها مساحة تحدها قيود صارمة، ما دمنا نميل إلى اعتبار التداولية 'مستوى' إضافيًا من مستويات الدراسة اللغوية، ونرى أنها تسد الفجوات التى خلفتها المستويات 'الجوهرية' أى مستويات النحو وعلم الدلالة. وهكذا فإن التداولية تعترف بالسياق الاجتماعى ولكنها تبقيه فى مكانه، وهو ما لا يفى بحقه الوفاء الكامل.

علم النفس المعرفى والذكاء الاصطناعى

كان من مشاغل التداولية النظر فى ضروب التفاوت التى دائمًا ما تنشأ بين ما يقوله المرء وما يعنيه، وبالأسلوب الذى يستعمله الناس لإدراك المعنى الكامن فى الكلام المنطوق أو المكتوب، ولكن البحث التفصيلى فى عمليات الفهم وعمليات 'إنتاج' [النصوص] من ورائها، يتولاه أصحاب علم النفس المعرفى، والباحثون فى الذكاء الاصطناعى المختص بمحاكاة الحاسوب لعمليتى الإنتاج والفهم. وأما أهم نتائج البحث فى عملية الفهم، من منظور الدراسة النقدية للغة، فقد كان تأكيد طبيعته الفعالة: أى أنك لا تقتصر هنا على 'فك شفرة' قول معين، بل تصل إلى تفسير له من خلال عملية فعالة تتضمن موازاة معالم ذلك القول على مستويات شتى بالصور 'التمثيلية' التى خزنتها فى ذاكرتك الطويلة الأجل. وهذه الصور 'التمثيلية' نماذج أولية لمجموعة بالغة التنوع من الأشياء، مثل أشكال الكلمات، والأشكال النحوية للجُمل، والبناء المعتاد للقصة، وخصائص أنماط الأشياء والأشخاص، ومسار الأحداث المتوقع فى نمط معين من أنماط المواقف، وما إلى ذلك بسبيل. وبعض هذه المعالم لغوى، والبعض الآخر غير لغوى. واستباقًا لمناقشتنا اللاحقة، دعونا نشير إلى هذه النماذج الأولية مجتمعة بمصطلح معين وهو "**موارد الأعضاء**"، [أى 'Members Resources الذى يشير إلى ما يختزنه الذهن من معارف وخبرات بالدنيا، المجرد منها

والمجسد، ويمكن وصفها بأنها جماع الخبرة الذاتية وتوازى ما نسميه الخلفية الذاتية، كما سوف يتضح فى الفصول التالية، وعندها سأشير إليها بالموارد الذاتية وحسب] والمسألة الرئيسية هنا هى أن الفهم ينجم عن التفاعل بين القول المنطوق أو المكتوب الذى نريد تفسيره وبين 'موارد الأعضاء'.

ولم يكن من المدهش ألا يولى علم النفس المعرفى والذكاء الاصطناعى أهمية تذكر للأصول الاجتماعية أو المغزى الاجتماعى لموارد الأعضاء. وسوف أسوق الحجة فيما بعد على أن الاهتمام بعمليات الإنتاج والفهم عامل جوهرى لتفهم العلاقات المتداخلة بين اللغة والسلطة والأيديولوجيا لأن 'موارد الأعضاء' يتحكم فيها المجتمع وتشكلها الأيديولوجيا، وإن كان كساؤها المنطقى وطابعها التلقائى عادةً ما يخفيان هذه الحقيقة. ولجوء المرء عادة ودون وعى إلى 'موارد الأعضاء' فى الخطاب العادى، كما سوف أبين، يعتبر آلية قوية للإبقاء على علاقات السلطة التى تستند إليها آخر الأمر.

تحليل المحادثة وتحليل الخطاب

يُوصَفُ تحليل الخطاب فى الآونة الأخيرة بأنه 'مبحث بينى' جديد، يسهم فى عدد كبير من المباحث الراسخة (ومن بينها علم اللغة، وعلم الاجتماع، والأنثروبولوجيا، وعلم النفس المعرفى وغير ذلك من العلوم). ويتضمن تحليل الخطاب بهذا المعنى الواسع عناصر قريبة الشبه بما أُطْلِقُ عليه أنا مصطلح الدراسة النقدية للغة. وسوف أركز على تحليل المحادثة، وهو مدخل بارز من مداخل تحليل الخطاب الذى أنشأته مجموعة من علماء الاجتماع تعرف باسم 'علماء المنهجية العرقية'.

ويبحث هؤلاء عمليتى الإنتاج والتفسير لكل حدث يومى باعتبارهما من المنجزات التى تدل على مهارة 'الفاعلين' الاجتماعيين، كما يهتم هؤلاء العلماء بالمحادثة باعتبارها نموذجًا شائعًا إلى حد كبير للحدث الاجتماعى القائم على المهارة. ومن جوانب القوة فى تحليل المحادثة أنه يستخدم عَيِّنَاتٍ مديدةً من المحادثة الحقيقية. وقد أثبت أن المحادثة تتسم ببناء منهجى، وأن الأدلة متوافرة على توجهات المشاركين فى هذه الأبنية، وذلك إلى جانب الطرائق التى يحددون فيها أدوارهم فى المحادثة ويردون

على أدوار الآخرين. وهذه الأبنية أبنية اجتماعية، ومن إحدى المهام الرئيسية للتحليل المذكور إثبات وجود هذه الأبنية الاجتماعية وظهورها فى كل عمل يومى، أى إنها ليست مجرد خصيصة من خصائص الأبنية المجتمعية المجردة الكبرى.

ولكن تحليل المحادثة يبدى مقاومة لإقامة الروابط بين الأبنية 'الصغيرة' فى المحادثة وبين الأبنية الكبيرة للمؤسسات الاجتماعية والمجتمعات. وكان من نتيجة ذلك تقديمه صورة لا يقبلها المنطق إلى حد ما (وتشبه الصورة التى نسبتُها إلى التداولية) عن المحادثة باعتبارها ممارسة اجتماعية تستند إلى المهارة والقائمة فى فراغ اجتماعى، كأنما لا يجرى التحادث إلا من أجل التحادث وحسب. ومما يدعم هذه الصورة المكانة المتميزة التى يوليها هؤلاء إلى المحادثة العارضة بين الأكفاء، وخصوصًا المحادثة التليفونية، وربما تكون هذه أكثر المحادثات التى تخفى التأثير الحاسم للأبنية المؤسسية والمجتمعية، إذ يبدو أقل وضوحًا فيها وإن كان حقيقيًّا رغم ذلك. كما يدعم هذه الصورة أيضًا التركيز على المحادثة باعتبارها إنجازًا حققه 'الفاعلون' الاجتماعيون الذين شاركوا فيها، والتأكيد الذى يتفق مع هذا فى التحليل لدور منظور 'الفاعل'، وهو الذى يشعر بالأعراف السائدة فى الأحداث اليومية باعتبارها أعرافًا قائمة وحسب، لا باعتبارها خاضعة للأبنية الاجتماعية الكبرى وقادرة على التأثير فيها. وهكذا فإن تحليل المحادثة يتعرض للانتقاد الذى وجهتُه إلى علم اللغة الاجتماعى عاليه أى إنه يجيب عن الأسئلة المبدوءة بالحرف 'ماذا؟' لا بالحرفين 'كيف؟' و'لماذا؟'

كلمة عن النظرية الاجتماعية الحديثة

دعنى أخيرًا أشير بإيجاز إلى المساهمات الحديثة فى النظرية الاجتماعية، وهى التى استكشفت دور اللغة فى ممارسة السلطة والحفاظ عليها وتغييرها. وسوف أشير إلى مساهمات ثلاث وحسب منها. الأولى هى العمل فى مجال نظرية الأيديولوجيا، وهو الذى أشار من ناحية إلى زيادة الأهمية النسبية للأيديولوجيا باعتبارها آلية من آليات السلطة فى المجتمع الحديث، وذلك فى مقابل ممارسة السلطة بالأساليب القسرية، ومن ناحية أخرى أصبح يرى اللغة باعتبارها مركزًا رئيسيًّا للأيديولوچيا (أو المركز

الرئيسى لها فعلًا) ومن ثم فهى ذات دلالة كبرى فيما يتعلق بالسلطة. وأما الثانية فهى العمل ذو النفوذ الكبير الذى قام به ميشيل فوكوه، وهو الذى ينسب إلى الخطاب دورًا رئيسيًّا فى نشأة أشكال السلطة الحديثة بشكل خاص وتطورها. وأما الثالثة فهى العمل ذو النفوذ المكافئ الذى قام به يورجن هابرماس، إذ إن 'نظرية الفعل التواصلى' التى وضعها تؤكد الأسلوب الذى تستطيع به طرائق الاتصال الشائهة الحالية أن تبشر، على الرغم من تشوهها، بطرائق تواصل بريئة من أمثال هذه القيود. وأما القصور الرئيسى الذى يشوب هذه المساهمات، من منظور الدراسة النقدية للغة، فهو أنها لا تزال نظرية، بمعنى أنها لا تصلح للتطبيق فى تحليل نماذج محددة من الخطاب.

علاقة الدراسة النقدية للغة بهذه المداخل

وأخيرًا فربما تكون أفضل طريقة لفهم الدراسة النقدية للغة ألا نعتبرها مجرد مدخل آخر من مداخل الدراسة اللغوية، أى مجرد مدخل يستكمل المداخل التى أشرت إليها بإلقاء الضوء على القضايا التى عادة ما تتجاهلها، ولكن باعتبارها توجهًا بديلًا للدراسة اللغوية، وهو ما يعنى ضمنًا تقسيمًا مختلفًا للدراسة اللغوية، أى تقسيمها إلى مداخل أو فروع، ذات علاقات مختلفة فيما بينها، وتوجهات مختلفة داخل كل منها. وتفصيل هذا القول تفصيلًا وافيًا يحتاج إلى كتاب آخر، ولذلك سأقتصر على الإيضاح السريع لما أقصده.

من سمات السلطة قدرتها على فرض هيكلةٍ معينة لمجال ما والحفاظ عليها، أى فرض طريقة معينة لتقسيمه إلى أجزاء، والحفاظ على انفصال كل جزء عن سواه، وفرض تنظيم معين لهذه الأجزاء من حيث علاقاتها المراتبية الخاصة بالسيطرة والخضوع. وقد فرض التيار الرئيسى لعلم اللغة هذه الهيكلة على الدراسة اللغوية، والمداخل التى أشرت إليها عاليه تمثل بعض الأجزاء التى تفصل الدراسة اللغوية بينها، ويشغل 'علم اللغة الحقيقى' مكانة متميزة داخل هذه الهيكلة للدراسة اللغوية. والواقع أن جميع المداخل الأخرى عادة ما تعتبر مباحث فرعية تتوسع فى النتائج التى

يحرزها "علم اللغة الحقيقى" فى شتى الاتجاهات المتخصصة، وإن كانت أحيانًا ما تقاوم مثل هذه المواقع الثانوية. وأما من المنظور النقدى فإن هذا غير مرض لسببين، أولهما الفصل بين بعض فروع الدراسة اللغوية التى ترتبط بعلاقة وثيقة فيما بينها – وهو ما يصدق على الفصل بين علم اللغة الاجتماعى وبين التداولية، وعلى الفصل بين علم اللغة الاجتماعى وبين الدراسة النفسية للإنتاج والفهم، على سبيل المثال – وثانيهما أنه يعنى الهبوط بالطبيعة الاجتماعية للغة إلى مرتبة المبحث الفرعى. وأما الدراسة النقدية للغة فتضع التصور العريض للدراسة الاجتماعية للغة فى قلب الدراسة اللغوية. وهى أيضًا تفضل توكيدات معينة داخل مختلف فروع الدراسة، ففى دراسة النحو مثلًا نجدها تفضل المداخل 'الوظيفية' (مثل علم اللغة المنهجى الذى يرتبط خصوصًا باسم مايكل هاليداى) وتجد فيه فائدة أكبر من المداخل 'الصورية' (مثل تلك التى ارتبطت باسم نعوم تشومسكى ورفقائه).

ولكن نطاق هذا الكتاب لا يسمح بتقديم بديل كامل للتيار الرئيسى لعلم اللغة. وللقراء المهتمين بأمثال هذه البدائل أن ينظروا فى شتى المقترحات المطروحة التى تسير إلى حد ما فى هذا الاتجاه والتى تتفق إلى حد ما مع الدراسة النقدية للغة، مثل علم اللغة المنهجى، والتداولية الأوروبية، أو الاتجاهات البينية فى تحليل الخطاب. وأما هذا الكتاب فهو يركز على إجراء تحليلات نقدية لعينات من الخطاب، ولسوف ينتفع إلى حد ما بجميع المداخل التى أشرت إليها، ولكنه يحاول أن يتجاوزها فيقدم شكلًا مُرَكَّبًا من المفاهيم النظرية والأطر التحليلية اللازمة لإجراء التحليلات النقدية.

استعمال هذا الكتاب

يمكن استعمال هذا الكتاب فى الدورات التدريبية والتعليمية، أو فى المناقشات غير الرسمية فى مجموعات معينة، أو من جانب القراء الأفراد. وأفترض أن القراء فى جميع الحالات سوف يودون المشاركة الفعالة فى إجراء الدراسة النقدية للغة، لا مجرد القراءة عنها. وقد أدمجت فى الكتاب هذا التوجه لإجراء التحليل بطريقتين رئيسيتين. الأولى دعوة القراء إلى التعليق على النصوص أو إجراء شتى التمارين القصيرة فى معظم

الفصول التالية. وأنا أقدم إجاباتى عن بعض الأسئلة الموجهة للقارئ فى بعض الحالات، ولا أقدمها فى حالات أخرى. وينبغى ألا تعتبر هذه الإجابات إجابات 'صحيحة'، إذ يقتصر الغرض من تقديمها على إتاحة شىء يمكن للقراء مقارنة إجاباتهم به، خصوصًا عند استخدام الكتاب خارج قاعات الدرس أو مناقشات المجموعات. ومن المحتمل أن تختلف إجابات القراء عن إجاباتى، ويجب ألا يعتبر هذا من دواعى الذعر بل ربما كان ظاهرة جديرة بالفحص فى ذاتها، فمن الجائز أن ترجع مثلًا إلى الاختلافات فى 'موارد الأعضاء' [أى الخبرة الشخصية] المستخدمة فى تفسير النص، وهكذا فإن أهميتها لأسلوب تفسير النص لا تقل عن أهمية النص نفسه. وأما الجانب الثانى للتوجه إلى التحليل فيتمثل فى إجراءات التحليل الواردة فى الفصلين الخامس والسادس (انظر أدناه).

وفيما يلى ملخص لمحتويات الفصول:

- **الفصول ٢ و٣ و٤** تقدم القاعدة النظرية لباقى الكتاب، إذ تعرض العلاقة بين اللغة والمجتمع، مع التركيز على السلطة والأيديولوجيا. وموجز موقفى هو أن اللغة ترتبط بالمجتمع بسبب كونها المجال الأولى للأيديولوجيا، ولأنها تمثل موقع الصراعات على السلطة، كما تضرب فيها بسهم وافر. فالفصل الثانى يقدم صورة عامة لموقع اللغة فى المجتمع، والفصلان الثالث والرابع يركزان على السلطة والأيديولوجيا، على الترتيب.

- **الفصلان ٥ و٦** يقدمان شكلًا منتظمًا لإجراءات التحليل النقدى. فالفصل الخامس يتناول وصف النصوص، والفصل السادس يركز على عمليتى إنتاج النص وتفسيره، وتحليل العوامل التى تتحكم فيه وضروب تأثيره. والفصل الثانى يتضمن التمييز بين هذه جميعًا.

- **الفصلان ٧ و٨** يستكشفان تغيير الخطاب فى علاقته بالتغيير الاجتماعى. فالفصل السابع يؤكد الطاقة الإبداعية الفردية وظروفها الاجتماعية. إلى جانب دراسة حالة حول الخطاب السياسى للمذهب الثاتشرى [أى نسبة إلى السيدة مارجريت

ثاتشر، رئيسة وزراء بريطانيا الراحلة، والمقصود المذهب اليمينى المتشدد] وهى التى أستخدمها فى التطبيق الموسع لهذه الإجراءات فى الفصلين ٥ و٦، ويتحول التركيز فى الفصل الثامن إلى الاتجاهات الواسعة النطاق فى الخطاب المعاصر فيما يتعلق باتجاهات التغيير الرئيسية فى المجتمع الرأسمالى المعاصر، متتبعًا إلى حد ما بعض ملامح النظرية الاجتماعية الحديثة (خصوصًا عند هابرماس وفوكوه).

- والفصل ٩ يركز على قضية تشغل الكتاب كله، ألا وهى: كيف يمكن للدراسة النقدية للغة أن تسهم فى الكفاح من أجل التحرر الاجتماعى، ويبين الفصل أيضًا كيف ينمى القراء اهتمامهم بالدراسة النقدية للغة.
- والفصل ١٠ يتناول الآثار المترتبة على 'العولمة' و'الليبرالية الجديدة' لمسألة اللغة والسلطة.

وهذه أخيرًا كلمة عن الأسلوب. لقد كتبت الكتاب بضمير المتكلم، ولم أشأ إخفاء آرائى وتفسيراتى الشخصية بالأسلوب 'غير الشخصى' التقليدى فى العمل الأكاديمى. ومارست العمل وقد رسمت للقارئ صورة تختلف عن صورة من أتوجه إليه بالحديث وحسب (وإن كنت أحيانًا أفعل ذلك!) بل باعتباره مشاركًا لى فى مغامرة 'تعاونية'. وهذا هو سبب لجوئى أحيانًا إلى استعمال ضمير الجمع (نحن) الذى يشير إلينا معًا، أنا والقارئ. ولكن استخدام هذا الضمير، كما أبين فى الفصل الخامس، قد يدل على 'التلاعب'، بمعنى الزعم بوجود تضامن زائف، على نحو ما يستخدمه رجل السياسة مثلًا لإقناع الجمهور أنه 'واحد منهم'. وأرجو ألا يشعر القراء أننى أُرغمهم على أن يكونوا شركاء لى، كما يفعل رجل السياسة، فمن الواضح أن بعض القراء لن يروا أنهم شركاء فى التحليل النقدى للغة، ولكن الأهداف العملية لهذا الكتاب جعلتنى أرى أنه من الأيسر لى أن أكتب على هذا النحو. ويرتبط هذا بمخاطرة عامة يواجهها من يكتبون عن الدراسة النقدية للغة: أى إن 'جهازهم النقدى' يمكن استعماله فى تحليل كتاباتهم، ويكاد يكون من المؤكد أن يحقق بعض النجاح، ما دام تأثير السلطة والأيديولوجيا فى اللغة ليس بديهيًا، وليس مما تستطيع بالضرورة الفرار منه فى حالات معينة بفضل وعيك به بصفة عامة.

المراجع:

عن الأيديولوجيا انظر ماكلين (1986) وايجيلتون (1991) وعن العلاقة بين الأيديولوجيا والسلطة واللغة انظر ج. ب. طومسون (1984). وكرامارای وآخرين (1984) مجموعة من الدراسات الخاصة باللغة والسلطة من منظور يختلف عن منظوری. والدراسات التالية تمثل شتى المداخل للدراسة اللغوية المشار إليها: رادفورد، آركنسون، بريتان، كلاهسن، وسپنسر (1999) (علم اللغة)؛ كوپلاند وياڤورسكی (1997) (علم اللغة الاجتماعی)؛ شيفرين (1994) (تحليل الخطاب)؛ آركنسون وهيرتيج (1984) (تحليل المحادثة). وأما وصف تحليل الخطاب باعتباره 'مبحثًا بينيًّا' جديدًا فهو من مقدمة المحرر لكتاب ڤان دييك (1988) (المجلد الأول). ودراسة ماى (1985) نموذج للتداولية الأوروبية؛ وكتابا هاليداى (1978) و(1994) يقدمان وصفًا لعلم اللغة المنهجی. وعن الآراء فی اللغة فی النظرية الاجتماعية الحديثة انظر ج. ب. طومسون (1984) وتشولياراكی وفيركلف (1999). وعن مذهب 'ما بعد الحداثة' انظر چيمسون (1984) وهارڤی (1990).

الفصل الثانى

الخطاب باعتباره ممارسة اجتماعية

يقدم هذا الفصل صورة عامة لموقع اللغة فى المجتمع، وهى التى تزداد تفصيلًا وتخصيصًا فى الفصول اللاحقة. وهو يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالفصلين الثالث والرابع اللذين يقدمان تفاصيل هذه الصورة من حيث العلاقة بين اللغة والسلطة، والعلاقة بين اللغة والأيديولوجيا، على الترتيب. وتقدم هذه الفصول الثلاثة مجتمعة العناصر الرئيسية للموقف الذى أتخذه فى هذا الكتاب بشأن موقع اللغة فى المجتمع: ألا وهو إن اللغة ترتبط ارتباطًا أساسيًّا بالسلطة وضروب الصراع على السلطة، وإن ارتباطها هذا يرجع إلى خصائصها الأيديولوجية.

- **اللغة والخطاب**: مفهوم اللغة الذى نحتاج إليه فى الدراسة النقدية للغة هو الخطاب، أى اللغة باعتبارها ممارسة اجتماعية تتحكم فيها الأبنية الاجتماعية.
- **الخطاب ونظم الخطاب**: الخطاب الفعلى تتحكم فيه نظم الخطاب التى يشكلها المجتمع، وهى مجموعات من الأعراف المرتبطة بالمؤسسات الاجتماعية.
- **الطبقة والسلطة فى المجتمع الرأسمالى**: تتشكل نظم الخطاب أيديولوجيًّا من خلال علاقات السلطة فى المؤسسات الاجتماعية والمجتمع بصفة عامة.
- **جدلية الهياكل والممارسات**: للخطاب آثار فى الهياكل الاجتماعية، وهو يتأثر بها أيضًا، ومن ثم فهو يسهم فى الاستمرار الاجتماعى والتحولات الاجتماعية.

مثال

كما قلت آنفًا، سوف يناقش هذا الفصل اللغة والمجتمع بصورة عامة نسبيًّا، وهى التى سوف تتجه إلى التخصيص فى الفصول اللاحقة. وهو لا يتيح ضرب الأمثلة النصية الإيضاحية بالسهولة التى يتيحها الفصلان الثالث والرابع، ومن ثم فربما يكون

من المفيد تقديم مثال عملى يمكن استخدامه لإيضاح بعض الأفكار الرئيسية، ونستطيع الإحالة إليه أيضًا فيما بعد فى هذا الفصل.

والنص جزء من مقابلة شخصية فى مخفر شرطة بين شاهدة على حادثة سطو مسلح (ش) ورجل شرطة (ط) ويجرى فيه الحصول على معلومات أساسية. والشاهدة (ش) التى يبدو عليها الاضطراب بسبب هذه التجربة، تتعرض لأسئلة متوالية عما حدث، ورجل الشرطة يسجل المعلومات التى يحصل عليها كتابة:

(١) ط: هل رأيت الذى كان فى السيارة؟

(٢) ش: رأيت وجهه، نعم.

(٣) ط: وما كان عمره؟

(٤) ش: نحو ٤٥. كان يرتدى...

(٥) ط: وما كان طوله؟

(٦) ش: ست أقدام وبوصة.

(٧) ط: ست أقدام وبوصة. وشعره؟

(٨) ش: أسود ومجعد. هل تطول هذه المقابلة؟ لابد أن أحضر الأطفال من المدرسة.

(٩) ط: لن تطول كثيرًا، لا. وما شأن ملابسه؟

(١٠)ش: كان يبدو أشعث بعض الشىء، ويرتدى سروالًا أزرق، وكذلك...

(١١) ط: جينز؟

(١٢) ش: نعم.

كيف تصف العلاقة بين رجل الشرطة الذى يلقى الأسئلة والشاهدة فى هذه الحالة، وكيف يعبر عنها الكلام المنطوق؟

العلاقة غير متكافئة، فرجل الشرطة الذى يجرى المقابلة يتحكم فى مسارها وفى إسهام الشاهدة فيها، ولا يكلف نفسه مشقة تخفيف ما يطلبه منها. وهكذا فإن الأسئلة التى قد تتسبب فى إيلام امرأة شاهدت لتوها وقوع جريمة تتسم بالعنف، لا تُقَدَّمُ قط فى صورة

مخففة. فسؤال رجل الشرطة فى السطر (١) مثلًا كان يمكن أن يتخذ صورة مخففة، كأن يكون على النحو التالى: تُرى أتيحت لك الفرصة لإلقاء نظرة على من كان فى السيارة؟ بدلاً من الشكل المباشر الذى اتخذه السؤال فعلًا. وفى بعض الأحيان يختزل السؤال فى كلمة واحدة أو فى عبارة موجزة: ما كان طوله؟ (٥) وشعره؟ (٧) ومثل هذه الأسئلة المختزلة معتادة عندما يقوم شخص بتعبئة استمارة لشخص آخر، مثلما يفعل (ط) هنا، والطريف أن الطبيعة الحساسة للموقف لا تنجح فى التغلب على أسلوب ملء الاستمارات. ومن الملاحظ أيضًا أن رجل الشرطة لا يبدى التقدير، ناهيك بالشكر على المعلومات المقدمة من الشاهدة. ومن المعالم الأخرى للمقابلة أن رجل الشرطة يتحقق مما تقوله (ش) فى (٧). وأخيرًا لاحظ كيف يُمارس التحكم فى مساهمات الشاهدة، فرجل الشرطة يقاطعها فى (٥) وفى (١١)، وأما فى (٩) فإنه يقدم الحد الأدنى من المعلومات لسؤال الشاهدة عن مدى طول المقابلة، إذ لا يقر بمشكلتها ويطرح على الفور سؤالاً آخر ينهى به استجواب الشاهدة.

فهل نكون على حق إذا قلنا إن هذه الخصائص تعسفية؟ إنها تعتبر كذلك من زاوية معينة لأنها يمكن أن تكون مختلفة. ولكنها من زاوية أخرى أبعد ما تكون عن هذه الصفة، إذ إنها خاصة بالأحوال الاجتماعية، وبصفة أخص بطبيعة العلاقة بين الشرطة وأفراد 'الجمهور' فى مجتمعنا، بل وهى تمثل حقًّا جزءًا من تلك العلاقة. فلو أن تلك العلاقة تعرضت لتحولات كبيرة، أى إذا كان بعض أفراد المجتمعات المحلية يُنتخبون للعمل بالشرطة لمدة ثلاث سنوات قابلة للتجديد مثلًا، فلنا أن نثق تمامًا فى تغيير الخطاب ما بين الشرطة و'الجمهور' أيضًا. وهذا المثال يوضح جانبًا رئيسيًّا من جوانب الحجة التى يسوقها هذا الفصل، ألا وهو إن الأحوال الاجتماعية تحدد خصائص الخطاب.

ومن الجوانب الأخرى أننا يجب أن نهتم بعمليات إنتاج النصوص وتفسيرها، وأن نعرف كيف تتشكل هذه العمليات المعرفية اجتماعيًّا وفى علاقتها بالأعراف الاجتماعية، لا بعلاقتها بالنصوص فى ذاتها. وانظر مثلًا كيف تفسر الشاهدة عدم إظهار رجل الشرطة أدنى تقدير للمعلومات التى قدمتها. وإذا حدث شىء مماثل فى مناقشة ودية فسوف يدرك المشاركون غياب التقدير ويرونه مشكلة، وربما اعتبروه دليلًا على التكذيب أو الحرج، وللمرء أن يتوقع أن يتجلى طابعها 'الإشكالى' فى بعض المظاهر

الصورية (مثل 'الصمت الحرج' أو علامات التردد). وأظن أن التقدير غير متوقع عمومًا فى المقابلة الشرطية، ومن ثم فإن غيابه لن يعتبر مشكلة لأى فرد يشعر بتناغمه مع أمثال هذه المقابلات. ولكن ذلك، فيما يبدو، لا ينطبق على حالة الشاهدة. والمثال يبين أن تفسير الناس لمعالم النص يعتمد على الأعراف الاجتماعية – أو بدقة أكبر الأعراف الخاصة بالخطاب – التى يفترض التزامهم بها.

وأخيرًا سوف ألقى الضوء فى هذا الفصل لا على التحكم فى استخدام اللغة وحسب، بل أيضًا على تحكم اللغة فى المجتمع. وهكذا، مثلًا، يريد المرء أن يعرف مدى السلبية التى تتسم بها المواقع الخاصة بأفراد الجمهور فى هذه المرتبة من مراتب خطاب العمل الشرطى. وفى المثال الذى سبق نرى أن الشاهدة تبدو حقًا شاهدة ذات انصياع كامل [لمرتبة الخطاب المذكورة]. وهكذا فإذا كان انصاع الفرد لموقعه فى هذه المرتبة، فسوف تقوم اللغة بالحفاظ على العلاقات الاجتماعية التى تحدده. وعلى العكس من ذلك، إذ قاوم الفرد أو طعن فى الأعراف السائدة، أصبح من الممكن للغة أن تسهم فى تغيير العلاقات الاجتماعية.

حاول أن تتذكر حالات يمكن تفسير معالم الخطاب فيها تفسيرات مختلفة استنادًا إلى نوع الأعراف الاجتماعية التى يستخدمها الناس، مثل تفسير الشاهدة لعدم تقدير دورها فى المثال السابق. هل يستطيع الناس مقاومة مجموعة معينة من الأعراف بالإصرار على تفسير معالم الخطاب وفقًا لمجموعة أخرى منها؟ حاول أن تعيد كتابة النص المقتطف أعلاه بعد جعل الشاهدة فى موقف مقاومة للأعراف التى يستخدمها رجل الشرطة، خصوصًا فيما يتعلق بغياب التقدير.

اللغة والخطاب

يتناول هذا القسم الحجة التى تقول إن الدراسة النقدية للغة ترى أن مفهوم اللغة الذى نحتاج إليه هو مفهوم الخطاب، أى اللغة باعتبارها شكلًا من أشكال الممارسة الاجتماعية. ولقد استخدم مصطلح اللغة فى عدد من المعانى المختلفة، ومن بينها المعنيان اللذان استقر علماء اللغة على التمييز بينهما وهما اللغة (*langue*) والكلام (*parole*) (على نحو ما ذكر فى الفصل الأول). وليس أى من هذين معادلًا للخطاب،

وإن كانت مناقشتها قد تفيد فى إيضاح بعض المفاهيم المختلفة للغة، وكيف يختلف الخطاب عن المفاهيم الأخر.

اللغة والكلام

اشتهر التمييز بين اللغة والكلام بسبب العمل الذى قام به عالم اللغة السويسرى فرديناند دى سوسير، وسوف أقتصر على الإشارة إلى الصورة التى اتخذها تفسير سوسير بصفة عامة، إذ إن أفكاره أقل وضوحًا وأقل بساطة مما قد يفهم من قولى هذا، وذلك، إلى حد ما، لأن النسخ المنشورة لكتاباته قد جمعها أفراد غيره ونشروها بعد وفاته.

كان سوسير يعتبر اللغة (*langue*) نظامًا أو شفرة تسبق الاستخدام الفعلى للغة، وهى موحدة بين جميع أفراد الجماعة اللغوية، وتمثل الجانب الاجتماعى للغة فى مقابل الكلام (*parole*) الذى يعتبر فرديًّا. وكان سوسير يرى أن الكلام المنطوق أو المكتوب فعلًا، تتحكم فيه الخيارات الفردية فقط، ولا يتحكم فيه المجتمع على الإطلاق. وهكذا فإن علم اللغة، فى نظر سوسير، يهتم فى المقام الأول باللغة (*langue*) لا بالكلام (*parole*).

ويتميز استخدام اللغة (أى الكلام)، حسبما كان سوسير يدرك، بتنوع لغوى واسع النطاق، وكان وصف هذا التنوع الذى قدمه علم اللغة الاجتماعى الحديث هو الذى أسهم أكثر من غيره فى تقويض المفهوم السوسيرى للكلام، إذ أظهر علم اللغة الاجتماعى أن هذا التنوع ليس نتيجة الخيارات الفردية كما كان سوسير يتصور، بل نتيجة لمظاهر الاختلاف الاجتماعى، بمعنى أن اللغة تتنوع طبقًا للهويات الاجتماعية للأشخاص أثناء تفاعلهم مع بعضهم البعض، ولأغراضهم التى يحددها المجتمع، وأطرهم الاجتماعية، وما إلى هذا بسبيل. وهكذا فإن الفكرة الفردية عن الكلام التى أتى بها سوسير غير مُرْضية، واختيارى لمصطلح الخطاب ينم قبل كل شىء على التزامى بالرأى القائل بأن استخدام اللغة يتحكم فيه المجتمع.

ولكن ما شأن اللغة (*langue*)؟ كان سوسير يفهم اللغة (*langue*) باعتبارها شيئًا موحدًا متجانسًا فى شتى أرجاء المجتمع. ولكن هل توجد حقًّا لغة موحدة متجانسة؟ لا شك أن كثيرًا من الناس يتكلمون ويتصرفون كأنما توجد هذه اللغة، ونحن نألف جميعًا الحديث عن 'اللغة الإنجليزية'، أو 'الإنجليزية' وحسب، إلى جانب وجود جيش من المتخصصين فى 'اللغة الإنجليزية'، الذين يحاضرون عن 'اللغة الإنجليزية'، ويكتبون الكتب عن النحو ويضعون المعاجم 'للغة الإنجليزية'، وهو ما يصدق على اللغات الأخرى، 'الألمانية' و'الروسية' و'الفرنسية' وهلم جرًّا.

والتعريف الفكه للغة يقول إنها 'لهجة ذات جيش وأسطول'، ولكن هذه الفكاهة تخفى دلالة باطنة جادة. إذ إن الجيوش والأساطيل الحديثة من معالم 'الأمة الدولة'، وقس على ذلك التوحيد اللغوى، أو 'إضفاء الطابع المعيارى' على اللغة فى أراض شاسعة محددة سياسيًّا، وهو الذى يجعل للحديث عن 'الإنجليزية' أو 'الألمانية' معنى ما. فعندما يتكلم الناس عن اللغة الإنجليزية فى بريطانيا مثلًا فإنهم يقصدون الإنجليزية البريطانية المعيارية، أى الضرب الموحد المعيارى للإنجليزية البريطانية. وانتشار هذا الضرب فى جميع المجالات العامة المهمة، ومنزلتها الرفيعة بين معظم أفراد الشعب، من ثمار التوحيد المعيارى (انظر الفصل ٣) باعتبار ذلك جزءًا من توحيد بريطانيا الحديثة اقتصاديًّا وسياسيًّا وثقافيًا. ومن هذا المنظور، تبدو 'الإنجليزية' وغيرها من 'اللغات' من ثمار الأحوال الاجتماعية الخاصة بحقبة تاريخية محددة.

ولكن فكرة اللغة (*langue*) عند سوسير لا تتسم بخصوصية تاريخية، إذ توحى كتابته بأنه يرى أن لكل جماعة لغوية، مهما تكن ظروفها التاريخية، لغتها (*langue*)، كما كان يرى أن امتلاك هذه اللغة (*langue*) شرط لامتلاك اللغة بمفهومها العام. أضف إلى ذلك افتراض سوسير أن جميع أفراد الجماعة اللغوية متساوون فى معرفة لغتها وإتقانها، والواقع يقول بعكس ذلك، أى بالتفاوت فى معرفة اللغات المعيارية وإتقانها.

والظاهرة البارزة فى الفكرة السوسيرية عن اللغة (*langue*)، وفى الاستخدامات المناظرة للغة (*language*) عند علماء اللغة الناطقين بالإنجليزية، هى تشابهها مع بعض

الأقوال الخاصة بالتوحيد المعيارى. أى إن الانتشار الحقيقى لنوع معيارى لِلُغَةٍ ما بين سُكَّانِ بلد ما وفى مجالاتٍ استخدام هذا النوع يعتبر جانبًا من جوانب التوحيد المعيارى، وهو يختلف عن المزاعم الطنانة الخاصة بذلك النوع المعيارى، أى الزعم بأنه لغة الشعب كله، وأن كل شخص يستخدمه، وأن كل شخص يُجِلُّه وهلم جرًّا. ومفاد هذه المزاعم تحويل اللغات المعيارية إلى لغات قومية أسطورية. ومن المعروف أن أحد الشروط السياسية اللازمة لإنشاء دولة أمة وبقائها يتمثل فى أن تحظى المؤسسات التى تُوَحِّدُها بالشرعية فى أعين جماهير الشعب، وكثيرًا ما يتطلب الظفر بالشرعية استعمال هذه المزاعم الطنانة. وأنا لا أقول إن سوسير واللغويين الآخرين كانوا يتعمدون إعادة إحياء أسطورة ذات دوافع سياسية فى نظريتهم اللغوية، ولكن: هل كان من قبيل المصادفة أن ظهرت فكرة اللغة (*langue*) فى الفترة التى بلغت أسطورة 'اللغة القومية' فيها ذروتها، أى مطلع القرن العشرين؟

فلأربط الآن بين هذا وبين القرار الذى اتخذته بالتركيز على الخطاب. لن أقبل التركيز السوسيرى على اللغة فى مقابل استعمال اللغة، ولن أقبل من ناحية أخرى الطابع الفردى لاستعمال اللغة الذى يوحى به مصطلح الكلام (*parole*). بل أقول إن التركيز لابد أن يكون على استعمال اللغة، بشرط أن ندرك أنه خاضع للمجتمع، ومن ثم يتفق مفهومه مع ما أسميه الخطاب. ولكن جانبًا من جوانب التمييز السوسيرى بين اللغة والكلام (*langue/parole*) ذو طابع عام ويشير إلى التمييز بين الأعراف الاجتماعية الباطنة والاستخدام الفعلى للغة، وهذا تمييز أوافق عليه، ولو بصورة مختلفة (انظر القسم التالى). ومع ذلك فلا أفترض (مثلما تفترض اللغة *langue*) أن الأعراف موحدة متجانسة، بل أرى أنها، على العكس من ذلك، تتسم بالتنوع وبالصراع على السلطة. وأما تحقيق التجانس – وهو الذى يوجد إلى حد ما فى حالة التوحيد المعيارى – فإن الذين يمسكون بزمام السلطة يفرضونه فرضًا. وانظر الفصل ٣ حيث العرض التفصيلى لهذا الرأى.

شرحت النظر إلى اللغة من وجهة نظر الخطاب بعبارة "اللغة باعتبارها شكلًا من أشكال الممارسة الاجتماعية"، فما المعنى الدقيق الذى تحمله هذه العبارة؟ أولًا إن اللغة جزء من المجتمع وليست خارجة عنه بصورة ما. وثانيًا إن اللغة عملية اجتماعية. وثالثًا إن اللغة عملية يتحكم فيها المجتمع، أى إنها تخضع لتحكم جوانب أخرى (غير لغوية) فى المجتمع. وسوف أناقش هذه جميعًا بالترتيب.

ليس من النادر أن تتضمن الكتب الدراسية عن اللغة أبوابًا عن العلاقة 'بين' اللغة والمجتمع، كأنما كان هذان كيانين مستقلين يتصادف أن يتصلا فى بعض الحالات. وأنا أرى أنه لا توجد علاقة خارجية 'بين' اللغة والمجتمع بل علاقة داخلية وجدلية. فاللغة جزء من المجتمع، والظواهر اللغوية ظواهر اجتماعية فعلًا، وإن تكن من نوع خاص، والظواهر الاجتماعة ظواهر لغوية (إلى حد ما).

فأما الظواهر اللغوية فهى اجتماعية بمعنى أنه حيثما تكلم الناس أو أنصتوا أو كتبوا أو قرؤوا، فإنما يفعلون ذلك بطرائق يحددها المجتمع ولها آثار اجتماعية. وحتى حين يصل وعى الناس بفرديتهم إلى ذروته ويتصورون أنهم برئوا إلى أقصى حد من الآثار الاجتماعية – "فى أحضان الأسرة" على سبيل المثال – فإنهم يستخدمون اللغة أيضًا بطرائق تخضع للأعراف الاجتماعية. كما إن الطرائق التى يستخدم الناس اللغة بها فى أشد لقاءاتهم خصوصية وحميمية لا تقتصر على الخضوع للعلاقات الاجتماعية التى تحدد صبغتها الاجتماعية بل إن لها أيضًا آثارًا اجتماعية بمعنى الحفاظ على هذه العلاقات (أو فى الواقع تغييرها).

والظواهر الاجتماعية لغوية، من ناحية أخرى، بمعنى أن النشاط اللغوى الذى يجرى فى السياقات الاجتماعية (شأن جميع ألوان النشاط اللغوى) ليس مجرد انعكاس أو تعبير عن العمليات والممارسات الاجتماعية، بل إنه يمثل جزءًا من هذه العمليات والممارسات. فالمنازعات حول معنى بعض العبارات السياسية مثلًا من الجوانب الثابتة المألوفة فى السياسة. فالناس أحيانًا يتجادلون صراحة حول معانى بعض الألفاظ مثل

الديموقراطية، أو التأميم، أو الإمبريالية، أو الاشتراكية، أو التحرر، أو الإرهاب. وكثيرًا ما يستخدمون الألفاظ فى معان بارزة الاختلاف والتضاد إلى حد ما، وما أيسر العثور على نماذج ذلك فى المناقشات بين زعماء الأحزاب السياسية، أو قل بين الاتحاد السوفييتى السابق والولايات المتحدة الأمريكية. وتعتبر هذه المنازعات أحيانًا مجرد مقدمات أو فروع شجرت من العمليات والممارسات الفعلية للسياسة. ولكننى أقول إنها ليست كذلك، بل إنها فى ذاتها سياسة، إذ يتمثل جانب من السياسة فى المنازعات والصراعات التى تحدث داخل اللغة وحول اللغة.

ولكن المسألة ليست مسألة علاقة متناظرة 'بين' اللغة والمجتمع باعتبارهما وجهين متكافئين لكيان كلى واحد. فأما الكيان الكلى فهو المجتمع، واللغة عنصر من عناصره. وإذا كانت جميع الظواهر اللغوية اجتماعية، فليست جميع الظواهر الاجتماعية لغوية، وذلك على الرغم من وجود عنصر لغوى كبير عادة، وإن كان كثيرًا ما لا يلقى التقدير الصحيح، حتى فى الظواهر الاجتماعية التى تقتصر على كونها لغوية محضة (مثل الإنتاج الاقتصادى).

فلنتناول الآن النتيجة الثانية المترتبة على اعتبار اللغة ممارسة اجتماعية، والتى تقول إن اللغة عملية اجتماعية، وليتمثل مدخلنا فيما يميز الخطاب عن النص، إذ سوف أتوسع فى استخدام مصطلح النص، وسوف أستخدمه بالدلالة التى يستخدمه بها عالم اللغة مايكل هاليداى، أى بحيث يشمل النصوص المكتوبة و'النصوص المنطوقة'، وما النص المنطوق إلا ما يقال فى قطعة من الخطاب المنطوق، ولكننى سوف أستخدم المصطلح بصفة عامة للإشارة إلى النسخة المكتوبة للكلام المنطوق.

والنص مُنْتَجٌ لا عملية، فهو منتج لعملية إنتاج النص. ولكننى سوف أستعمل مصطلح الخطاب فى الإشارة إلى عملية التفاعل الاجتماعى برمتها، التى لا يمثل النص إلا جزءًا منها. وهذه العملية تتضمن، إلى جانب النص، عملية الإنتاج، التى يعتبر النص من نواتجها، وعملية التفسير التى يعتبر النص من مواردها. ومن ثم فإن تحليل النص لا يمثل إلا جزءًا من تحليل الخطاب، الذى يتضمن أيضًا عمليتى الإنتاج

والتفسير. ويمكن النظر إلى الخصائص الشكلية للنص من منظور تحليل الخطاب من ناحية، باعتبارها من آثار عملية الإنتاج، ومن ناحية أخرى باعتبارها مفاتيح فى عملية التفسير. ومن الخصائص المهمة لعمليتى الإنتاج والتفسير اشتمالها على التفاعل بين خصائص النص ونطاق واسع مما أشرت إليه فى الفصل الأول بمصطلح 'موارد الأعضاء'، وهى ما يحمله الناس فى رؤوسهم وينهلون منه عندما ينتجون أو يفسرون النصوص، ومن بينها معرفتهم باللغة، والصور التى تمثل العالمين الطبيعى والاجتماعى اللذين يعيشون فيهما والقيم والمعتقدات والافتراضات وما إليها بسبيل.

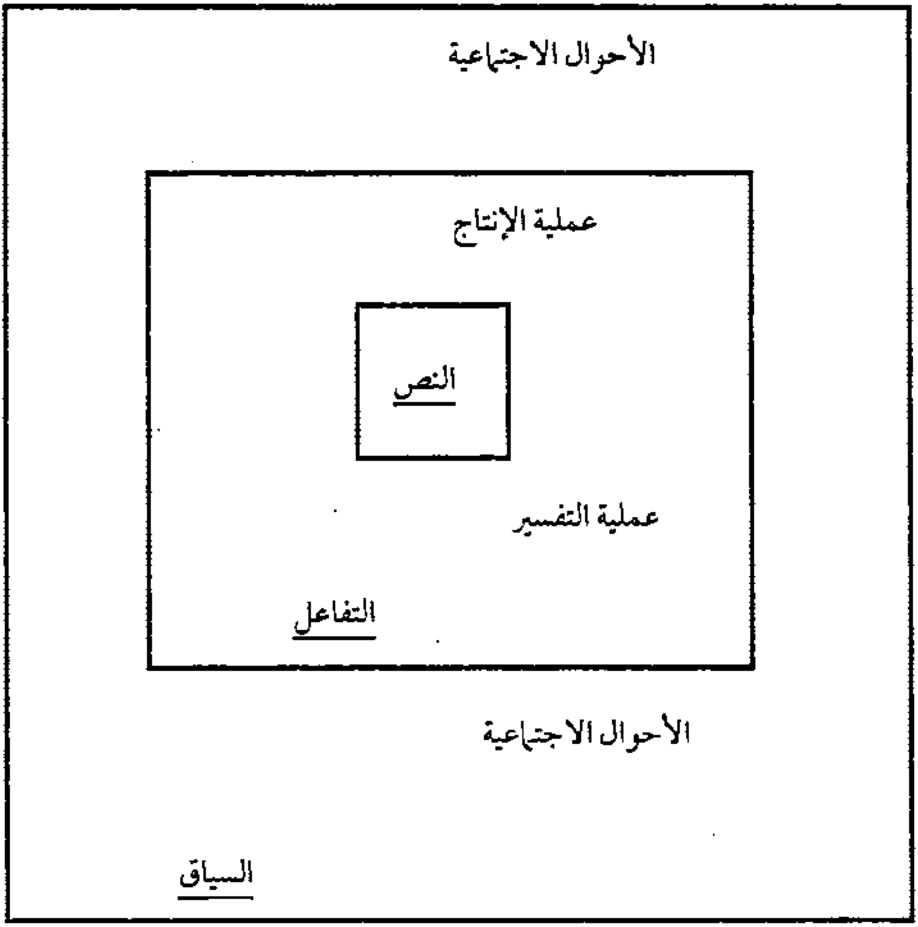
ولكن وصف عمليتى الإنتاج والتفسير لا يكتمل إلا إذا تضمن خضوعهما للتحكم الاجتماعى، وهو ما يأتى بنا إلى النتيجة الثالثة المترتبة على النظر إلى اللغة باعتبارها ممارسة اجتماعية، أى إنها تخضع لتحكم جوانب اجتماعية أخرى غير لغوية. 'فموارد الأعضاء' التى ينهل منها الأفراد حتى يتمكنوا من إنتاج النصوص وتفسيرها موارد معرفية بمعنى أنها توجد فى رؤوسهم، ولكنها اجتماعية بمعنى أن لها أصولًا اجتماعية، فهى وليدة المجتمع، وطبيعتها تعتمد على العلاقات والصراعات الاجتماعية التى وَلَّدَتْها، كما إن طرائق انتقالها جماعية، وتتسم فى مجتمعنا بالتفاوت فى توزيعها. والناس يستوعبون ويتمثلون ما أنتجه المجتمع وأتاحه لهم، ويستخدمون هذه 'الموارد' المستوعبة فى ممارساتهم الاجتماعية، ومن بينها الخطاب. وهذا يتيح للقوى التى تشكل المجتمعات موقعًا ذا أهمية حيوية داخل نفس الفرد، ولكن فاعلية هذا الموقع، كما سوف نرى، تعتمد على كونه غير ظاهر بصفة عامة. أضف إلى ذلك أن التحكم الاجتماعى لا يقتصر على طبيعة هذه الموارد المعرفية، ولكنه يسرى أيضًا على أحوال استخدامها، فعلى سبيل المثال، نجد أن الاستراتيجيات المعرفية المتوقعة فى إطار الأعراف تختلف عندما يقرأ المرء قصيدة عنها عندما يقرأ إعلانًا فى إحدى المجلات. ومن المهم أن نحسب حساب أمثال هذه الاختلافات عند تحليل الخطاب من منظور نقدى.

وإذن فإن الخطاب يتضمن الأحوال الاجتماعية، ويمكن تحديدها بالتمييز بين **الأحوال الاجتماعية للإنتاج** وبين **الأحوال الاجتماعية للتفسير**. ويضاف إلى ذلك أن هذه الأحوال الاجتماعية يمكن أن تُعزى إلى ثلاثة مستويات مختلفة من التنظيم الاجتماعي، أولها مستوى الحالة الاجتماعية، أو البيئة الاجتماعية المباشرة التى يقع فيها الخطاب؛ وثانيها هو مستوى المؤسسة الاجتماعية التى تشكل الإطار الأوسع للخطاب؛ وثالثها مستوى المجتمع كله. والذى أقوله، باختصار، هو إن هذه الأحوال الاجتماعية تشكل 'الموارد' التى ينهل منها الناس فى الإنتاج والتفسير، وإنها، بدورها، تشكل الطريقة التى ينتجون بها النصوص ويفسرونها. (انظر الشكل ٢-١).

وهكذا فعندما يرى المرء اللغة باعتبارها خطابًا وممارسة اجتماعية، فإنه يلتزم لا بتحليل النصوص وحسب، ولا بتحليل عمليتى الإنتاج والتفسير وحسب، بل بتحليل العلاقة بين النصوص والعمليتين وأحوالهما الاجتماعية، أى الأحوال المباشرة الخاصة بسياق الحال وكذلك الأحوال البعيدة الخاصة بالهياكل الاجتماعية والمؤسسية. أو، إذا استخدمنا الكلمات المطبوعة بالبنط الثقيل فى الشكل ٢-١، العلاقة بين **النصوص والتفاعل والسياقات**.

وبالتوازى مع هذه الأبعاد الثلاثة للخطاب، سوف أميز بين ثلاثة أبعاد أو ثلاث مراحل للتحليل النقدى للخطاب وهى:

- **الوصف**: وهو يمثل المرحلة الخاصة بالخصائص الشكلية للنص.
- **التفسير**: وهو يختص بالعلاقة بين النص والتفاعل، أى بالنظر إلى النص باعتباره عملية إنتاج، وباعتباره موردًا فى عملية التفسير؛ ولاحظ أننى أستخدم مصطلح التفسير فى الإشارة إلى العملية التفاعلية وباعتباره مرحلة من مراحل التحليل، لأسباب أبينها فى الفصل السادس.



الشكل ٢ – ١ الخطاب باعتباره النص والتفاعل والسياق

- الشرح: وهو يختص بالعلاقة بين التفاعل والسياق الاجتماعى، أى بالتحكم الاجتماعى فى عمليتى الإنتاج والتفسير وآثارهما الاجتماعية.

وسوف أناقش هذه المراحل الثلاث بالتفصيل فى إطار الإجراءات الخاصة بالتحليل النقدى للخطاب فى الفصلين الخامس والسادس.

ونستطيع أن نشير إلى ما يجرى فى كل مرحلة من هذه المراحل بمصطلح 'التحليل'، ولكننا يجب أن نذكر أن طبيعة التحليل تتغير عندما ننتقل من إحدى

المراحل إلى سواها. وأقول بصفة خاصة إن التحليل فى مرحلة الوصف يختلف عن التحليل فى مرحلتى التفسير والشرح. ففى حالة الوصف، عادة ما يعتبر التحليل قضية تحديد و'توصيف' الملامح الشكلية للنص من حيث فئات الإطار الوصفى، وهكذا فإن 'موضوع' الوصف، أى النص، كثيرًا ما يُرى أنه قائم من دون إشكاليات. ولكن هذا القول خادع، كما يبين ذلك الخطاب المنطوق خير بيان، إذ على المرء أن ينتج 'نصًا ما' بكتابة الكلام الملفوظ، ولكن طرائق هذه الكتابة متعددة مهما يكن طول الكلام المنطوق، ولا مندوحة عن تأثير تفسير النص فى الأسلوب الذى يكتبه المرء به.

وأما عندما ننتقل إلى مرحلتى التفسير والشرح، فلا يمكن النظر إلى التحليل باعتباره تطبيقًا لإجراءات معينة على 'شيء ما'، حتى ولو وضعنا المحاذير الخاصة باعتباره 'شيئًا'. فالذى يحلله المرء هنا أقل تحديدًا. ففى حالة التفسير نجد أنه يتمثل فى العمليات المعرفية للمشاركين، وفى حالة الشرح يصبح العلاقات بين الأحداث الاجتماعية العابرة (أى التفاعلات)، والهياكل الاجتماعية الثابتة التى تشكل هذه الأحداث وتتشكل من خلالها. وفى الحالتين يكون على المحلل أن يقدم تفسيرات (بالمعنى الواسع) لعلاقات معقدة خفية.

وعلى الرغم من أننى سوف أستخدم، من باب التيسير، فكرة للوصف تتفق مع الاتجاه المشار إليه عاليه، فلابد أن أقول إن الوصف يعتمد، فى نهاية المطاف، على 'تفسير' المحلل بمعناه الواسع الذى استخدمتُ المصطلح فيه لتوى، مثلما تعتمد كتابة الكلام عليه تمامًا. فالذى يراه المرء فى النص، وما يعتبره جديرًا بالكتابة، وما يختار أن يؤكده فى الوصف، أمور تعتمد جميعًا على كيفية تفسير النص. إذ يوجد اتجاه وضعى (انظر الفصل الأول حيث يرد هذا المصطلح) يَعْتبر النصوصَ اللغوية 'أشياء' ذوات خصائص شكلية يمكن وصفها وصفًا آليًا من دون تفسير. ولكن المحللين لن يستطيعوا أن يمنعوا أنفسهم (مهما حاولوا) من الاشتباك مع النواتج الإنسانية بأسلوب إنسانى، أى – من ثم – بأسلوب تفسيرى.

على الرغم من أن التركيز فى هذا الكتاب سوف يَنْصَبُّ أساسًا على الخطاب الذى يتضمن نصوصًا لفظية، فإن التناول الطبيعى يقضى بألا نتصور أن الخطاب مقصور على الألفاظ. وحتى حين تكون النصوص لفظية فى جوهرها (وأنا أقصد النصوص المنطوقة هنا خصوصًا) فإن نسيج الحديث تتداخل فيه خطوط الإيماءات، والتعبير على الوجه، والحركة، ووضع الجسم أثناء الكلام، إلى الحد الذى يتعذر معه فهمه فهمًا صحيحًا إلا بأخذ هذه 'الإضافات' فى الاعتبار. ولنطلق عليها مجتمعة صفة المظاهر البصرية، استنادًا إلى أن المفسرين يدركونها جميعًا بأبصارهم. والمظاهر البصرية يمكن أن تصاحب الحديث وتساعد عى تحديد معناه، وانظر مثلا كيف أن الابتسامة المتكلفة يمكن أن تحول السؤال ذا المظهر البرئ إلى سخرية مريرة. أو قد تكون المظاهر البصرية بديلًا مقبولًا تمامًا عن الكلام، فالإيماء بالرأس وهز الأكتاف قد ينوبان عن التعبير عن كلمات مثل 'نعم' و'لا' و'لا أدرى'، وهى أمثلة واضحة.

وأما حين نتصدى للمادة المكتوبة، أو المطبوعة، أو الواردة فى فيلم سينمائى أو برنامج تليفزيونى فإن أهمية المظاهر البصرية أوضح كثيرًا من ذلك. والواقع أن الأحداث قد تجاوزت التعارض التقليدى بين اللغة المنطوقة والمكتوبة، وإذا شئنا مصطلحات ذات نفع أكبر فى المجتمع الحديث قلنا إن اللغة البصرية هى التى غدت تعارض اللغة المنطوقة. فمن المشهور مثلاً أن الصورة الفوتوغرافية تتمتع بأهمية التقرير اللفظى فى تقديم 'رسالة' خبر من الأخبار فى الصحيفة، وكثيرًا ما تعمل الوسائل البصرية مع الوسائل اللفظية بأسلوب يجعلهما يدعمان بعضهما بعضًا إلى الحد الذى يتعذر معه الفصل بينهما. أضف إلى ذلك أن الأهمية الاجتماعية النسبية للصور البصرية تزداد بصورة مثيرة، ويكفى أن تذكر إلى أى حد يستغل الإعلان الوسائل البصرية، وهو نوع من أنواع الخطاب الحديث الذى يتسم بالشعبية الجارفة والانتشار الشديد. ولهذه الأسباب مجتمعة سوف أتوسع فى معانى الخطاب والنص ولا أحصرها حصرًا يقيدها،

وإن كان تركيزى، كما قلت يَنْصَبُّ فى المقام الأول على العنصر اللفظى، إذ سوف تظهر الوسائل البصرية فى شتى أرجاء الفصول التالية.

الخطاب ونظم الخطاب

ينظر هذا القسم فى جانب من جوانب الأحوال الاجتماعية للخطاب وكيف تتحكم الهياكل الاجتماعية فيه، أى كيف يخضع الخطاب الفعلى لأعراف الخطاب الكامنة [فى المجتمع]. وأرى أن هذه الأعراف تنتظم فى مجموعات أو شبكات أطلق عليها **نظم الخطاب** وهو المصطلح الذى استخدمه ميشيل فوكوه. وإلى جانب ذلك، فإن هذه الأعراف ونظم الخطاب تجسد أيديولوجيات معينة.

ويتمتع مصطلحا **الخطاب** و**الممارسة** هنا بما يمكن أن نسميه 'الغموض اللائق'، إذ يمكن أن يشيرا إلى ما يفعله الناس فى مناسبة معينة، أو ما يفعله الناس عادة حين تحين مناسبة من نوع معين. أى إن المصطلحين يمكن أن يشيرا إما إلى فعل أو إلى أحد الأعراف. والغموض لائق هنا لأنه يساعد على تأكيد الطابع الاجتماعى للخطاب والممارسة، من خلال الدلالة على أن الحالة الفردية دائمًا ما تضمر أعرافًا اجتماعية، فأى خطاب أو ممارسة يعنى ضمنًا وجود أنماط عرفية للخطاب أو الممارسة. والغموض يشير أيضًا إلى وجود شروط مسبقة للفعل الذى يقوم به أشخاص بصفتهم الفردية، إذ لا يستطيع الفرد أن يعمل إلا إذا توافرت الأعراف الاجتماعية التى يمكنه أن يعمل فى إطارها. ويتمثل جزء من المعنى المضمر لفكرة الممارسة الاجتماعية فى أن الناس يتمتعون بالقدرة [على الفعل] بفضل القيود التى يتعرضون لها، أى إنهم يستطيعون القيام بفعل ما بشرط أن يفعلوا ما يفعلونه فى إطار قيود أنماط الممارسة، أو الخطاب. ولكن هذا القول يجعل الممارسة الاجتماعية تبدو خاضعة لقيود أشد مما تخضع له فى الواقع، وسوف أسوق الحجة فى القسم الأخير من هذا الفصل على أن الالتزام بالقيود الاجتماعية لا يمنع المرء من أن يكون خلاَّقًا.

وسوف أستخدم مصطلح الخطاب للإشارة إلى 'الفعل الخِطابى' (discoursal action)، أى إلى الحديث الفعلى أو الكتابة الفعلية، وأستخدم مصطلح الممارسة بطريق موازية. إذ يمكن أن يستخدم الخطاب للإشارة عمومًا إلى 'الفعل الخِطابى'، أو إلى حالات محددة (كالإشارة إلى 'خطاب ما'، أو 'ممارسة ما') وسوف أستخدم الخطاب أيضًا فى حالة عدم نشوء خطر الغموض عند الإشارة إلى أحد الأعراف أو إلى نمط من أنماط الخطاب (مثل: الخطاب الخاص بالمقابلات الشرطية). وحيثما كان المعنى غير واضح، فسوف أستعمل بدلًا من هذين المصطلحين مصطلحى نمط الخطاب أو أعراف الخطاب.

سبق لى أن ذكرت أن المجتمع يتحكم فى التفاعلات جميعًا حتى ما يتسم منها بطابع الخصوصية والحميمية داخل الأسرة. حاول أن تتذكر خطابًا يتسم بأقصى الخصوصية والفردية بينك وبين المقربين منك. هل توافق على الزعم القائل بأن هذا الخطاب، حتى فى هذه الحالة، دائمًا ما ينطوى على أعراف خِطابية؟

ولا تتمثل القيود التى يخضع لها الخطاب والممارسة فى شتى الأنماط المستقلة للخطاب والممارسة بل فى الشبكات التى يعتمد بعضها على بعض ونستطيع أن نطلق عليها مصطلح 'النظم'، أى إن لدينا نظمًا للخطاب ونظمًا اجتماعية. والنظام الاجتماعى هو الأعم الأشمل، فنحن نشعر دائمًا بوجود المجتمع وشتى المؤسسات الاجتماعية التى نعمل من خلالها باعتبارها مقسمة ذوات حدود، وذوات بناء أو هيكل خاص يفصل بين مجالات العمل المختلفة، وأنماط المواقف المختلفة، ولكل منها نمط ممارسة يرتبط بها. وسوف أستخدم مصطلح النظام الاجتماعى للإشارة إلى مثل ذلك البناء لحيِّز اجتماعى معين بحيث يقسمه إلى مجالات شتى ترتبط بشتى أنماط الممارسة. وأما ما سوف أدعوه 'نظام خطاب' فهو فى الحقيقة نظام اجتماعى يُنظر إليه من منظور خِطابى محدد، أى من حيث أنماط الممارسة التى ينقسم إليها الحيِّزُ الاجتماعى ويتصادف أن تمثل أنماطًا للخطاب. وهذا ملخص فى الشكل ٢ – ٢.

النظام الاجتماعى	نظام الخطاب
أنماط الممارسة	أنماط الخطاب
الممارسة الفعلية	الخطابات الفعلية

الشكل ٢ – ٢ النظم الاجتماعية ونظم الخطاب

أشرت عاليه إلى أن النظم الاجتماعية ذوات بناء أو هيكل خاص، ومعنى ذلك أن النظم الاجتماعية لا تختلف وحسب من حيث أنماط الممارسة التى تتضمنها بل أيضًا من حيث نوع العلاقات فيما بينها، أى من حيث هيكل بنائها. وعلى غرار ذلك تختلف نظم الخطاب من حيث أنماط الخطاب وأسلوب هيكلتها أو بنائها. إذ نجد مثلًا أن 'المحادثة' باعتبارها 'نمط خطاب' قائمة فى شتى نظم الخطاب وترتبط بشتى المؤسسات الاجتماعية. وهذا طريف فى ذاته، ولكننا نجد طرافة أكبر إذا رأينا كيف تختلف نظم الخطاب من حيث العلاقة فيما بين المحادثة وأنماط الخطاب الأخرى (مثل علاقة التكامل أو التعارض أو التنافى [أى استحالة اجتماعها بغيرها] أو ما عدا ذلك). فعلى سبيل المثال، لا تضطلع المحادثة بدور بارز أى ظاهر للعيان فى الإجراءات القانونية، ولكن قد يكون لها دور خفى، مثل دورها فى المساومات غير الرسمية بين وكلاء النيابة والمحامين. ومن ناحية أخرى نرى فى التعليم أن المحادثة قد يكون لها أدوار متفق عليها، لا قبل وبعد الدروس التى يحددها المعلمون وحسب، بل أيضًا باعتبارها شكلًا من أشكال النشاط الباطن فى 'خطاب' الدرس.

وإلى جانب نظام الخطاب الخاص بإحدى المؤسسات الاجتماعية، وهو الذى يتولى بناء أنواع الخطاب التى تشكله بطريقة معينة، نستطيع أن نشير إلى نظام الخطاب للمجتمع بأسره، وهو الذى يتولى بناء أنظمة الخطاب الخاصة بشتى المؤسسات الاجتماعية بأسلوب خاص. وأما كيف تبنى أنواع الخطاب فى أحد أنظمة الخطاب، وكيف تتغير طرائق البناء على مر الزمن، فهى من المسائل التى تحددها علاقات السلطة التى تتغير على مستوى المؤسسة الاجتماعية أو المجتمع كله. والسلطة فى هذه المستويات

تتضمن القدرة على التحكم فى نظم الخطاب، وأحد جوانب هذا التحكم أيديولوجى الطابع، بمعنى أنه يضمن التناغم بين نظم الخطاب أيديولوجيًّا، وقد يكون التناغم الأيديولوجى داخليًّا أو (على المستوى المجتمعى) فيما بينها. انظر الفصل ٣ حيث المزيد من التفاصيل.

فلنحاول إذن أن نربط هذا بنموذج المقابلة الشخصية الذى سبق تقديمه. إنه خطاب (أو جزء من خطاب، على وجه الدقة) يستند إلى نمط واحد للخطاب خاص بمقابلة الشهود، أو بمزيد من التحديد، مرحلة جمع المعلومات، أو حادثة تمثل الخطاب المذكور. وفيه تبدو العلاقة بين الأعراف والممارسة، أى بين نمط الخطاب والخطاب، مباشرة يسيرة الفهم، فهى تقليدية تمامًا فى هذه الحالة، ومعالمها التى أشرت إليها آنفًا يسهل التنبؤ بها وتوقعها بالنسبة لهذا النمط. أى إن نمط الخطاب عنصر من عناصر نظام الخطاب المرتبط بالعمل الشرطى باعتباره مؤسسة اجتماعية. وهو يختلف اختلافًا بينًا عن غيره، أى عن "خطاب" إلقاء القبض على شخص ما، أو خطاب توجيه التهمة لشخص مشتبه فيه، كما تختلف الحادثة المذكورة عن غيرها من أساليب خطاب المقابلات مع الشهود، مثل إجراء التحقيق أو الاستجواب بهدف التحقق من صحة ما يرويه الشاهد. وعلى الرغم من أن المشاركين الذين يتمتعون بسلطة أكبر، ويمثلهم فى هذه الحالة رجال الشرطة الذين يجرون المقابلة، يتمتعون أيضًا بمزية تحديد نمط أو أنماط الخطاب المناسبة للحالة، فإن الاختيار يضع جميع المشاركين فى مواقع محددة داخل نظام الخطاب والنظام الاجتماعى للعمل الشرطى. كما إنه يحدد لهم نوعًا واحدًا من عدد من الإجراءات الخاصة بهذه الحالة، وهى التى تشكلها سلسلة من أنماط الخطاب فى نظم محددة، إذ من المحتمل أن جمع المعلومات سوف يتلوه تحقيق يؤدى إلى توجيه التهمة، مثلًا. وهكذا نرى أن مقتطفًا صغيرًا مثل هذا يكشف لنا لا عن نمط خطاب معين فقط بل عن نظام خطاب كامل.

وعندما قلت إن الخطاب ينهل من أنماط الخطاب (والممارسة تنهل من أنماط الممارسة) كنت أحاول أن أتجنب كل ما يوحى بعلاقة آلية بين الطرفين. فعلى الرغم من

ضرورة وجود الأعراف حتى نستطيع الاشتباك مع الخطاب، فإن الأخير ليس مجرد تحقيق أو تنفيذ للأول. والواقع أن خطابًا واحدًا قد يستطيع أن ينهل من نمطين أو أكثر من أنماط الخطاب، ومن الممكن أن تجتمع الأنماط، من ناحية المبدأ، بصور لا تحصى. وعلينا أن نذكر أن الخطاب ليس تنفيذًا [أو تفعيلًا] لنمط أو أنماط بل تجسيد خلاق من خلال الجمع بين الموارد المتاحة، وأما الحالة التقليدية للخطاب الذى ينهل من نمط خطاب واحد، مثل نموذج المقابلة السالف، فهو حالة محددة ولا يمثل المعيار السائد. انظر قسم جدلية الهياكل والممارسات أدناه، والفصل السابع.

حاول أن تتأمل مكان عملك أو دراستك الحالى أو السابق من حيث ممارساته الاجتماعية باعتباره نظامًا اجتماعيًّا ونظام خطاب. اذكر بعض الأنماط الرئيسية للممارسة، وحاول أن تبين الحدود التى تفصلها عن بعضها البعض، وقد يكون ذلك من حيث أنواع المواقف والمشاركين المرتبطين بك. إلى أى حد تنتمى الأنماط والحدود المذكورة إلى الخطاب وإلى أى حد لا تنتمى إليه؟

الطبقة والسلطة فى المجتمع الرأسمالى

يتوسع هذا القسم فى مناقشة الأحوال الاجتماعية للخطاب على المستويين المجتمعى والمؤسسى، ويبين كيف تحدد الهياكل الاجتماعية على هذين المستويين طبيعة الخطاب. وأقول أولاً إن أسلوب هيكلة نظم الخطاب والأيديولوجيات التى تجسدها هذه النظم، يخضع لعلاقات السلطة فى مؤسسات اجتماعية معينة وفى المجتمع بأسره. ومن ثم فنحن نحتاج إلى إبداء الحساسية فى التحليل النقدى للغة لخصائص المجتمع والمؤسسات التى تهمنا. وهكذا فسوف أبدأ، فيما يلى، بتحديد بعض الخصائص والاتجاهات البنيوية الأساسية للمجتمع البريطانى، وإن كان ذلك بالخطوط العريضة وحسب، والمجتمعات الرأسمالية المماثلة تتسم بمعالم مشابهة لها. وسوف أشير بعد ذلك إلى صور تحكُّم المعالم المذكورة، فيما يبدو، فى خصائص الخطاب فى بريطانيا الحديثة. وسوف يجد القراء تحليلًا يتميز بتفاصيل أكبر لهذه المسائل فى الفصل الثامن. وأود أن أؤكد أن التفسير الذى أقدمه للمجتمع البريطانى ليس محايدًا، إذ لا يوجد ما يسمى بالتفسير المحايد، ولكنه تفسير تتجلى فيه خبرتى وقيمى والتزاماتى السياسية.

يعتبر الأسلوب الذى ينظم به مجتمع ما إنتاجه الاقتصادى، وطبيعة العلاقات القائمة فى الإنتاج بين الطبقات الاجتماعية، من المعالم البنيوية الأساسية التى تتحكم فى غيرها. ففى المجتمع الرأسمالى يعتبر الإنتاج فى المقام الأول إنتاج السلع والبضائع للبيع فى الأسواق بغرض تحقيق ربح فردى، لا إنتاجًا لسلع يستهلكها منتجوها مباشرة، على سبيل المثال. والعلاقة الطبقية التى يعتمد عليها هذا الشكل من أشكال الإنتاج علاقة طبقة (رأسمالية) تملك وسائل الإنتاج، وطبقة (عاملة) مضطرة إلى بيع قدرتها على العمل إلى الرأسماليين فى مقابل أجر معين يُمَكِّنُهَا من العيش.

ولكن ألا يوجد عدد كبير من الناس الذين يرتبطون بعلاقة تَمَاسٍّ إلى حد ما مع عملية الإنتاج المذكورة لا بعلاقة مشاركة مباشرة؟ يبدو أن هذا يصدق على العدد المتزايد من الأشخاص الذين يعملون فى صناعات 'الخدمات' وتزجية أوقات 'الفراغ'، من شتى فئات العاملين 'المهنيين' وغيرهم. وربما كان بعض هؤلاء يمثلون طبقات صغرى؛ وبعض هؤلاء (كالعاملين المهنيين) ينتمون معياريًا إلى 'طبقة وسطى' أو طبقة البورجوازية الصغيرة. وسوف أشير إشارة فضفاضة إلى 'طبقة وسطى' ولكننى سوف أفترض أيضًا أن الطبقة العاملة تتميز بالتعقيد الداخلى فى بريطانيا الحديثة، وتتضمن جماعات العاملين 'بالخدمات' وتزجية 'أوقات الفراغ' والعمال 'التقنيين' وغيرها من الجماعات، إلى جانب جماعات أساسية من العمال الذين ينتجون السلع.

السلطة الاقتصادية، وسلطة الدول، والسلطة الأيديولوجية

تبدأ العلاقة بين الطبقات الاجتماعية فى الإنتاج الاقتصادى، ولكنها تمتد لتشمل جميع أجزاء المجتمع. كما تعتمد سلطة الطبقة الرأسمالية على قدرتها على التحكم فى الدولة، وسوف أفترض، على عكس ما تقول به النظرة إلى الدولة باعتبارها تقف موقفًا محايدًا "فوق" الطبقات، أن الدولة تمثل العنصر الأساسى الذى يحافظ على سيادة الطبقة الرأسمالية والتحكم فى الطبقة العاملة. وهذه السلطة السياسية لا تقتصر ممارستها فى العادة على الرأسماليين، بل يمارسها تحالف بين الرأسماليين وغيرهم ممن

يرون أن مصالحهم ترتبط برأس المال، كالعديد من العاملين المهنيين مثلًا. ولنا أن نشير إلى هذا التحالف باسم الكتلة السائدة أو المهيمنة.

وتنهض سلطة الدولة – التى تشمل الحكومة، والسيطرة على الشرطة والقوات المسلحة وموظفى الحكومة وما إلى ذلك – بدور حاسم فى فترات الأزمات. وأما فى الأحوال العادية للحياة فى المجتمع الرأسمالى، فإن مجموعة كاملة من المؤسسات الاجتماعية مثل التعليم والقضاء والأديان وأجهزة الإعلام، بل والأسرة، تعمل بصورة جماعية وتراكمية على ضمان استمرار سيادة الطبقة الرأسمالية، وكثيرًا ما لا يرتبط أصحاب السلطة فى هذه المؤسسات الاجتماعية بروابط مباشرة تذكر بالطبقة الرأسمالية. وخذ على سبيل المثال الإدارات التعليمية المحلية، ومجالس أمناء المدارس، وكبار المعلمين المسؤولين عن معظم ما يجرى فى المدارس. ومع ذلك فقد أجريت تحليلات أتت بنتائج مُقنعة عن الأسلوب الذى تطبقه المؤسسة التعليمية وغيرها من المؤسسات لتدريب الأطفال على التكيف وقبول النظام القائم للعلاقات الطبقية.

ونستطيع تقديم ما يشرح ذلك إلى حد ما بالإشارة إلى أن من يتمتعون بالسلطة فى هذه المؤسسات يرون أساسًا أن مصالحهم مرتبطة بالرأسمالية. ولكن لدينا عاملًا أهم وهو الأيديولوجيا. فالممارسات المؤسسية التى ينهل منها الناس دون تفكير كثيرًا ما تجسد افتراضات تضفى المشروعية المباشرة أو غير المباشرة على علاقات السلطة القائمة. والممارسات التى تبدو عامة شاملة منطقية، كثيرًا ما يتبين أن لها أصولاً فى موقف الطبقة المهيمنة أو الكتلة المهيمنة، وأنها اكتسبت بعد ذلك الصورة الطبيعية. وحيثما كانت أنماط الممارسة، وأنماط الخطاب فى حالات كثيرة، تعمل بهذا الأسلوب بغرض الحفاظ على علاقات السلطة غير المتكافئة، فسوف أقول إنها تعمل بأسلوب أيديولوجى.

وتعتبر السلطة الأيديولوجية، أى السلطة التى تتيح للمرء تصوير ما يفعل باعتباره ممارسة عامة يقبلها المنطق السليم، عاملًا مهمًّا يستكمل السلطة الاقتصادية والسياسية،

وهى تتمتع بدلالة خاصة هنا بسبب ممارستها فى الخطاب. ولدينا بصفة عامة (كما ذكرت بإيجاز فى الفصل الأول) أسلوبان يستطيع أصحاب السلطة اتباعهما فى ممارستها والحفاظ عليها، إما إرغام الآخرين على الانصياع لهم، ورصد عقوبات تصل إلى العنف البدنى وإلى القتل آخر الأمر، وإما اكتساب رضى الآخرين عن امتلاكهم وممارستهم للسلطة، أو على الأقل عدم اعتراضهم على ذلك. أى باختصار من خلال القسر أو الرضى. وأما فى الواقع العملى فإن القسر والرضى يجتمعان بنسب متفاوتة فى كل حالة. فالدولة لديها قوات القمع التى يمكن أن تستخدم فى القسر إذا دعت الضرورة، ولكن أية طبقة حاكمة تجد أنها تستطيع الحكم بتكاليف ومخاطر أقل إذا استطاعت ضمان الرضى. والأيديولوجيا هى الآلية الأساسية للحكم من طريق الرضى، وما دام الخطاب يمثل الوسيلة الفضلى للحكم من طريق الرضى، فإن للخطاب أهمية اجتماعية كبرى فى هذا الصدد. انظر الفصل الرابع حيث المزيد من المناقشة، ولكن انظر ما سوف يأتى بعد حين هنا.

> تأمل مرة أخرى مكان عملك أو دراستك أو أية مؤسسة أخرى تعرفها، من حيث التوازن القائم فيها بين القسر والرضى، والقوة والأيديولوجيا، فى الحفاظ على السيطرة الاجتماعية. هل يمكنك تحديد أنماط معينة للخطاب تتسم بالأهمية الأيديولوجية 'للحكم من طريق الرضى'؟

علاقات السلطة والعلاقات الطبقية والصراع الاجتماعى

لا يمكن حصر علاقات السلطة فى العلاقات الطبقية، إذ توجد "علاقات سلطة" بين الفئات الاجتماعية فى المؤسسات، كما رأينا، وعلاقات سلطة بين النساء والرجال، وبين الطوائف العرقية، وبين صغار السن وكبار السن، وهى لا تقتصر على مؤسسات بعينها. وتتمثل إحدى المشكلات القائمة عند تحليل الرأسمالية المعاصرة فى كيفية النظر إلى الارتباط بين العلاقات الطبقية وبين الأنماط الأخرى المذكورة من العلاقات. إذ نرى من ناحية عدم وجود رابطة بسيطة شفافة بينها تبرر حصر هذه العلاقات الأخرى فى العلاقات الطبقية، أى من طريق اعتبارها مجرد تعبيرات غير مباشرة عن الطبقة. ولكن العلاقات الطبقية، من الناحية الأخرى، تحدد طبيعة المجتمع، وتؤثر تأثيرًا أساسيًا ونفاذًا فى جميع جوانب المجتمع، بما فى ذلك هذه العلاقات الأخرى، بحيث

يصبح من المحال أن نقبل اعتبار العلاقة بين الجنسين أو بين الأعراق المختلفة وما إلى ذلك مجرد علاقات موازية للعلاقات الطبقية. وسوف أقول إن العلاقات الطبقية تتمتع بمكانة جوهرية أكبر من غيرها. وإنها تضع المعايير العريضة التي تمثل قيودًا على تطور العلاقات الأخرى، وهي معايير تبلغ من السعة ما يسمح بخيارات كثيرة تتسم بالضيق الناجم عن عوامل ذاتية تتعلق بكل علاقة يُنظر إليها.

وعلاقات السلطة علاقات صراع في جميع الأحوال، وأنا أستخدم مصطلح 'الصراع' هنا في معناه التقني الذي يشير إلى العملية التي تشتبك فيها الفئات الاجتماعية ذوات المصالح المختلفة في صراع مع بعضها البعض. والصراع الاجتماعي ينشأ بين فئات متنوعة، أي بين النساء والرجال، وبين السود والبيض، وبين الشبان والكهول، وبين الفئات المسيطرة في المؤسسات الاجتماعية وبين الفئات التي تسيطر عليها، وهلم جرًّا لكنه مثلما تعتبر العلاقات الطبقية العلاقات الجوهرية الأولى في المجتمع الطبقي، يعتبر الصراع الطبقي أيضًا الصراع الجوهري الأول فيه. والصراع الطبقي خصيصة لازمة وكامنة في كل نظام اجتماعي يعتمد تحقيق الحد الأقصى من الأرباح والسلطة فيه لإحدى الطبقات على استغلالها لطبقة أخرى وسيادتها عليها. وقد يبدو الصراع الاجتماعي شديدًا إلى حد ما، وقد يتخذ أشكالاً سافرة إلى حد ما، ولكن جميع التطورات الاجتماعية، وأية ممارسة للسلطة، تقع في إطار الصراع الاجتماعي. ويصدق هذا أيضًا، كما سنرى في الفصل الثالث، على اللغة: فاللغة تمثل موقعًا للصراع الطبقي وعاملًا يسهم فيه، ولابد للذين يمارسون السلطة من خلال اللغة أن يشتبكوا في صراع دائم مع غيرهم للدفاع عن موقعهم (أو فقدانه).

التحولات في الرأسمالية

مرت الرأسمالية بتحولات كثيرة في القرن التاسع عشر. ورصد ماركس في تحليلاته الاقتصادية الاتجاه نحو الاحتكار، أي نحو تركيز الإنتاج في عدد يتناقص باطراد من الوحدات التي تتسع باطراد. وقد اشتد بروز هذا الاتجاه على مر الزمن، حتى أصبح نطاق التركيز المذكور دوليًّا، بمعنى أن عددًا صغيرًا نسبيًّا من الشركات العملاقة المتعددة الجنسيات تسيطر الآن على الإنتاج في العالم الرأسمالي.

وفى الوقت نفسه أخذت الساحة الاقتصادية الرأسمالية تتسع باطراد حتى أصبحت تشمل عددًا من جوانب الحياة التى كانت تعتبر فيما مضى منفصلة تمامًا عن الإنتاج. كما اتسع مفهوم السلعة، فبعد أن كانت 'بضاعة' ملموسة غدت تتضمن شتى الأشياء غير الملموسة: مثل الدورات التعليمية، والتأمين الصحى، والجنازات، وقضاء العطلات [فى منتجات استجمام]، وهى التى تباع الآن وتشترى فى الأسواق المفتوحة فى 'عروض شاملة'، مثل مساحيق الصابون. وازداد التركيز بصورة مطردة على استهلاك السلع، وهو الاتجاه الذى يلخصه مصطلح 'المذهب الاستهلاكى'. وكان من نتيجة ذلك أن أصبح الاقتصاد وسوق السلع يؤثران تأثيرًا هائلًا فى حياة الناس، بما فى ذلك (خصوصًا، عن طريق التليفزيون) حياتهم 'الخاصة' فى البيت وفى الأسرة.

ومن الاتجاهات الأخرى التى تجرى بالتوازى مع هذا الاتجاه زيادة سيطرة الدولة والمؤسسات على الناس من خلال شتى ضروب البيروقراطية. فمن ناحية أصبحت الدولة تتدخل ويزداد تدخلها لخلق الظروف الملائمة لتيسير عمل الشركات المتعددة الجنسيات، من حيث الضوابط على العملات، والسيطرة على التضخم، وفرض القيود على الأجور وعلى قدرة النقابات فى القيام بالإضرابات، وما إلى هذا بسبيل. ومن ناحية أخرى ظهر الجانب المضاد للمزايا التى اكتسبها الناس من دولة الرعاية، وهو الزيادة الحادة فى درجة الفحص الذى يتعرض له أفراد الجمهور على أيدى الجهاز البيروقراطى.

هل تستطيع أن تجد أمثلة للتوسع فى مفهوم السلعة؟ ابحث بصفة خاصة عن الحالات التى امتدت فيها لغة السلع إلى مجالات أخرى (مثل قولك "هذه فكرة رائعة، ولكن هل تستطيع أن تبيعها للناس؟ وهل سيشترونها مهما كان الغلاف الذى تغلفها به؟"

تحليل المجتمع وتحليل الخطاب

سوف أشير الآن بصفة عامة إلى بعض علاقات التحكم التى يمكننا استكشافها بين هذه الخصائص للمجتمع الرأسمالى الحديث وبين خصائص نظم الخطاب. وأنا أقصد، فيما يلى، بريطانيا الحديثة خصوصًا.

سبق أن أكدت أهمية الأيديولوجيا فى تحديد الأسلوب الذى تنتهجه شتى المؤسسات الاجتماعية للإسهام فى الحفاظ على مكانة الطبقة المسيطرة. ويتسم المجتمع الحديث بدرجة عالية إلى حد ما من التكامل بين المؤسسات الاجتماعية فى مهمة الحفاظ على السيادة الطبقية. ولنا أن نتوقع فى مقابل هذا درجة عالية من التكامل الأيديولوجى بين نظم الخطاب المؤسسية داخل النظام المجتمعى للخطاب. وأعتقد أننا نجد ذلك فعلًا. إذ توجد، على سبيل المثال، أنماط أساسية معينة للخطاب تجسد الأيديولوجيات التى تضفى المشروعية، بصورة مباشرة إلى حد ما، على العلاقات المجتمعية القائمة، والتى تتميز بدرجة عالية من البروز فى المجتمع الحديث مكّنَتْها من 'استعمار' عدد كبير من نظم الخطاب المؤسسية. وهذه تتضمن الخطاب الإعلانى وأنواع خطاب المقابلات الشخصية ولقاءات تقديم المشورة/ العلاج. فالإعلانات مثلًا تتولى إدراج مجموع السكان إدراجًا مؤكدًا فى النظام السلعى الرأسمالى من خلال جعلهم يقومون بدور 'المستهلكين'، وهو دور مشروع بل مرغوب فيه.

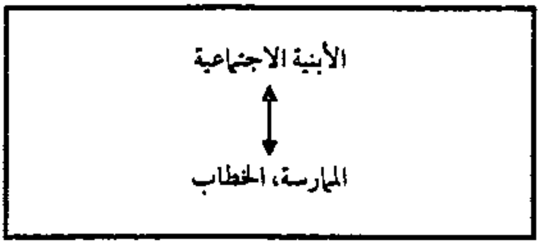
كما أشرت عاليه أيضًا إلى العلاقة الخاصة بين الأيديولوجيا وممارسة السلطة من خلال الرضى لا من خلال القسر. وأعتقد أن المجتمع الحديث يشهد ازدياد ممارسة السيطرة الاجتماعية من خلال الرضى، حيثما تسنى ذلك وكثيرًا ما يتوسل ذلك بإدراج الناس فى أجهزة سيطرة يشعرون أنهم يشاركون فى إنشائها (كأن يوحى للمستهلكين بأنهم حاملو أسهم فى جهاز الديمقراطية الذى يملك الناس أسهمه). وما دام الخطاب هو الوعاء المفضل للأيديولوجيا، ومن ثم للسيطرة من خلال الرضى، فربما كان لنا أن نتوقع تغيرًا كميًّا فى دور الخطاب فى تحقيق السيطرة الاجتماعية. فنحن نجد، على سبيل المثال، أن الجرعات الثابتة من 'الأخبار' التى يتلقاها معظم الناس يوميًّا تعتبر عاملًا مهمًّا من عوامل السيطرة الاجتماعية، وهى تشكل نسبة ليست ضئيلة من المشاركة اليومية للشخص المتوسط فى الخطاب. ولكن ازدياد الاعتماد على السيطرة من خلال الرضى ربما يكون من وراء مَعْلَمٍ كَيْفِىٍّ آخر من معالم الخطاب المعاصر، ألا وهو اتجاه

خطاب السيطرة الاجتماعية نحو الإيحاء بمذهب المساواة الزائفة، وإزالة الدوال السطحية على السلطة والنفوذ. ويجد المرء ذلك فى أنواع شتى من الخطاب، مثل الإعلانات، والتعليم، والبيروقراطية الحكومية. وللقارئ أن يجد أمثلة ومناقشة تفصيلية للمسائل التى طرحها هذا القسم فى الفصل الثامن.

جدلية الأبنية والممارسات

العلاقة بين الخطاب والأبنية أو الهياكل الاجتماعية علاقة لا تسير فى الطريق الواحد الذى أشرت إليه حتى الآن. فإلى جانب خضوع الخطاب لسيطرة الأبنية الاجتماعية نجد أنه يؤثر فيها ويسهم فى تحقيق الاستمرار الاجتماعى أو التغير الاجتماعى. ولما كانت العلاقة بين الخطاب والأبنية الاجتماعية علاقة جدلية على هذا النحو، فإن الخطاب يكتسب أهمية كبرى من حيث علاقات السلطة والصراع على السلطة، إذ إن تولى أصحاب السلطة فى المؤسسات والمجتمع السيطرة على نظم الخطاب يمثل أحد عوامل الحفاظ على سلطتهم.

فلتكن نقطة انطلاقنا النظر بصفة عامة فى العلاقة بين الممارسة الاجتماعية والواقع. فالممارسة الاجتماعية لا تمثل 'انعكاسًا' وحسب لصورة الواقع، فهى مستقلة عنه، وذلك يعنى أن الممارسة الاجتماعية تتمتع بعلاقة فعالة مع الواقع، وهى تغير الواقع. والعالم الذى يعيش فيه البشر عالم من خلق البشر إلى حد هائل، فهو عالم خُلق فى غمار الممارسة الاجتماعية. ويصدق هذا لا على العالم الاجتماعى فقط بل يصدق أيضًا على ما نسميه 'العالم الطبيعى'، إذ إن جوهر العمل البشرى هو أنه يخلق وسائل العيش التى تمكّن الناس من تغيير العالم الطبيعى. وأما بالنسبة للعالم الاجتماعى فإن الأبنية الاجتماعية لا تتحكم فقط فى الممارسة الاجتماعية بل تعتبر أيضًا من ثمار الممارسة الاجتماعية. وأقول بصفة خاصة إن الأبنية الاجتماعية لا تقتصر على التحكم فى الخطاب بل إنها أيضًا ثمرة من ثماره، وهو ما يصوره الشكل ٢ — ٣.



الشكل ٢ – ٣ البنية الاجتماعية والممارسة الاجتماعية.

مثال: مواقع الذوات فى المدارس

فلنزد هذه المقولة وضوحًا بإيراد مثال عملى للبناء الاجتماعى لإحدى المؤسسات الاجتماعية وهى المدرسة، فللمدرسة نظام اجتماعى ونظام خطاب يتضمنان بناءً متميزًا لحيزها الاجتماعى بتقسيمه إلى مجموعة من الحالات التى يقع فيها الخطاب (قاعة الدرس، قاعة الاجتماعات، وقت اللعب، اجتماع العاملين وهلم جرًّا) ومجموعة من 'الأدوار الاجتماعية' المعترف بها حيث يشارك الأشخاص فى الخطاب (كبير المعلمين، المعلم، التلميذ، 'ألفا' الفصل وغيرهم) ومجموعة من الأغراض المتفق عليها للخطاب، مثل التعليم والتعلم، والامتحان، والحفاظ على السيطرة الاجتماعية، إلى جانب مجموعة من أنماط الخطاب. فإذا ركزنا انتباهنا على 'الأدوار الاجتماعية'، أو ما أفضل أن أطلق عليه 'مواقع الذوات' (وهو مصطلح سأشرحه بعد قليل) فسوف نجد لهذا التعبير دلالة تسمح لنا بأن نرى أن ماهية المعلم والتلميذ تنحصر فيما يفعله كل منهما. وأما أنماط الخطاب فى قاعة الدرس فتحدد مواقع الذوات للمعلمين والتلاميذ، واحتلال هذه المواقع وحده هو الذى يجعل من أحدهما معلمًا ومن الآخر تلميذًا. وما احتلال موقع الذات فى جوهره إلا القيام بأعمال معينة (أو عدم أدائها) وفقًا للحقوق والالتزامات الخِطابية للمعلمين والتلاميذ، بمعنى ما هو مسموح له أو مفروض عليه من أقوال، وما هو غير مسموح له أو مفروض عليه أن يقوله، فى إطار نمط الخطاب المعين المذكور. وإذن فإن هذه حالة يقوم فيها البناء الاجتماعى، فى الأشكال المحددة

لأعراف الخطاب، بالتحكم فى الخطاب. ولكننا أيضًا نرى فيها أن المعلمين والتلاميذ يعيدون إنتاج مواقع الذوات المحددة عندما يشغلونها. وهكذا فإن هذه المواقع تستمر فى كونها جزءًا من البناء الاجتماعى بفضل وجود الذين يشغلونها وحسب، بمعنى أن الخطاب بدوره يجدد ويعيد إنتاج البناء الاجتماعى.

الذات

ولكن الذى وصفته للتو دائرة مغلقة، بمعنى أن أنماط الخطاب تتحكم فى ممارسة الخطاب، وهى التى تعيد إنتاج أنماط الخطاب. والواقع أن مفهوم إعادة الإنتاج أشد تعقيدًا وأكبر أهمية ودلالة اجتماعية مما وصفته. وإذا أردنا السبب كان علينا أن ننظر فى اختيارى مصطلح (موقع) الذات بدلًا من 'الدور الاجتماعى'. ويتسم لفظ 'الذات' بضرب آخر من ضروب 'الغموض اللائق' الذى التقينا به من قبل فى مصطلحى الممارسة والخطاب، وإن يكن من مرتبة مختلفة. فأحد معانى الكلمة الإنجليزية (subject) يشير إلى فرد من أفراد 'الرعية'، أى إلى شخص يخضع للولاية القضائية القائمة على السلطة السياسية، ومن ثم فهو سلبى ويتعرض للتشكيل، ولكن الكلمة نفسها قد تعنى 'الفاعل' مثلًا بالدلالة الإعرابية فى جملة من الجمل، ومن ثم فإن معناه إيجابى، إذ إنه من يقوم بالفعل، ومن ثم تضعه قاعدة العلة والمعلول فى موقع القائم بالعمل.

والذوات الاجتماعية تخضع لقيود تلزمها أن تعمل فى إطار مواقع الذوات المحددة فى أنماط الخطاب، كما سبق أن أشرت إلى ذلك، ومن ثم فهى من هذه الزاوية سلبية، ولكن خضوعها للقيود وحده هو الذى يمكنها من العمل باعتبارها ممثلة للمجتمع. وكما سبق أن ذكرت فإن وجود القيود شرط مسبق للتمكين: أى إن ممثلى المجتمع فعالون وخلاقون. واذكر إصراري على أن الخطاب (والممارسة بصفة عامة) ينهل من أنماط الخطاب ولا يقوم بتنفيذها آليًا، واذكر أيضًا قولى هناك إن ضروب الخطاب تنهل من مجموعات متداخلة من الأنماط. وأنماط الخطاب مورد من موارد الذوات، ولكن العمل فى الجمع بينها بأساليب تفى بالمطالب المتزايدة والمتناقضات الكامنة فى المواقف

الاجتماعية الحقيقية عمل خلاق. انظر الفصل السابع الذى يقدم حجة تفصيلية تفيد هذا المعنى.

وأما مصطلح إعادة الإنتاج فيتطلب بعض التعليق: لا يُنتج الناس خطابًا أو يفسرونه إلا نهلوا حتمًا من نظم الخطاب وغيره من جوانب البناء الاجتماعى، وهى التى استوعبوها فحفظوها فيما أسميته 'موارد الأعضاء' [أى خبراتهم الذاتية المختزنة] التى تمكنهم من ذلك. وتتكرر إعادة خلق هذه الأبنية، بفضل ما يُنْهَلُ منها، فى الخطاب والممارسة عمومًا، أى إن الخطاب، والممارسة بصفة عامة، يعتبران من هذه الزاوية من نواتج هذه الأبنية ومنتجين لها. وما أعنيه بإعادة الإنتاج إذن هو إنتاج هذه الأبنية من جديد، من خلال تعرضها للنهل منها. ولكن الأبنية قد تُنتج من جديد دون تغيير يذكر فيها، أو ربما خُلقت من جديد فى أشكال معدلة (بفضل الجمع الخلاق بين الأنماط المشار إليه عاليه). وهكذا فقد تكون إعادة الإنتاج ذات طابع محافظ أساسًا بحيث تحافظ على الاستمرار، أو ذات طابع تحويلى أساسًا بحيث تحدث تغييرات معينة.

وعلاقات السلطة القائمة بين القوى الاجتماعية، وأسلوب تطور هذه العلاقات فى غمار الصراع الاجتماعى، تمثل عاملًا أساسيًّا يحدد صورة الطابع المحافظ أو التحويلى لإعادة الإنتاج فى الخطاب. ومفاد ما قلته إذن أن نظم الخطاب تجسد الافتراضات الأيديولوجية، وهذه تحافظ على علاقات السلطة القائمة وتُكسبها المشروعية. فإذا وقع تحول فى علاقات السلطة من خلال الصراع الاجتماعى، فلنا أن نتوقع تحولًا فى أنظمة الخطاب. وعلى العكس من ذلك، إذا ظلت علاقات السلطة ثابتةً نسبيًّا، فقد يؤدى ذلك إلى إضفاء صبغة محافظة على إعادة الإنتاج. ومع ذلك فليس هذا بالضرورة واقع الحال، فحتى إذا ظلت علاقات السلطة ثابتة نسبيًّا فإنها تحتاج إلى تجديد نفسها فى عالم دائم التغير، وهكذا فإن التحولات فى أنظمة الخطاب قد تكون لازمة، ولو من أجل حفاظ مجموعة اجتماعية سائدة على موقعها.

ابحث عن أمثلة للجمع الخلاق بين أنماط الخطاب. والإعلانات مصدر صالح، لأنها تستغل أنماطًا كثيرة مختلفة وتستعين بها فى تحقيق المبيعات.

ولكن ما شأن الجوانب التجريدية وغير المركزة للأبنية الاجتماعية، مثل العلاقة بين الطبقات الاجتماعية فى مجتمع من المجتمعات؟ إن العلاقات الطبقية تتحكم أيضًا فى الخطاب (وفى الممارسة الاجتماعية عمومًا) من ناحية، ولكنْ يعاد إنتاجها فى الخطاب من ناحية أخرى. ولكن العلاقات والمواقع الطبقية لا يُعَبَّرُ عنها أو يعاد إنتاجها مباشرة فى معظم الممارسات. فالرابطة بين العلاقات الطبقية وضروب الخطاب تتوسل بوسائط معينة، وهذه الوسائط على وجه الدقة هى شتى أنماط الخطاب الخاصة بالمؤسسات الاجتماعية فى مجتمع ما. وأما من حيث إعادة الإنتاج فنستطيع أن نقول مثلًا إن العلاقات بين المعلم والطالب، ومواقع المعلم والطالب، وهى المضمرة فى أنماط الخطاب التعليمى، يعاد إنتاجها مباشرة فى الخطاب التعليمى فى حين أن هذا الخطاب نفسه يعيد إنتاج العلاقات الطبقية بصورة غير مباشرة. والمسألة العامة هى أن التعليم، مثله فى ذلك مثل جميع المؤسسات الاجتماعية الأخرى، له 'مرمى خفى' يتمثل فى إعادة إنتاج العلاقات الطبقية وغيرها من الأبنية الاجتماعية رفيعة المستوى، إلى جانب مرماه التعليمى السافر.

وتعتبر سيطرة المستويات التجريدية للبناء الاجتماعى على التحديد الاجتماعى لأنماط الخطاب لشتى المؤسسات (ومن ثم للخطاب نفسه) سيطرة غير مباشرة و'خفية'، مثل تأثيرها فى هذه المستويات للبناء الاجتماعى، ولذلك لا تبدو السيطرة واضحة ولا يبدو تأثيرها المذكور واضحًا للذوات [أى للأفراد] فى المسار المعتاد للأحداث. ويقول پيير بورديو "لما كانت الذوات، إن شئنا دقة التعبير، لا تعرف ما تفعل، فإن ما تفعله ذو معنى يتجاوز ما تعرفه". وانعدام شفافية الخطاب (والممارسة بصفة عامة) يدل على أن له أهمية اجتماعية أكبر كثيرًا مما تكشف عنه النظرة السطحية، والسبب أن الناس قد يضفون المشروعية (أو عدم المشروعية) فى الخطاب، على بعض علاقات السلطة دون وعى منهم بما يفعلونه. كما يشير ذلك أيضًا إلى أساس التحليل النقدى فى طبيعة الخطاب والممارسة – أى وجود أشياء يفعلها الناس من دون وعى بها

– وإلى التأثير الاجتماعى الذى يمكن أن يحدثه التحليل النقدى باعتباره من وسائل رفع مستوى الوعى الذاتى للناس.

ولأقل الآن كلمة عن المقتطف الذى أوردته من المقابلة الشُّرطية فى ضوء هذه القضايا: إن كون الشخص رجل شرطة أو شاهدًا لدى الشرطة يعنى احتلال مواقع الذوات التى تنشئها ضروب الخطاب، مثل خطاب المقابلات الشخصية (الرامية لجمع المعلومات) وهى التى 'ينهل منها' المقتطف. وفى حدود احتلال الناس لهذه المواقع فى المسار المعتاد لحياتهم وحسب، يُعاد إنتاج الأقنعة العرفية لرجل الشرطة والشاهد فى إطار البناء الاجتماعى للعمل الشرطى باعتباره من المؤسسات. ولكن الممارسة العرفية الواقعية – مثل ما نجده فى المقتطف – تسهم أيضًا بصورة غير مباشرة فى إعادة إنتاج العلاقات الاجتماعية غير المتكافئة لمجتمعنا، وذلك من خلال إضفاء الصبغة الطبيعية على تفاوت المراتب، والتلاعب المعتاد بالناس الذى يفصح عن بلادة الحس، لصالح أهداف الكفاءة البيروقراطية، وصورة رجال الشرطة باعتبارهم يساعدوننا ويحموننا جميعًا (لا باعتبارهم يمثلون فرعًا من جهاز الدولة). والأشخاص الذين يشاركون فى أمثال هذه المقابلات الشخصية، بمن فيهم من رجال الشرطة، ليس من المحتمل أن يكونوا، بصفة عامة، واعين بآثار إعادة الإنتاج المذكورة.

تأمل مؤسسة اجتماعية تقوم بإدارتها داخل نفسك فى ضوء ما ذكرته فى هذا القسم. ما مواقع الذوات الرئيسية التى يشغلها الناس فى الخطاب؟ حاول التركيز على موقع واحد من مثل هذه المواقع، وربما يكون موقعًا عادة ما شغلته بنفسك: تُرى ما الذى تُضطر أو يسمح لك بفعله أو عدم فعله فى الخطاب الذى يميز موقع الذات؟ وأخيرًا تأمل كيف يمكن أن تكون ممارسة هذه المؤسسة إعادة إنتاج لأبنية اجتماعية مثل العلاقات الطبقية باعتبارها جزءًا من مرمى خفى.

ملخص ونتائج

قلت فى هذا الفصل إن على الدراسة النقدية للغة أن تعتبر اللغة نظريًا شكلًا من أشكال الممارسة الاجتماعية، أو ما أسميه الخطاب؛ وإن عليها، طبقًا لذلك، أن تؤكد أن

الأبنية الاجتماعية هى التى تتحكم فى الخطاب، وأن تؤكد كذلك تأثير الخطاب فى المجتمع من خلال إعادة إنتاجه للأبنية الاجتماعية. ولا يقتصر تحديد صورة الخطاب وآثاره على وجود عناصر من الأحوال الاجتماعية فى الخطاب بل يتضمن أيضًا نظم الخطاب التى تعتبر الجوانب الخِطابية للنظم الاجتماعية على المستوى المجتمعى ومستوى المؤسسات الاجتماعية. وليس الناس عمومًا واعين بضروب التحديد والآثار على هذين المستويين، ومن ثم فإن الدراسة النقدية للغة ترمى إلى مساعدتهم على إدراك الأسباب والعواقب غير الشفافة لخطابهم.

وقد أرسى هذا الفصل الأسس التى سوف أقيم فوقها البناء فى الفصول اللاحقة. وربما يكون من العواقب المترتبة على النظر إلى الخطاب باعتباره مجرد شكل خاص من أشكال الممارسة الاجتماعية أن على البحث اللغوى أن يرتبط ارتباطًا أوثق (مما هو عليه) بالبحوث الاجتماعية. وسوف أستكشف فى الفصلين السابع والثامن الأبعاد اللغوية للتحولات الاجتماعية بقصد تحديد الدور الذى يضطلع به الخطاب فى نشأة التحول الاجتماعى وتطوره وتدعيمه. ولكننى أحتاج الآن إلى أن أزيد من إيضاح العلاقة بين الخطاب والسلطة والأيديولوجيا، وهى التى تشغل قلب الممارسة الاجتماعية التى نسميها الخطاب. وهذا هو هدفى فى الفصلين الثالث والرابع، اللذين يركزان على السلطة والأيديولوجيا، على الترتيب، فى علاقتهما بالخطاب.

المراجع

للاطلاع على بعض الآراء فى 'الخطاب' انظر ڤان دييك (1997a) و(1997b)؛ وفيرْكِلَفْ وڤوداك (1997)؛ وميلز (1997)، وبراون ويول (1983). وحول مفاهيم 'الممارسة'، و'إعادة الإنتاج' و'الذات'، انظر ألتوسير 1971. ويعتبر جنكينز 1996 مقدمة مفيدة 'للذات' والهوية الاجتماعية. والتمييز بين اللغة والكلام (langue - parole) قدمه سوسير فى 1966. انظر تيبولت 1997 عن سوسير. وحول التمييز بين

'الوصف' و'التفسير' و'الشرح' انظر فيركلف 1985 وكاندلين 1986 . ويعتبر كريس ولويڤين 1996 دراسة جيدة للصور البصرية. وتفسير الطبقة والسلطة فى بريطانيا المعاصرة مستمد أساسًا من مصادر ماركسية، انظر المجلة العلمية الماركسية اليوم (توقفت عن الصدور فى 1991)، وماركس وإنجلز 1968، وجرامشى 1971. وفوكوه 1971 يستخدم مصطلح 'نظام الخطاب' فى فوكوه، والمقتطف من بورديو مأخوذ من بورديو 1977 .

الفصل الثالث

السلطة والخطاب

الغرض من هذا الفصل استكشاف شتى علاقات السلطة واللغة. وأركز فيه على جانبين رئيسيين من جوانب علاقة السلطة باللغة، وهما السلطة فى داخل الخطاب والسلطة من وراء الخطاب. وهذا يلتقط خيط التمييز الذى قدمتُه فى الصفحات الأولى من الفصل الأول.

والقسم الخاص بالسلطة فى داخل الخطاب يتناول الخطاب باعتباره مكانًا تُمارس فيه علاقات السلطة وتتجسد فى الواقع الفعلى. وأنا أناقش السلطة فى الخطاب المنطوق فى المحادثات المباشرة أى التى توصف بأنها تجرى وجهًا لوجه؛ والسلطة فى الخطاب الذى يجرى عبر الثقافات، حيث ينتمى المشاركون إلى مجموعات عرقية مختلفة؛ و'السلطة الخفية' فى خطاب أجهزة الإعلام الجماهيرية.

والقسم الأخير من الفصل يضيف شرطًا ذا أهمية حيوية لما سبقه، ألا وهو إن السلطة، سواء كانت 'فى داخل' الخطاب أو 'من ورائه'، لا يملكها أبدًا، وبالقطع، فردٌ واحد، أو فئة اجتماعية واحدة، لأن السلطة لا تُكتسب ولا تُمارس إلا فى غمار الصراعات الاجتماعية ومن خلالها، وقد تضيع أيضاً من هذا الطريق.

السلطة فى داخل الخطاب

فلنبدأ مناقشة مسألة السلطة داخل الخطاب بتقديم مثال لممارسة السلطة فى نمط خطاب يجرى 'وجهًا لوجه' حيث المشاركون غير متكافئين، ولنا أن نطلق عليه تعبير اللقاء غير المتكافئ. والنص ٣-١ مقتطف من زيارة دكتور (يرمز له بالحرف د) لوحدة طبية للأطفال المبتسرين [أى المولودين قبل اكتمال فترة الحمل الطبيعية] ومعه مجموعة من طلاب الطب (ويرمز للطالب بالحرف ط) فى غضون برنامج تدريب الطلاب. والنقطة التى تسبقها وتتلوها مساحة فارغة (.) تدل على وقفة قصيرة، والشرطة تفيد الوقفة الطويلة، والأقواس المربعة الممتدة على سطرين تعنى تدخل الكلام المنطوق، هكذا

[والأقواس المستديرة (   ) تعنى أن الكلام لم يكن واضحًا بحيث يسمح بكتابته.

(١) د . : فلنقف معًا فى حلقة . أول الأطفال – والآن ما أريدكم أن تفعلوا هو إجراء فحص للمولود الجديد . فحص أساسى مثل الذى يقوم به الدكتور ماثيوز فور وصول المولود إلى العنبر . لا بأس إذن سوف تضعون أيديكم على المولود فعلًا . انظرْ إلى النقاط الأساسية واشرحْها للمجموعة أثناء عملك هل تتفضل بأداء ذلك . هيا إذن

(٢) ط . : الواقع أولًا سوف أقوم ┐ (   )

(٣) د . : └ أولا قبل أن تفعل هذا عليك أن تغسل يديك. لأنك كنت تقوم بفحص مولود آخر (صمت طويل) هل أنت مستعد الآن (   )

(٤) ط : سأخلع هذا وحسب.

(٥) د : رائع . إعادته هى المشكلة تمام أعنى –

(٦) ط : والأم تعود –

(٧) د : صحيح . لا بأس أتح لنفسك مساحة بنقل المولود . أعنى فوق الـ . هذا الشىء هذا ممتاز . والآن . هيا إذن صف ما يحدث

(٨) ط : يعنى هذا مولود ذكر صغير . وانتهينا إلى أن عمره ثلاثون. سبعة وثلاثون أسبوعًا الآن . ولد . منذ أسبوعين . أعنى . يبدى نشاطًا معقولًا . عيناه مفتوحتان . وله شعر فى رأسه . رأسه . عيناه ┐ مفتوحتان

(٩) د : [نعم └ قلت لى ذلك من قبل.

(١٠) ط : إنه يبكى أو ┐ يحاول

(١١) د : └ نعم سمعنا هذا سمعناه سمعنا أنه

والآن أية فحوص أخرى سوف تجريها أعنى –

(١٢) ط : سنرى إن كان سوف يستجيب للـ

(١٣) د : اسمع إذن . ألم نفحص مولودًا آخر لديه مشكلة فى الرأس أمس

(١٤) ط : صحيح

(١٥) د : ألا ينبغى لك أن تفحص الرأس فى البداية تقريبًا. قبل أن تبدأ

(١٦) ط : أتحسس الـ (   )

(١٧) د : والآن ماذا ┐ ما أهم خطوة تاليه

(١٨) ط : └ أعنى   الوظائف العامة للحركة ┐

(١٩) د : └ عليك الآن بفحص الفم، صحيح؟

(٢٠) ط : نعم

(٢١) د : والآن ما شأن الفم

النص ٣ – ١ المصدر: برنامج "الأولاد من مستشفى هورسفرى رود"، تليفزيون جرانادا ١٩٨٠

أول معلم بارز، تدل عليه الأقواس المربعة، هو عدد المرات التى يقاطع الدكتور فيها الطالب، فى (٣) و(٩) و(١١) و(١٣) و(١٩). (لا توجد أقواس مربعة فى (١٣) لأن كلامهما لا يتداخل فى الواقع). والانطباع الذى خرجت به هو أن الدكتور لا يقاطع الطالب بسبب رغبته فى أن يستأثر بالحديث كله، كما يفعل البعض. بل أعتقد أن المقاطعة ترجع إلى أنه يريد أن يتحكم فيما يقوله الطالب ويفعله، أى أن يمنعه من الشروع فى الفحص قبل غسل يديه، وأن يمنعه من تكرار المعلومات، أو تقديم معلومات واضحة ولا علاقة لها بالموضوع، وأن يضمن أن يقدم الطالب المعلومات الأساسية المتوقعة.

ما الطرائق الأخرى التى يمارس بها الطبيب سيطرته على أقوال الطالب؟

يبدو ذلك أولًا فى العبارات الاستهلالية التى يشرح فيها الطبيب ما سوف يحدث فى التفاعل للطلاب، بما فى ذلك طبيعة أقوالهم وأفعالهم. ويبدو ثانيًا فى الأسلوب الذى يقال به للطالب صراحة متى يبدأ الكلام والفحص، فى نهاية رقم (١) (هيا إذن) ومرة أخرى فى (٧). وثالثًا فى التعليمات الصريحة للطالب بخصوص ترتيب أفعاله فى (٣) ورابعًا فى أسلوب تقييم سلوك الطالب فى (٥) (رائع) و(٧) (هذا صحيح). وهذان وإن كانا يمثلان تشجيعًا إيجابيًّا، إلا أنهما من تقنيات السيطرة التى كان يمكن أن تعتبر تجاسرًا أو غطرسة لو استعملت مع شخص ذى مكانة مكافئة لمكانة الطبيب أو يتمتع بسلطة أكبر.

والمسألة الخامسة والأخيرة أن الطالب 'يوضع فى مأزق' فى سلسلة الأسئلة فى (١٣) و(١٥) و(١٧) و(١٩). فالأسئلة تشكل تتابعًا ذا ترتيب استراتيجى يوجه الطالب لاتخاذ الخطوات التى عجز عن إدراكها. كما إن التزام الطالب بالإجابة تؤكده فى كل حالة وقفة (يدل عليها وجود نقطة قبلها مسافة وبعدها مسافة)، وهذه لحظات سكوت موجزة تتعلق فيها به كل العيون، وتقع على عاتقه مسؤولية إنهائها!

لاحظ أيضًا الأشكال النحوية التى صيغت بها هذه الأسئلة: (١٣) و(١٥) سؤالان منفيان (ألم نفحص، ألا ينبغى لنا). وقد يكون استعمال الأسئلة المنفية (وفقًا للنغمة وغيرها من العوامل) معادلًا لقولك "أفترض أن 'س' هى الحالة، ولكنك فيما يبدو تنكر ذلك، ولكن الحالة قطعًا كذلك؟". وهنا لابد أن الطالب يعرف أن 'س' هى الحالة، ومن ثم فإن طرح أسئلة معقدة من هذا النوع عليه يعتبر وسيلة لإظهاره بمظهر الغباء. وعلاقة السلطة تتجسد دون مواراة فى رقم (١٧) حيث تبدو لى أشكال الأسئلة المختزلة (أى المختزلة من السؤال: والآن ماذا ينبغى لنا أن نفعل؟ وما الخطوة الثانية فى درجة

الأهمية؟) أسئلة موجزة مفاجئة. وفى النهاية، فى (١٩)، يستخدم الطبيب جملة مثبتة لا استفهامية متبوعة بالسؤال "صحيح؟" وتأثيرها يشبه تأثير الأسئلة المنفية.

ونستطيع أن نقول استنادًا إلى أمثلة من هذا النوع إن السلطة فى الخطاب تتعلق بقيام المشاركين من ذوى السلطة بالتحكم فى أقوال المشاركين من غير ذوى السلطة وفرض القيود عليها. ومن المفيد التمييز العام بين ثلاثة أنماط من أمثال هذه القيود. فبعضها قيود تفرض على:

- المضمون: أى ما يُقال ويُفعل؛
- أو العلاقات: أى العلاقات الاجتماعية التى تنشأ بين الناس فى الخطاب؛
- أو الذوات، أو مواقع الذوات التى يستطيع الناس احتلالها.

وترتبط 'العلاقات' 'بالذوات' ارتباطًا وثيقًا، وتتداخل الفئات الثلاث وتوجد معًا فى الواقع العملى، ولكنه من المفيد أن نستطيع التمييز بينها. والمثال الذى سقناه يوضح أنماط القيود الثلاثة. فمن حيث المضمون نجد أن الطالب يفرض عليه إجراء الفحص وفق الخطوات التى تعلمها، وهكذا فهو يتصرف فى إطار علاقة مهنية أمام جمهوره ويشارك فى علاقة الخضوع للطبيب (وهو ما يمثل القيود على العلاقات)، وهو يحتل موقعين للذات: الأول بصفته طامحًا إلى موقع الطبيب والثانى بصفته طالب علم (وهو ما يمثل القيود على الذوات). وهذه القيود تترتب عليها أشكال لغوية معينة.

ولكن يبدو أن بعض هذه القيود المفروضة على الطالب لا تتضمن أية سيطرة مباشرة يمارسها الطبيب. لاحظ مثلًا أن جميع أفعال الكلام التوجيهية (الأوامر والأسئلة) فى هذا المثال تصدر عن الطبيب: إذ يبدو أن الطبيب يتمتع بالحق فى أن يصدر الأوامر ويسأل الأسئلة فى حين أن الطلاب يقتصرون على الالتزام بالانصياع للأوامر وإجابة الأسئلة، وفقًا لعلاقة خضوع الطالب للطبيب. ولكن الطبيب لا يمارس تحكمًا مباشرًا فى الطالب فى هذا الصدد. بل إن القيود نابعة من الأعراف الخاصة بنمط الخطاب الذى تنهل منه. ومع ذلك فإن الطبيب يشغل فعلًا موقع السيطرة، ولو من

طريق غير مباشر، إذ إن المشاركين من موقع السلطة يتمتعون بمزية تحديد نوع أو أنواع الخطاب الذى يمكن أن يُنْهَل منه بصورة مشروعة. وهكذا فإن هؤلاء يستطيعون، بالإضافة إلى فرض القيود على أقوال الآخرين وأفعالهم، أن يفرضوا قيودًا غير مباشرة عليهم باختيار نمط الخطاب. ولاحظ أن نمط القيود الأخيرة يعتبر أيضًا شكلًا من أشكال القيود الذاتية: فما إن يقع الاختيار على نمط الخطاب حتى تسرى أعرافه على جميع المشاركين، بما فى ذلك من يتمتعون بالسلطة. ولكن هذا العرض يتسم ببعض التبسيط، لأن أصحاب السلطة من المشاركين قد يستطيعون عدم المبالاة بالأعراف إلى حد ما، وكذلك السماح أو عدم السماح بدرجات متفاوتة من الحرية للمشاركين ذوى السلطة المحدودة.

توجد أوجه شبه واضحة بين النص الوارد فى المثال السابق وبين نص المقابلة الشرطية الذى نوقش فى الفصل الثانى، من حيث علاقات السلطة غير المتكافئة بين المشاركين. قارن هذا النص بذاك وانظر النتائج التى يمكن أن تخرج بها بشأن جوانب التشابه والاختلاف بين الأساليب التى يتعامل بها رجال الشرطة مع الشهود والأساليب التى يعامل بها الأطباء طلاب الطب.

السلطة فى اللقاءات عبر الثقافية

أعتقد أنه من المأمون أن نفترض فى المثال الذى تأملناه أن الطلاب يستطيعون أن يعملوا فى إطار القيود الخاصة بنمط الخطاب المشروع الذى يفرضها الطبيب. ولكن ما شأن اللقاءات غير المتكافئة التى يتصف فيها من لا يملكون السلطة بخلفيات ثقافية ولغوية تختلف عن خلفيات أصحاب السلطة؟ وهو أمر شائع مثلًا فى لقاءات 'حُرَّاسِ المدخل'، مثل اللقاءات التى تجرى فى المقابلات الشخصية مع الطامحين فى الحصول على وظيفة، فإن 'حارس المدخل' الذى ينتمى عمومًا إلى المجموعة الثقافية المهيمنة فى المجتمع يتحكم فى اللقاء الذى يحدد إذا ما كان شخص ما سوف يحصل على وظيفة أو يصل إلى هدف ثمين آخر. ففى بريطانيا الحديثة مثلًا نجد أن الأشخاص من ذوى

البشرة البيضاء من أبناء الطبقة المتوسطة هم الذين يقومون بحراسة المدخل فى هذه اللقاءات مع أعضاء شتى الأقليات العرقية (والثقافية) من ذوى الأصول الآسيوية، أو الإفريقية، أو المنتمين إلى جزر الهند الغربية وهلم جرًّا.

وتتفاوت أنماط الخطاب ونظم الخطاب ما بين ثقافة وثقافة. لكنه من المحتمل أن يقوم حراس المدخل البيض المنتمين إلى الطبقة المتوسطة بفرض قيود على أنماط الخطاب التى يمكن أن ينهل منها المنتمون إلى المجموعة الثقافية المهيمنة فى مثل لقاءات حراسة المدخل المذكورة. والواقع أن الحساسية للاختلافات الثقافية تزداد فى بعض الحالات، ولكنها تزداد ببطء. فالذين يجرون المقابلات يميلون مثلًا إلى افتراض أن من يقابلونهم يحيطون بالأساليب السائدة لإجراء المقابلات، ومن ثم فهم يفسرون إجابات من يتقدم إليهم مفترضين أنه قادر على إدراك المطلوب وقادر على الوفاء به، من حيث هذه الأعراف السائدة. وهكذا فإذا أجابت إحدى المتقدمات على سؤال إجابة بدت للسائل ضعيفة أو خارج الموضوع، فمن المحتمل أن يعزوها السائل إلى افتقارها إلى المعرفة أو الخبرة المطلوبة، أو إلى عدم تعاونها وما إلى هذا بسبيل، وأما إمكان إرجاع سبب سوء التواصل إلى الاختلافات فى أعراف الخطاب فنادرًا ما تخطر على باله. وهكذا فقد يحرم الناس من الحصول على الوظائف وغيرها من 'الخيرات' الاجتماعية القيمة بسبب التصورات الخاطئة القائمة على عدم الحساسية الثقافية وعلى الهيمنة.

والواقع يزخر بالأمثلة على وقوع سوء التواصل. والمقتطف التالى، على سبيل المثال، مأخوذ من نموذج محاكاة لمقابلة شخصية بشأن الحصول على وظيفة فى مكتبة مع عضو من أعضاء إحدى الأقليات الثقافية الأمريكية (ويرمز لها بالرمز ث ٢):

السائل: ما أكبر ما يثير اهتمامك فى المكتبة؟

ث٢ : تقصد المكتبة من حيث الكتب؟ أم المبنى كله؟

السائل: أى جانب تودين أن..

ث٢ : أوه! كتب الأطفال، لأن عندى طفل، والأطفال... يعنى ما أكثر

الكتب التى يمكن أن يقرؤوها، يعنى، والأشياء الصغيرة التى تهمهم تهمنى أنا أيضًا.

النص ٣ – ٢ المصدر: أكيناسو وأچيروتوتو ١٩٨٢: ١٢٤

لاحظ أن لغة 'ث٢' الإنجليزية مثل لغة أبناء البلد من حيث النحو والمفردات، وهذا فى ذاته من المحتمل أن يغرى مدير المقابلة باستبعاد أية أفكار عن وقوع سوء تواصل بسبب اختلاف الثقافة، حتى ولو خطرت له هذه الأفكار. ولكن هذا مجرد احتمال فقط. فإن 'ث ٢' قد عجزت عن تفسير سؤال مدير المقابلة عما 'يعنيه بوضوح'، أى باعتباره يدعو 'ث٢' إلى أن تبين ما تستطيع أن تفعله فى عملها المهنى إذا نجحت فى التعيين فى تلك الوظيفة. ولكن 'المعنى الواضح' المشار إليه هو المعنى الوارد فى ثقافة محددة هى ثقافة المقابلة الشخصية، ولا يوجد سبب مضمر يمنع الناس من تبيان ارتباط اهتماماتهم العملية بحياتهم الأسرية واهتماماتهم الأخرى ردًّا على سؤال من هذا النوع.

قد نجد ما يبرر اللجوء إلى 'سوء التواصل' فى تفسير نتائج المقابلات الشخصية التى يحرم فيها الأفراد من الوظائف أو غيرها من 'الخيرات' استنادًا، إلى حد ما، إلى الاختلافات الثقافية. ولكن أمثال هذه الحالات تقع بصورة أشدَّ انتظامًا وأشدَّ منهجيةً مما يوحى به التبرير المذكور، والواقع أنها تستند لا إلى الاختلافات الثقافية فى الخطاب وحدها بل أيضًا إلى اختلافات أشد سُفورًا فى لون البشرة وأسلوب الحياة. فالسلطة فى الخطاب بين أعضاء الجماعات الثقافية المختلفة تعتبر من هذا المنظور عنصرًا من عناصر هيمنة الأغلبية البيضاء على الأقليات السوداء والآسيوية خصوصًا، ومن مظاهر العنصرية الراسخة.

كانت الأمثلة المقدمة إلى الآن أمثلة للخطاب فى المواجهات الشخصية، ولكن نسبة لا يُستهان بها من الخطاب فى المجتمع المعاصر تتضمن فى الواقع مشاركين يفصل بينهم الزمان والمكان. وهذا مما يصدق على اللغة المكتوبة بصفة عامة ولكن المجال الذى شهد نمو هذا النوع من الخطاب كان مجال أجهزة الإعلام الجماهيرية، أى التليفزيون والإذاعة والسينما والصحف. ويهمنا خطاب هذه الأجهزة لأن طبيعة علاقات السلطة التى تمثلها كثيرًا ما تفتقر إلى الوضوح، ولدينا من الأسباب ما يبرر القول بأنها تتضمن علاقات سلطة خفية.

وأوضح اختلاف بين خطاب المواجهات وخطاب أجهزة الإعلام أن الأخير يدور من جانب واحد، ففى التفاعل وجهًا لوجه يتبادل المشاركون دورى منتج النص ومفسره، وأما فى خطاب أجهزة الإعلام، وفى الكتابة بصفة عامة، فنجد انقسامًا حادًّا يفصل بين المنتجين والمفسرين، أو – ما دامت نواتج هذه الأجهزة تكتسب بعض خصائص السلعة – بين المنتجين والمستهلكين.

وتختلف الحالتان فى جانب مهم آخر، ففى خطاب المواجهات يُطَوِّعُ المنتجون أقوالهم حتى تلائم من يتفاعلون معهم، أى إنهم يطوعون اللغة التى يستخدمونها ويواصلون هذا التطويع على امتداد المقابلة وفقًا لشتى ردود الأفعال التى يتلقونها من المشاركين. وأما خطاب أجهزة الإعلام فهو موجه للجماهير العريضة، ومن المحال على المنتجين أن يعرفوا أفراد الجمهور، ناهيك بتطويع الخطاب حتى يلائم شرائح الجمهور المنوعة. ولما كان على جميع منتجى الخطاب أن يوجهوه إلى بعض مفسريه، فإن المنتجين الإعلاميين يخاطبون ذاتًا مثالية، سواء كانت ذات المشاهد أو المستمع أو القارئ. أى إن الخطاب الإعلامى ينطوى فى بنائه الخاص على موقع للذات مخصص للذات المثالية، وعلى المشاهدين أو المستمعين أو القراء فى الواقع العملى أن يجتهدوا لإقامة علاقات ما مع الذات المثالية.

ولكن ما طبيعة علاقات السلطة فى خطاب أجهزة الإعلام؟ لنا أن نقول إن المنتجين يمارسون سلطة التحكم فى المستهلكين بمعنى أنهم يتمتعون وحدهم بحقوق الإنتاج ويستطيعون من ثم البت فيما يُدرج وما يُستبعد، وتحديد طرائق تمثيل الأحداث، بل (كما رأينا) فى مواقع ذوات جماهيرهم. ولكن من هؤلاء المنتجون على وجه الدقة؟ فلنضرب مثلًا محددًا حتى نستطيع الإجابة على هذا السؤال. النص ٣-٣ مقال منشور فى صحيفتى المحلية.

> **مشكلة سقوط بعض حمولة المحجر**
>
> لاتزال الشاحنات غير المغطاة الخارجة من محجر ميدلبارو تثير المشاكل لأنها تسقط بعض الأحجار منها أثناء مرورها بقرية وورتون، حسبما بلغ أعضاء مجلس الأبرشية فى اجتماعهم فى شهر سبتمبر.
>
> وقد أرسلت ملاحظات المجلس إلى إدارة المحجر، ويأمل الأعضاء فى أن يروا إدخال بعض التحسينات.

النص ٣ – ٣ المصدر: صحيفة لانكاستر جارديان، ١٢ سبتمبر ١٩٨٦

من الذى يمارس السلطة فعليًا فى هذا المقال القصير؟ ربما يكون الصحفى الذى كتب المقال. ولكن المشهور أن الصحفيين يخضعون لسلطة رئيس التحرير، وإذن فربما يكون المسؤول رئيس التحرير، أو ذلك الكيان المبهم الذى يسمى بالصحيفة، باعتبارها مؤسسة جماعية. ولكن هل الصورة التى تمثل اجتماع مجلس الأبرشية من رسم الصحيفة وحدها؟ أو: أليس من المحتمل أن الصحيفة تقدم صورة رسمها شخص آخر؟ وإذا كان الأمر كذلك، أليس يعنى منح قدر معين من السلطة لذلك 'الشخص الآخر'؟

فلنحاول التعميم انطلاقًا من هذا المثال، واضعين نصب أعيننا قضية نقل الأنباء بصفة خاصة. فمن الواضح إلى حد ما أن الأشخاص والمنظمات التى تستخدمها أجهزة الإعلام مصادر للأنباء لا يمثلون جميع الفئات الاجتماعية للسكان على قدم المساواة: فالوزراء يظهرون فى الصحف بنسبة تفوق كثيرًا ظهور العاطلين، ومديرو الشركات

ومسؤولو النقابات يظهرون أكثر مما يظهر عمال الشركات والمصانع. وإذا كان تفاوت تأثير الفئات الاجتماعية واضحًا نسبيًّا فيما يتعلق باختيار الأشخاص الذين يجرى الصحفى معهم مقابلاته، فإنه أقل وضوحًا، وإن كان بالغ الدلالة، من حيث المنظور الذى تتخذه الأنباء. فإذا دأبت الصحيفة على الإشارة إلى الخلافات بين أصحاب العمل والعمال بتعبير المتاعب أو تعطيل الإنتاج فإنها بذلك تدرج بانتظام وجهة نظر أصحاب العمل فى تغطيتها لأنباء الخلافات [والإضرابات].

والملاحظ فى أجهزة الإعلام البريطانية أن التوازن بين المصادر والمنظورات والأيديولوجيا يُرَجِّحُ ترجيحًا قاطعًا كِفَّةَ القابضين على السلطة فى لحظة زمنية معينة. وحيثما كان ذلك هو الحال – وأحيانًا لا تكون الحال كذلك – فلنا أن نرى أن علاقات السلطة فى أجهزة الإعلام علاقات تقوم على وسيط معين بين أصحاب السلطة وسائر السكان. وعلاقات السلطة ذوات الوسيط المذكورة تتضمن أولى العلاقات الجوهرية، وهى العلاقة الطبقية، فإذا عدنا لفكرة التوازن قلنا – من بعد وضع جميع أنواع الشروط والحدود – إن أجهزة الإعلام تعمل باعتبارها وسيلة للتعبير عن سلطة الطبقة والكتلة المهيمنة وإعادة إنتاجها. والسلطة التى تتوسل بالوسيط المذكور والتى يملكها أصحاب السلطة فى لحظة زمنية معينة تعتبر أيضًا سلطة خفية لأنها مضمرة فى ممارسات أجهزة الإعلام وليست صريحة.

ولنعرض الحجة بأسلوب أوضح، وإن كان يتعلق بالمثال الذى سقناه عاليه. الذى أريد التركيز عليه هنا هو مبدأ العلية: أى من الذى يصوره الخبر فى صورة المتسبب فى حدوث ما حدث، أو من الذى يصوره فى صورة من يفعل شيئًا يعود بالضرر على البعض. إن البناء النحوى للعنوان بناء الجملة الاسمية: أى إن الفعل معبر عنه بإسم، كأنما كان له كيان مجسد. ومن بين آثار هذا الشكل النحوى ترك بعض الجوانب الجوهرية للحدث دون تحديد، فنحن، على وجه الخصوص، لا نعرف من أو ماذا يسقط الحمولة أو يتسبب فى أن تسقط الحمولة، أى إن العلية غير محددة.

والفقرة الأولى من الخبر توضح الحدث، وإن لم يكن الوضوح كبيرًا. فالعِلِّيَّةُ تنسب إلى الشاحنات غير المغطاة الخارجة من محجر ميدلبارو. وهذا فى ذاته يتضمن عِلِّيَّةً غير محددة، فتعبير غير مغطاة يعنى ضمنًا عدم حدوث شىء، أى إن شخصًا ما لم يقم بتغطية الحمولة وكان الواجب (فيما نظن) أن يفعل. فمن الصعب أن نقبل حرفيًا القول بأن الشاحنات سبب المشكلة، ومن الواضح أن السبب قد يكون، إذا اختلف تصوير الحادثة، من أشرنا إليه بأنه "شخص ما"، والمفترض أنه إدارة المحجر أو العاملون تحت سلطة هذه الإدارة. ولكن إدارة المحجر لا يشار إليها إلا فى الفقرة الثانية من هذا الخبر، باعتبارها قد تلقت ملاحظات المجلس، وهو مصطلح يتحاشى من جديد نسبة أية مسؤولية إليها (وكان من الممكن أن تستبدل بها كلمة شكاوى).

يبدو أن هذا الخبر (وربما الاجتماع الذى يشير إليه، وإن كان ذلك يتعذر التيقن منه) مُوَجَّهٌ للإبلاغ عما كان يمكن أن نفسره، من منظور مختلف تمامًا، بأنه من عواقب أنانية أصحاب المحجر الذين لا خلاق لهم والذين ينشدون توفير الجهد والمال، بأسلوب يقدم العواقب من دون الأسباب أو المسؤوليات. وأما السلطة التى تُمارس هنا فهى سلطة إخفاء السلطة، أى إخفاء سلطة أصحاب المحجر ومن لف لفهم على أن يتصرفوا بأنانية وهم بمنجى من العقاب. أى إنها شكل من أشكال السلطة القادرة على فرض القيود على المضمون لصالح تفسيرات و'صياغات' معينة للأحداث، واستبعاد غيرها (مثل الصياغة البديلة التى قدمتها للتو)، وهى شكل من أشكال السلطة الخفية، إذ إن التفسيرات والصياغات الراجحة تنتمى لمن يمسكون بزمام السلطة فى مجتمعنا، وإن بدا أنها تنتمى إلى الصحيفة وحسب.

فلننظر إلى مثال آخر يختلف إلى حد ما عن هذا. والمقتطف فى النص ٣-٤ مأخوذ من بداية مقال منشور فى الصفحة الأولى من صحيفة يومية فى إبان حرب جزر فوكلاند:

القائد الجديد لقوات المظلات

زوجة الرائد تقول : سوف يحسن أداء مهمته

تحدثت ليلة أمس زوجة القائد الجديد لكتيبة المظلات الثانية عن مخاوفها إزاء سلامة زوجها.

قالت جيني كيبيل فى أثناء اللعب فى ضوء الشمس مع أطفالها الأربعة إنها تأمل ألا يشتبك زوجها فى القتال مرة أخرى.

قالت: "أدعو الله أن يكون قد قام مع زملائه بما يكفى. ولكن إذا واصلوا القتال فأنا على ثقة أنه رجل سوف يقوم بالمهمة على خير ما يستطيع، وأنا واثقة من نجاحه ونجاح كتيبة المظلات الثانية".

كان قد عُيِّن الرائد كريستوفر كيبيل، وهو كاثوليكى ورع فى الأربعين من عمره، خلفًا للعقيد هيربرت جونز الذى مات أثناء قيادة رجاله فى الهجوم على موقع للرشاشات فى معركة اقتحام جوس جرين.

وبالأمس اجتمعت أسرة جينى كيبيل وأصدقاؤها فى حديقة منزلها الواقع فى محيط الكنيسة العتيقة، وهو منزل مديد الأطراف من طراز تيودور فى بلدة مادينجتون فى سولزبرى بلين، وتناول الجميع الطعام بأسلوب النزهة ساعة العصر، إذ كانت تحاول الإبقاء على جو الحياة الطبيعية من أجل الأطفال.


The Paras' new leader

He'll do his job well says major's wife

النص ٣ – ٤ المصدر صحيفة الديلى ميل، أول يونيو ١٩٨٢

ما صورة چينى كيبيل المقدمة هنا؟ ما صورة زوجات ضباط الجيش التى تخرج بها من هذا المقتطف؟ ما الانطباع الذى تتركه فى نفسك صورة الرائد كيبيل؟ هل تجد أن عليك أن تتعامل مع موقع ذات مثالى بناه المنتج للنص فى نصه؟ ما هذا الموقع؟

القضية التى يثيرها رسم صورة جينى كيبيل تعتبر شكلًا آخر من أشكال القيد المفروض على المضمون: فإن أمثال هذه الصور تعمل تراكميًّا على تنميط صورة 'زوجات رجال الجيش' وبصفة أعم زوجات الشخصيات العامة المفضلة ومن ثم تفرض القيود على المعانى التى يراها الناس فيهن. ويتـم هذا التصوير بالتمييز العميق بين الجنسين، إذ يعتمد على أن ينسب إلى چينى كيبيل صفات اقترنت تقليديًّا بتعريف 'الزوجة الصالحة'. لاحظ أن المقال لا يذكر فى هذا المقتطف (ولا فى بقية المقال) أن چينى 'زوجة صالحة' صراحةً، أو حتى أنها شخص جدير بالإعجاب؛ بل يعتمد اعتمادًا كاملًا على قدرة 'القارئ المثالى' على استنباط ذلك من قائمة الصفات المذكورة، فهى تعبر عن الثقة فى القدرات المهنية التى يتمتع بها زوجها، ويساورها القلق على سلامته، وهى 'تدعو الله' أن يكون قد أدى ما فيه الكفاية وتحاول الحفاظ 'على جو الحياة الطبيعية من أجل الأطفال'. ولكن هذا يدل على أن ما يخضع للقيود لا يقتصر على المضمون بل يضم الذوات أيضًا؛ فالمقال يفترض أن القارئ المثالى سوف ينجح فى استنباط المعانى 'الصحيحة' من القائمة، أى ستخطر له الأفكار 'الصحيحة' عن صفات 'الزوجة الصالحة'. وأمثال هذه النصوص تعيد إنتاج التمييز بين الجنسين، بشرط أن يحتل القراء عمومًا موقع القارئ المثالى ولا يعارضونه.

تتـم اللقطات الفوتوغرافية بالتفاوت فيما بينها، فأى صورة إنما تقدم صورة واحدة لمشهد أو شخص من بين العديد من الصور الممكنة. والاختيار بالغ الأهمية لأن اختلاف الصور يؤدى إلى اختلاف المعانى. ففى هذا النموذج مثلًا أجد أن انتباهى مشدود بصفة خاصة إلى عينى الرائد، فهو ينظر إلى الأمام مباشرة، كأنما إلى وجه القارئ، نظرة تقييم إلى حد ما، ويكسو وجهه الجد الذى يخفف منه شبح ابتسامة عند ركنى فمه (ويمكن أن تكون ابتسامة لا مبالاة). ولاحظ الوظيفة الغامضة للكلام المصاحب للصورة [الذى يقول: ''الرائد كيبيل... سوف يقود المظليين فى المعركة''] هل يؤكد لنا ما 'تقوله' الصورة، أم يوجهنا إلى أن 'نقرأ' الصورة على هذا النحو؟ مهما يكن الأمر فإن الصورة فى إطارها اللغوى تدلنى على أن الرائد كيبيل يمثل كل ما أتوقع من قائد وحدة عسكرية متميزة أن يكونه.

انظر فى نهاذج أخرى للأسلوب الذى تتفاعل به الصور والألفاظ فى الصحافة، وفى التليفزيون، وفى لوحات الإعلان الضخمة وما إليها. هل تستطيع أن تلمح تقنيات خاصة لنقل انطباعات معينة عن الأشخاص؟

تعتمد السلطة الخفية للخطاب الإعلامى وقدرة الطبقة الرأسمالية وغيرها من أصحاب السلطة على ممارسة هذه السلطة على اتجاهات منهجية فى نقل الأنباء وغير ذلك من الأنشطة الإعلامية. والنص الواحد لا قيمة له فى ذاته، فآثار السلطة الإعلامية تراكمية، ويرجع نجاحها إلى تكرار طرائق معينة لمعالجة العلية والفاعلية، وطرائق معينة لتحديد موقع القارئ، وما إلى ذلك بسبيل. وهكذا يستطيع الخطاب الإعلامى من خلال تحديد مواقع القراء، مثلًا، أن يمارس تأثيرًا قويًا ونفاذًا فى مجال إعادة الإنتاج الاجتماعى بسبب ضخامة أجهزة الإعلام الحديثة والارتفاع الشديد فى مستوى استقبال السكان جميعًا فى بلدان شتى للإنتاج الإعلامى المتسم بالتجانس النسبى. ولكن الحذر مطلوب هنا، فالناس تكافح فعلًا لتحديد علاقتها بالذوات المثالية، وهو ما يعنى الحفاظ على ابتعادهم أو حتى الاشتباك فى صراع مباشر ضدهم. أى إن سلطة أجهزة الإعلام ليست نتيجة تلقائية لمجرد وجودها.

هل تتسم السلطة الخفية لأجهزة الإعلام بالتلاعب؟ من الصعب تقديم إجابة قاطعة على هذا السؤال: إذ تتسم بذلك أحيانًا من زوايا معينة، ولا تتسم بذلك أحيانًا من زوايا معينة أيضًا. وربما استطعنا النظر إلى المشكلة بأن نتساءل عن الجهة أو الطرف المحدد الذى يُخفى الخطاب الإعلامى سلطته عنه؛ تراه يُخفيها عن الجمهور وحسب، أم إنه يُخفيها أيضًا، إلى حد ما على الأقل، عن الإعلاميين أيضًا؟لا شك فى وجود حالات يتعرض فيها إنتاج أجهزة الإعلام للتلاعب المقصود تحقيقًا لمصالح الطبقة الرأسمالية، ومن الحالات التى تكثر الإشارة إليها موقف إذاعة هيئة الإذاعة البريطانية (بى بى سى) أثناء الإضراب العام فى بريطانيا عام ١٩٢٦، إذ كانت هذه الإذاعة تؤيد الحكومة تأييدًا صريحًا فى سياق كانت القضايا الطبقية معروفة فيه للورد ريث، المدير العام للإذاعة المذكورة. ولكن كثيرًا من العاملين فى أجهزة الإعلام قد ينظرون إلى أساليب الإنتاج – التى يمكن تفسيرها بأنها تسهل على أصحاب السلطة ممارسة السلطة

الإعلامية – باعتبارها أساليب عمل مهنية من وجهة نظرهم الخاصة بمعايير الامتياز 'الداخلية' والمنطق الذى يتوسلون به من حيث القيود الخاصة بالوسائط التقنية، وبما يريده الجمهور، وغير ذلك من العوامل. والحق أن المعتقدات المهنية وافتراضات العاملين فى أجهزة الإعلام تقوم بدور مهم فى الحفاظ على إخفاء سلطة الخطاب الإعلامى عن الجماهير العريضة.

وأحيانًا ما تكون السلطة خفية أيضًا فى خطاب المواجهة، فمن الواضح مثلًا وجود علاقة وثيقة بين الطلب وبين السلطة، ذلك أن الحق فى أن يطلب المرء من شخص أن يفعل شيئًا كثيرًا ما يقوم على امتلاك الطالب سلطة معينة. ولكن الطلب يمكن أن يتخذ صورًا نحوية كثيرة، بعضها مباشر وتتسم بها علاقة السلطة صراحةً، وبعضها غير مباشر والطلب فيها ضمنى إلى حدما. والتعبير المعتاد عن الطلبات المباشرة يتخذ نحويًا شكل الجمل التى تتضمن أفعال الأمر، مثل "انسخى لى هذه الرسالة على الآلة الطابعة قبل الساعة الخامسة". والطلبات غيرالمباشرة يمكن أن تكون، بصورة ما، غير مباشرة، وعادة ما يتخذ التعبير النحوى عنها شكل أسئلة تتميز بدرجات متفاوتة من اللف والدوران مما يتفق مع الطلب غير المباشر، مثل "هل تستطيعين نسخ هذه الرسالة لى قبل الساعة الخامسة؟" أو "هل تعتقدين أنك تستطيعين نسخ هذه الرسالة لى قبل الساعة الخامسة؟" أو "ترى أستطيع أن أطلب منك نسخ هذه الرسالة لى قبل الساعة الخامسة؟" وتوجد طرائق أخرى للطلب غير المباشر من خلال التلميح فقط، مثل "أود أن أرسل هذه الرسالة فى بريد الساعة الخامسة".

لم تختار مديرة إحدى الشركات (مثلًا) شكلًا غير مباشر كى تطلب من سكرتيرتها نسخ رسالة على الآلة الطابعة؟ قد يرجع السبب – خصوصًا إذا لجأت المديرة إلى التلميح أو أحد الأسئلة القائمة على اللف والدوران – إلى ما يعتبر 'تلاعبًا'، بمعنى أنه إذا كانت الرئيسة قد جعلت تضغط على سكرتيرتها بطلباتها طول النهار، فإن هذا الشكل من أشكال الطلب قد ينجح فى تفادى تململ السكرتيرة أو حتى رفضها. ولكن الأعراف تقول إن أمثال الموقف الذى وصفته تُستخدم فيه أشكالٌ غير مباشرة للطلب،

دون اللجوء إلى الكثير من اللف والدوران، مثل "هل تستطيعين/ هل تنسخين لى/ هل يمكن أن تنسخى...) وإذن يصبح السؤال: لماذا يلجأ مديرو الشركات وغيرهم ممن يتمتعون بالسلطة بانتظام إلى تجنب زيادة إظهار سلطتهم عما ينبغى. ويؤدى بنا ذلك إلى العلاقة بين السلطة الخفية والصراع الاجتماعى، وهل التى أناقشها فى القسم الأخير من هذا الفصل.

الأمثلة التى ضربتها فى هذا القسم تتعلق بممارسة السلطة الخفية فى الخطاب. ولكن ما أسميه 'السلطة من وراء الخطاب' سلطة خفية أيضًا، وذلك لأن تشكيل علاقات السلطة لنظم الخطاب لا يتضح بصفة عامة للناس. وإذن فهذه لحظة مناسبة للانتقال إلى ما وراء الخطاب.

السلطة من وراء الخطاب

تقول فكرة 'السلطة من وراء الخطاب' إن النظام الاجتماعى للخطاب يصبح كيانًا كليًّا متماسكًا بفضل التأثير الخفى للسلطة. وسوف أستهل هذا القسم ببُعد واحد من أبعاد هذه الفكرة، وهو بُعد التوحيد القياسى، وقد سبقت إشارتى إلى ذلك فى الفصل الثانى، والمقصود به إعلاء مكانة لهجة اجتماعية معينة حتى تصل إلى ما يسمى فى حالات كثيرة اللغة المعيارية أو حتى اللغة القومية. وسوف ينصبُّ تركيزى الآن على اللغة الإنجليزية البريطانية المعيارية أو القياسية.

اللغة المعيارية

قلت فى الفصل الثانى إننا ينبغى أن ننظر إلى التوحيد القياسى باعتباره جزءًا من عملية أوسع نطاقًا للتوحيد الاقتصادى والسياسى والثقافى، وهو الذى ارتبط بظهور الرأسمالية من رحم المجتمع الإقطاعى فى بريطانيا. ولهذه الرابطة بين الرأسمالية والتوحيد أساس اقتصادى: ألا وهو ضرورة وجود سوق محلية موحدة تضمن تثبيت دعائم الإنتاج السلعى. وهذا بدوره يتطلب التوحيد السياسى والثقافى. وللتوحيد القياسى أهمية اقتصادية مباشرة فى تحسين الاتصالات: فمعظم المشاركين فى النشاط

الاقتصادى يستطيعون أن يفهموا المستوى القياسى، حتى ولو لم يستطيعوا استثماره إنتاجيًا فى جميع الحالات. كما إن له أهمية سياسية وثقافية كبرى فى إنشاء كيان الأمة، و'الدولة - الأمة' هى الشكل المفضل للرأسمالية.

كانت اللهجة الاجتماعية التى تطورت فأصبحت الإنجليزية المعيارية لهجة منطقة شرق وسط انجلترا التى كانت تقترن بطبقة التجار فى لندن فى نهاية العصور الوسطى، وهو ما يؤكد ارتباطها بالرأسمالية، فإن هؤلاء التجار الإقطاعيين أصبحوا أول الرأسماليين، ونشأة الإنجليزية المعيارية ترتبط بنمو سلطة التجار. وكانت بدايات الإنجليزية المعيارية بالغة التواضع بالمقارنة بمكانتها البارزة اليوم، إذ كان الشكل المعيارى الناشئ لا يُستخدم إلا فى أماكنَ جِدِّ قليلة، ولأغراض جد قليلة، وعلى ألسنة أشخاص جد قليلين. وكان تأثير التوحيد المعيارى فى البداية مقصورًا على اللغة المكتوبة، ولم يتسع نطاقه إلا تدريجيًا ليشمل شتى جوانب الكلام، من النحو إلى المفردات بل والنطق.

ولنا أن نعتبر أن نموها عملية استعمار طويلة، تمكنت فيها من 'الاستيلاء' على كبرى المؤسسات الاجتماعية، وطرد اللغتين اللاتينية والفرنسية، وتوسيع نطاق الأغراض التى كانت تستخدم فيها، ومواردها الصورية نتيجة لذلك، والزيادة المطردة فى أعداد من يقبلونها (وإن لم يستعملوها على نطاق واسع). وكان من نتائج ارتباط الإنجليزية المعيارية بأبرز المؤسسات وأكبرها سلطة – كالأدب، والحكومة والإدارة، والقانون، والدين والتعليم وهلم جرًّا – أن بدأ بروز الإنجليزية المعيارية باعتبارها لغة السلطة السياسية والثقافية، ولغة من يملكون السلطة السياسية والثقافية. ومن المحال الفصل بين نجاح استعمارها لهذه المؤسسات وبين تحديثها فى فترة الانتقال من الإقطاع إلى الرأسمالية، أو من السلطة النامية فى داخلها للطبقة الوسطى الناشئة (البورجوازية).

وتطورت الإنجليزية المعيارية لا على حساب اللاتينية والفرنسية فقط بل أيضًا على حساب اللهجات 'غير المعيارية' الأخرى (وعلى حساب اللغات الأخرى فى بريطانيا،

مثل اللغة الويلزية والجيلية [اللغة السلتية فى سكوتلندا وأيرلندا] ولغات كثيرة أخرى منذ الحرب العالمية الثانية، ومن بينها عدد من اللغات الآسوية). كانت اللغة الإنجليزية المعيارية تعتبر الإنجليزية الصحيحة، وغيرها من اللهجات الاجتماعية يحمل وصمة استهجان لا من حيث الصحة فقط بل أيضًا من زوايا تستهجن أساليب حياة الناطقين بها وأخلاقهم بصورة غير مباشرة، وهم أفراد الطبقة العاملة الناشئة فى المجتمع الرأسمالى، فكانوا يوصفون بأنهم سوقيون، حقراء المظهر، منحطون، همجيون وهلم جرًّا. أى إن ترسيخ سيادة الإنجليزية المعيارية وفرض الدونية على جميع اللهجات الاجتماعية الأخرى كانت جزءًا لا يتجزأ من ترسيخ هيمنة الطبقة الرأسمالية وفرض مرتبة أدنى على الطبقة العاملة.

كان تقنين اللغة المعيارية يمثل جانبًا أساسيًا من جوانب هذه الخطوة، وهى التى اقترنت بوضع القواعد الملزمة، أى وصف أشكال اللغة المعيارية بأنها الأشكال 'الصحيحة' الوحيدة. والتقنين يهدف إلى عدم تجاوز الحد الأدنى من الاختلاف فى الشكل من خلال وضع شفرة اللغة المملاة إملاءً فى صورة مكتوبة، فى كتب النحو والمعاجم ومعاجم النطق وكتب الهجاء. وقد وقعت ذروة التقنين فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر، وكان جانب كبير من قراء الأعداد الهائلة من كتب النحو والمعاجم التى نشرت فى مطلع الانقلاب الصناعى ينتمى إلى رجال الصناعة وأسرهم.

وتتسم الإنجليزية المعيارية بعنصر من عناصر الشيزوفرينيا، بمعنى أنها تطمح فى أن تصبح لغة قومية (وتصور قطعًا فى هذه الصورة) أى بأنها تنتمي إلى جميع الطبقات وفئات المجتمع، ومع ذلك فلاتزال، من عدة زوايا، لهجة طبقية. وتتضح سلطة مزاعمها بأنها لغة قومية، حتى بالنسبة لمن يستخدمونها استخدامًا محدودًا، فى انتشار تقليل أفراد الطبقة العاملة من مكانة ذواتهم حين يقولون إنهم لا يتكلمون الإنجليزية، أو لا يتكلمون الإنجليزية 'الصحيحة'. ولكنها من ناحية أخرى لهجة طبقية، ولا يقتصر سبب ذلك على ارتباط سيادتها بمصالح الطبقة الرأسمالية بالأسلوب التى رسمت خطوطه العريضة، ولكن أيضًا لأن الكتلة المهيمنة هى التى تنتفع أكبر انتفاع

باستخدامها، وتحظى بأقصى المكاسب باعتبارها رصيدًا ثمينًا، أى بصفتها شكلًا من أشكال 'الرأسمال الثقافى' الشبيه برأس المال الاقتصادى، وفق تعبير پيير بورديو.

والإنجليزية المعيارية رصيد ثمين لأن استخدامها يمثل بطاقة دخول إلى مجال الوظائف الجيدة ومواقع النفوذ والسلطة فى المجتمعات القومية والمحلية. ويصدق هذا بطبيعة الحال على الإنجليزية المعيارية باعتبارها لغة مكتوبة، ولكنه يصدق كذلك على الإنجليزية المعيارية المنطوقة، بما فى ذلك استخدام أشكال النطق المقبول أو المعتمد، وهو نمط النطق الذى يستخدمه معظم السياسيين وصحفيى التليفزيون والإذاعة، وأساتذة الجامعات، وكبار مديرى الشركات الصناعية، وكبار موظفى الحكومة، وهذا على وجه الدقة ما ترمى إليه حجتى!

وكما قلت قبل فقرة، أو فقرتين، قد يعترف الناس عمومًا بسيادة اللغة المعيارية، ولكن هذا لا يعنى أنهم يستخدمونها دائمًا، أو حتى أنهم يقبلونها بكل معنى الكلمة. فالواقع أنها تواجه مقاومة شديدة من جانب من يتكلمون لهجات اجتماعية أخرى، وكذلك من يتكلمون لغات أخرى فى بريطانيا الحديثة المتعددة اللغات. (انظر القسم الأخير من هذا الفصل). وهذا فى ذاته يعنى أن الناس تدرك الشيزوفرينا التى أشرت إليها، فالناس تعرف أنها لغة غيرهم، وليست لغتهم، على الرغم من المزاعم التى تقول بعكس ذلك. ومع ذلك فلا يعنى هذا أن الناس يدركون الأساس السلطوى لهذه المعيارية، فقد يعرفون أن 'المعيار' ينتمى من زاوية معينة إلى الكتلة المهيمنة، وأما مسؤولية الكتلة المهيمنة عن تبيان وتحديد العلاقة والمراتب ما بين اللغات واللهجات الاجتماعية فهى عمومًا خفية.

كثيرًا ما نسمع لهجات اجتماعية غير معيارية فى الإذاعة وفى التليفزيون هذه الأيام، ولكننى أشعر أن بعض الأدوار الرئيسية فى الإذاعة لاتزال مقصورة على الأشكال المنطوقة المعيارية. حاول أثناء الإصغاء أن تجد لهجات تختلف عن النطق المقبول أو المعتمد. ما الصفات الأساسية التى يظهر فيها هؤلاء (مثل قراء نشرات الأخبار، والمذيعين، ومن يجرون الحوارات مع الضيوف، والضيوف أنفسهم، وأصحاب برامج الترفيه). هل يغلب أن يظهر هؤلاء فى برامج معينة (مثل البرامج الإخبارية، أو الفكاهية،

أو المسابقات، أو الأفلام الوثائقية)؟ هل توجد أنواع أو أنماط معينة من البرامج التى يظهر فيها متحدثون بغير أسلوب النطق المقبول؟ وما رأيك فى إعلانات التليفزيون؟ هل تتضمن أدوارًا معينة مفتوحة أمام من لا ينطقون النطق المعيارى؟

السلطة من وراء الخطاب: نمط خطاب

أريد الآن تغيير التركيز، مع استمرار مناقشة 'السلطة من وراء الخطاب'، حتى أنظر فى نمط خِطابى معين باعتباره 'ناجمًا عن السلطة'، أى باعتبار أن له أعرافًا تجسد علاقات سلطة معينة. والمثل الذى اخترته هو خطاب الفحوص الطبية، وخصوصًا فحوص أمراض النساء والولادة. وينصبُّ تركيزى بصفة خاصة على المواقع التى يشغلها العاملون بالمهن الطبية والمرضى بالنسبة لبعضهم البعض فى إطار أعراف نمط الخطاب، وكيف يمكن أن ينظر إلى احتلال هذه المواقع باعتباره أثرًا من آثار السلطة التى يتمتع بها من يسيطرون على المؤسسات الطبية ويُملون الأعراف، ويسيطرون من ثم على الأطباء والمرضى معًا.

وتقول إحدى الدراسات لفحوص أمراض النساء إن المشاركين فيها يتعرضون لضغوط متناقضة فالأطباء يرون أنهم مضطرون لمعاملة المرضى بأسلوب ينم عن عدم الاكتراث وعدم الانغماس، أى باعتبار المرضى حالات [موضوعية] تقنية، لإثبات أن اهتمامهم بأجسامهن اهتمام طبى لا جنسى؛ ومع ذلك فهم يرون أنهم مضطرون أيضًا لمعاملة المريضة بالحساسية اللازمة لإشعارها أنها إنسان، أى لإلغاء المهانة الكامنة فى معاملتها معاملة الحالة التقنية، ومحاولة التغلب على احتمال إحساسها بالحرج، نظرًا لغلبة التحريم الاجتماعى للكشف عن الأعضاء التناسلية لغير من يتمتع بالصلة الحميمة بالفرد. وتتضح هذه الضغوط المتناقضة فى أعراف هذا النمط الخِطابى.

فالقيود المفروض مثلًا على مكان فحوص أمراض النساء ذات أهمية كبرى لضمان اعتبار اللقاء لقاءً طبيًا وليس مثلًا لقاء جنسيًّا. ولا يمكن إجراء هذه الفحوص بصورة مشروعة إلا فى 'مكان طبى' كالمستشفى أو العيادة، وهو ما يعنى ضمنًا وجود 'تشكيلة' كاملة من اللوازم الطبية التى تضفى المشروعية على اللقاء. كما توجد قيود

أيضًا على الأشخاص الذين يستطيعون المشاركة، أى إن 'مواقع الذوات' المشروعة محدودة، وتشمل الطبيب والممرضة والمريضة، كما يتضمن التحديدُ الصارمُ من يستطيع أن يشغلها. وتوجد شروط خاصة بأنواع الملابس التى تؤكد خصائص المكان وتشارك فى تأكيد الطابع الطبى للقاء و'السلوك' المتوقع (كما سوف نرى)، وقيود على موضوعات الحديث، أى إن الأسئلة التى يسألها الأطباء عن الوظائف الجسدية والخبرة الجنسية يجب أن تتعلق بالمشكلة الطبية المطروحة وحدها، بحيث يصبح من غير المسموح به، مثلًا، أن يتطور موضوع الحديث، على نحو ما نشهده فى غير ذلك المكان، بحيث يسمح بالانتقال إلى مناقشة عن الحياة الجنسية للمريضة.

وتتسم الأنشطة المتتابعة التى يتكون منها الفحص بأنها روتينية إلى حد بعيد، أى تتبع إجراءات معتمدة، وتشمل هذه الخاصية الروتينية أيضًا الجوانب اللغوية وغير اللغوية للطرائق التى تُبنى بها علاقة الأطباء بالمرضى. فالأطباء يبينون 'عدم انغماسهم' من خلال نوع النظرة التى يلقونها على جسد المريضة، فهى نظرة تقدير مهنى (لا نظرة تقييم جمالى). ويتبدى ذلك أيضًا فى تعامل الطبيب بأسلوب سريع نشط يتميز بالكفاءة مع جسد المريضة، وكذلك فى الأسئلة والطلبات التى يقدمها إليها، فهى على سبيل المثال تنزع الصفة الشخصية عن الأعضاء التناسلية للمريضة بالإشارة مثلًا إلى 'المهبل' لا إلى 'مهبلك'.

ولكن جهود الأطباء لتحقيق التوازن بين 'عدم الانغماس' والحساسية، وفق الضغوط المشار إليها عاليه، تتضح أيضًا فى خطابهم. فهم كثيرًا ما يتحاشون استخدام الألفاظ التى قد تسبب الحرج لمرضاهم، بالتلطف فى التعبير (هل غسلت ما بين رجليك؟) أو الاعتماد على التعبيرات الإشارية (متى كانت أول مرة شعرت فيها بصعوبة فى هذه المنطقة السفلية؟) ويستخدم الأطباء نبرات الصوت الهادئة التى تبعث الاطمئنان لتشجيع المريضة على الاسترخاء (عندما يقولون كلامًا مثل: استرخى الآن قدر الطاقة، وسوف أتلطف بأقصى ما أستطيع) وهو ما يسهم فى إضفاء الطابع الشخصى على الفحص. ومن المهم أن أؤكد أنه على الرغم من الانطباع الذى تخرج به

بعض المريضات من أنهن تلقين فعلًا فحصًا خاصًا بهن، فإن هذه العبارات أساليب روتينية مثل التى ذكرتها فى الفقرة السابقة.

كان حديثى ينحصر حتى هذه اللحظة فى طرائق احتلال العاملين بالمهن الطبية لمواقعهم، ولكن هذا يصدق أيضًا على المرضى، كما سوف يبين الملخص التالى لرأى الأطباء فيما ينبغى أن يكون عليه سلوك المريضة فى فحوص أمراض النساء:

> يجب أن يكون صوت المريضة هادئًا لطيفًا دون مغالاة، معبرًا عن الثقة بالنفس، وغير شخصى. ويجب أن يوحى وجه المريضة بالانتباه، وبالحياد، ويميل إلى اللطف المحدود والود، كأنها تحادث الطبيب فى مكتبه، مرتدية ثيابها الكاملة وجالسة فى أحد المقاعد. وعلى المريضة أن توجه بصرها بانتباه إلى أعلى، إما إلى السقف أو إلى الأشخاص الآخرين فى الغرفة، وأن تكون عيناها مفتوحتين، وذواتى نظرات غير 'حالمة' أو شاردة، بل على استعداد فى أية لحظة لإعادة النظر إلى وجه الطبيب لتبادل كلام محدد. ولكن المفترض أن تتحاشى المريضة النظر إلى عينى الطبيب أثناء الفحص الفعلى إلا لتبادل الكلام المذكور، لأن تلاقى نظرات العيون مباشرة فى هذا الوقت يعتبر استفزازيًا. ودورها يتطلب السلبية وإنكار الذات. وعلى المريضة أن تبدى استعدادها للتخلى عن السيطرة وتركها للطبيب. وعليها أن تمتنع عن الأحاديث المطولة وعن توجيه استفسارات تقتضى إجابات مطولة من الطبيب. وعليها ألا تسهب فى الحديث عن شخصيتها حتى لا تؤكد موقعها الحالى المهين، أى إنه لابد من طمس الذات للحفاظ على مقولة إن الطبيب يفحص حالة تقنية لا شخصًا.

هل كنت يومًا ما فى موقع يُتوقع منك فيه أن تتصرف تصرفًا مماثلًا؟ كيف نُقلت إليك تلك التوقعات؟ هل أحس القراء الذكور يومًا ما بضرورة 'طمس الذات' بأسلوب مماثل من قريب أو من بعيد؟ هل تُعزى الدوافع من وراء هذه التوقعات إلى طبيعة المناسبة وحدها، أم أنها تتعلق بأنوثة المريضة؟

فلندخل السلطة الآن فى الصورة. فالعاملون بالمهن الطبية، والطبيب خصوصًا، يمارسون سلطتهم على المريض (كما يمارس الطبيب سلطته على سائر العاملين بالمهن الطبية) فى اللقاءات القائمة على هذا النمط من أنماط الخطاب، وفقًا لأعرافه التى تمنح حق التحكم فى اللقاءات للعاملين بالمهن الطبية وخصوصًا للأطباء. ومن المحتمل أن يفرض هؤلاء، فى إطار سلطتهم، نمط الخطاب على المرضى، بمعنى الضغط عليهم بطرائق شتى لاحتلال مواقع الذوات التى يحددونها للمرضى، وأن يتصرفوا بأساليب معينة مقيدة. وهذه من جوانب السلطة فى داخل الخطاب، ولكن الذى يهمنى هنا هو السلطة من وراء الخطاب، أى تأثير السلطة الذى يؤدى إلى فرض نمط الخطاب المذكور بجميع خصائصه على جميع المشاركين هنا، من العاملين بالمهن الطبية إلى المرضى، ويبدو أن سلطة فرض ذلك تنتمى إلى المؤسسة الطبية أو النظام نفسه.

ولكن السلطة من وراء أعراف نمط الخطاب لا تنتمى إلى المؤسسة نفسها (مهما يكن المعنى الذى يُفهم من الكلمة) بل إلى من يملكون السلطة فى المؤسسة نفسها. ويتمثل أحد المؤشرات على هذا فى مراقبة تنفيذ الأعراف، والأسلوب الذى تُفرض به، سواء كان ذلك بالدلالة السلبية لنوع العقوبات التى تُفرض على من يخرقها أو بالدلالة الإيجابية لأنواع المكافآت التى ترصد لمن يلتزم بها. ومراقبة تنفيذ الأعراف فى أيدى أصحاب السلطة فى المؤسسة، على مستويات شتى. وهكذا نرى، فى حالة الفحوص الطبية، أن العاملين بالمهن الطبية هم الذين يلتقون أساسًا بالمرضى، فهم أصحاب السلطة بالنسبة لهم، وهم الذين يفرضون التزام المرضى بالأعراف، وأما التزام هؤلاء العاملين بها فيخضع لسلطة الذين من فوقهم فى المراتب داخل المؤسسة، من خلال إجراءات خاصة بتأديب الأفراد، والتعامل مع أى انحراف مهنى، وكذلك من خلال الترقيات وهلم جرًّا.

وينقلنا البحث فى طرائق تشكيل من يملكون السلطة من وراء الخطاب لهذه الأعراف إلى قضايا الفصل الرابع لأن هذا التشكيل يجرى من خلال الأيديولوجيا. وهكذا نرى، فى المثال الذى ضربناه أننا نستطيع أن ننظر إلى الأعراف التى تحدد العلاقة بين مواقع العاملين بالمهن الطبية ومواقع المرضى باعتبارها تجسيدًا للأيديولوجيات

المهيمنة الخاصة بالطب باعتباره مؤسسة اجتماعية، أى إنها أيديولوجيات الذين يتحكمون فى الطب. والواضح أن ماهية الطبيب، وماهية الممرضة، وماهية المريضة، وما يشكل سلوكًا 'مهنيًا' تجاه المرضى، وما إلى ذلك بسبيل، تعتبر جميعًا مسائل تقبل النقاش. والأعراف التى تحدد مواقع العاملين والمرضى فى فحوص أمراض النساء تقوم على أساس الأسلوب الذى تجيب به الأيديولوجيا المهيمنة عن هذه الأسئلة. وسوف أشرح كيف يجرى هذا فى الفصل الرابع.

ولكن دلالة اعتبار هذه الأعراف أثرًا من آثار السلطة من وراء الخطاب لا تنتهى هنا، إذ يمكن اعتبار هذه الأعراف نفسها، من منظور النظام المجتمعى للخطاب (لا من منظور النظام المؤسسى للخطاب) حالة خاصة تمثل اتجاهًا عامًا فى الأسلوب الذى تحدد به العلاقة بين مواقع المهنيين والعملاء، فى شتى التشكيلات المؤسسية وأنماط الخطاب التى يلتقى فيها من يتمتعون ببعض المناصب الرسمية ('المهنيون') 'بالجمهور' ('العملاء'). وأما الضغوط المتناقضة التى يتعرض لها العاملون بالمهن الطبية، أى الجمع بين معاملة المرضى معاملة توحى باللامبالاة – باعتبارهم 'حالات تقنية' – من ناحية، وبين إظهار الحساسية فى معاملتهم باعتبارهم أشخاصًا من ناحية أخرى، فليست فى نظرى (على نحو ما بَيَّنَهُ وصف فحوص أمراض النساء الذى أشرت إليه) خصيصة مقصورة على ظروف أمراض النساء بل ولا على الفحوص الطبية بصفة عامة، وإن كانت تلك الظروف الخاصة تضفى لونًا خاصًّا، فيما يبدو، على هذه الضغوط. وسوف يجد المرء التقنيات الخاصة بمعاملة الناس معاملة تجمع بين الكفاءة وعدم الاكتراث حيثما نظر فى المؤسسات العامة فى العالم الحديث. وعلى غرار ذلك، سوف يجد المرء ما سوف أسميه 'اصطناع المسحة الشخصية'، وهى اتجاه تعويضى يوحى بانطباع مفاده أن المرء يعامل كل فرد معاملة شخصية من أفراد الجمهور الذى يتعامل معه فى الواقع معاملة جماعية. ومن الأمثلة على ذلك رحلات الطيران (أرجو لك يومًا سعيدًا!) والمطاعم (مرحبًا بك فى ويمپى!) والمحادثات المحاكاة (مثل برامج 'الشات') ونماذج الدماثة التى تنتشر فى أجهزة الإعلام. وهذه الاتجاهات العامة فى نظام الخطاب الخاص بالمجتمع الحديث تتفق مع علاقات السلطة فيه والتقنيات الحديثة لممارسة السلطة، كما سوف أبين ببعض التفصيل فى الفصل الثامن.

وأما الجانب الثالث والأخير من جوانب 'السلطة من وراء الخطاب' الذى أريد أن أنظر فيه فلا يتعلق بتشكيل أنظمة الخطاب وأنماط الخطاب الذى يتكون منها، بل بإتاحة المشاركة فيها. فالسؤال هو: من الذى يستطيع المشاركة؟ وفى أية أنواع من الخطاب؟ ومن الذى يملك سلطة فرض القيود على المشاركة وتنفيذها؟

من المدهش أن أسطورة 'حرية الكلام'، أى 'حرية' كل فرد فى أن يقول ما يحب، أسطورة بالغة القوة، نظرًا للواقع الذى يقول بوجود أعداد بالغة الكثرة من القيود على المشاركة فى شتى أنواع الكلام والكتابة. وتمثل هذه أجزاءً لا تنفصل عن القيود الأعم المفروضة على الممارسة الاجتماعية، أى على المشاركة فى المؤسسات الاجتماعية المقصورة على فئة معينة، وفى ممارساتها، وخصوصًا فى أشد مواقع الذوات تمتعًا بالسلطة التى تنشئها هذه الممارسات. وبوجه خاص من حيث الخطاب، [تسرى القيود] على المشاركة فى أنماط الخطاب ومواقع السلطة الخِطابية. وتشبه هذه 'الخيرات الثقافية'، من زاوية معينة 'الخيرات' الاجتماعية الأخرى الثمينة ذات الطابع الملموس، مثل تراكم الثروة، والوظائف الجيدة، والمساكن الراقية، وهلم جَرًّا. وكلا النوعين من 'الخيرات' موزع توزيعًا غير متكافئ، وهكذا فإن أفراد ما أشرت إليه فى الفصل الثانى بتعبير الكتلة المهيمنة (الطبقة الرأسمالية، والطبقة الوسطى، والمهنيون) ينالون قدرًا من هذه الخيرات أكبر كثيرًا مما تناله الطبقة العاملة، أى إنهم أغنى فى الرأسمال الثقافى.

وتصلح الطقوس الدينية، مثل الصلوات فى الكنائس، لإيضاح معنى القيود المفروضة على المشاركة. فأنت لا تستطيع أن تؤدى واجبات خدمة القداس فى الكنيسة إلا إذا كنت كاهنًا، وهذا فى ذاته قيد على المشاركة، كما إنك لا تستطيع أن تصبح كاهنًا إلا من خلال عملية اختيار صارمة، عليك أثناءها أن تثبت أنك تفى بشتى 'شروط الدخول'، أى أن تكون مؤمنًا، ولديك رسالة، وتتمتع ببعض القدرات الأكاديمية، وتنطبق عليك معايير معينة من الأمانة والإخلاص والأخلاق الجنسية وهلم جرًّا. وهذه قيود أخرى على المشاركة.

والدين لا يختلف فى الواقع كثيرًا، من هذه الزاوية، عن الطب أو التعليم أو القانون. وقد لا تكون الفحوص الطبية، أو الدروس، أو التقاضى ذوات جوانب طقسية مثل صلوات الكنيسة أو القداس، ولكنها تمثل قيودًا صارمة على من يستطيع المشاركة فيها، وقيودًا صارمة أيضًا على من يستطيع الحصول على المؤهلات اللازمة لها. أما من ناحية المبدأ (وكذلك طبقًا للقانون وقواعد المهن) فإن من حق كل فرد أن يحصل على هذه المؤهلات، وأما فى الواقع العملى، فإن الذين يحصلون عليها ينتمون بصفة رئيسية إلى الكتلة المهيمنة ومعظم الناس لا يشاركون فى الطب أو التعليم أو القانون إلا بصفة 'العميل' – كالمريض، والتلميذ أو الطالب، وعميل المحامى – وليس 'العملاء' فعلًا من المشاركين 'داخليًا' فى أية مؤسسة.

ومن الأمثلة الأخرى على التوزيع غير المتكافئ لرأس المال الثقافى، مثال لا يختص بمؤسسة معينة، ألا وهو القدرات المتنوعة على القراءة والكتابة، والتى يمكن أن تُلخص بالإنجليزية فى كلمة واحدة هى (*literacy*) [التى قد تعنى قوة البيان أو ثقافة القراءة والكتابة]، وهى تتمتع بقيمة كبيرة فى مجتمعنا، إذ إن قدرًا كبيرًا من الممارسات ذات الأهمية الاجتماعية والاحترام والهيبة يتوسل 'بالكلمة المكتوبة'. والتسلح بمستوى رفيع من هذه المقدرة شرط أساسى للحصول على شتى 'الخيرات' ذات القيمة الاجتماعية العالية، ومن بينها الوظائف التى تُرضى الطموح وذات الأجور المرتفعة. ومع ذلك فالواضح أن إمكان الحصول على هذه المقدرة موزع توزيعًا غير متكافئ، بل تشير التقديرات إلى أن مليون شخص من البالغين فى بريطانيا يفتقرون إلى "المهارات الأساسية فى القراءة والكتابة" وفق تعريف منظمة اليونسكو، والأغلبية الساحقة من هؤلاء ينتمون إلى الطبقة العاملة.

ومن بين الآثار الواضحة والبارزة للقيود المفروضة على المشاركة أن إمكان المشاركة فى أنواع الخطاب ذى الهيبة والوصول إلى مواقع النفوذ يرفع من مكانة المرء وسلطته اللتين يعترف الجميع بهما. ومن أسباب هذا أن وصول المرء إلى موقع الطبيب أو المعلم أو المحامى يعتبر، بصفة عامة، إنجازًا فرديًا محضًا يستحق صاحبه مكافأته

بالمكانة العالية والسلطة، وأما القيود الاجتماعية التى تحدد من يستطيع الوصول إلى هذه المواقع فإنها تلقى التجاهل. وكثيرًا ما يقول الناس، دعمًا لهذا الرأى، إن الدراسة فى هذه المهن تتطلب قضاء سنوات طويلة فى الحصول على المعارف والمهارات الخاصة بها. وهكذا فإن المعارف والمهارات المهنية تصبح رموزًا للإنجاز الشخصى، وتُخفى القيود الاجتماعية على إمكان تحقيقه، إلى جانب كونها بطاقات عضوية للناجحين فى تحقيق هذا الإنجاز، ووسيلة لاستبعاد الدخلاء. وضروب الخطاب المستخدمة فى هذه المهن، بما فى ذلك المفردات المتخصصة أو 'لغة الحرفة'، تؤدى هذه الوظائف كلها.

وفى مقابل ذلك نجد أن إقصاء الأشخاص عن أنماط خطاب ومواقع ذوات معينة يُخفض من المكانة التى يتمتعون بها علنًا، ولكنه يقلل أيضًا من 'آفاق' الوظائف المتاحة لهم وغيرها من الفرص الاجتماعية، كما سبق أن ذكرت. فلنعد الآن إلى موقع الأقليات الثقافية فى المقابلات الشخصية، وهى التى كنت أناقشها فى قسم السلطة فى اللقاءات عبر الثقافية، وربما جعلت القارئ يتصور وجود تجانس داخل المجموعات الثقافية أكبر كثيرًا مما يوجد فى الحقيقة. فالواقع أن عددًا كبيرًا من أفراد الطبقة العاملة البيضاء فى بريطانيا، وهم الذين يتمون إلى التجمع الثقافى السائد، يجهلون أعراف المقابلات الشخصية مثل أفراد الجماعات السوداء أو الآسيوية. ولكن الظاهرة الجديدة التى يزداد رسوخها، نتيجة لانتشار إجراء المقابلات الشخصية عبر المؤسسات الاجتماعية وتكثيف استخدامها داخل مؤسسات كثيرة، أن أصبح من المتوقع أن يستطيع كل فرد التعامل مع هذه المقابلات، وذلك، بطبيعة الحال، فى موقف الخاضع لأسئلة السائل! وأما الذين لا يستطيعون ذلك، إما بسبب خبرتهم الثقافية أو بسبب انتمائهم إلى الأجيال التى شهدت فرض القيود على المقابلات الشخصية، فمن المحتمل أن يعانوا مما يسمى 'العجز الاجتماعى'.

ويتحمل النظام التعليمى المسؤولية المباشرة الكبرى عن التفاوت فى فرص المشاركة. ويقول ميشيل فوكوه إن "أى نظام تعليمى نهج سياسى للحفاظ على امتلاك ضروب الخطاب أو تعديل ذلك، إلى جانب المعارف والسلطات التى تحملها ضروب

الخطاب المذكورة". وأما ما يلفت النظر [فى بريطانيا] فهو مدى اتباع التمييز فى التعليم حدود الطبقات الاجتماعية، على الرغم من زعم التعليم بأنه لا يميز بين الأفراد إلا على أساس الجدارة، وهكذا فكلما ارتفعت المرتبة فى النظام التعليمى ازداد نسبة الطلاب فيها من ذوى الخلفيات الرأسمالية، ومن 'الطبقة الوسطى'، أو الخلفية المهنية. أى إن النظام التعليمى يعيد إنتاج تقسيم العمل الاجتماعى القائم، ونظام العلاقات الطبقية القائم، من دون تغيير كبير. ومع ذلك، فمن الخطأ أن نعتبر النظام التعليمى مسؤولًا عن القيود المفروضة على المشاركة أو ننسب إليه وحده سلطة التحكم فى المشاركة، فإن هذه السلطة موزعة بين شتى المؤسسات الاجتماعية وليست مقصورة على التعليم، وترجع أصولها، على نحو ما أشرت إليه ضمنًا، إلى نظام العلاقات الطبقية على المستوى المجتمعى.

القيود على المشاركة: 'الإجراءات الرسمية'

تمثل 'الإجراءات الرسمية' جانبًا منتشرًا ومألوفًا من جوانب القيود المفروضة على المشاركة فى الخطاب. وهى خصيصة مشتركة، فى مجتمعات كثيرة، بين ضروب الممارسة والخطاب التى تتميز بعلو هيبتها الاجتماعية والقيود المفروضة على المشاركة فيها، وهذه الإجراءات تساهم فى الحفاظ على تلك القيود، فهى تطالب من يريد المشاركة بتلبية شروط تفوق وتتجاوز شروط المشاركة فى معظم ضروب الخطاب الأخرى. والقدرة على تلبية الشروط المذكورة تتسم بالتوزيع غير المتكافئ هى الأخرى. كما يمكن أن تؤدى هذه الإجراءات إلى بث الرهبة فى قلوب الذين تستبعدهم وتخيفهم.

وأفضل تصور للإجراءات الرسمية اعتبارُها من خصائص المواقف الاجتماعية، وأن لها آثارًا خاصة على الأشكال اللغوية. فباعتبارها من خصائص المواقف الاجتماعية، تتجلى فيها بشكل مركز الأنماط الثلاثة للقيود على الممارسة، وهى التى قلت إنها ترتبط بممارسة السلطة: وهذه الأنماط تضم القيود على المضمون، وعلى الذوات، وعلى العلاقات. فأما من حيث المضمون، فإن الخطاب فى كل موقف رسمى يخضع لقيود استثنائية على الموضوع، وعلى الصلة بالموقف، وكذلك من حيث وجود نظم

تفاعل تتسم بالثبات إلى حد ما. وأما من حيث الذوات فإن الهويات الاجتماعية المؤهلة لاحتلال مواقع الذوات فى ضروب الخطاب الخاصة بالمواقف الرسمية تتعرض فى تحديدها لقيود أشد صرامة من المعتاد، وكذلك من حيث المواقع العامة أو المكانة والمنزلة، إذ إن القيود هنا تماثل القيود التى أشرت إليها آنفًا فى سياق من يسمح لهم بأداء واجب خدمة القداس فى الكنيسة. وأما من حيث العلاقات، فإن المواقف الرسمية تتسم بتوجه شديد إلى تأكيد المكانة وإظهارها وحفظ ماء الوجه. فالسلطة والمسافة الاجتماعية هنا سافرتان، ومن ثم ينشأ اتجاه قوى نحو التأدب. ويقوم التأدب على أساس الاعتراف بالاختلافات فى السلطة، وفى درجات المسافة الاجتماعية وما إلى ذلك، والتوجه إلى إعادة إنتاج ذلك دون تغيير.

والآثار الخاصة للإجراءات الرسمية فى الأشكال اللغوية تنبع من هذه القيود المركزة، إذ نجد مستويات لهيكلة اللغة تفوق وتتجاوز ما يتطلبه الخطاب غير الرسمى. وقد تؤثر هذه الهيكلة الإضافية فى أى مستوى لغوى. فعلى سبيل المثال قد يستند تخصيص أدوار الكلام للمشاركين وتنظيمه إلى صيغة معينة (إذ يجب مثلًا أن يخضع ترتيب المشاركين فى الكلام لترتيب مناصبهم) وأما فى الأحاديث العادية فالناس ينظمون الكلام فى أثناء المحادثة نفسها. أو قد يكون على اللقاء أن يجرى وفق نظام صارم يحدد مراحله فى تتابع ثابت. وقد تكون لذلك مقتضيات تتعلق بنظام الإيقاع أو سرعة الكلام أو درجة ارتفاع الصوت، أى قد يضطر المتحدثون إلى الالتزام بسرعة معينة فى الحديث على سبيل المثال، أو بالأبنية النحوية للعبارات، وقد يفضلون الأبنية البالغة التعقيد. ومن المحتمل أن يقتضى الأمر عمومًا اتساق الأشكال اللغوية، وهو ما يعنى على سبيل المثال أن المفردات يجب أن تُنتخب من مجموعة محددة طيلة النقاش. كما قد يشعر المتحدثون بحرج شديد يدفعهم إلى الحرص على 'صحة' النحو والمفردات، بما فى ذلك مجموعة كاملة من المفردات المدخرة للمناسبات الرسمية، وعادة ما يشار إليها بصفة 'الرسمية'.

والنص التالى مقتطف من النص المسجل لجزء من التحقيق الذى أجراه مجلس الشيوخ الأمريكى فى فضيحة ووترجيت، ويمثل جانبًا من الشهادة التى أدلى بها چون إيرليكمان، أحد كبار مساعدى الرئيس نيكسون:

(١) س : مستر إيرليكمان، صرحت قبل استراحة الغداء بأنك ترى أن دخول مكتب الطبيب النفسى إلزبرج كان مشروعًا لأسباب تتعلق بالأمن القومى. أعتقد أنك شهدت بهذا.

(٢) جـ : نعم .

(٣) س : هل كان هذا موقفك دائمًا ؟

(٤) جـ : الواقع ، لا أعرف --

(٥) س : يعنى ، هل تذكر يوم عقدنا أول مقابلة بيننا فى مكتبى، وناقشنا هذه القضية، أنك عبرت عن صدمتك لأن مثل هذا الأمر قد حدث، وأشرت إلى أنك أخبرت مستر ينج أو مستر كروغ بأن يعملا على ألا يتكرر وقوع هذا الأمر، ولكنك لم تتخذ أى إجراء مثل إصدار أوامرك بفصل هؤلاء الأشخاص بسبب حساسية القضايا العامة المثارة. هل تذكر ذلك؟

(٦) جـ : لم يكن ذاك بسبب عدم المشروعية يا مستر داش. لا أظن أنك سألتنى آنذاك عما إذا كان... عن موقفى القانونى، أيا كانت قيمته. كان الذى تسأل عنه هو ما فعلته، وهذا هو ما فعلته.

(٧) س : أعنى، لو كان ذلك مشروعًا لكنت وافقت عليه فى الأحوال العادية. صحيح؟

(٨) جـ : الواقع، لا . كان ما أزعجنى فى الأمر أنه كان غير متوقع بالمرة، ولم أكن أنا الذى سمح بأدائه.

(٩) س : من الذى سمح بأدائه؟

(١٠) جـ : أتصور أن مستر كروغ هو الذى سمح بأدائه، ولكن ذلك لا يستند إلى

أية معرفة شخصية.

(١١) س : يعنى، فى الواقع يا مستر إيرليكمان، ألم توافق أنت شخصيًّا، موافقة كتابية، ومقدمًا، على الدخول خفية إلى العيادة النفسية للدكتور إلزبرج بغرض الحصول على تقارير ذلك المحلل النفسى؟

(١٢) جـ : وافقت على إجراء التحقيق خفية. لكن إذا كان الدخول خفية يعنى الاقتحام والسطو فالإجابة على سؤالك هى: لا.

النص ٣ – ٥ المصدر : صحيفة نيويورك تايمز، ١٩٧٣ : ٥١٢

إن طارح الأسئلة يتحدى إيرليكمان، ولكن بأسلوب ربما كان يتسم ببعض القيود الناجمة عن الطابع الرسمى للموقف. ما شكل هذه القيود؟ ما الجوانب اللغوية التى تدل على الطابع الرسمى؟

تداول الأدوار مقيد بنسق السؤال والجواب، إذ يطرح داش الأسئلة ويقدم إيرليكمان الأجوبة. وهكذا فإن أى طعن أو اتهام وأية محاولات لتفنيد هذا وذاك لابد أن تدرج فى هذا الإطار. فالدور (٧) يمثل طعنًا، مثلًا، ولكنه وُضع عنوة فى صيغة ضمنية وغير مباشرة لأن داش اضطر إلى أن يقدمه فى صورة سؤال. والنتيجة أننا نشعر أنه مقيد. وهذه حالة تمثل الإجراءات الرسمية التى تحد من طبيعة العلاقة بين المشاركين. وربما تكون المفردات هى المعلم اللغوى الذى يشير إشارة قاطعة إلى الطابع الرسمى للحوار، وأقصد به الاتساق فى اختيار الألفاظ 'الرسمية'. فالدور الأول [أى رقم (١)] مثلًا، كان يمكن أن يكون على النحو التالى فى سياق ذى ملامح رسمية أقل: "اسمع يا جون! كنت تقول قبل الغداء..." لاحظ صيغة التأدب بذكر اللقب + اسم الأسرة فى التخاطب من جانب السائل (إذ يدعوه مستر إيرليكمان).

يمكننا أن نقول إن المواقف الرسمية تضيف قيدًا آخر إلى القيود الثلاثة التى ربطتُ بينها وبين ممارسة السلطة، ألا وهو القيد على شكل اللغة، إلى جانب تعميق القيود الثلاثة المذكورة. وهذا يعنى أن الخطاب، والممارسة بصفة عامة، يتسمان فى المواقف الرسمية بالصعوبة وعسر التناول، فهما يعتمدان على معرفة خاصة ومهارة لابد من تعلمها. وكثير من الناس لا يكتسبون مجرد المعرفة والمهارة اللازمتين لاحتلال مواقف

هامشية فى المواقف الرسمية ومن ثم يجفلون أمام المواقف الرسمية فى ذاتها ويخافونها، أو يسخرون منها. ويربط محور جبار بين المواقع الاجتماعية والمعرفة، فما دام الذين يشغلون المواقع الاجتماعية المهيبة يتعلمون فعلًا كيف يعملون على المستوى الرسمى، فإن الذين لم يتعلموا ذلك ينتهون إلى نتيجة ساذجة قائلين "لا أستطيع لأننى لست ذكيًا بما يكفى" بدلًا من أن يقولوا "لا أستطيع لأننى من الطبقة العاملة". وهكذا فإن الإجراءات الرسمية تقيد المشاركة وتولد الرهبة. ومع ذلك فسوف أناقش فى القسم الأخير اتجاهًا سناقضًا لهذا فى المجتمع المعاصر، فهو مضاد للرمز السافر للسلطة، ومن ثم فهو مضاد للطابع الرسمى.

الصراع الاجتماعى فى الخطاب

سوف أضيف فى هذا القسم شرطًا بالغ الأهمية إلى ما سبق، فأقول إن السلطة 'فى داخل' الخطاب أو 'من وراء' الخطاب، ليست صفة دائمًا غير متنازع عليها لأى شخص أو فئة اجتماعية. وعلى العكس من ذلك نرى أن الذين يملكون السلطة فى لحظة معينة يضطرون إلى إعادة تأكيد سلطتهم باستمرار، وإن الذين لا يملكون السلطة من المحتمل أن يحاولوا الظفر بها. وهذا صحيح سواء أكان المرء يتكلم عن مستوى الموقف الخاص، أو من حيث حالة مؤسسة اجتماعية، أو بالنسبة للمجتمع كله. فالسلطة على جميع هذه المستويات تُكتَسبُ وتُمَارَسُ ويحافظ عليها أصحابها أو يفقدونها فى غمار الصراع الاجتماعى (انظر الفصل الثانى).

فلنبدأ بالنظر فى نص يبدو الصراع فيه سافرًا، وهو مقابلة شخصية بين شاب (ش) يشتبه فى تورطه فى جريمة، وبين مدير مدرسته (م):

(١) م : لماذا لم تذهب مباشرة من شارع كوين؟

(٢) ش : لن أمشى فيه مع ثلة من الزنوج الخارجين من مدرسة سانت هيلدا.

(٣) م : ولماذا؟

(٤) ش : يعنى.. المسألة واضحة.. لا أريد أن أُضرب.

(٥) م : الواقع أن شارع كوين يخلو عادة من المشاكل. صحيح؟

(٦) ش : لا. لا يذهب أحد من بيننا، نحن الأولاد البيض، من هذا الشارع. هذا حق! هل نسيت 'الكبسة' التى وقعت فى موقف أوديون للسيارات فى الكريسماس؟

(٧) م : كان هذا من نحو عام تقريبًا، ولست مقتنعًا بأن ثلتكم كانت بريئة كما زعمتم. وهكذا فعندما وصلت إلى الميدان، لماذا وقفت تنتظر لمدة ربع ساعة بدلاً من العودة مباشرة إلى المنزل؟

(٨) ش : كنت أظن أن صديقى ربما أتى من ذلك الطريق بعد العمل. وعلى أى حال فنحن دائمًا ما نذهب للميدان بعد المدرسة.

قارن هذا النص بالنص الوارد عن وحدة الأطفال المتسربين فى القسم الخاص بالسلطة فى الخطاب فى بداية هذا الفصل من حيث درجة السيطرة التى يمارسها المدير على أقوال الشاب، ومدى استمساك كل منها بالحقوق والالتزامات الخطابية التى تتوقعها فى مثل هذه المقابلة الشخصية، فأنا لا أعتقد مثلًا أنك تتوقع أن يطرح أسئلة وأن يجيب المدير عليها.

يمارس الشاب، بطرائق منوعة، قدرًا من السيطرة على الخطاب أكبر مما قد يتوقعه المرء، وهو يتجاوز حقوقه 'الخطابية' ولا يفى بالتزاماته. فهو أولًا يطعن فى أسئلة المدير فى مناسبتين (الدورين ٢ و٤) بدلًا من إجابتها إجابة مباشرة، وإن كان رقم (٢) يمثل إجابة ضمنية ثم يقدمها بعد الطعن فى الدور (٤). ونجد ثانيًا أن الشاب فى الدور رقم (٦) يسأل سؤالاً يجيب عنه المدير، فى حين لا تتوقع، كما ذكرت من قبل، أن يطرح الشاب أية أسئلة أو أن يجيب المدير عنها. ونلاحظ ثالثًا أن الإجابات التى يقدمها الشاب عن أسئلة المدير تتجاوز ما يتصل اتصالاً مباشرًا بالدورين (٦) و(٨). ونحن نذكر أن الطبيب كان يصر فى النص الطبى على أن تكون الإجابات ردًّا على الأسئلة. ونجد رابعًا أن الشاب لا يبدى أية دلائل على تطويع أسلوب حديثه للطابع الرسمى نسبيًّا للمقابلة الشخصية، ويبدو أنه يتعامل معها – إلى حد ما – كما لو كانت محادثة، ومعاملة المدير كأنما كان من أقرانه. ويظهر هذا بوضوح وجلاء فى مفردات الشاب (أُضرب) [والأصل قريب من العامية: 'آخد علقة'] و(الكبسة) [أى هجوم الشرطة] و(الأولاد) وخصوصًا الكلمة التى توحى بالتمييز العنصر أى (الزنوج). وأعتقد أننا نتوقع ممن يستخدمون هذه المفردات مع أصدقائهم أن يتأثروا بمكان المقابلة الشخصية، وظروفها، والمسافة التى تفصل بينهم وبين المدير مثلًا، فيتجنبوها.

ومع ذلك فإن المدير يمارس قدرًا كبيرًا من السيطرة. فهو يطرح معظم الأسئلة، ويتلقى إجابات مناسبة إلى حد كبير عن بعضها على الأقل، الأمر الذى يبين وجود مستوى ما من التمسك بالحقوق والالتزامات التقليدية. ومن الممكن دائمًا فى مثل هذه الحالات أن نرى الشخص المتمتع بالسلطة المؤسسية – وهو المدير هنا – وهو يتنازل عن بعض السلطة تنازلًا تكتيكيًا حتى يتمكن من تطبيق استراتيجية طويلة الأجل. وربما يكون لنا أن نفسر على هذا النحو عدم اعتراضه فورًا، أو تعبيره عن رفضه لكلمة 'الزنوج' العنصرية، إذ إن غضه الطرف عنها يُظهره بمظهر من يقبلها.

ولكن هل لنا أن نعتبر مثل هذه الحال مجرد صراع بين تلميذ فرد يبين مدى استهانته بسلطة المدرسة بانتهاك القيود العرفية وبين مدير مدرسة يستخدم تكتيكًا معينًا فى معالجة هذا الموقف؟ فلنتذكر التمييز الوارد آنفًا فى الفصل الثانى بين المستويات الثلاثة للتنظيم الاجتماعى وهى مستوى الموقف، والمستوى المؤسسى، والمستوى المجتمعى. ويبدو أن هذا وصف معقول لما يحدث على مستوى الموقف، ولكنه يتجاهل النسق الاجتماعى الذى يبدو أن هذا المثال الخاص يتمى إليه، إذ يبدو أن الشاب مثال صادق للكثير من الشبان، والتكتيك الذى يتبعه المدير قد يمثل التكتيك المعهود فى التعامل مع هذا النوع من المواقف. وبعبارة أخرى لنا أن نفسر هذا المقتطف باعتباره صراعًا معينًا على المستوى المؤسسى. أضف إلى ذلك أننا نستطيع قطعًا أن نجد نماذج أخرى للخطاب مستمدة من أشكال مؤسسية أخرى – وقد نجدها فى القضاء وفى نطاق الأسرة – بحيث تكشف لنا عن أشكال صراع مماثلة بين الشباب وبين 'السلطة'. وعلى غرار هذا يستطيع المرء أن يرى فى النص مثالًا على الصراع على المستوى المؤسسى داخل المدرسة باعتبارها مؤسسة اجتماعية، ومثالًا على صراع أعم على المستوى المجتمعى بين (مجموعات معينة) من الشباب وشتى أنواع أصحاب السلطة.

ولا يستطيع المرء بطبيعة الحال أن يصل إلى نتائج يُعْتَدُّ بها عند البحث فى الصراع الاجتماعى بين الصغار والمدارس أو بين الصغار والسلطات العامة بصفة أشمل استنادًا إلى قطعة واحدة من الخطاب! ولكن الذى أقوله إن أية قطعة من أى خطاب يمكن أن

تكون فى الوقت نفسه جزءًا من صراع موقفى، وصراع مؤسسى، وصراع مجتمعى (بما فى ذلك الصراع الطبقى). ولهذا آثاره من حيث تمييزنا بين 'السلطة فى داخل الخطاب' و'السلطة من وراء الخطاب'. فإذا كان الصراع على المستوى الموقفى صراعًا حول السلطة فى داخل الخطاب'، فإن الصراع على المستويين الآخرين قد يكون أيضًا على السلطة من وراء الخطاب.

كنت أشرت فى مكان سابق فى هذا الفصل إلى وجود اتجاه يعارض الإبراز السافر لعلاقات السلطة فى الخطاب، وهو اتجاه ذو أهمية كبرى من منظور الصراع الاجتماعى. ولأوضح ذلك بمثال نحوى شهير، وهو الخاص بشكل ضميرى المخاطب المستعملين فى الكثير من اللغات، ومنها الفرنسية والألمانية والإيطالية والإسپانية والروسية، فيما يتعلق باللغات الأوروبية، ولكنهما لا يستخدمان فى اللغة الإنجليزية المعيارية (الحديثة) ويُرمز لهما بحرفى 'T' و'V' [أى أنت وأنتم على الترتيب]. فهذه اللغات تستعمل شكلين لضمير المخاطب، وتستخدم الإنجليزية المعيارية حرفًا واحدًا هو (*you*) وعلى الرغم من أن هذين كانا يختصان أصلًا بالمفرد (T) والجمع (V) فقد تطور استعمالهما وأصبحا يستعملان فى مخاطبة المفرد. ولنأخذ الفرنسية مثالًا: فشكل 'T' فيها (*tu*) وشكل 'V' فيها (*vous*) يستخدمان الآن فى مخاطبة المفرد. وفى مرحلة من المراحل كان التمييز بينهما يعتمد على السلطة، إذ تستعمل (*tu*) لمخاطبة المرؤوسين، وتستخدم (*vous*) لمخاطبة الرؤساء، وكان أيهما يستعمل (وفقًا لطبقة المتخاطبين) بالتبادل بين المتكافئين اجتماعيًا.

ولكن الفترة الأخيرة شهدت التحول إلى نظام يستند إلى التضامن لا السلطة، فغدت (*tu*) تستعمل بين الأفراد الذين تربطهم صلة وثيقة من نوع ما (الأصدقاء، الأقارب، زملاء العمل وهلم جرًّا) وغدت (*vous*) تستخدم بين من تفصلهم 'مسافة' اجتماعية. وقد نشأ التوتر بين النظام القائم على السلطة والنظام القائم على التضامن، فما عساك أن تفعل إذا أردت أن تخاطب 'من فوقك' اجتماعيًا وهم وثيقو الصلة بك (مثل أبويك) أو مرؤوسًا لك تفصله مسافة اجتماعية عنك (مثل أحد الجنود إذا كنت

ضابطًا)؟ كانت الإجابة تقول إن عليك استخدام (*vous*) و(*tu*) على الترتيب استنادًا إلى السلطة، وأما الآن فمن المحتمل أن تقول إن عليك استخدام (*tu*) و(*vous*) على الترتيب استنادًا إلى التضامن.

ويبدو أن التطور الخاص للتمييز بين 'T' و'V' الذى ابتعد به عن النظام القائم على السلطة، واقترب به من النظام القائم عى التضامن، يتمشى مع التطورات الطويلة الأجل فى جميع أنواع المؤسسات التى تتوافر عنها معلومات موثقة فى شتى اللغات، أى إنه يمثل الابتعاد عن الإبراز الصريح لعلاقات السلطة. ويصدق هذا، على سبيل المثال فى التعليم العالى فى بريطانيا، ويصدق على أنماط شتى للخطاب فى الخدمات الاجتماعية، ثم غدا يصدق على الشركات الصناعية التى تأثرت تأثرًا مطردًا بتقنيات الإدارة اليابانية التى أزالت مظاهر التفاوت بين الإدارة والعمال. ومن اليسير، بطبيعة الحال، أن نجد بعض الممارسة التى لم يشملها الإصلاح فى أى قطاع من هذه القطاعات، ولكننا نرى الاتجاه الذى استمر ثلاثة عقود أو أكثر بوضوح وجلاء.

هل يعنى هذا الاتجاه أن علاقات السلطة غير المتكافئة تقل يومًا بعد يوم؟ يبدو أننا سنخرج بهذه النتيجة إذا افترضنا وجود رابطة آلية بين العلاقات والتعبير فى الخطاب عنها. ولكن مثل هذه النتيجة موضع شك كبير نظرًا للأدلة المستقاة من مصادر أخرى على أن ضروب التفاوت فى السلطة لم تتغير كثيرًا، ونقصد الأدلة الخاصة بتوزيع الثروة، وزيادة الفقر منذ الثمانينيات، وأنواع التفاوت فى إمكان التمتع بالمرافق الصحية، والتعليم والإسكان، وعدم التكافؤ فى آفاق العمالة وهلم جَرًّا. بل وليس لنا أن نصدق أن من يملكون زمام السلطة يمكن أن يتخلوا عنها من دون سبب واضح.

وربما كانت القدرة على تحديد مدى التعبير السافر عن السلطة تمثل بُعدًا من أبعاد 'السلطة داخل الخطاب'، ولذلك فقد يجوز أن يتخذ التعبير عن علاقات السلطة صورًا غير بارزة فى إطار استراتيجية الحفاظ على السلطة وممارستها. وهذا، فيما يبدو، تفسير معقول للتطبيق الواعى والعامد لأساليب الإدارة اليابانية المشار إليها عاليه. أى إن هذه حالة تمثل إخفاء السلطة من أجل استغلال الغير، وانظر القسم الخاص بالسلطة الخفية

عاليه. ولكن هل يُمكنها أن تفسر لنا الاتجاه الطويل الأجل عبر شتى المؤسسات بل وشتى الحدود القومية واللغوية؟ ومن ذا الذى يقبل تفسيرها باعتبارها مؤامرة دولية؟

وأما الذى يغيب عن ذهن أصحاب التفسير المتفائل القائلين بأن التفاوت بسبيله إلى الزوال وكذلك من أصحاب التفسير 'التآمرى' فهو العلاقة بين السلطة والصراع الاجتماعى. وأجدنى ميالًا إلى أن أقول إن انحسار إبراز علاقات السلطة ينبغى تفسيره باعتباره تنازلًا من جانب أصحاب السلطة، وإنهم اضطروا إلى تقديم هذا التنازل بسبب الزيادة النسبية فى سلطة أبناء الطبقة العاملة وغيرهم من المهمشين، مثل النساء والشباب والسود والمثليين وهلم جرًّا. (وقد تعرض هذا التغيير فى علاقات السلطة للإيقاف وعكس مساره إلى حد ما فى بعض المواقع إبان الأزمات التى نشأت فى أواخر السبعينيات وفى الثمانينيات). ولكن ذلك لا يعنى أن أصحاب السلطة قد تنازلوا عن السلطة، بل يعنى أنهم أُرغموا وحسب على اتباع سبل غير مباشرة لممارسة السلطة وإعادة إنتاجها. كما ينبغى ألا نعتبر هذه الخطوة خطوة ترمى إلى تجميل الصورة وحسب، فإن القيود التى أُرغموا على العمل فى ظلها أدت إلى نشأة مشكلات حادة خاصة بالمشروعية لأصحاب السلطة.

ويمثل الخطاب جزءًا لا يتجزأ من حالة الصراع المعقدة المذكورة، ولنا أن نُعَمِّق فهمنا للخطاب بأن نذكر دائمًا إطاره العام، وأن نزيد من فهمنا للصراع إذا اهتممنا بالخطاب. وسوف أحاول مثلًا فى الفصل الثامن أن أنظر فى سبل اكتساب أنماط معينة من الخطاب مكانة ثقافية بارزة، بحيث 'تستعمر' مؤسسات ومجالات جديدة، وهو المنظور الذى عبرت عنه بإيجاز فى الفصل الثانى، كما يعتبر التغير فى مدى بروز هذه الأنماط دليلًا على تطور الصراع الاجتماعى، ويمثل جزءًا منه. وانظر مثلًا إلى تقديم المشورة [فى المشكلات الشخصية] باعتباره نمطًا من أنماط الخطاب البارزة، بعد أن استعمر أماكن العمل والمدارس وهلم جَرًّا. فالنظرة السطحية إليه توحى بأنه يدل على

حساسية غير عادية لحاجات الفرد ومشكلاته الشخصية. ولكن يبدو أنه تحوَّل فى بعض الحالات على الأقل إلى وسيلة لزيادة السيطرة المؤسسية على الأشخاص من خلال الكشف عن جوانب معينة فى حياتهم الخاصة وإخضاعهم للفحص المؤسسى بأسلوب غير مسبوق. وهكذا فإن ما يبديه أصحاب السلطة من حساسية تجاه الأفراد يعتبر تسليمًا بقوة من لا يتمتعون (نسبيًّا) بالسلطة، وأما 'احتواء' تقديم المشبورة فيمثل هجومهم المضاد. ارجع إلى الفصل الثامن حيث الأمثلة والمزيد من المناقشة.

ومن الميادين الأخرى التى يدور فيها الصراع الاجتماعى محاولة المشاركة فى أنماط الخطاب ذات الصيت والهيبة، وما يتصل بها من مواقع السلطة للذات. ولنا أن نذكر مثلًا أنواع الكفاح الذى خاضته الطبقة العاملة من خلال النقابات وحزب العمال فى مطلع القرن العشرين لدخول الميادين السياسية، ومن بينها البرلمان، وما يترتب على ذلك من المشاركة فى ضروب الخطاب السياسى فى المجال 'العام'. أو ربما ذكرنا أشكال كفاح المرأة والسود وأبناء الطبقة العاملة لاقتحام المهن الراقية، وللوصول – حسبما شهدنا أخيرًا – إلى الدرجات العليا لهذه المهن.

وتمتزج ضروب الكفاح فى سبيل المشاركة مع الصراعات حول التوحيد القياسى. فلقد سبق لى أن قلت إن أحد العناصر المهمة فى التوحيد القياسى توطيدُ أقدام اللغة المعيارية باعتبارها الشكل المستعمل فى شتى المؤسسات 'العامة'. وفى سياق الزيادة للسلطة النسبية للطبقة العاملة فى بريطانيا بعد الحرب العالمية الثانية، أصبح من اللازم تقديم تنازلات معينة للّهجات غير المعيارية فى بعض المؤسسات، مثل الإذاعة وبعض المهن، حيث أصبح من المقبول استعمال أشكال معينة من الكلام غير المعيارى الذى يتمتع بالصيت والهيبة نسبيًّا. وكذلك فقد طالبت الأقليات الثقافية بحقوق معينة للغاتها الخاصة فى شتى المجالات الثقافية، ومن بينها التعليم، وأدت هذه المطالب كذلك إلى بعض التنازلات المحدودة.

الملخص والنتائج

أقمت الحجة فى هذا الفصل على ممارسة السلطة وتفعيلها فى الخطاب من ناحية، وعلى وجود علاقات السلطة من وراء الخطاب من الناحية الأخرى، كما سُقت الحجة أيضًا على أن السلطة تُكتسب ويحتفظ بها أصحابها أو يفقدونها فى ضروب الصراع الاجتماعى. وأما من حيث وجود 'السلطة داخل الخطاب' فيجوز لنا أن نقول إن الخطاب هو الحلبة التى تجرى فيها ضروب الصراع على السلطة، وأما من حيث وجود 'السلطة من وراء الخطاب'، فإنها تمثل الغاية فى الصراع على السلطة، أى إن السيطرة على نظم الخطاب آلية جبارة للحفاظ على السلطة.

وختامًا لهذا الفصل أود أن أرسم إطارًا عريضًا نستطيع من خلاله النظر إلى الميول والعواقب، فى الأجل الطويل، لضروب الصراع الاجتماعى على الخطاب، مما سوف يمهد الطريق للفصول التالية. وسوف أبدأ بالتمييز الذى أقمته بين أنماط القيود الثلاثة التى يستطيع المشاركون فى الخطاب من ذوى السلطة أن يفرضوها على مساهمات المشاركين من غير ذوى السلطة، ألا وهى القيود على المضمون، وعلى العلاقات، وعلى الذوات. ولنا أن ننظر إلى هذه القيود إما من حيث كونُها قيودًا مباشرة ومادية ولو نسبيًّا (وهى الصورة التى قدمتها بها) أى باعتبارها نماذج للسلطة فى الخطاب، وإما باعتبارها أسلوبًا هيكليًّا طويل الأجل، ولو نسبيًّا، أى من حيث أعراف أنماط الخطاب التى تقيد مساهمات المشاركين من هذه الزوايا الثلاث. وإذا نظرنا إليها بالأسلوب الثانى، فسوف نستطيع أن نرى أن مثل هذه القيود على الخطاب قد تكون لها آثار هيكلية طويلة الأجل وذات طابع عام. لقد أقمت حجتى حتى الآن على أن الخطاب يمثل جزءًا من الممارسة الاجتماعية ويسهم فى إعادة إنتاج الهياكل الاجتماعية. وهكذا فإذا فُرِضَتْ القيودُ بصورة منتظمة على مضمون الخطاب، وعلى العلاقات الاجتماعية التى يجسدها وعلى الهويات الاجتماعية المشاركة فى هذه العلاقات، فلنا أن نتوقع أن هذه القيود سوف تترتب عليها آثار طويلة الأجل فى المعارف والمعتقدات، وفى العلاقات الاجتماعية، وفى الهويات الاجتماعية لمؤسسة ما أو لمجتمع ما. وهو ما يبينه الشكل ٣ – ١

الآثار الهيكلية	القيود
المعارف والمعتقـدات	المضمــون
العلاقات الاجتماعية	العلاقـات
الهــويات الاجتماعية	الـــذوات

لن يخلو أى مجتمع من وجود الآليات اللازمة لتحقيق التنسيق بين الممارسات وتعميمها فيما يتعلق بالمعارف والمعتقدات، وبالعلاقات الاجتماعية، وبالهويات الاجتماعية. فلنميزْ إذن بين الأنماط الثلاثة الرئيسية لهذه الآليات: قد نجد أوّلًا ممارساتٍ وأنماطًا خِطابية يتبعها الجميع ويقبلونها بالضرورة، لاستحالة تصور وجود بدائل، فيما يبدو، تتمتع فى صُلْبها بالتنسيق ما بين المعارف والمعتقدات وبين العلاقات الاجتماعية والهويات الاجتماعية. وقد نجد ثانيًا أن التنسيق يمكن أن يُفْرَض فى ممارسة السلطة، بأسلوب خفىّ إلى حد بعيد، باعتباره 'السلطة من وراء الخطاب'، وهى الموضوع الذى ناقشه هذا الفصل. فلنطلقْ على هذه الآلية مصطلح التلقين. وقد نجد ثالثًا أن التنسيق يمكن تحقيقه من خلال التواصل والمناظرات العقلانية. ولنطلق على هذه الآلية مصطلح التواصل.

والآليات الثلاث موجودة فى المجتمع المعاصر، ولكن الصراع ما بين التواصل والتلقين هو أشد الظواهر بروزًا. ولنا أن نعتبر أن الدافع على التلقين يتمثل فى الرغبة فى إعادة العمومية والصبغة 'الطبيعية' للآلية الأولى فى ظل السيادة الطبقية والانقسام الطبقى. أى إنه يحاول تطبيع الممارسات المنحازة والمغرضة لتيسير ممارسة السلطة والحفاظ عليها. ونقول بصفة عامة إن التلقين هو الآلية التى يستخدمها أصحاب السلطة الذين يرغبون فى الحفاظ على سلطتهم، وإن التواصل هو الآلية المستخدمة فى التحرير والكفاح ضد الهيمنة. ومن ثم فإن التركيز فى الأجل الطويل فى الصراع حول الخطاب تركيز فى الواقع على القضية التالية: هل تُفْرَض القيود على المضمون

والعلاقات والذوات من خلال التلقين (وفرضها من خلال التلقين هو الموضوع الرئيسى للدراسة النقدية للغة) أم تُنَسَّقُ من خلال التواصل؟

المراجع

استوحيت فكرة التمييز بين الأنماط الثلاثة للقيود على الممارسة الاجتماعية (المضمون والعلاقات والذوات) والتمييز بين 'التلقين' و'التواصل' من هابرماس 1984. وقد وجدت فى فوكوه (مثل فوكوه 1972) وهابرماس أيضاً ثروة من الأفكار الخاصة باللغة والسلطة. انظر أيضًا بورديو (1992) وبيرنشتاين (1990). والمثال الخاص بالتفاعل عبر الثقافى مقتبس من أكيناسو وأچيروتوتو (1982). وفيما يتعلق بالخطاب الإعلامى انظر فيركلف (1995a) وسكولون (1998). وتوجد مناقشة طريفة عن التوحيد القياسى فى ليث (1983) وانظر الكتاب الأحدث من تأليف بيكس وواطس (1999). وأما المعلومات والمقتطفات الخاصة بالفحص الطبى لأمراض النساء فمقتبسة من إمرسون (1970). وفى مناقشة 'الطابع الرسمى' وجدت كتاب إيرفين (1970) مفيدًا. والدراسة الطبقية لضميرى المخاطب 'T' و'V' فهى من براون وجيلمان (1972).

الفصل الرابع

الخطاب، والمنطق السليم، والأيديولوجيا

أزيد من تفصيل القول، فى هذا الفصل، فى فكرة الأيديولوجيا وعلاقتها بالخطاب التى قدمتها فى الفصل الثانى، وهى الفكرة التى تقول إن الأعراف التى ننهل منها باستمرار فى الخطاب تجسد افتراضات أيديولوجية ينتهى بها الأمر إلى أن تعتبر من 'المنطق السليم' وحسب، وبذلك تسهم فى الحفاظ على علاقات السلطة القائمة. ولما كانت العلاقة بين السلطة والأيديولوجيا علاقة حميمة، فمن المحتوم أن يتداخل موضوع هذا الفصل مع موضوع الفصل الثالث، فهما يشتركان فى تناول السلطة ويختلفان فيما يركزان عليه. فإذا كان الفصل الثالث يقدم مناقشة واسعة النطاق للغة والسلطة، فإن الفصل الرابع يتخذ له هدفًا محددًا وهو المنطق السليم فى خدمة السلطة، أى إنه يدرس أساليب إضمار الأيديولوجيات فى معالم معينة من الخطاب بحيث يُسَلِّمُ المرء بصحتها باعتبارها من سمات المنطق السليم.

كتب عالم الاجتماع هارولد جارفينكل دراسة عن "عالم المنطق السليم المألوف للحياة اليومية"، وهو العالم الذى بُنِىَ برمته على افتراضات وتوقعات تتحكم فى أفعال أفراد أى مجتمع وفى تفسيرهم لأفعال الآخرين. وأمثال هذه الافتراضات والتوقعات مضمرة، وقائمة فى الخلفية، ومُسَلَّمٌ بها، وليست مما يدركها الناس عن وعى، ونادرًا ما تصاغ صوغًا صريحًا أو تُفحص صراحة أو تخضع للتساؤل الصريح. والمنطق السليم للخطاب من المعالم البارزة فى هذه الصورة. كما إن فعالية الأيديولوجيا تعتمد، إلى حد كبير، على مزجها بهذه الخلفية القائمة على المنطق السليم للخطاب والأشكال الأخرى للعمل الاجتماعى.

ولأستبق عرض مضمون هذا الفصل بتقديم قائمة بالأسئلة المثارة فيه، بالترتيب التقريبى لتناولها:

- ما 'المنطق السليم' فى الخطاب، وكيف يتصل المنطق السليم بالمعنى المترابط للخطاب وعمليات تفسير الخطاب، وما العلاقة بين المنطق السليم والمعنى المترابط والأيديولوجيا؟
- إلى أى حد تعتبر الأيديولوجيات متغيرة فى مجتمع ما، وكيف يمكن أن تتجلى ملامح هذا الخطاب؟
- ما العلاقة بين التغير الأيديولوجى والصراع الاجتماعى، وكيف يتولد المنطق الأيديولوجى السليم للخطاب فى غضون الصراع؟
- كيف يؤثر المنطق الأيديولوجى السليم فى معانى التعبيرات اللغوية، والممارسات العرفية للكلام والكتابة، والذوات الاجتماعية والمواقع الاجتماعية للخطاب؟
- كيف يستطيع المحللون أن ينقلوا هذا المنطق السليم من موقعه فى الخلفية إلى موقع الصدارة؟

الافتراضات المضمرة، والمعنى المترابط، والاستنباط

ماذا عليك أن تفعل حتى تفهم نصًا كاملًا (ونحن نذكر ما جاء فى الفصل الثانى من أن النص قد يكون مكتوبًا أو منطوقًا) أى حتى تصل إلى تفسير مترابط له، على فرض أنك تعرف من قبل معانى مكوناته؟ لن أحاول أن أقدم إجابة شاملة لهذا السؤال الكبير، بل سأقترح عليك أن تفعل شيئين. الأول أنه يجب عليك قطعًا أن ترى كيف تتصل أجزاء النص بعضها بالبعض. والثانى أنه يجب عليك أن ترى كيف يتصل النص بخبرتك السابقة بالعالم: ما جوانب العالم التى يرتبط بها، بل وما مفهوم العالم الذى يفترضه سلفًا. وباختصار عليك أن تقيم 'مواءمة' بين النص والعالم.

وسوف أستخدم مصطلح المعنى **المترابط** (coherence) بحيث يفيد هذين النمطين من الارتباط، **الأول** بين أجزاء النص المتتابعة **والثانى** بين (أجزاء) النص و'العالم'. وهذه ارتباطات نصنعها نحن باعتبارنا مفسرين للنصوص، أى إن النص نفسه لا يصنعها. ولكننا لابد لنا، حتى نصنعها، أن ننهل من 'الافتراضات والتوقعات'

القائمة فى الخلفية والتى أشرت إليها لتوى. إن المعنى المترابط للنص كله يعتبر نتيجة تفاعل كيميائى، وهو يتولد عندما تمزج ما فى النص بما يوجد من قبل 'داخل' المفسر، وأعنى به افتراضات المفسر وتوقعاته القائمة على المنطق السليم، وهى جزء مما أطلقت عليه من قبل مصطلح 'موارد الأعضاء' [جماع خبرة المفسر].

فلأبدأ بمثال موجز للنمط الثانى من أنماط هذا الارتباط، أى الارتباط بين النص والعالم. وهو جملة واحدة وحسب مقتطفة من مقال حول الأحجار الكريمة المرتبطة بموعد ميلاد المرء، والمقال منشور فى مجلة تنشر 'قصص حب حقيقية'. تقول الجملة **"اشتهر عن العقيق الأزرق على امتداد قرون كثيرة أنه حجر سيء الطالع، بمعنى أن من يتزين به يصادف سوء الحظ"**. (مجلة ترو ستورى، العدد الخاص بالصيف، دار نشر أرجوس 1986). ما صورة العالم التى تحتاج إلى افتراضها مؤقتًا، ناهيك بقبولها، حتى تفهم هذه الجملة؟ ربما كنا نحتاج إلى عالم تستطيع الأشياء فيه، مثل الأحجار الكريمة، أن تؤثر فى حياة الإنسان وفى حظوظه! فالنصوص من هذا النوع طريفة لأنها تفترض سلفًا رؤية للعالم تتفق مع المنطق السليم عند بعض الناس، لكن الآخرين يرونها غريبة على نحو ما. ومن الأيسر التعرف على الافتراضات المضمرة فى أمثال هذه الحالات عما نصادفه فى حالات أخرى.

ولكن هذه جملة واحدة؛ فما شأن ترابط المعنى فى نصوص كاملة؟ فيما يلى مثال مختلف إلى حد ما، فهو استهلال قصة منشورة فى مجلة **'قصص الحب الحقيقية'**، بعنوان 'نوع غرامه':

> نوع غرامه...
>
> كان المطر المنهمر يكاد يطمس التلال التى تكسوها الأشجار وأنا أسير بالسيارة فى الطريق الملتوية نحو القرية التى أنشأت فيها حانوتى الخاص للحرف اليدوية.
>
> وعندما عبرت السيارة فى اتجاه الحانوت غمرتنى الفرحة حين تذكرت أن جيف سوف يصل ذلك المساء. ولم أكن رأيته منذ أن غادرت مقاطعة

هامبشير وذهبت إلى سكوتلانده منذ ثلاثة أشهر.

كان چيف يشعر بالضيق آنذاك إذ قال "الواضح أننى لن أنجح فى تغيير رأيك يا كارى. اذهبى إذن. انتقلى إلى سكوتلانده وافتحى حانوتك".

وقلت ضارعة "نستطيع أن نتزوج فى العام المقبل. لابد أن أنتهز فرصة استقلالى بعملى التجارى يا چيف".

"فى اللحظة التى اعتقدت أننا سوف نستقر، تأتيك هذه الفكرة المخبولة".

وتنهدتُ عندما تذكرت محادثتنا...

النص ٤ – ١ المصدر مجلة تروستورى، عدد الصيف الخاص، 1986.

أبرزت بعض التعبيرات المطبوعة بالبنط الأسود. ماذا تكشف عنه، فى رأيك، فيما يتعلق بشخصية كارى؟ هل الرسالة التى تنقلها هذه العبارات متسقة فى النص كله، أم إنك تسمع أمورًا متناقضة؟ ما الافتراضات المضمرة عن المرأة التى تحتاج إليها حتى تستنبط هذه الرسالة، أو هذه الرسائل، من هذه التعبيرات؟

أظن أن لدينا 'رسالتين' عن كارى: الأولى تصبغ النص بصبغة تحرر نسوى سطحية، والثانية أبوية وطيدة راسخة، فالأولى تقول إنها شخص مستقل (لها حانوت خاص يبيع الحرف اليدوية، أى عمل تجارى خاص) والثانية تقول إنها امرأة تقليدية خاضعة (يغمرها الفرح، وتتضرع إلى 'رجلها'، وتتنهد، وتقبل دون اعتراض وصف مشروعاتها بأنها مخبولة). ويصل القراء إلى هذه الرسائل بإقامة علاقة بين العبارات المطبوعة بالبنط الأسود فى النص وبين الأطر المضمرة، وهى التى تشكل وصفًا لحال المرأة وما تفعله (أو ما ينبغى أن يكون عليه حالها وما ينبغى أن تفعله) وذلك بصفة عامة على النحو التالى: (١) 'المرأة شخص مثل الرجل، ولها الحق فى حياة عملية، واتخاذ القرارات الخاصة بحياتها، وهلم جرًّا؛ و(٢) 'تخضع المرأة لأحكام الرجل حول الجوانب المهمة لحياتها، وهى أقرب إلى العاطفة والتعبير عن العاطفة، وهلم جرًّا'. ونجد أن مجموعة من العناصر النصية تعمل بصفتها المفاتيح لإطار معين، كما يهيىء الإطار مكانًا لكل جزء من التفاصيل النصية داخل كيان كلى مترابط، بحيث يمنح ذلك الإطارُ الترابط للعناصر النصية المطبوعة بالبنط الأسود، والتى تبدو متنوعة، فى عملية التفسير. أو، بالألفاظ التى

ذكرتها عاليه، نجد أن التوقعات والافتراضات الموجودة أصلًا لدى المفسر، باعتبارها جزءًا من "موارد الأعضاء"، هى التى تمنح النص ترابط معناه. (انظر الفصل السادس حيث أناقش قضية الأطر).

وعلى نحو ما نشهده فى حالات كثيرة، نجد تدعيمًا بصريًّا لرسالة ''المرأة الخاضعة التقليدية''، وهو صورة (للفتاة كارى وصاحبها چيف) منشورة إلى جانب الفقرة الافتتاحية للقصة، حيث تبدو كارى ضئيلة الحجم شقراء براقة العينين، ويبدو چيف وسيمًا طويلًا أسمر، وقد مال فى وقفته على كارى، بطوله الفارع، قابضًا بيده على ذراعها كمن يحميها. بل إن البنط المختار لطباعة العنوان نفسه (نوع غرامه...) مقصود به، فيما يبدو، الإيحاء بنموذج 'الحب الحقيقى'.

لاحظ أيضًا أن إنتاج النص وتفسير النص يتميزان، على ما فى هذا من مفارقة، بأنهما يكتسيان طابعًا تفسيريًّا. إذ إن منتج النص يبنى نصه باعتباره تفسيرًا للعالم، أو تفسيرًا لأوجه العالم التى هى قيد التفسير آنذاك، وما المعالم الشكلية للنص إلا آثار ذلك التفسير. والآثار تشكل مفاتيح يلتقطها مفسر النص، الذى ينهل من افتراضاته وتوقعاته (التى تشملها الأطر) حتى يبنى تفسيره الخاص للنص. وهكذا فإن تفسير النص تفسير لتفسير. فمهما يكن العالم أو يكن النص، فإن تفسير ما هو ''موجود'' فعلًا لا يفرض نفسه أبدًا، إذ إن إنتاج النصوص وتفسيرها أنشطة خلاقة بنائية تفسيرية.

ما نسبة ما يرجع إلى ذاتك وما يرجع إلى النص فى تفسيراتك المعتادة للنصوص التى تقرؤها أو تسمعها فى حياتك اليومية؟ تذكر أن الصور لا تفرض تفسيراتها بأكثر مما تفرضه الألفاظ، فالمفسر دائمًا ما يتحمل بعض المسؤولية! تأمل شذرات الإعلانات التى تحيط بنا إحاطة كاملة هذه الأيام، سواء كان ذلك فى المترو أو فى الحافلات أو اللافتات أو الفترينات، أو حتى التى تصلك بالبريد. ما الأطر التى تستعملها فى تفسيرها؟ وما المفاتيح التى تستجيب لها؟

فلننتقل الآن إلى الجانب الأول من جانبى الترابط اللذين ميزتُ بينهما عاليه، ألا وهو الترابط بين أجزاء النص المتابعة، فنلاحظ وجود افتراضات مضمرة تربط بين الأجزاء المتابعة فى النص بتقديم 'الحلقات المفقودة' فى السلسلة، وهى التى تربط

الحلقات القائمة بعضها إلى بعض، والمقصود بها الأقوال الصريحة، وقد يقوم السامع/ القارئ بتوفيرها تلقائيًا أو يتوصل إليها من خلال الاستنباط، وهو المفهوم الذى أطللنا عليه إطلالة موجزة فى النص الخاص بالسيدة جينى كيبيل فى الفصل الثالث. انظر مثلًا إلى الجملتين الثانية والثالثة فى قصة نوع غرامه (وعندما عبرت السيارة الجسر...)، فإنهما لا ترتبطان الارتباط الذى يحقق ترابط المعنى إلا إذا افترضت وجود عالم يشعر المرء فيه بالفرحة لقرب لقائه شخصًا يحبه بعد أن غاب عنه ثلاثة أشهر. ما مقدار الجهد الذى عليك أن تبذله فى التحليل أو الاستنباط حتى تصل إلى هذا الافتراض؟ لا أتصور أنك ستبذل أى جهد، ما دام ذلك العالم هو العالم الذى يتصوره معظمنا، وهو يمثل جزءًا من الأطر الخاصة بعلاقات الحب، ولن يخطر ببالنا ما ينفى أن تتابع العبارات هنا منطقى بالصورة الراهنة! وأما الافتراض الذى يربط بعضها ببعض فنحن نقدمه تلقائيًّا، فى خطوة تسمى ملء الفجوات أو سدها. (ولنا أن نطبق التمييز بين الاستنباط وسد الفجوات تلقائيًا لتحقيق الترابط فى معنى النص أو العالم، أى إن لنا أن نحقق 'المواءمة' بين النص والعالم تلقائيًّا أو من طريق الاستنباط).

ولا يوجد حد قاطع يفصل بين سد الفجوات تلقائيًّا وبين الاستنباط، وذلك لسببين: الأول أنه من المحتمل أن الحلقات تتدرج فى صعوبتها، أى ما بين الحلقات الواضحة التى لا تحتاج إلى بذل الجهد وبين الحلقات التى تتطلب جهدًا كبيرًا فى الاستنباط، والثانى أن الحلقة التى يقدمها أحد الأشخاص تلقائيًّا قد تتطلب من شخص آخر بذل جهد فى الاستنباط (أو قد تتطلب ذلك من الشخص نفسه فى مناسبة أخرى). ومن المحتمل أن النص ٤-٢ لن يتطلب أى جهد فى الاستنباط من القراء المنتظمين للمجلة التى اقتطفناه منها. ولكنه قد يتطلب ذلك من قراء آخرين.

م
ش
ك
ل
ا
ت

هل تحتاج إلى أحد تتكلم معه؟ نحن على استعداد دائم للإصغاء. اكتب إلينا، أرسل رسالتك إلى ديف ولزلى، والعنوان بلو چينز، ص.ب. ٣٠٥ لندن نرجو إرفاق ظرف عليه عنوانك وطابع البريد إذا كنت تريد ردًّا شخصيًّا.

الشعور بالحرج من الصبيان

أرجو المساعدة. عمرى ١٣ سنة، وكلما ظهر صبى على شاشة التليفزيون وكانت أمى فى الغرفة شعرت فعلًا بالحرج. لم أخرج حتى الآن مع أحد قط، على الرغم من أن أمى تقول إننى جميلة فعلًا. كيف أتغلب على هذه المشكلة؟

القلقة ب.ج. فان، مدينة تشيستر

معظم الأشخاص، من بنين وبنات، يمرون بمرحلة معينة يشعرون فيها بالتوتر إزاء الجنس الآخر. والسبب أن الفتاة تشعر فجأة أن الصبيان لم يعودوا مجرد أصدقاء الأمس، بل أصبحوا أشخاصًا تميل إليهم وتفكر فى الخروج معهم. والسر هو الاسترخاء ومحاولة النظر إلى من تعرفينهم من الصبيان باعتبارهم أصدقاء. وسوف تجدين أنه من الأيسر كثيرًا لك أن تتعاملى مع الصبيان إذ لم تسرفى فى القلق على مظهرك. فاستمتاعك بالوقت أهم كثيرًا من ذلك. لا تقلقى لأنك لم تخرجى مع أحد حتى الآن، فأمامك متسع من الوقت!

لزلى

النص ٤ – ٢ المصدر مجلة بلوچينز، العدد ٤٨٨، ٢٤ مايو ١٩٨٦

أشعر أن الافتراضات القائمة على 'المنطق السليم'، وهى التى تعطى الترابط للعنوان (المطبوع بصورة رأسية على جانب الصفحة) هى: أولًا إن الأسلوب الصحيح للتعامل مع 'المشكلات' يتمثل فى العثور على شخص تتكلم معه، وثانيًا أن دور هذا الشخص مقصور على الإصغاء. وبعبارة أخرى، يتمثل الحل فى 'الحكمة الشعبية' التى تقول بأن عليك أن تتكلم مع شخص 'يحسن الإصغاء' وله 'أذن متعاطفة' فتحكى له مشكلاتك بدلًا من مواجهتها وحدك. وهذه الافتراضات لازمة حتى تقيم الرابطة بين العنوان الحقيقى (مشكلات) وبين الجمل المكتوبة بخط أصغر بجانبه. لاحظ أن عليك أن تفترض أيضًا أن الكلام والإصغاء يمكن استمرارهما كتابةً (وفى الصفحات المطبوعة) حتى يترابط معنى هذه الجمل مع الجملتين الأوليين!

ولكن ما بال الرسالة والرد عليها؟ ما الافتراضات المضمرة التى تحتاج إليها حتى تخرج بتفسير مترابط المعنى؟ هل تعتقد أنك تقدم هذه الافتراضات تلقائيًا من خلال "سد الفجوات" أم أنك تتوصل إليها من خلال الاستنباط؟ هل يصعب عليك الوعى بهذه الأمور؟

أعتقد أولًا أن إقامة صلة ترابط فى المعنى بين الرسالة باعتبارها طلبًا للمساعدة والرد عليها تقتضى افتراض أن تقديم المشورة كتابة يمثل تقديم مساعدة. وأرى ثانيًا أن عبارة على الرغم من فى الرسالة تمثل مفتاح الافتراض الضرورى لتحقيق الترابط بين جزئى الجملة الثالثة، أى إنه من المفترض أن تكون فتاة 'جميلة فعلًا' قد بدأت تخرج مع أحد الصبيان بحلول عامها الثالث عشر. وأجد ثالثًا أن مضمون الجملة الثانية، (وربما الثالثة أيضًا) يشار إليه فى الجملة الرابعة بكلمة 'هذه المشكلة'، استنادًا إلى الافتراض المضمر بأن إحساسها بالحرج يعتبر مشكلة. وأخيرًا أقول إن إقامة صلة تربط بين الجملة الثالثة فى الرد والجمل التى تسبقها يحتاج إلى افتراض أن حل 'المشكلة' يكمن فى 'سر' معين، أى فى علاج لا يعرفه إلا البعض (ولكن 'لزلى' تقدمه إلى 'القلقة ب. ج فان').

وربما كانت أمثال النماذج تتسم بظاهرة تدفعنا إلى التفكير، وأعنى بها أن القارئ لا النص هو الذى يتحمل مسؤولية إدخال جميع هذه الافتراضات الخلافية فى عملية التفسير. فالنص لا يؤكد أو يقول بأى منها. ويوحى هذا بوجود أسلوب 'سلطوى' يفرض الافتراضات على القراء أو على المفسرين عمومًا، ذلك أن الكاتب يقدم بعض

المفاتيح النصية إلى المفسر فيرغمه على أن يضع تلك الافتراضات حتى يفهم معنى النص. وذلك مما يفعله على الدوام الخطاب الرامى إلى إقناع القراء بشيء ما، والكتابة الدعائية، وكثيرًا ما يفعلانه بوضوح وجلاء، فإذا استهل صحفى مقالًا له قائلًا "إن التهديد السوفييتى لأوروبا الغربية..." فإنه يفترض سلفًا وجود تهديد سوفييتى. ومن حسن الحظ أن القراء لا يقبلون دائمًا أن يشغلوا الموقع الذى يريد الكاتب لهم أن يشغلوه!

وهذه لحظة مناسبة للانتقال إلى المسألة التالية التى أريد التصدى لها، أى العلاقة بين 'المنطق السليم' وبين 'الأيديولوجيا'. فإن المنطق السليم فى الافتراضات المضمرة التى أشرت إليها فى المثال السابق ذو مرتبة أيديولوجية. وسوف أشرح السبب فى القسم التالى. أضف إلى ذلك أننا نستطيع أن نرى عمل الأيديولوجيا فى الأساليب التى تُبنى بها النصوص بحيث 'تفرض افتراضات' معينة، باستمرار وبصورة تراكمية، على مفسرى النصوص وأيضًا على منتجى النصوص، وعادة ما لا يكون أى من هؤلاء واعين بها.

المنطق السليم والأيديولوجيا

'المنطق السليم' أيديولوجى فى جوهره، وإن لم يقتصر على الأيديولوجيا، بالمعنى الذى قدمت به هذا المصطلح فى الفصل الثانى، وهذه العلاقة المهمة بين المنطق السليم والأيديولوجيا هى ما يهمنى هنا فى المقام الأول. وقد قام الماركسى الإيطالى أنطونيو جرامشى باستكشاف هذه العلاقة، مشيرًا إلى وجود "شكل من أشكال النشاط العملى" يتضمن "فلسفة فى صورة 'مقدمةٍ منطقيةٍ' نظريةٍ مضمرةٍ"، وإلى وجود "تصور معين للعالم، يتضح إضماره فى الفن وفى القانون وفى النشاط الاقتصادى وجميع تجليات الحياة الفردية والجماعية". وهذا التصور للأيديولوجيا باعتبارها 'فلسفة مضمرة' فى الأنشطة العملية للحياة الاجتماعية، كامنة فى الخلفية ومُسَلَّمٌ بوجودها، هو ما يربطها 'بالمنطق السليم'، وهو المصطلح الذى يتوسع جرامشى نفسه فى استعماله فى هذا الصدد. وأما بقية هذا الفصل فسوف نحاول تحديد خصائص المنطق السليم الأيديولوجى.

ولعلك تذكر أننى اقترحت فى الفصل الثانى اعتبار أن الأيديولوجيا ترتبط ارتباطًا جوهريًا بعلاقات السلطة. فلنفهم المنطق السليم، وفقًا لذلك، بأنه المنطق السليم فى خدمة الحفاظ على علاقات السلطة غير المتكافئة. والقضية هنا قضية اختلاف فى الدرجة. ففى بعض الحالات يكون التفاوت فى علاقات السلطة تفاوتًا مباشرًا، مثل الافتراض المنطقى المشار إليه فى الفصل السابق، أى القول بأن 'حرية الكلام' مكفولة للجميع، وهو القول الذى يُخفى ويساعد على الحفاظ على واقع الحواجز المقامة فى وجه شتى أنواع الكلام لمعظم الناس. وفى حالات أخرى، قد تكون العلاقة غير مباشرة، مثل نصوص 'صفحة المشكلات' فى القسم السابق كما سوف أسوق الحجة عليه أدناه. ولن يفيدنا تصنيف 'المنطق السليم' بتقسيمه إلى نوع 'أيديولوجى' ونوع 'غير أيديولوجى'، بل المفيد أن نقول إن الافتراضات القائمة على المنطق السليم تساهم بدرجات مختلفة فى الحفاظ على علاقات السلطة غير المتكافئة.

وتؤدى الافتراضات المذكورة مهامّ أخرى، وأيضًا بدرجات مختلفة، مثل إنشاء علاقات التضامن وتدعيمها بين أفراد فئة اجتماعية معينة. فإذا استمعت إلى خطاب أفراد أسرتك أو أصدقائك أو زملائك فسوف تلحظ كثرة الافتراضات التى يسلمون بصحتها. فإذا رَدَدْتَ بأن ذلك أمر تقتضيه كفاءة الحديث، بمعنى أنه لا فائدة من التصريح بما يفترضه الجميع، أجبتك: أفليست المقدرة على التسليم بهذا الكم الهائل من الأمور دليلًا مهمًا أيضًا على 'انتمائك' لهؤلاء؟

إذن ما الذى يجعل نص 'صفحة المشكلات' أيديولوجيا (بشكل غير مباشر) فى افتراضاته المضمرة؟ أفلا يتناول مشكلات شخصية محضة، لا علاقة لها بالسلطة الاجتماعية؟ إنه كذلك فعلًا، من وجهة نظر سطحية. إذ إن الفتاة 'القلقة'، بنت مدينة تشيستر، تتلقى نصيحة تبين لها كيف تتغلب على 'مشكلتها' من خلال التكيف مع واقع العلاقات بين الجنسين فى فترة المراهقة. ومع ذلك فإن مشكلتها ليست، بوضوح، مشكلتها وحدها، بل يشاركها فيها الملايين. ثم أليست هذه مشكلة اجتماعية لا مشكلة شخصية؟ لا شك أن مرحلة البلوغ تتسبب دائمًا فى صعوبات لليافعين، ولكن هذه

الصعاب تبدو شديدة الحدة فى المجتمع المعاصر، بسبب طبيعة العلاقات بين الجنسين فى فترة المراهقة، وبسبب العلاقات بين الجنسين وما تتسم به من تفاوت فى السلطة بصفة أعم وأشمل، وفى آخر الأمر بسبب ما يشوب علاقتنا الاجتماعية من التشوه إلى حد ما. وأعتقد أن الدور الأيديولوچى للافتراضات المضمرة فى هذه الحالة يكمن فى تقديم إطار وإجراءات قائمة على المنطق السليم لحل المشكلات الاجتماعية التى تعانيها هذه الفتاة بأسلوب فردى محض. ويعتبر ذلك "استعمالًا للمنطق السليم فى الحفاظ على علاقات السلطة غير المتكافئة" بمعنى أنه يصرف الانتباه عن فكرة يمكن أن تؤدى إلى التشكيك فى علاقات السلطة والطعن فيها، وهى الفكرة التى تقول بوجود أسباب اجتماعية للمشكلات الاجتماعية ووجود حلول اجتماعية لها.

وتحقق الأيديولوجيا أقصى فاعلية لها عندما تعمل فى أقصى درجات الخفاء، فإذا أدرك المرء أن جانبًا معينًا من المنطق السليم يتسبب فى الحفاظ على ضروب التفاوت فى السلطة على حسابه، لم يعد ذلك المنطق منطقًا سليمًا، وقد يفقد القدرة على الحفاظ على ضروب التفاوت فى السلطة، أى فى أداء مهمته الأيديولوجية. وأما 'الخفاء' المشار إليه فيتحقق عندما تتسرب الأيديولوجيات إلى الخطاب لا باعتبارها عناصر صريحة فى النص بل باعتبارها افتراضات فى خلفيته تدفع منتج النص إلى رسم صورة العالم فى النص بأسلوب معين، من ناحية، وتدفع مفسر النص إلى تفسيره بأسلوب معين، من ناحية أخرى. فالنصوص لا تصرح عادة بالأيديولوجيات، ولكنها تقدم للمفسر مفاتيح معينة تجعله يستعين بالأيديولوجيات فى تفسيره للنصوص، فيعيد إنتاج هذه الأيديولوجيات فى غمار ذلك!

ولهذا السبب، فإننى أعلق أهمية خاصة، من المنظور الأيديولوجى، على ما أشرت إليه فى القسم السابق بتعبير 'سد الثغرات' التلقائى، أى توفير 'الحلقات المفقودة' اللازمة لتحقيق الترابط بين الأجزاء المتتابعة للنص، من دون الحاجة إلى 'الاستنباط' أو تحقيق 'المواءمة' تلقائيًا بين النص والعالم. وكلما ازداد الطابع التلقائى للعمل الذى يؤديه افتراضٌ أيديولوجىٌّ معينٌ فى بناء تفسيرات ذوات معان مترابطة، قَلَّ احتمال

إدراكنا الواعى به، واكتسبت مكانته الأيديولوجية ثباتًا وصلابة أكبر، وهو ما يعنى أيضًا زيادة فعالية إعادة إنتاجه من خلال الارتكان إليه فى الخطاب.

كيف تختلف افتراضاتك المضمرة عن المرأة عن افتراضاتك المضمرة عن الرجل؟ حاول أن تجد أمثلة فى خطابك أو فى غيره من ألوان سلوكك على استناد ترابط المعنى إلى افتراضاتك. حاول أن تنتبه إلى الأساليب التى تقدم بها النصوص التى تقرؤها (بما فى ذلك الصور البصرية) مفاتيح معينة قائمة على الافتراضات الأيديولوجية، بالصورة المعتادة، بحيث تصبح لازمة لتفسير النصوص.

التنوع والصراع فى الأيديولوجيا

يقوم أصحاب السلطة بمحاولات دائبة لفرض صورة من المنطق السليم الأيديولوجى يقبلها الجميع، كما سوف نرى بعد قليل، ولكن الأيديولوجيا دائمًا ما تتسم بدرجة ما من التنوع، بل والتضارب والتصارع إلى الحد الذى يحول دون التحقيق الكامل للوحدة الأيديولوجية. ولهذا نستطيع أحيانًا (والحمد لله!) أن نحافظ على المسافة التى تفصلنا، باعتبارنا 'مفسرين'، عن الافتراضات التى يقدمها منتجو النصوص موحين بأنها قائمة على المنطق السليم.

ونحن نحيط جميعًا بمجال معين من مجالات التنوع الأيديولوجى، ألا وهو مجال الأيديولوجيات السياسية. وربما تكون هذه نقطة انطلاق صالحة، ما دمنا جميعًا نستطيع العثور على نصوص سياسية يختلف المنطق السليم الذى تقوم عليه أيديولوجيا عن المنطق السليم عندنا. ويصدق ذلك قطعًا فى نظرى على النص التالى:

تكمن كفاءة الزعيم القومى الحق، بصفة عامة وفى جميع الأوقات، فى الحيلولة أساسًا دون تشتيت انتباه الشعب، وفى التركيز دائمًا على عدو واحد. وكلما ازدادت وحدة العمل القائم على إرادة الكفاح الشعبية، ازدادت القوة المغناطيسية للحركة وازدادت قوة الدفع للضربة التى يضربها. ويتمثل جانب من جوانب عبقرية الزعيم العظيم فى قدرته على أن يُظهر الخصوم المنتمين إلى شتى المجالات فى صورة من ينتمون دائمًا إلى فئة واحدة فقط، فإذا تبينت الشخوص الضعيفة القلقة وجود أعداء شتى لهم، فلن يؤدى ذلك إلا إلى أن تنشأ لديهم شكوك فى صحة قضيتهم، وبيسر بالغ.

وما إن تتبين الجماهير ذوات الميول المتأرجحة أنهم يواجهون عددًا من الأعداء يفوق ما توقعوه، حتى تبدأ الأحكام الموضوعية فى التدخل، وإذا بهم يتساءلون إن كان الآخرون جميعًا مخطئين فعلًا، وأمتهم أو حركتهم وحدها على صواب.

ويصحب ذلك أيضا أول شلل لقوتهم. ومن ثم فينبغى النظر دائمًا إلى أى عدد من الأعداء المختلفين اختلافات جوهرية باعتبارهم عَدُوًّا واحدًا، بحيث يتجه رأى جمهور مؤيدى الزعيم إلى أنهم يشنون الحرب على عدو واحد فقط. فمن شأن هذا أن يدعم إيمان المرء بقضيته ويزيد من المرارة التى يكنها ضد الذى يهاجمه.

النص ٤ – ٣ المصدر: أدولف هتلر، كفاحى.

ما الذى يتضمنه هذا النص من افتراضات مضمرة عن طبيعة 'الشعب'، وعن العلاقة بين الشعب والزعيم؟ هل تجد فيها أية إشكاليات؟

يفترض هذا النص (افتراضًا يعتبر حيلة بلاغية عتيدة) وهو أن 'الشعب' فرد واحد مُرَكَّبٌ يتسم بصفات شخص واحد (الانتباه، الإرادة، القوة، المرارة، ووجود أعداء له) وبأنه يتمتع بالقدرة على 'العمل الموحد'، وإن كان المرض (الشلل) يمكن أن يهدر هذه الصفات، نتيجة للضعف أو القلق. ولما كان الشعب عاجزاً عن الحفاظ على الوحدة ووضوح الأهداف بنفسه (فالجماهير متأرجحة الميول) فإن على الزعيم أن يحقق له ذلك، أى أن يمنع التشتت ويضمن تركيز الانتباه. والنص يفترض أن زعامة شعب أو أمة تكمن فى (عبقرية) شخص واحد، أى إنها ليست جماعية.

قد تبدو هذه الافتراضات عن العلاقة بين الشعب والزعيم افتراضات متطرفة، ولكن الفكرة التى تقول بأن الشعب فرد مُرَكَّبٌ، مثلًا، فكرة بالغة الشيوع.

حاول أن تجد فقرة من نص سياسى (وقد يكون بيانًا أو مقابلة صحفية أو كتيبًا) تتضمن افتراضات مضمرة عن الشعب والزعماء تراها غريبة عليك، وحاول أن تفصح عنها أقصى إفصاح تستطيعه. وحاول بعد ذلك أن تقوم بالمهمة الأصعب وهى تكرار ما فعلته نفسه بفقرة تتفق مع نظرتك السياسية!

لا شك فى وجود قدر كبير من التنوع فى مدى التباين الأيديولوجى بين المجتمعات، أو بين الفترات المختلفة فى تاريخ مجتمع من المجتمعات. ترى ما العامل الذى يحدد مستوى التباين؟ إنه أساسًا حالة العلاقات الاجتماعية والصراع الاجتماعى،

بما فى ذلك العلاقات الطبقية والصراع الطبقى. فإذا كان المجتمع يتسم بعلاقات سلطة واضحة ومستقرة، فللمرء أن يتوقع وجود قدر كبير من التنوع الأيديولوجى. وما بال المجتمع الرأسمالى المعاصر إذن؟ هل نستطيع مثلًا تفسير حاله من خلال النموذج الأيديولوجى الكلاسيكى البسيط، حيث يتوحد السكان جميعًا فى ظل الأيديولوجية السائدة للطبقة الحاكمة؟ ربما لم نستطع ذلك، وإن كان هذا النموذج يبدو معقولًا فى الخمسينيات، مثلًا، أكثر مما يبدو عليه الآن. فالصورة المعاصرة تتميز فى بعض المجالات على الأقل بتكاثر الأيديولوجيات التى يشبهها ثيربورن "بالنشاز بين الأصوات والعلامات فى مدينة كبيرة". أضف إلى ذلك أننا قد نجد فى داخل مجتمع ما تباينًا بين المؤسسات المختلفة فيما يتعلق بدرجات التنوع الأيديولوجى.

والواقع أن التنوع الأيديولوجى يضع حدودًا لما أسميته المنطق الأيديولوجى السليم، وعلى الرغم من وجود حالات تشهد على معاملة بعض الأيديولوجيات التى لا يقبلها إلا عدد جد محدود من الناس معاملة المنطق السليم (مثل حالتى الحجر الكريم المرتبط بتاريخ الميلاد ونص هتلر) فإن أشد صور المنطق السليم فاعلية صورة المنطق الذى يقبله معظم أفراد مجتمع أو مؤسسة ما، إن لم يقبله الجميع. ومن الواضح أنه كلما ازداد التنوع الأيديولوجى فى المجتمع قل احتمال تحقيق ذلك.

إذن ما مصادر هذه الأيديولوجيات المتنوعة؟ هل تتولد عشوائيًا عند الأفراد على سبيل المثال؟ لا! بل إنها تنشأ من التباين فى الموقع والخبرة والاهتمامات بين الفئات الاجتماعية التى تشتبك مع بعضها البعض فى علاقات السلطة (وفى الصراع الأيديولوجى، كما سوف نرى). وقد تكون هذه الفئات طبقات اجتماعية، وقد تتمثل فى مواجهة النساء للرجال، وقد تكون قائمة على الانتماء العرقى وهلم جرًا. وكثيرًا ما تكون فئات من نوع 'محلى' مرتبط بمؤسسة معينة. (وارجع إلى مناقشتى فى الفصل الثانى للعلاقة بين الفئات المؤسسية وغيرها من المؤسسات الطبقية أو القائمة على نصرة المرأة وهلم جرًا). وعلى سبيل المثال نرى أن مجال التعليم يضم فئات التلاميذ والآباء والمعلمين وقد تنشأ داخل هذه الفئات الفرعية، من ناحية المبدأ، أيديولوجيات تعليمية

مختلفة. وأما الحالة التى يُحتمل أن ينشأ ذلك فيها فهى تصارعها للظفر بالسلطة المؤسسية.

ومن بين شتى الأشكال التى يمكن أن يتخذها الصراع الاجتماعى شكل الصراع الأيديولوجى وهو الشكل الذى يكتسب أهمية خاصة فى هذا السياق لأن الصراع الأيديولوجى يقع بأبرز صورة فى اللغة. ولنا أن نعتبر أن هذا الصراع لا يقع فقط داخل اللغة بالمعنى الواضح الذى يقع به داخل الخطاب، وهو الذى تشهد عليه النصوص اللغوية، بل أيضًا من حيث أنه يقع حول اللغة، بمعنى أن اللغة نفسها تجمع بين كونها غاية للصراع الاجتماعى وموقعًا لهذا الصراع. وقد رأينا ذلك عند مناقشة 'السلطة من وراء الخطاب' فى الفصل الثالث. والظفر بسلطة البت فى بعض الأمور مثل معانى الكلمات، وتحديد المعايير اللغوية أو التوصيلية التى تعتبر مشروعة أو 'صحيحة' أو 'مناسبة'، يمثل جانبًا مهمًّا من جوانب السلطة الاجتماعية والأيديولوجية، ومن ثم فهو موقع يدور حوله الصراع الأيديولوجى. وهكذا فإن النظر إلى الممارسات اللغوية القائمة ونظم الخطاب باعتبارها شواهد على الانتصارات والهزائم فى الصراعات السابقة، وبصفتها أيضًا غنائم متنازع عليها، إلى جانب المفهوم التكميلى 'للسلطة من وراء الخطاب'، سمة كبرى تتميز بها الدراسة النقدية للغة، وهى السمة التى تميز هذه الدراسة عن التيار الرئيسى 'الوصفى' لدراسة اللغة (على نحو ما شرحته فى الفصل الأول).

ويتخذ الصراع الأيديولوجى أشكالًا كثيرة ومختلفة فى الخطاب، لكننى سوف أقدم هنا نموذجًا يتميز بالبساطة النسبية، مقتطعًا إياه من صحيفة يسارية أسبوعية، لإيضاح استعمال 'علامات التنصيص المخيفة'. ولاحظ أن هذا نص غير مترابط، إذ إننى أجمع فيه بعض العبارات من مقال طويل كتبته زُوِى تيلتسون.

> حصن الأسرة عند ثاتشر
>
> شُغِلَ اليسارُ فى الآونة الأخيرة بالتصدى للتغيرات الجارية فى الميدان الاقتصادى والعمالى. ويبدو أن انشغاله اشتد فمنعه من توجيه أى قدر من الاهتمام إلى مجال آخر يتعرض أيضًا لإعادة الهيكلة: أى مجال الأسرة.

فنى الأسبوع الماضى تلاحمت صفوف العصبة التى تتكون من ثاتشر وجيليك ومارى هوايتهاوس لشن هجوم جديد على 'مجتمع الإباحة'.

إن المطالبة بتشغيل عمال نصف مهرة، وعملهم نصف الوقت فى أعمال لا تمثلها نقابات، تضمن تلبية 'حق العمل للمرأة'. فالكثير من النساء مرغمات على العمل، ما دام الرجال يعجزون باطراد عن توفير 'الأجور الكافية للأسرة'.

ومع ذلك، فإن انصراف الدولة خُلسةً من الباب الخلفى لم يمنع من حفاظها على يدها المتطفلة التى تضمن بها أن يتوافر التعليم الجنسى بالأسلوب 'الأخلاقى الصالح' الذى يؤكد التنشئة على 'ضبط النفس' و'الحياة الأسرية المستقرة' حتى يقوم بمهمة المخلص والمنقذ لكل من يحتمل أن يتحول إلى 'هيبى' [ثائر فوضوى] أو مثلى النزعة الجنسية.

النص ٤ – ٤ المصدر صحيفة سبعة أيام، يونيو ١٩٨٦

ما تأثير وضع تعبيرات مثل **'مجتمع الإباحة'** بين علامتى تنصيص مخيفة فى الأسلوب الذى يرى به القراء أمثال هذه التعبيرات؟ هل تحدث المقتطفات المخيفة دائمًا ما تحدثه من تأثير هنا؟ حاول ملاحظة ردود أفعالك عندما تصادفك فى صحيفتك المعتادة.

أعتقد أن التأثير فى هذه الحالة ينحصر فى تنبيه القارئ إلى أن هذه التعبيرات تثير إشكاليات من نوع ما. وهذا يفصل بين القارئ وبين هذه التعبيرات، موضحًا أنها تنتمى إلى غيره، أى إلى الخصوم السياسيين للكاتب أو 'للقارئ المفترض'. ولكن وضع تعبير ما بين علامات تنصيص مخيفة قد يؤدى، على العكس من ذلك، إلى تدعيمها فى بعض الحالات.

ومن الأسئلة الطريفة: كيف يعرف القراء فى حالة معينة إن كان عليهم تفسير هذا المفتاح بهذا الأسلوب أو بذاك؟ والواضح أيضًا أن ذلك يعتمد على الافتراضات المضمرة (أو ما أسميته 'موارد الأعضاء') التى يستندون إليها فى تفسيرهم للنصوص. وفى حالة **'مجتمع الإباحة'**، على سبيل المثال، نجد أن معظم قراء صحيفة **سبعة أيام** (التى ينشرها الحزب الشيوعى) يدركون قبل أن يشاهدوا المقالة أن هذا التعبير ينتمى إلى أيديولوجية غريبة على الصحيفة، ومن ثم فسوف يفسرون التعبير، بلا إشكاليات، بالتبرؤ منه. ولو تصادف أن كانوا غير واعين بها فإن السياق المباشر سوف يساعدهم، فما دامت كلمة 'عصبة' تقيم مسافة بين كاتبة المقال وبين ثاتشر وثلتها، فمن المحتمل أن

يفسر المرء الكلمات اللاحقة المقدمة بين 'علامات تنصيص مخيفة' على أنها تسهم أيضًا فى إقامة المسافة المذكورة.

حاول متابعة ما تفعله واستنباط الافتراضات التى تحدد أسلوب تفسيرك لعلامات التنصيص المخيفة فى شتى الحالات.

أنماط الخطاب المهيمنة والخاضعة للهيمنة

قد يتجلى الصراع حول اللغة فى صورة صراع بين أنماط خطاب ذوات تنوع أيديولوجى. ولعلك تذكر أننى قدمت هذا المصطلح فى الفصل الثانى للإشارة إلى ما يستند إليه الخطاب الفعلى من أعراف ومعايير وشفرات. وتتسم أنماط الخطاب بخصوصية أيديولوجية مثلما تتميز بالتنوع الأيديولوجى.

ما سبب وجود صراع بين أنماط الخطاب؟ وما غايته؟ غايته إنشاء نمط ما أو الحفاظ عليه باعتباره النمط المهيمن فى مجال اجتماعى معين، ومن ثم إنشاء افتراضات أيديولوجية معينة باعتبارها تتفق مع المنطق السليم أو الحفاظ عليها. فلنضرب مثلًا آخر من حالة ذات شفافية نسبية وهى حالة الخطاب السياسى. إن كل حزب من الأحزاب المتعارضة فى السياسة، أو كل قوة سياسية تحاول أن تفوز بالقبول العام لنمط خطابها الخاص بصفته النمط المفضل، ومن ثم النمط 'الطبيعى' آخر الأمر، للحديث والكتابة عن الدولة والحكومة وأشكال العمل السياسى، بل وجميع جوانب السياسة، إلى جانب ترسيم الحدود التى تفصل بين السياسة نفسها وسائر المجالات الأخرى. ولتتأمل، مثلًا، التحليلات المتضادة للأزمة الاقتصادية فى بريطانيا، وهى التى قدمها اتجاه المحافظين الثاتشرى، والاتجاه الديموقراطى الاشتراكى (بجناحيه الأيسر والأيمن)، والاتجاه الليبرالى، والاتجاه الشيوعى منذ أواخر السبعينيات، وتأمل كيف نجح أول هذه الاتجاهات فى الهيمنة على الحياة السياسية فى بريطانيا فى الثمانينيات. (انظر الفصل السابع الذى يقدم بعض النصوص والمزيد من المناقشة). وأما الغاية فلا تقتصر على

تقديم المزيد من 'الألفاظ وحسب'، بل إنها السيطرة على تضاريس العالم السياسى، وإضفاء المشروعية على السياسات، والحفاظ على علاقات السلطة.

وأما المجالات الرئيسية التى يدور فيها الصراع الاجتماعى فهى المؤسسات الاجتماعية، وأنماط المواقف التى تعترف بها كل مؤسسة. ومن الأرجح أن تكون هذه المؤسسات أبنية اجتماعية مُرَكَّبة، ومن المحتمل أن تستخدم المؤسسة الواحدة شتى أنواع الخطاب فى شتى أنماط مواقفها، ومن ثم فقد يتوافر لنا عدد من مجموعات مختلفة من أنماط الخطاب ذوات الأيديولوجيات المتنافسة التى تتفق مع أنماط المواقف المذكورة. ومع ذلك فنحن نشهد أوجه تشابه وتداخل مهمة بين أنماط الخطاب المرتبطة بموقف أيديولوجى معين، لا عبر أنماط المواقف فى داخل مؤسسة ما وحسب، بل عبر المؤسسات أيضًا. انظر المناقشة فى الفصل السابع.

ما الأشكال التى تتخذها علاقات الهيمنة بين أنماط الخطاب؟ قد يتمثل نمط الخضوع للهيمنة فى علاقة معارضة لنمط مهيمن. ويطلق عالم اللغة مايكل هاليداى على أحد أنماط خطاب المعارضة مصطلح اللغة المضادة. واللغات المضادة تُبنى وتستعمل بصفتها بدائل واعية عن أنماط الخطاب المهيمنة أو الثابتة. وقد تتضمن النماذج لغة المجرمين فى عالم المدينة 'السفلى'، أو لهجة اجتماعية تتحول إلى لغة معارضة عن وعى، على نحو ما يحدث لإحدى اللهجات الاجتماعية 'غير المعيارية' لفئة أقلية عرقية، مثلًا، أو لفئة من الطبقة العاملة فى أحد المجتمعات المحلية داخل إحدى المدن الكبرى.

ومن الممكن أيضًا أن يتمكن نمط خطاب مهيمن من احتواء نمط خطاب خاضع للهيمنة. ومن الحالات التى تمثل ذلك محاولة الخطاب الثاتشرى أن يستوعب الخطاب الشعبى المضاد للبيروقراطية والدولة بتعديل مساره حتى يصبح ناقدًا لدولة الرعاية الاجتماعية، أو، كما يسميه المذهب الثاتشرى 'اشتراكية الدولة' (ارجع إلى التفاصيل فى الفصل السابع). وحيثما يتحول الخطاب الخاضع للهيمنة إلى خطاب معارضة، تنشأ الضغوط التى تدعو إلى قمعه أو استئصاله، فى حين أن احتواءه يضفى عليه قدرًا معينًا من المشروعية والحماية، على الرغم مما يقيدهما من شروط!

للمرء أن يتصور أن الهدف الذى يرمى إليه نمط الخطاب المهيمن آخر الأمر هو، كما يقول عالم الأنثربولوجيا الفرنسى پيير بورديو "الإقرار بالمشروعية من خلال عدم تبين التعسف". وإذا شئنا التعبير عن الفكرة نفسها بأسلوب أقل إيجازًا (وأقل رشاقة) قلنا: إذا هيمن نمط من أنماط الخطاب على مؤسسة ما إلى الحد الذى يتيح القمع أو الاحتواء الكامل تقريبًا للأنماط الخاضعة للهيمنة، فلن يراه أحد بعدها نمطًا تعسفيًا (بمعنى كونه أسلوبًا واحدًا من بين عدة أساليب ممكنة 'لرؤية' الأشياء) بل سوف يُنظر إليه باعتباره نمطًا طبيعيًا ومشروعًا لأنه أسلوب التصرف المتبع وحسب. ولسوف أشير إلى هذا، كما أشار إليه الآخرون، بمصطلح **تطبيع** (naturalization) نمط الخطاب. والتطبيع يعتمد على الدرجة، وقد يتغير مدى تطبيع نمط من أنماط الخطاب، وفقًا للتحول فى 'ميزان القوى' فى الصراع الاجتماعى.

ما الذى يربط التطبيع بالمنطق الأيديولوجى السليم الذى كنت أناقشه الآن؟ التطبيع هو الطريق الملكى للمنطق السليم. والأيديولوجيات تتحول إلى صور من المنطق الأيديولوجى السليم بقدر ما تتحول أنماط الخطاب التى تجسدها إلى أنماط طبيعية. ويتوقف هذا على سلطة الفئات الاجتماعية ذوات الأيديولوجيات وأنماط الخطاب المطروحة فى هذا المجال. ومن هذه الزاوية، يعتبر المنطق السليم فى بُعده الأيديولوجى من **الآثار الناجمة عن السلطة**. ومن ثم فإن تحديد المنطق السليم يتولاه إلى حد كبير أولئك الذين يمارسون السلطة والهيمنة فى مجتمع ما أو إحدى المؤسسات الاجتماعية.

ولكن أنماط الخطاب تفقد فعلًا طابعها الأيديولوجى، فيما يبدو، فى غمار **تطبيع** أنماط الخطاب وخلق المنطق السليم، فالأرجح أن ينظر المرء إلى النمط المُطَبَّعَ لا باعتباره نمطًا خاصًا بفئة داخل المؤسسة بل باعتباره خاصًا بالمؤسسة نفسها وحسب، ومن ثم فهو يبدو **محايدًا** فى ضروب الصراع على **السلطة**، وهو ما يوازى قولنا إنه يشغل مكانًا خارج الأيديولوجيا. ومن العواقب المترتبة على ذلك أن اكتساب العلم بنمط خطاب

مهيمن يُنظر إليه باعتباره مجرد اكتساب للمهارات أو التقنيات اللازمة للعمل فى المؤسسة. ومن النماذج على ذلك أن يتعلم الطفل عند التحاقه أول الأمر بالمدرسة كيف يتصرف فى قاعة الدرس خِطابيًّا أو أن يتعلم فى مرحلة تعليمية لاحقة كيف 'ينجح' فى 'اجتياز' مقابلة شخصية. ومن المفارقات أن التفريغ الظاهرى للخطاب من مضمونه الأيديولوجى يعتبر فى الحقيقة نتيجة أيديولوجية جوهرية: أى إن الأيديولوجيا تعمل من خلال إخفاء طبيعتها، والتظاهر بأنها غير ما تبدو عليه. وعندما يتعامل علماء اللغة مع الممارسات اللغوية تعاملًا سطحيًّا (وقد قلت إن ذلك دأبهم فى الفصل الأول) فإنهم يساعدون فى الحفاظ على النتيجة الأيديولوجية المذكورة.

والإقرار بظاهرة التطبيع يوازى الإصرار على التمييز بين مظاهر النطق السليم السطحية فى الخطاب وبين جوهره الدفين. ولكن ما الذى يمكننا أن نفهمه إذن من الشروح التى يقدمها الناس، أو التى يقنعهم المحلل بتقديمها، لممارساتهم الخِطابية؟ يجب أن ننظر إلى الشروح باعتبارها تبريرات لا يمكن أن تؤخذ بدلالاتها السطحية فإنها ذاتها تحتاج إلى شروح. ولنا أن ننظر إلى التبريرات باعتبارها جزءًا لا يتجزأ من التطبيع، فإن توليد ممارسات الخطاب القائمة على المنطق السليم يصاحبها توليد تبريرات قائمة على المنطق السليم لهذه الممارسات وهى التى تضفى المشروعية عليها.

حاول أن تتذكر أشد أنماط الخطاب إيحاءً 'بالحياد' فى ظاهرها، والتى تعرف أنها من نتائج التطبيع، والشروح التى يقدمها الناس لها باعتبارها مبررات. هل تؤمن بوجود أية أنماط تتسم حقيقة بالحياد؟

الأيديولوجيا والمعنى

من أبعاد 'المنطق السليم' معنى الألفاظ، ونحن ننظر إلى معنى اللفظ (وغيره من التعابير اللغوية) باعتباره مسألة حقيقة بسيطة، ولو نشأ أى تساؤل عن 'الحقائق' رجعنا إلى المعجم باعتباره المكان الذى نستطيع التحقق منها فيه. وأما الألفاظ التى نعرفها خير المعرفة، فإنها تعنى ما تعنيه وفق المنطق السليم وحسب! وسوف أقول فيما يلى إن المنطق

السليم مشتبه فى أمره هنا وفى غير هذا المكان. ولكننى أرى أن المناقشة الموجزة لجانبين من جوانب المعنى فى اللغة يمكن أن تفيدنا فى البحث النقدى فى المعنى القائم على المنطق السليم، الأول طابع التغير فى المعنى، والثانى طبيعة نظم المعانى.

لما كان المنطق السليم يولى 'المعجم' مكانة كبيرة، فإننا نميل عمومًا إلى عدم تقدير مدى التغير فى نظم المعانى فى مجتمع ما تقديرًا صحيحًا. فعلى الرغم من أن بعض المعاجم الحديثة تحاول فعلًا رصد ذلك التغير، فإن 'المعجم' باعتباره الحجة فى معانى الألفاظ يعتبر إلى حد كبير ثمرة من ثمار عملية تقنين اللغات المعتمدة/ المعيارية، ومن ثم فهو يرتبط ارتباطًا وثيقًا بفكرة وجود معانٍ ثابتة للألفاظ. (انظر مناقشة التوحيد القياسى فى الفصل الثالث). ما أيسر أن نثبت أن المعانى تتغير بين اللهجات الاجتماعية (التى نوقشت فى الفصل الثانى) ولكنها تتغير أيضًا أيديولوجيا، وهو الجانب الذى تتباين فيه أنماط الخطاب فى نظم معانيها. ولنضرب مثلًا من الكلمة التى تتردد كثيرًا فى هذا الكتاب: كلمة الأيديولوجيا نفسها.

إن كلمة الأيديولوجيا لا توحى قطعًا بأن لها معنىً واحدًا ثابتًا، فهى أبعد ما تكون عن ذلك! بل ليس من الغريب أن نسمع من يصف كلمات مثل الأيديولوجيا بأنها كلمات 'لا معنى لها' ما دامت لها معان بالغة الكثرة. ولكن المسألة لا تدعو إلى مثل هذا القنوط، فالأيديولوجيا لها فعلًا عدد من المعانى، ولكن التغير فى معناها ليس لا نهائيًّا، كما إن معانيها تتجمع عادة فى عدد صغير من 'الأسر' الصغيرة.

وسوف أقتصر على تحديد أسرتين فقط من هذه الأسر. الأولى تنتمى خصوصًا إلى الولايات المتحدة الأمريكية فى الفترة التالية للحرب العالمية الثانية، وإن كانت مألوفة اليوم إلى حد كبير فى بريطانيا، وتفسير الأيديولوجيا هنا يقول إنها "أى نظام اجتماعى مستقىً، كله أو بعضه، من النظرية الاجتماعية بأسلوب واع"، وتفسيرها الآخر ينتمى إلى التقاليد الماركسية ويقول إن الأيديولوجيات "أفكار تنشأ من أية مجموعة من المصالح المادية" فى غمار الصراع حول السلطة. والتعريفان اللذان أدرجتهما هنا مقتطفان من كتاب ريموند ويليامز ١٩٧٦.

والأمر الذى ينبغى تأكيده هنا هو أن المعانى المتغيرة للأيديولوجيا لم تتولد بصورة عشوائية بل تتفق مع مواقع أيديولوجية معينة، وتولدت فى خضم التصارع بين هذه المواقع. وهكذا فإن أول المعانى المذكورة للأيديولوجيا يصف الماركسية بأنها أيديولوجيا، إلى جانب الفاشية، ومن ثم فهو يستخدم "المصطلح بالمعنى الذى بذل ماركس وأتباعه جهودًا جباره لنشره" باعتباره "سلاحًا ضد الماركسية" على نحو ما يقول ديفيد ماكليلان.

فإذا انتقلنا إلى الجانب الثانى من جوانب المعنى التى أشرت إليها آنفًا، وجدنا أن معنى أية كلمة ليس معزولًا أو مستقلًّا، إذ تشتبك الألفاظ وغيرها من التعابير اللغوية فى علاقات كثيرة متنوعة، مثل علاقات التماثل والتضاد والتداخل والاشتمال. ويعتمد معنى الكلمة الواحدة اعتمادًا كبيرا على علاقة هذه الكلمة بغيرها. وهكذا فبدلًا من النظر إلى مفردات اللغة باعتبارها تتكون من قائمة لا نظام لها من الألفاظ المفردة التى تحمل كل منها معناها الخاص علينا أن نتبين أنها تتكون من عناقيد من الألفاظ المرتبطة بنظم المعنى.

وهكذا فإن الإيضاح الكامل لنطاق التغير فى كلمة مثل الأيديولوجيا يتطلب إجراء مقارنة بين نظم المعنى لا بين معانى الألفاظ وحسب. فالمعنى الأمريكى لكلمة الأيديولوجيا فى فترة ما بعد الحرب المشار إليه عاليه، على سبيل المثال، يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالمذهب الشمولى، وأحيانًا ما تعتبر صفة الشمولى مرادفة للأيديولوجى. كما إن المذهب الشمولى أو مصطلح الشمولية مصطلح واسع يتضمن الفاشية، والشيوعية، والماركسية وهلم جرًّا. وقد بُنى نظام المعنى حتى يجعل الأيديولوجيا "سلاحًا ضد الماركسية"! وعلى العكس من هذا، لا تظهر كلمة الشمولية فى نظام المعنى الماركسى على الإطلاق، كما لا نجد أن مصطلحات الشيوعية/ الماركسية والفاشية تمثل مصطلحات متجانسة مع الشمولية. وانظر الفصل الخامس حيث الحديث عن التجانس والترادف.

فلنعد الآن إلى الملاحظة الواردة في مستهل هذا القسم، والتي تقول بأن المعنى يعتمد فيما يبدو على المنطق السليم، إذ يتضح أن 'المنطق السليم' في هذه الحالة ضرب من 'خفة اليد' الأيديولوجية! تخيل مثلًا أن مصطلح الأيديولوجيا قد اتخذ يومًا ما، فيما يبدو، معنى ثابتًا يستطيع المرء أن يتحقق منه في المعجم، وأنه ليس مثار خلاف. لن يعنى هذا إلا أن أحد 'جوانب' الصراع بين نظم المعنى قد اكتسب هيمنة لا تُنازع. ومن هذه الزاوية يصبح المعنى الثابت أثرًا ناجمًا عن السلطة، وهو في الواقع الأثر الأيديولوجى الذى أطلقت عليه تعبير التطبيع.

ولكن هل من المحتمل أن يكون هذا دائمًا حال المعانى الثابتة؟ ما بال حالة لا تتمتع فيها الكلمة فيما يبدو بأية مزية مثل كلمة 'أنف'، بمعنى الأنف التشريحى المادى أى ذلك الجزء من الوجه الذى يقع فوق الفم وبه فتحتان؟ فهنا، على عكس كلمة أيديولوجيا، لا يوجد (في حدود ما أعرفه) اختلاف أو صراع حول الأنف. ومع ذلك فإن نظام المعنى الذى يجسد التصنيف المألوف لأعضاء الجسم يتميز فعلًا ببعض الخصائص المرتبطة بالتطبيع. ونلاحظ أولًا وجود عنصر مما يسميه بورديو "عدم تبين التعسف"، أى إن نظام المعنى يتضمن، فيما يبدو، علاقة شفافة وطبيعية بين الأنف والجسم، كأنما يكون من المحال أن يطلق على الأنف اسم آخر. وعلى سبيل المثال يستطيع المرء أن يتخيل وجود نظام للمعنى يتضمن مصطلحًا لما يشبه 'الوادى' [وهى الكلمة التى يستخدمها شيكسبير] الممتد بين الأنف وبين الشفة العليا، وإن كانت اللغة الإنجليزية في الواقع لا تتضمن لفظًا يشير إليه. ونلاحظ ثانيًا أن نظام المعنى يستند في بقائه إلى السلطة، وهى هنا سلطة الخبراء المتخصصين وعلماء الطب، وسلطة بعض شرائح المثقفين (كالمعلمين، وواضعى المعاجم إلخ) الذى يضمنون هذا وغيره من عناصر اللغة المعيارية المقننة.

سوف أفترض أن المعانى المعجمية الثابتة التى تقدم نفسها إلى المنطق السليم باعتبارها حقائق بسيطة، دائمًا ما تكون ثمرة للتطبيع، ما دام تعسف نظم المعنى خفيًّا، ولو أن التطبيع لا ينجم إلا في حالات معينة (في حالة الأيديولوجيا لا الأنف مثلًا) عن الصراع الأيديولوجى ومن هنا تأتى أهميته الخاصة للدراسة النقدية للغة.

وينطبق ما قلته حتى الآن عن المعنى على الألفاظ والتعابير بصفتها من موارد الخطاب، أى بصفتها 'مواد معجمية' لأنماط معينة من الخطاب، لا باعتبارها معانى الأقوال المنطوقة فى الخطاب. ومع ذلك فإن التطبيع يحدث آثارًا متوازية فى الحالتين، فكل منهما يتضمن الإغلاق أو التقييد لنطاق المعانى الممكنة الكثيرة. فأما فى حالة الألفاظ والتعابير التى تعتبر مواد معجمية، فإن ذلك يعنى تثبيت معانيها، على نحو ما رأينا. وأما فى حالة قول منطوق فى الخطاب، فإنه يعنى جعله يكتسب مظهر القول ذى التفسير الواحد وحسب، أى إكساب معناه مظهر الشفافية. وانظر مثلًا إلى معنى "أى خدمة؟" التى ينطقها رجل الشرطة الواقف فى مكتب الاستقبال بمخفر الشرطة موجهًا إياها إلى شخص دخل لتوه ذلك المخفر. سوف يهتف معظم الناس "المعنى واضح!" فرجل الشرطة يدعو ذلك الشخص إلى أن يصف له 'مشكلته'، وسبب وجوده فى المخفر، حتى يستطيع رجل الشرطة 'علاج' الأمر. ولكن تعبير "أى خدمة؟" يمكن أن يعنى أمورًا كثيرة مختلفة، وإن كان معناه هنا 'مغلقًا'، كما يتضح بشفافية، داخل الممارسة المُطَبَّعَةِ الخاصة بالخطاب المرتبط باللقاءات ما بين الشرطة والجمهور (انظر القسم التالى الذى يقدم مناقشة لتطبيع الممارسات ومثالًا واقعيًّا لاستعمال "أى خدمة؟")

على نحو ما توحى به بداية الفقرة السابقة، تستطيع النصوص من زاوية معينة أن تنهل من 'مورد' يتمثل فى الألفاظ والتعابير ونظم المعانى، ولكن النصوص لا تقتصر على تمثيل نظم معان سابقة بل تستطيع أيضًا توليد نظم معانيها الخاصة بدرجات متفاوتة من النجاح. وتتسم النصوص من هذه الزاوية بطاقة أيديولوجية خلاقة. والنص ٤ — ٥ هو الفقرة الأولى من افتتاحية إحدى الصحف.

صوت الحقيقة الرزين الخافت

منذ غزو جزائر فوكلاند يوم ٢ إبريل والأصوات تتكاثر. ولكن المسألة في جوهرها كانت شرًّا، ظلمًا وعدوانًا. لا يتشكك أحد في ذلك، حتى الموالون من أبناء الأرجنتين، ناهيك بالمعتذرين منهم، فالجميع يقبلون أن الأرجنتين لم يكن ينبغي لها أن تستخدم القوة لنصرة قضيتها. ولكن القوة استخدمت فعلًا، ولم تكن لها ضرورة. وسمعنا تحت دقات الطبول الأرجنتينية أصواتًا تقول هذا أيضًا، مهما بلغ من خفوتها ورزانتها، وهي تعترف بأن الوحدة بين أعضاء المجلس العسكري الحاكم في بوينوس أيريس قد تكون عابرة، ما دامت قد خرجت من رحم الظلم. وأما الوحدة في بريطانيا فتقوم على اعتبار الغزو عملًا شريرًا لا شك في شره. ومن الواضح أن بعض الخلافات قد نشبت حول أسلوب التصدي لذلك الشر، لكننا يجب أن نعترف أيضًا أن أية حلول وسط مع الشر، أو إرضائه، تعني المخاطرة بالمشاركة في تحمل مسؤوليته. وإذن فإن ردنا على الشر يجب أن يقوم على ضرورة التقيد بأقل قدر من الحلول الوسط، مع الحرص على ألا يؤدي ردنا عليه إلى مضاعفة الشر الأصلي.

النص ٤ – ٥ المصدر: صحيفة التايمز، ٢٠ مايو ١٩٨٢

- ما نوع علاقة المعنى القائمة بين الغزو، والشر، والظلم، والعدوان؟ كيف تختلف علاقتها في هذا النص عن علاقتها في أنماط خطاب أخرى مما يخطر على بالك؟ هل تستطيع أن تصف هذا النص، دون تجاوز، بأنه خلاق من حيث أيديولوجيته؟

والجملة الثانية التي وضعت تحتها خطًّا جملة وصفية (فاعل + فعل + مفعول به) (انظر الفصل الخامس) وهي تحدد العلاقة القائمة على الطبقة أو على عنصر طبقي بين غزو جزر فوكلاند، وبين الشر، والظلم والعدوان. وإدراج هذه الكلمات الثلاث باعتبارها صفات يوحي بعلاقة معنى تقوم على التكافؤ بينها. وسبب هذا أن الكلمة التي

تشير إلى الطبقة يمكن أن تستخدم عمومًا فى الإشارة إلى عنصر من عناصر تلك الطبقة، وهكذا فإن الشر والظلم والعدوان كلمات يمكن أن تستخدم بالتناوب فى الإشارة إلى الغزو. وبهذه الدلالة الخاصة نستطيع أن نقول إنها مترادفات نصية. ولكنها ليست مترادفة فى أى نظام من نظم المعنى لأى نمط من أنماط الخطاب التى أعرفها. ويوحى ذلك من الزاوية الأيديولوجية بالمزج بين الأفعال السياسية/ الحربية وبين الأخلاق (الشر) والقانون (الظلم)، وأما العدوان فهو تعبير جزئى (اكتسب الطابع العرفى من قبل) عن المزج المذكور. ويبدو أن الكاتب 'ينتفع' باستخدام هذا المزج فى الجملتين الأخيرتين من الفقرة، فالغزو يشار إليه بتعبير ذلك الشر، ويتحول ذلك إلى إشارات عامة للشر نفترض أنها تحيلنا إلى الغزو. وهكذا يستطيع الكاتب أن يقول أشياء لا معنى لها عن الغزو، دون أن يبدى الافتقار إلى الترابط. وانظر على سبيل المثال كيف يبدو الكلام غريبًا إذا استعاض المرء عن كلمة الشر بكلمة العدوان فى عبارة "إن أية حلول ومنط مع الشر، أو إرضائه، تعنى المخاطرة بوجوب المشاركة فى تحمل مسؤوليته" مثلًا.

ما أشهر الأغراض التى تستخدم فيها الطاقة الأيديولوجية الخلاقة؟ يبدو أنها تستخدم فى هذا المقتطف من صحيفة التايمز لغرض سياسى، فى ما يشبه الأزمة، لتسويد وجه 'العدو' وإضفاء المشروعية على العمل العسكرى البريطانى. وانطباعى الخاص يقول إن الطاقة الأيديولوجية الخلاقة كثيرًا ما ترتبط بمعالجة شتى الأزمات. حاول أن تعثر على أمثلة أخرى، وربما تجدها خصوصًا فى أجهزة الإعلام، وحاول التحقق من صدق الانطباع المذكور. وقد تحب أن تقارن هذا النص بالمقتطف المأخوذ من كتاب كفاحى آنفًا.

نظم التفاعل المعتادة وحدودها

المنطق السليم لا يعطينا نظم المعنى فقط بل أيضًا ما يمكن أن نسميه 'نظم التفاعل المعتادة' المرتبطة بأنماط خطاب معينة، وهى الأساليب العرفية للتفاعل بين المشاركين. فنحن نشارك فى معظم الأحيان فى معاملات البيع والشراء فى الحوانيت، وفى المقابلات الشخصية مع الاختصاصيين الاجتماعيين أو العملاء، والاستشارات مع الأطباء أو المرضى، وهلم جرًّا، من دون أن نلتفت إلى النظم العرفية للارتباط بالمشاركين الآخرين، وهى نظم مبنية فى صلب أنماط الخطاب المذكورة، كما إنها لا تستحوذ على انتباهنا عمومًا إلا عندما يقع خطأ ما.

فيما يلى، على سبيل المثال، حوار فى أحد مخافر الشرطة بين رجل دخل لتوه ذلك المخفر وبين إحدى الشرطيات. النقطة التى تسبقها مسافة وتعقبها مسافة أخرى تدل على وقفة قصيرة، والشرطة تشير إلى وقفة طويلة، والأقواس العادية تدل على أن الكلام يتعذر تمييزه، والنقط المتوالية تدل على أن الدور (٨) قد قوطع. هل توافق على أن شيئًا ما ليس على ما يرام، فيما يبدو؟ وما ذاك؟

(١) الشرطية : أى خدمة؟
(٢) الرجل : أوه. نعم . شُرطة؟
(٣) الشرطية : نعم ——
(٤) الرجل : ترين أنك تستطعين مساعدتى؟
(٥) الشرطية : نعم
(٦) الرجل : هل أنت شرطية ؟ حسن.
(٧) الشرطية : (غير واضح) ما المشكلة ؟
(٨) الرجل : يجب علىَّ. تجديد رخصة السيارة...

أما ما يبدو لى أنه على غير ما يُرام فهو أن الرجل يجد إشكاليات فيما نعتبره مفترضًا وفق المنطق السليم عندما نطلب معلومات فى أحد مخافر الشرطة؛ أى إن من يقفون خلف مكتب الاستقبال من أفراد الشرطة حقا، وإن أمثال هؤلاء جميعًا لديهم صلاحية 'مساعدة' أفراد 'الجمهور'، وإن المرأة الواقفة خلف مكتب الاستقبال شرطية فعلًا. إن هذا الحوار يكاد يصبح جزءًا من مشهد فكاهى، فالضحك هو السبيل الوحيد للرد على من يرفضون قبول الواضح الجلى! حاول أن تجد نماذج لحوارات كوميدية بنيت على أساس هذا المبدأ.

وهذه الافتراضات القائمة على المنطق السليم تكمن خلف التفاعل الطبيعى المعتاد فى العبارات الحوارية الاستهلالية فى هذا النمط من الحالات، بمعنى أن المرء يتوقع أن عبارة الشرطية (١) سوف تفهم على أنها تطلب تبيانًا 'للمشكلة'، وهو الذى لا يأتى إلا فى الدور رقم (٨) باعتباره أول ما يقوله الرجل! ومن الواضح من المعالم الشكلية للنص أن الشرطية والرجل يريان وجود إشكالية فى الأسلوب الفعلى لتطور الحوار. فالشرطية تتردد مثلًا قبل أن تقول 'نعم' فى الدور (٥) وهى تنطق هذه الكلمة بنغمة واضحة الدهشة (وإن لم يتضح ذلك من النص المكتوب)، كما إنها تجد لزامًا عليها أن تطلب من الرجل تحديد 'المشكلة' (وذلك غير لازم فى الأحوال العادية)، وأما الرجل فيتردد فترة طويلة قبل أن يقول ما يقوله فى (٤) ثم يجيب السؤال الذى طرحه بنفسه فى (٦).

ولكن ألا يمكننا أن نعتبر هذه الآثار النصية لإحساسنا بالضيق ومحاولة 'إصلاح' الحوار دليلًا على أن المشاركيْن يتوقعان فعلًا، حسبما يقضى المنطق السليم، أن يتبع الحوار 'مسارًا طبيعيًا'؟ ولاحظ أن هذه التوقعات القائمة على المنطق السليم تخضع لطبيعة المؤسسات الخاصة بها، فعلى الرغم من وجود أوجه شبه نوعية مثل أوجه الشبه بين أفراد الأسرة الواحدة فيما بين المقابلات الشخصية فى جميع المؤسسات، فإن المقابلات الشخصية وتوقعاتنا بشأنها تختلف ما بين مخفر الشرطة، ومكان العمل، والجامعة. ولهذا السبب فمن المعقول بصفة عامة إجراء البحث فى الممارسات اللغوية فى مؤسسات اجتماعية محددة. (انظر الفصل الثانى الذى يناقش مسألة المؤسسات الاجتماعية، والفصل الثامن الخاص بالأنواع المشتركة بين المؤسسات، مثل المقابلات الشخصية).

وينطبق على هذه الحالة ما سبق أن قلته عمومًا عن التطبيع، إذ لا يوجد سبب جوهرى يبرر اتخاذ الاستفسارات فى مخافر الشرطة الأبنية العرفية التى تتخذها، إذ نتصور وجود بدائل معينة وإن لم تكن قائمة فى الواقع الفعلى، وهكذا فإن إضفاء الصفة الطبيعية على سلوك معتاد معين باعتباره السلوك الذى يمليه المنطق السليم ثمرةٌ من ثمار السلطة، أو ثمرة أيديولوجية. ومن الجوانب الطريفة للحالات الشبيهة بالمقتطف الوارد عاليه والتى لا تسير فيها الأمور على ما يرام أن الطابع التعسفى للممارسات وأساليب حفاظها على السلطة، والتى عادة ما تخفى عن العيون، تغدو واضحة. وفى هذا المثال يسأل الرجل "ترين أنك تستطعين مساعدتى؟" وهذا يؤكد الافتراض الطبيعى عن الصلاحيات العامة للشرطة إزاء 'مساعدة' الجمهور ومسؤوليتها عن مساعدة الجمهور (بدلًا من التحكم فى الجمهور) وهو الافتراض الذى من شأنه فى الحالات العادية أن يمكّن عبارة "أى خدمة؟" من الإتيان بتبيان 'للمشكلة' من دون أية مقدمات أخرى. وهذا الافتراض عنصر مهم من عناصر العلاقات بين الشرطة والجمهور، ومشروعية الشرطة وسلطتها.

ومن الحالات الأخرى التى يظهر فيها الطابع التعسفى لنظم التفاعل المهيمنة المُطَبَّعةِ حالة مواجهتها أو تضادها مع الممارسات غير المهيمنة. وفيما يلى مقتطف من مشاورة طبية بين دكتور (د) ومريضة (م) مدمنة للكحوليات:

م: قالت إننى يمكننى فى رأيها أى ربما كان من الممكن لى أن انتقل إلى شقة من شقق المبانى التى يوفرها المجلس ┐ المحلى

د: ┘ تمام نعم ┐ فعلاً

م: ┘ لكنها قالت إنها غاية فى مم إنها لا تصر على ذلك لأنه . يستوجب من أمى التوقيع

د: هِمْ

م: على أشياء كثيرة جدًّا و : . قالت إن ذلك صعب و مِمْ

د: هِمْ هِمْ هِمْ

م: لا يوجد ما يدعو للعجلة . أنا أنا لا أعرف إذا ما كان . أقصد أنهم يقولون شيئًا واحدًا فى جمعية محاربة إدمان الكحوليات إنك يجب ألا تغير أى شىء لمدة

د: هِمْ

م: سنة .

د: هم . نعم أعتقد أعتقد أن ذلك من الحكمة. أعتقد أن ذلك من الحكمة (وقفة لمدة ٥ ثوان) يعنى أقول : اسمعى أحب أن أتابع حالتك كما تعرفين وأن أسمع كما تعرفين كيف تسير أحوالك من وقت لآخر إن كان ذلك ممكنًا.

م: نعم

د: تعرفين إذا كنت تحبين أن تأتى إلى العيادة مرة كل إم أسبوعين أو نحوها

م: نعم

د: وأطلعينى وحسب على سير الأحوال

النص ٤ – ٦ المصدر "فنون الشفاء" ، بى بى سى ٢ ، ٨ أغسطس ١٩٨٦

ويختلف هذا الحوار من عدة جوانب عما علمتنى التجارب أن أتوقعه من حوار بين الطبيب والمريض أثناء الاستشارة. هل تشاركنى الرأى؟ وإذا كنت تشاركنى الرأى فما أوجه اختلاف هذا الحوار عن الحوار المعهود ؟

هذه هى الأمور التى لفتت نظرى: يسمح الطبيب للمريضة أن تقول ما لديها فى الوقت الذى تحدده بنفسها؛ ولعلك لاحظت فترة التوقف خمس ثوان قبل أن يخطو الطبيب نحو إنهاء الاستشارة. ويقدم الطبيب أدلة كثيرة على استماعه للمريضة واستيعابه ما تقوله. ولاحظ أن جميع الردود التى يقدمها إليها تتخذ شكل ما يسمى أحيانًا القنوات الخلفية (أى أصوات الموافقة بالغمغمة : هم، نعم، فعلًا، تمام) وعندما يخطو الطبيب فى اتجاه إنهاء

الاستشارة بالحديث عن الاستشارات المقبلة، فإنه يتحدث بأسلوب لا يوحى إلا بالحد الأدنى من التعليمات (إذا كنت تحبين أن تأتى إلخ) كما يحاول التفاعل مع المريضة بالإشارة إلى قدرتها على الفهم (كما تعرفين) وإتاحة الفرصة لها كى ترد على اقتراحاته. ومع ذلك فقد خطر ببالى تعليق على هذا النص يقول "أحسست أن الطبيب كان يشعر بالسأم!" وهو ما يؤكد الحقيقة التى ذكرتها والتى تقول باحتمال تفسير سلوك الطبيب بطرق شتى.

هذا النص مقتطف من برنامج عن عمل عضو من أعضاء الجمعية البريطانية للطب الكُلِّ، ويبدو أنها تقوم بعملها، بصفتها 'جماعة ضغط' داخل مرفق الصحة القومى، بالدعوة إلى ما يسمى 'الطب الكلى' أى علاج الشخص كله لا علاج المرض وحسب، واستخدام بعض أساليب العلاج المستقاة من الطب المِثْلِي [أى المداواة بما قد يؤدى إلى داء مماثل إذا تناوله من يتمتع بالصحة] وغيره من أشكال الطب 'البديل' فى الحالات التى تقتضى ذلك. ومن المتوقع أن تدور ضروب الصراع بين أمثال جماعة الضغط المذكورة وبين المؤسسة الطبية، فى جانب منها، حول اللغة، أى حول نوع اللغة التى يجب أن تستخدم فى الاستشارات الطبية على سبيل المثال.

ما خبرتك بأشكال التفاعل المنوعة فى الطب، بأنماطها المهيمنة وغير المهيمنة؟ انظر إلى الاختلافات فى أعمار الأطباء، وفى دلالة كونهم رجالًا أو نساء، والاختلافات بين ممارسى الطب التقليدى وبين ممارسى الطب المثلى وطب الطبيعة [أى العلاج بعناصر الطبيعة كالماء والهواء والشمس] أو غيرهم من ممارسى أنواع الطب 'البديلة' (إن كانت لديك خبرة بهم).

وتدور أمثال هذا الصراع أيضًا حول الحدود، وهو ما يأتى بنا إلى الجزء الثانى من عنوان هذا القسم. ومن الممكن أن ننظر إلى نص الطب الكلى من زاوية معينة باعتباره مزيجًا من الخطوات التفاعلية المرتبطة بأنماط متباينة للخطاب، وربما كانت تشمل الاستشارة الطبية، والمشورة الشخصية، والمحادثة العادية. وأظن أننا إذا اتخذنا وجهة نظر المؤسسة الطبية والنمط المهيمن للخطاب فى الاستشارة، فلن نجد لأحاديث المشورة الشخصية والمحادثات العادية مكانًا داخل إطار الاستشارة الطبية الحقيقية. والواقع أن الاطباء يتبادلون الأحاديث 'الخفيفة' مع مرضاهم، بل ويقدمون إليهم مشورات شخصية، ولكننى أرى أن هذه "الدردشة" عادة ما تتسم بأنها مقدمة محددة

أو ختام محدد للاستشارة الفعلية، ومن المحتمل أيضًا أن معظم الأطباء يرون أن تقديم المشورة الشخصية عمل منفصل، فى بعض جوانبه على الأقل، عن الاستشارة الطبية. وهذه من المقولات التى قد تحتاج إلى إثبات صحتها أو بطلانها من خلال البحوث التفصيلية. وأما المسألة الرئيسية فى إطار ما أرمى إليه هنا فهى أن أشكال ارتباط أنماط الخطاب المختلفة بعضها بالبعض، ومدى الفصل بينها أو مزجها معًا، تمثل جانبًا آخر من جوانب الصراع حول اللغة. ويتصل هذا بما ذكرته سلفًا فى الفصلين الثانى والثالث عن نظم الخطاب، أى إن طريقة بناء نظام معين من أنظمة الخطاب، والعلاقات القائمة بين أنماط الخطاب التى تشكله، تخضع لعلاقات السلطة، ومن ثم فإنها تخضع للتنازع عليها فى صراعات السلطة.

الذوات والمواقف

أشار الفيلسوف الفرنسى لويس ألتوسير إلى صلة مهمة بين الافتراضات القائمة على المنطق السليم (وهى التى يسميها 'حالات الوضوح') الخاصة بالمعنى، وبين الافتراضات القائمة على المنطق السليم الخاصة بالهوية الاجتماعية أو 'الذات' (وهو المفهوم الذى قدمته فى الفصل الثانى). يقول ألتوسير "مثل جميع حالات الوضوح، بما فى ذلك ما يجعل الكلمة 'تطلق اسمًا على شىء' أو 'أن يكون لها معنى' (وهو ما يتضمن من ثم حالة الوضوح الخاصة بالشفافية فى اللغة) نجد أن 'حالة وضوح' كونك وإياى ذواتًا، وعدم تسبب ذلك فى أية مشاكل، نتيجةٌ من نتائج الأيديولوجيا، بل نتيجةٌ أيديولوجية أولية". ويضيف ألتوسير قائلاً "إن علماء اللغة، والذين يعتمدون على علم اللغة لشتى الأغراض، كثيرًا ما يصادفون الصعوبات التى تنشأ من تجاهلهم لعمل المؤثرات الأيديولوجية فى جميع ضروب الخطاب، بما فى ذلك ضروب الخطاب العلمى نفسها".

و'شفافية اللغة' خصيصة عامة يوضحها ما قلته عن المعنى فى القسم قبل الأخير، أى إن العمليات الاجتماعية التى تشكل اللغات بصفة عامة (والمعانى بصفة خاصة) تختفى تحت ظاهر وجودها الذى يبدو طبيعيًا وقائمًا على المنطق السليم.

ولكن هل نعتبر القياس الذى يعقده ألتوسير بين 'الحقائق الواضحة' لكون الألفاظ تفيد معان معينة وكونك وإياى ذواتًا قياسًا قائمًا على المصادفة وحسب؟ لا أعتقد ذلك. فالمسألة هى أن النتيجة الأيديولوجية لتصورنا أن ذاتية المرء قائمة على المنطق السليم وحسب وليست منتجًا اجتماعيًّا، نتيجة تبرز بوضوح وجلاء فى اللغة والمعنى. ومعنى هذا أن التكييف الاجتماعى للأفراد يعنى وضعهم فى مواقع ذوات متباينة، وهم يتعرضون لها من خلال اكتسابهم العلم بالعمل داخل أنماط شتى للخطاب، إذ إن كل نمط من أنماط الخطاب ينشئ، كما سبق لى أن قلت فى الفصل الثانى، مجموعته الخاصة من مواقع الذوات، والذين يعملون من خلالها يضطرون إلى أن يشغلوها.

ومواقع الذوات لها أنماط خطاب مقصورة عليها ومتغيرة أيديولوجيًّا، وانظر من جديد فى نص الطب الكلى تجد أن أحد جوانب التضاد بين الاستشارات فى خطاب الطب الكلى وبين نظائرها فى خطاب الطب التقليدى يكمن فى مواقع الذوات التى أُعدت للمرضى. وهذا مضمر فى التعليقات التى أبديتها على النص آنفًا، أى إن مشاركة المريض فى الخطاب تختلف عما تعلم المرء أن يتوقعه فى الاستشارات الطبية، وهو ما يدل على اختلاف مواقع الذوات التى يشغلها المرضى فى هذين النمطين من أنماط الخطاب. ولاحظ السلطة التى تمثل الغاية فى الصراع بين ضروب الخطاب فى هذا الصدد: إنها السلطة المتمثلة فى القدرة على خلق 'المريض' فى صورة المثل الأعلى الأيديولوجى، إن صح هذا التعبير، 'فالمرضى' يصبحون مرضى من خلال تجسيد 'التصور المرضى' للشخص. فالناس يشعرون أحيانًا بعدم وجود مصطلح محايد أيديولوجيًّا للإشارة إلى شخص يتلقى الرعاية الطبية، والمثال على ذلك إشارتهم إلى امرأة توشك أن تضع وليدها باسم 'المريضة'، وهو مصطلح يصورها حتمًا فى صورة امرأة لا حول لها ولا طول، ولديها داء معين، وتتطلب أن يفعل الناس أفعالًا من أجلها، لا أن تفعل هى شيئًا بنفسها (كأن تلد طفلًا!)

كيف تأتيك إجادة اللغة الإنجليزية الراقية بالنجاح وباعتراف جديد بمكانتك

تلعب اللغة – أى الجهد اليومى فى الكلام والكتابة، وفى القراءة والتفكير – دورًا فى حياتنا اليومية أهم كثيرًا مما نتبينه فى العادة. والحقيقة أنها "سر" نجاح معظم البارزين من الرجال والنساء.

ويصف هذا الكتيب أسلوبًا جديدًا فريدًا لتحسين لغتك الإنجليزية، وزيادة نجاحك التجارى والاجتماعى، واكتساب قوة جديدة فى الفكر والتعبير، وزيادة ما تغتنمه من الدنيا.

فرض الاحترام

سوف تتعلم بالتفصيل كيف تسيطر على كل موقف وتؤثر فيه، بفضل قدرتك وحسب على استخدام الكلمة المناسبة فى الوقت المناسب. زد على ذلك أنك تستطيع أن تتطلع بثقة إلى وضع حد للضجر والإحباط، واكتساب الاهتمام والاحترام اللذين يكسبان الأصدقاء ويؤثران فى الناس.

نعم إن إتقان اللغة الإنجليزية يمثل أهم وسيلة يمكنك أن تعتمد عليها فى البحث عن النجاح.

النص ٤ – ٧ المصدر: الإنجليزية الراقية: لغة النجاح، ١٩٧٩

والنص ٤-٧ مثال آخر، مكتوب هذه المرة، والقضية فيه تتعلق بموقع الذات الذى يخلقه النص للقارئ وتعريف هذا الموقع. فما الصفات التى تعتقد أنك تحتاج إلى التحلى بها حتى تصبح النموذج المثالى للقارئ 'المدرج' فى هذا النص؟

'القارئ المثالى' ينشد النجاح، والطاقة على السيطرة والتأثير فى الآخرين، ووضع حد للضجر والإحباط... وهلم جرًّا. ويتعلق جانب من جوانب بناء صورة القارئ المثالى داخل النص بطبيعة أفعال الكلام التى تؤدى هنا (انظر الفصل السادس). وهى تتضمن ما يمكن أن نسميه التوكيد، فالعنوان مثلًا يتضمن فيما يبدو تأكيد أن إتقان اللغة الإنجليزية الراقية كفيل بتوفير الاعتراف بالمكانة إلخ، والجملتان التاليتان للعنوان

الفرعى فرض الاحترام تتضمنان توكيدات أيضًا. فالمرء لا يؤكد عادة للناس أن شيئًا ما سوف يحدث إلا إذا كانوا يريدون له أن يحدث. فالتوكيدات تشبه الوعود فى هذا الصدد، ولكن من يؤكد يختلف عمّن يَعِدُ فى أن الأول ليس ملتزمًا بتحقيق موضوع التأكيد شخصيًا. وهكذا فالمفترض أن القارئ يريد 'الاعتراف الجديد بمكانته' والنجاح إلخ.

ومن الممكن أن نتصور العملية الاجتماعية الخاصة بإنتاج الذوات الاجتماعية باعتبارها الجهد الذى يبذل بصورة مطردة فى سنوات متعاقبة، بل طول العمر، لوضع الأشخاص فى شتى مواقع الذوات. ومن ثم فإن الذات الاجتماعية تتشكل من التجميع الخاص لمواقع الذوات. ويترتب على ذلك أن ترابط الذات ووحدتها يقلان كثيرًا عما يفترضه المرء عادة. وعلينا، بدلاً من ذلك، أن نفترض أن الذوات الاجتماعية "شخصيات مركبة" كما يقول جرامشى، أو كما يقول فوكوه، أن الذات 'منتشرة' بين شتى مواقع الذوات: "فليس الخطاب بالتجلى الجليل لذاتٍ تفكر وتعرف وتتكلم، بل هو على العكس، كيان شامل يمكن أن تتحدد فيه طبيعة انتشار الذات وقطيعته مع نفسه". وتترتب على هذا آثار عميقة، نص عليها فوكوه، فيما يتعلق بميلنا إلى اعتبار المتكلم أو الكاتب مؤلف كلماته، فعلى العكس من ذلك توجد زاوية يمكن من خلالها اعتبار المتكلم أو الكاتب نتاجًا لألفاظه. ولكننا يجب ألا نبالغ فى تطبيق هذه المقولة، فالواقع أن لدينا، كما ذكرت فى الفصل الثانى، عملية جدلية فى الخطاب تجعل الذات خلاقة ومخلوقة معًا. انظر أيضًا الفصل السابع.

ما مغزى إطلاق ألتوسير صفة 'الوضوح' على كون المرء ذاتًا ناجمة عن الأيديولوجيا بل النتاج الأيديولوجى الأوَّلى؟ أعتقد أن جانبًا من المعنى يكمن فى عدم وعى الناس بمواقعهم الاجتماعية باعتبارهم ذواتًا، إذ يرون بانتظام أن هوياتهم الذاتية قائمة على نحو ما خارج المجتمع وأنها سابقة على المجتمع. وأمثال هذه التصورات الأيديولوجية الفاسدة تمثل أساس شتى النظريات المثالية للمجتمع البشرى، القائمة على اعتبار الفرد سابقًا على المجتمع، والتى تحاول أن ترى أن المجتمعات منبثقة من

(خصائص) الفرد لا العكس. وإطلاق ألتوسير وصف النتيجة الأيديولوجية 'الأولية' على هذا يعنى أن تشكيل الذوات يمثل موضوع الأيديولوجيا كلها، فالأيديولوجيا مهما تكن صورتها تتعلق على نحو ما بمواقع الذوات.

وما قلته عن الذوات فى الخطاب ينطبق أيضًا على مواقف الخطاب. فنحن نعتبر المواقف التى نمارس فيها الخطاب 'حالات وضوح' أيضًا ولا تتسبب فى أية مشكلات. ومع ذلك فهنا أيضًا أقول إن هذه المواقف أبعد ما تكون عن الوجود قبل الخطاب وأبعد ما تكون استقلالاً عنه، على نحو ما نفترض فى العادة استنادًا إلى المنطق السليم، بل إنها تعتبر من زاوية معينة من نواتج الخطاب، فكل نمط من أنماط الخطاب وكل نظام من نظم الخطاب له قائمة خاصة به من أنماط المواقف، ومن ثم فإن لدينا قوائم مختلفة تتسم بأيديولوجيات متضادة.

وتعتبر مواقع الذوات وأنماط المواقف الخاصة بأنماط الخطاب المهيمنة (مثل معانى ألفاظها وخصائص نظم تفاعلاتها) مما يقبل التطبيع، وأرجو أن أكون قد أوضحت، بعد أن وصلنا إلى هذه المرحلة من مراحل الحجة التى أسوقها، نطاق القضايا الهائلة التى تدور حولها ضروب الصراع فى اللغة، وكذلك حول اللغة بوجه خاص، ومدى المكاسب التى يمكن أن تتحقق من خلال إنجاز التطبيع. وانظر فى العلاقة بين التطبيع وبين الأساليب الثلاثة التى ذكرت أن السلطة تستخدمها فى فرض القيود على ممارسة الآخرين فى الفصل الثالث، فإن تطبيع معانى الألفاظ أسلوب ناجع لفرض القيود على مضمون الخطاب، وكذلك فى الأجل الطويل على المعرفة والمعتقدات. ويصدق هذا على تطبيع أنماط المواقف، ما دام يساعد على تدعيم صور معينة للنظام الاجتماعى. وتطبيع صور التفاعلات أسلوب فعال لفرض القيود على العلاقات الاجتماعية التى يجسدها الخطاب، وفرض القيود على نظام العلاقات الاجتماعية، فى الأجل الطويل، لأى مجتمع. وأخيرًا أقول إن تطبيع مواقع الذوات يفرض بداهةً قيودًا على الذوات، ويسهم هذا وذاك، فى الأجل الطويل، فى التكيف الاجتماعى للأشخاص وتحديد 'رصيد' الهويات الاجتماعية فى أية مؤسسة وأى مجتمع. وإذن فإن التطبيع أقوى سلاح فى ترسانة السلطة، ومن ثم فهو مركز بالغ الأهمية من مراكز الصراع.

'إثارة المتاعب' : وضع المنطق السليم موضع الصدارة

سوف أناقش فى الفصل التاسع القضايا المعقدة الناجمة عن العلاقة بين الدراسة النقدية للغة، والوعى (الذاتى)، والتحرر الاجتماعى، ولا أريد الاستفاضة فى استباق تلك المناقشة هنا. ومع ذلك، فنظرًا للتركيز فى هذا الفصل على الطبيعة 'الخلفية' وغير الواعية للمنطق الأيديولوجى السليم، فربما تكون هذه لحظة مناسبة لأن أقول شيئًا ما عن إمكان وضع المنطق السليم فى موقع الصدارة، وهو ما ينبغى أن يحدث حتى يستطيع الناس أن يكتسبوا الوعى الذاتى بالأمور التى يُسَلِّمون بها من دون تفكير.

رأينا فى قسم نظم التفاعل المعتادة وحدودها أن أحد المواقف التى تظهر فيها عناصر المنطق السليم فى الخطاب صريحة واضحة الموقف الذى يختل فيه مسار الخطاب. ومن ثم فللدراسة النقدية للغة أن تركز على حالات انهيار التواصل، أو حالات سوء التواصل، أو الحالات التى يحاول الناس فيها 'إصلاح' خطابهم، باعتبار ذلك وسيلة من وسائل تأكيد و'تصدير' المنطق السليم فى الخطاب [تصدير = الوضع فى موضع الصدارة].

ومن المواقف الأخرى التى يجرى فيها تلقائيًا 'تصدير' عناصرالمنطق السليم، الموقف الذى يتسم بوجود هوة اجتماعية أو ثقافية بالغة الاتساع بين المشاركين فى حوار ما، أو بين المشاركين فيه والمراقبين له، بحيث يؤدى اتساعها إلى إدراك البعض ما يتميز به المنطق السليم عند البعض الآخر من تعسف ونسبية اجتماعية. ويترتب على ما سبق قوله فى هذا الفصل عن الطابع الأيديولوجى المتغير والصراع أن ذلك يحدث على نطاق واسع داخل المجتمعات وما بينها، وقد رأينا مثالًا له فى نص هتلر. كما يستطيع المحلل البناء أيضًا على هذا الأساس، مركزًا على الصراع الأيديولوجى فى الخطاب، أو كاشفًا للناس عن عينات من الحديث أو الكتابة التى ربما يجدون فيها غرابة أيديولوجية.

والاحتمال الثالث تعمد قلقلة المنطق السليم من خلال تدخل من نوع ما فى الخطاب، ولنا فى المهام التجريبية التى كلف بها عالم الاجتماع هارولد جارفنكل طلابه المثال على ذلك. وهاك مقتطفًا من وصف الطلاب لهذه التجارب.

كان 'الذات' [موضوع التجربة] يقول للذى يقوم بالتجربة، وهو من أفراد المجموعة التى تستخدم سيارة الذات، عن انفجار أحد إطارات العجلات فى اليوم السابق أثناء الذهاب إلى العمل.

الذات: انفجر إطار إحدى العجلات.
القائم بالتجربة: ماذا تعنى بانفجار الإطار؟
وأحس الذات بالذهول لحظة، ثم رد بنبرة عدائية ' "ماذا تعنى بقولك ماذا تعنى؟" انفجار الإطار انفجار إطار. ذلك ما أعنيه. لم يحدث أمر عجيب. يا له من سؤال أخرق!"

(جارفينكل ١٩٦٧: ٤٢)

أى إن ردود الذوات على محاولات القائم بالتجربة إضفاء الغرابة على عالم الخطاب القائم على المنطق السليم تبين إلى أى مدى يشعر الناس بأن العالم صلب وحقيقى. وكما نرى فى هذا المثال سرعان ما يبدو الناس غير مصدقين، ويشعرون بالضيق والغضب عند قلقلة هذا العالم، ومن الأرجح أن ينتهوا إلى أن من يقلقه يتحامق أو يعانى من مرض عقلى. وإذن لابد من الحذر فى استخدام هذا الأسلوب!

ملخص

فلألخص الآن ما قلته فى هذا الفصل. كانت نقطة انطلاقى طبيعة الخطاب القائم على المنطق السليم، ثم قلت إن الترابط فى الخطاب يعتمد على المنطق السليم فى الخطاب. وبعدها قلت إن المنطق السليم فى الخطاب أيديولوجى بقدر ما يسهم فى الحفاظ على علاقات السلطة غير المتكافئة، بصورة مباشرة أو غير مباشرة. ولكن الأيديولوجيا لا تقوم فى جوهرها على المنطق السليم، فبعض هذه الأيديولوجيات تكتسب تلك المكانة فى غمار الصراعات الأيديولوجية، وهى التى تكتسب الشكل اللغوى للصراعات فى المؤسسات الاجتماعية بين أنماط الخطاب المنوعة أيديولوجيًا. وأمثال هذه الصراعات تحدد علاقات الهيمنة فيما بينها والأيديولوجيات المرتبطة بها. ويخضع الخطاب المهيمن

لعملية تطبيع، ومن خلالها يبدو كأنها فقد ارتباطه بأيديولوجيات ومصالح معينة، وأصبح يمثل الممارسة القائمة على المنطق السليم للمؤسسة. وهكذا فعندما تتحول الأيديولوجيا إلى منطق سليم فإنها تفقد ظاهريًا كيانها الأيديولوجى، وهذا فى ذاته من نواتج الأيديولوجيا، إذ إن الأيديولوجيا لا تمارس فاعليتها الحقة إلا عندما تكون مُقَنَّعَة.

وناقشت التطبيع بعد ذلك فى شتى أبعاد المنطق السليم الخطابى. فأما بالنسبة لمعانى التعبيرات اللغوية ونظم المعانى، فقد بينت أن التطبيع يؤدى إلى إغلاق المعنى، وهو الذى يتجلى فى التثبيت الظاهر لمعانى الألفاظ 'المعجمية'، وفى الشفافية الظاهرية لمعانى الأقوال المنطوقة. وأما بالنسبة لنظم التفاعل المعتادة فإن بداهة الأساليب العُرْفية للتفاعل (وهى تعسفية فى آخر المطاف) ناجمة عن التطبيع، وهو ما يصدق على علاقاتها وحدودها. وأتيت أخيرًا إلى الذوات وإلى المواقف الخاصة بالخطاب، قائلًا إن بداهة وضوحها واستقلال خطابها ظاهريًا من النواتج الوهمية للتطبيع، فإن هذا وذاك جميعًا من نواتج الخطاب إلى درجة كبيرة. واختتمت الفصل بمناقشة الطرائق التى يمكن بها منح الصدارة للمنطق السليم أيديولوجيًا.

المراجع

توجد مناقشة 'لعالم المنطق السليم فى الحياة اليومية' فى جارفنكل (1967)، ومناقشة مفيدة للاستنباط وعلاقته 'بسد الثغرات' تلقائيًا فى الفصل السابع من براون ويول (1983). وأما عن الأيديولوجيا فارجع إلى ألتوسير (1971) وماكليلان (1986) وإيجيلتون (1991) وزيزيك (1994) وفان دييك (1998). وملاحظات جرامشى عن المنطق السليم والأيديولوجيا موجودة فى جرامشى (1971). وانظر أيضًا ثيربورن (1980). وكتاب هول (1982) مفيد بالنسبة للأيديولوجيا والتطبيع. وأما 'اللغات المضادة' فارجع إلى دراسة تحمل ذلك العنوان كتبها هاليداى (1978). وتوجد معالجات قيمة للكثير من موضوعات هذا الفصل فى بورديو (1977) وبيشو (1982) وج. ب. طومسون (1984). وفيما يتعلق بالخطاب والأيديولوجيا فى التحليل الفرنسى

للخطاب انظر ج. ويليامز (1999). ومقولة ألتوسير عن المعنى والذوات مقتبسة من ألتوسير (1971). وتعليقات فوكوه عن الذات موجودة فى فوكوه (1982). والصياغات البديلة لممارسات الطب النفسى المستشهد بها فى السؤال رقم ١ مأخوذة من إديلمان (1974). وعن 'حفظ ماء الوجه' ارجع إلى براون وليڤنسون (1978) وتوماس (1995).

الفصل الخامس

التحليل النقدى للخطاب عمليًا : الوصف

تتضمن النماذج النصية فى الفصول السابقة عددًا بالغ التنوع من المعالم اللغوية، منها ما يتصل بالمفردات والنحو، وبعلامات الترقين [أى الوصل والفصل] (مثل 'علامات التنصيص المخيفة' فى الفصل السابق) وتعاقب الأدوار [فى الحديث]، وأنماط أفعال الكلام، والطابع المباشر أو غير المباشر للتعبير، والبناء العام للتفاعلات، إلى جانب الأمثلة على معالم النصوص غير اللغوية (أى 'البصرية'). وأرجو أن يكون القراء الذين لا يتمتعون بالخبرة فى التحليل اللغوى قد أصبحوا يُقَدِّرُونَ (حينما يصلون إلى هذه المرحلة من مراحل الكتاب) كيف يمكن للتحليل الدقيق للنصوص من زاوية أمثال هذه المعالم أن يسهم فى فهمنا لعلاقات السلطة والعمليات الأيديولوجية فى الخطاب.

ولكن التحليل النصى مجرد جزء من تحليل الخطاب. وارجع إذن إلى الشكل ٢-١ الذى يقول إن النص والتفاعل والسياق الاجتماعى هى عناصر الخطاب الثلاثة، والتمييز الموازى الذى أقمته بين ثلاث مراحل فى التحليل النقدى للخطاب: هى وصف النص، وتفسير العلاقة بين النص والتفاعل، وشرح العلاقة بين التفاعل والسياق الاجتماعى.

وسوف أقدم فى هذا الفصل والذى يليه الإجراء الخاص بالتحليل النقدى للخطاب استنادًا إلى هذه المراحل الثلاث. ويتناول هذا الفصل الوصف، ويعرض الفصل السادس للتفسير والشرح. وهذا التقسيم للعمل يتفق مع التضاد الذى أقمته فى الفصل الثانى بين الوصف من ناحية، وبين التفسير والشرح من ناحية أخرى، من حيث 'أنواع' التحليل فى كل منها. كما توجد اختلافات موازية فى تنظيم الفصلين،

فنوع التحليل المرتبط بالمرحلة الوصفية يسمح بتنظيم هذا الفصل باعتباره دليلًا عمليًّا مرجعيًّا مُصَغَّرًا، وأما الفصل السادس فيتناول تحليلًا فكريًّا أعمق. ولكننا، كما ألمحت فى الفصل الثانى، نستطيع القول، من زاوية معينة، بأن الوصف يفترض التفسير سلفًا، ولذلك فإننا ينبغى ألا نبالغ فى أهمية هذا التضاد، على الرغم من فائدته من حيث الإجراء المذكور. وسوف يجد القراء أن بعض الموضوعات (بما فى ذلك أفعال الكلام والافتراض المسبق) وهى التى قد يتوقعون وجودها فى مرحلة الوصف، قد تأخرت مناقشتها كليًّا أو جزئيًّا حتى الفصل السادس، لأسباب أشرحها فى ذلك الفصل.

كُتِبَ هذا الفصل على المستوى التمهيدى من أجل الذين لا يحيطون إحاطة مستفيضة بدراسة اللغة. وتنظيمه يدور حول عشرة أسئلة رئيسية (وبعض الأسئلة الفرعية) التى يمكننا أن نسألها عن النص، وأرجو أن يؤدى ذلك إلى أن يُسَهِّل على القراء نسبيًّا أن يستوعبوا هذا الإطار ويستعملوه. وسوف يجد القراء أن كل سؤال يتضمن فئات أو مفاهيم تحليلية موجزة إلى جانب الأمثلة التى توضحها. وأما الإجراء الذى أشرت إليه فأنا أعرضه وحسب، من دون أمثلة تساعد القراء على تطبيقه. ولكن الفصل السابع سيتيح الفرصة لتطبيق الإجراء على مثال مطول. ودعونى أؤكد أن الإجراء ينبغى ألا يعامل معاملة النص المقدس، فما هو إلا مرشد، وليس بخطة للعمل. وسوف يجد القراء الذين يستعملونه، فى بعض الحالات، أن بعض أجزائه تتسم بالتفاصيل المبالغ فيها أو التى لا تتصل بما يسعون إليه. وقد يجد القراء فى حالات أخرى (خصوصًا من يتمتعون بخلفية فى الدراسة اللغوية) أن التفاصيل غير كافية وتحتاج إلى استكمالها، وسوف تفيدهم المراجع المذكورة فى آخر الفصل. وأما مجموعة المعالم النصية الواردة هنا فهى مختارة بدقة، إذ تقتصر على أهم المعالم فى التحليل النقدى.

وهاكم نقطة أخيرة قبل تقديمى الأسئلة العشرة: إن مجموعة المعالم الشكلية التى نجدها فى نص معين يمكن اعتبارها خيارات محددة من بين الخيارات المتاحة (فى المفردات أو فى النحو) داخل أنماط الخطاب التى ينهل منها النص. ولذلك فقبل تفسير

المعالم القائمة فعلًا فى النص يجب عمومًا أن نأخذ فى اعتبارنا أية خيارات أخرى كان يمكن اللجوء إليها، أى من بين نظم الخيارات فى أنماط الخطاب التى استُمدت منها المعالم الفعلية. ومن ثم فإن المرء يتناوب اهتمامه أثناء تحليل النصوص بين ما هو 'قائم' فعلًا فى النص وبين نمط أو أنماط النصوص التى ينهل النص منها. ويتجلى تناوب التركيز المذكور فى المناقشة الواردة أدناه.

ألف – المفردات

١- ما القيم الخبراتية التى تتسم بها الألفاظ؟ (ارجع إلى الحاشية الخاصة بالمصطلحات أدناه)

ما نظم التصنيف المستفاد منها؟

هل توجد ألفاظ مختلفٌ عليها أيديولوجيًا؟

هل فى النص إعادة صوغ أو إطناب؟

ما علاقات المعنى المهمة أيديولوجيًا (الترادف، والاشتمال والتضاد) القائمة بين الكلمات؟

٢- ما القيم العلائقية التى تتسم بها الألفاظ؟

هل توجد تعبيرات تفيد التلطف فى التعبير؟

هل توجد فى النص ألفاظ واضحة الانتماء للأسلوب الرسمى أو غير الرسمى؟

٣- ما القيم التعبيرية التى تتسم بها الألفاظ؟

٤- ما الاستعارات المستعملة؟

باء – النحو

٥- ما القيم الخبراتية التى تتسم بها المعالم النحوية؟

ما أنواع العمل والمشاركة المهيمنة؟

هل العامل غير واضح؟

هل تستخدم جمل اسمية؟

هل الجمل مبنية للمعلوم أم للمجهول؟

هل الجمل موجبة أم منفية؟

٦- ما القيم العلائقية التى تتسم بها المعالم النحوية؟

ما الصيغ المستعملة (صيغة الإخبار أم السؤال النحوى أم فعل الأمر)؟

هل تستخدم ضمائر المتكلم [منفصلة ومتصلة] وإن وجدت فكيف تستخدم؟

٧- ما القيم التعبيرية التى تتسم بها المعالم النحوية؟

هل توجد معالم مهمة ذوات صيغة تعبيرية؟

٨- ما وسيلة الربط بين الجمل (البسيطة)؟

ما أدوات الربط المنطقية المستعملة؟

هل تتسم الجمل المركَّبة بالتنسيق أم بالتغليب؟

ما الوسائل المستخدمة للإحالة داخل النص وخارجه؟

جيم – الأبنية النصية

٩- ما أعراف التفاعل المستعملة؟

هل توجد طرائق يسيطر بها أحد المشاركين على أدوار الآخرين [فى الحديث]؟

١٠- ما الأبنية الواسعة النطاق التى يتسم بها النص؟

حاشية: القيم الخبراتية والعلائقية والتعبيرية

أميز هنا بين ثلاثة من أنماط القيمة التى قد تتسم بها المعالم الشكلية: القيمة الخبراتية، والقيمة العلائقية والقيمة التعبيرية. فالمَعْلَمُ الشكلى ذو القيمة الخبراتية يتجلى فيه أسلوب تمثيل النص لخبرة منتج النص بالعالم الطبيعى أو الاجتماعى ويعتبر مفتاحًا لهذا التمثيل. وتتعلق القيمة الخبراتية بالمضمون والمعرفة والمعتقدات وفق ما ورد فى الفصل الثالث. وأما المعلم الشكلى ذو القيمة العلائقية فتتجلى فيه العلاقات الاجتماعية

المجسدة عن طريق النص فى الخطاب، ويعتبر مفتاحًا لها. والقيمة العلائقية تختص (طبعًا!) بالعلائق والعلاقات الاجتماعية. وأما المعلم الشكلى ذو القيمة التعبيرية، أخيرًا، فيتجلى فيه تقييم منتج النص (بأوسع معانى التعبير) لجانب الواقع الذى ينبنى عليه النص ويعتبر مفتاحًا لفهمه. والقيمة التعبيرية تتعلق بالذوات والهويات الاجتماعية، وإن لم يكن يتعلق بالقيم الذاتية إلا بُعْدٌ واحد من أبعاد المفاهيم الأخيرة. ودعونى أؤكد أن أى معلم شكلى قد يجمع فى وقت واحد بين قيمتين أو ثلاثًا من هذه القيم. وهو ما أوضحه فى الشكل البيانى ٥ – ١

وبالإضافة إلى ذلك فإن بعض المعالم الشكلية قد تتميز بما يسمى **قيمة الربط** أى بالعمل على تحقيق الترابط بين أجزاء النص. انظر السؤال ٨ حيث المناقشة والأمثلة.

أبعاد المعنى	قيم المعالم	الآثار البنائية
المضمون	خبراتى	معرفة/ معتقدات
العلاقات	علائقى	العلاقات الاجتماعية
الذوات	تعبيرى	الهويات الاجتماعية

الشكل ٥ – ١ المعالم الشكلية: القيم الخبراتية والعلائقية والتعبيرية

السؤال الأول: ما القيم الخبراتية للألفاظ؟

أهم جانب من جوانب القيمة الخبراتية فى سياق هذا الكتاب أسلوب تشفير الفوارق الأيديولوجية بين النصوص من حيث رؤيتها للدنيا فى مفرداتها، والنصان التاليان مثال على ذلك، فهما يمثلان، وفقًا لدراسة عن لغة 'المهن المساعدة'، صياغتين مختلفتين للممارسات نفسها فى الطب النفسى:

الحرمان من الطعام، أو الفراش ، أو السير فى الهواء الطلق، أو الزوار، أو البريد، أو المكالمات التليفونية؛ والحبس الانفرادى؛ والحرمان من المطبوعات أو المواد الترفيهية؛ وشل حركة الأشخاص بربطهم فى ملاءات مبتلة ثم

عرضهم على العاملين أو المرضى الآخرين؛ وغير ذلك من ضروب القيود على الحركة الجسدية؛ وتخدير الذهن ضد إرادة العميل؛ والسجن فى عنابر مغلقة؛ وشتى ألوان الإذلال العلنى مثل تعليق أنباء الاعتزام المزعوم على الهرب أو الانتحار فى أماكن بارزة، وفرض الاعترافات العلنية بسوء السلوك أو الإدانة، والبيانات المعلنة عن الأخطاء الفردية فى السلوك وأنواع الشذوذ الفردى. (**نص الطب النفسى ١**)

تثبيط السلوك المرضى وتشجيع السلوك الصحى من خلال تقديم مكافآت انتقائية؛ إتاحة العزلة والقيود والعنابر المقفولة لمنح المريض فرصة الراحة من التفاعل مع الآخرين؛ تمكين المريض من التفكير فى سلوكه، حتى يتغلب على الإغراء بالانفلات والاستسلام للاكتئاب، وحتى يشعر بالأمن؛ شل حركة المريض لتهدئته، وإشباع حاجته للاعتماد على الغير، وتقديم خدمات التمريض الإضافية التى يعلى من قيمتها، وتمكينه من أن يستفيد من المواجهة مع أقرانه؛ ووضع حدود لسلوكه 'الخارج'؛ وتعليمه أن العاملين حريصون عليه. (**نص الطب النفسى ٢**)

النص الثانى يصوغ هذه الممارسات من منظور الأطباء النفسيين الذين يحبذونها، على عكس الصياغة 'المعارضة' فى النص الأول. والواقع أننا نستطيع اعتباره 'إعادة صياغة': يستعاض فيها بانتظام عن صياغة قائمة مهيمنة مُطَبَّعَةٍ بصياغة أخرى تعارضها تعارضًا واعيًا.

وفى بعض الحالات تكمن الأهمية الأيديولوجية للنص فى مفرداته ذاتها، فكلمتا **التخريب [أى قلب الأوضاع]** والتضامن تنتميان إلى الإطارين الأيديولوجيين 'اليمينى' و'اليسارى' على الترتيب، ووجود إحداهما فى أحد النصوص يحدد على الأرجح موقعه الأيديولوجى، ويعتمد ذلك فى حالات أخرى على تضافر الكلمات أى

اشتباكها مع غيرها، وهكذا نجد فى النص الثانى من نصى الطب النفسى أن كلمة السلوك تتضافر مع كلمتى مريض وصحى، مما ينشئ نظامًا أيديولوجيًّا محددًا (ومهيمنًا) لتصنيف السلوك. وفى حالات أخرى غير هذه وتلك، نجد أن النقل الاستعارى لإحدى الكلمات من مجال استعمالها إلى مجال آخر (انظر السؤال ٤ أدناه) هو الذى يؤدى هذه المهمة، فإن استخدام تعبير الحبس الانفرادى فى نص الطب النفسى الأول يصور الحالة الطبية تصويرًا يوحى بالسجن.

وبعض الكلمات متنازع عليها أيديولوجيا، أى إنها مثار صراع أيديولوجى، وهو ما يتضح أحيانًا فى بعض النصوص، مثل كلمة الاشتراكية التى وردت فى رسالة يزعم صاحبها وجود 'خطأ دلالى' فى الاعتقاد بأن "مصطلحًا مثل الاشتراكية له معنى 'حرفى' وحقيقى واحد، وهو الإيمان المطلق بالملكية العامة لوسائل الإنتاج والتوزيع والتبادل". ومع ذلك فإن المعانى المنوعة للكلمة تشترك فى الجوهر وهو "الاعتقاد بضرورة ممارسة السيطرة الاجتماعية لتحقيق مصلحة غالبية العاملين فى مجتمع ما". ويبدو أن الرسالة المذكورة تمثل من طرف خفى صراعًا أيديولوجيًّا يتقنّع بدلالة الألفاظ (أو علم الدلالة).

ومن المفيد عمومًا عند إجابة السؤال الأول أن يتناوب التركيز ما بين النص نفسه وبين أنماط الخطاب التى ينهل منها، بما فى ذلك نظم التصنيف التى تمثل إطار تنظيم المفردات فى أنماط الخطاب. فلننظر إلى النص ٥ – ٢ من هذه الزاوية.

٢٣ خطوة فقط ذات أهمية حيوية للنجاح

- كيف تحصل على ميراثك من الصحة الدائمة المشرقة
- كيف تزيد مفرداتك اللغوية
- كيف تدعم قدراتك على التركيز
- كيف تنمى ذاكرتك
- كيف ترعى فى نفسك المشاعر الإيجابية
- كيف تكتسب صوتًا جذّابًا وكلامًا واضحًا
- كيف تتعلم أهمية الكياسة
- كيف تعلى من قيمتك فى عينى رئيسك فى العمل
- كيف تصوغ المثل العليا، وهى أسس التقدم الجوهرية
- كيف تحقق أهداف النضج
- كيف تبنى زواجًا ناجحًا
- كيف تتواصل بفاعلية
- كيف تستمتع بكنوز الأدب
- كيف تحل مشكلاتك
- كيف تكون سعيدًا
- كيف توسع آفاقك الذهنية
- كيف تكتسب الطاقة الفكرية
- كيف تنمى مخيلتك
- كيف تحافظ على انشغالك لتنعم بالطمأنينة
- كيف تسير مسافة الميل الإضافى!
- كيف تصبح والدًا أو والدة أفضل
- كيف تحقق السكينة
- كيف تثرى حياتك.

النص ٥ – ٢ المصدر: ثلاث وعشرون خطوة للنجاح والإنجاز، ر. لومسدن (١٩٨٤)

القائمة نفسها تشكل تصنيفًا 'للخطوات اللازمة للنجاح' ولكنها تنهل أيضًا من نظم تصنيف موجودة سلفًا، من بينها نظام خاص بالنفس أو بعض جوانب النفس التى يستطيع الشخص 'تنميتها' بنفسه: (قدرات) التركيز، والذاكرة، والمشاعر (الإيجابية)، والآفاق الذهنية، و(الطاقة) الفكرية، والمخيلة. ولاحظ التصور الآلى للنفس الذى توحى به كلمة قدرات، فكما هو الحال فى محركات السيارات، يستطيع المرء الارتقاء بالأداء إذا ازدادت قدرة الآلة! ويتمثل نظام آخر فى أساليب تقييم لغة الفرد، وهو مضمر فى الثنائيات اللفظية زيادة المفردات، الكلام الواضح، الاتصال الفعال، إلى جانب غيرها من المادة التى أعدها المعلن نفسه مثل التحدث بيسر، والكلام بفعالية، والكتابة الأسرع، والقراءة الأفضل. وأما تقييم الأداء اللغوى فمعاييره هى السهولة والكفاءة والأثر الاجتماعى وليست مثلًا مستقاة من التعاطف والمشاركة التواصلية. وهذه الأيديولوجية اللغوية نفعية، بمعنى أن اللغة أداة لإنجاز الأعمال، وهى التى سوف نقابلها مرة أخرى فى سياق آخر فى الفصل التاسع. وفى كلتا الحالين يمثل نظام التصنيف أسلوبًا خاصًا لتقسيم جانب من جوانب الواقع استنادًا إلى تمثيل أيديولوجى خاص لذلك الواقع. وهكذا فإن بناء المفردات يقوم على أساس أيديولوجى.

وقد تتفاوت نظم التصنيف فى أنماط الخطاب المختلفة تفاوتًا كَمِّيًّا بمعنى التعبير عن جوانب معينة من الواقع بصيغ متباينة الدرجات، أى بعدد كبير أو قليل من الألفاظ. وأحيانًا ما نصادف 'الإطناب' الذى يعنى عادة درجة عالية من درجات الصوغ، وكثيرًا ما يتضمن كلمات كثيرة مترادفة أو شبه مترادفة. والإطناب يدل على الانشغال بجانب معين من جوانب الواقع، وهو ما قد يشير إلى أنه من مواقع الصراع الأيديولوجى. فالنص السابق ٢٣ خطوة فقط ذات أهمية حيوية للنجاح يدل على انشغال شديد بالنمو والتنمية، وهو ما يتضح فى المفردات الخاصة بهذه المعانى، بما فى ذلك الأفعال التالية: تزيد، تدعم، تنمى، ترعى، تبنى، توسع، تثرى.

ويصدق ما قلته عن قيمة النظر بالتناوب فى النص وفى نمط الخطاب على علاقات المعنى بين الكلمات. هل تذكر مناقشة افتتاحية صحيفة التايمز (صوت الحقيقة الرزين

الخافت، النص رقم ٤ – ٥)؟ لقد قلت فى تعليقى إن النص قد أقام علاقة **ترادف** بين كلمات ليست مترادفة فى أىٍّ من أنماط الخطاب. ولكن النص فى حالات أخرى قد ينهل مباشرة من علاقات المعنى القائمة فى أحد أنماط الخطاب. وفى ذلك المثال كانت الأيديولوجيا هى التى تتحكم فى علاقات الترادف، والواقع أننا نستطيع أن نعتبر أن بعض علاقات المعنى، مثل الترادف، مرتبطة فى أحيان كثيرة بالأيديولوجيا، فإما أن تكون الأيديولوجيا مضمرة فى نمط الخطاب، وإما يُولِّد النص الأيديولوجيا توليدًا إبداعيًّا. وهكذا فإن أحد جوانب السؤال الأول يتضمن تحديد علاقات المعنى فى النص وأنماط الخطاب من ورائها، وكذلك محاولة تحديد أسسها الأيديولوجية.

علاقات المعنى الأساسية هى **الترادف والاشتمال والتضاد**. فأما الترادف فهو، كما رأينا، دلالة الكلمات على المعنى نفسه. ومن العسير العثور على أمثلة كثيرة للمرادفات المطلقة، وإذن فالواقع أن المرء يبحث عن علاقات شبه ترادف بين الكلمات. ومن الاختبارات غير الدقيقة للترادف أن نرى إن كان يمكننا استبدال كلمة بكلمة أخرى دون تأثير يذكر فى المعنى. وأما **الاشتمال** فهو أن يكون معنى كلمة ما مُشْتَمَلًا عليه فى معنى كلمة أخرى، ففى أحد الأمثلة الواردة فى الفصل الرابع كان معنى **الشمولية** عنصرًا من عناصر معنى **الشيوعية، والماركسية**، والفاشية (وهذه من ثم أسماء تشتمل عليها) فى نمط خطاب ذى أيديولوجية معينة، وأما **التضاد** فهو التعارض فى المعنى، أى إن معنى إحدى الكلمات يتعارض مع معنى كلمة أخرى (مثل معانى كلمات مثل **امرأة ورجل، وكلب وقطة**).

السؤال الثانى: ما القيم العلائقية للكلمات؟

يناقش هذا السؤال أساسًا كيف يعتمد اختيار النص للكلمات على العلاقات الاجتماعية بين المشاركين فيها وكيف يساعد على خلقها. فمن المحتمل، كما سبق أن ذكرت، أن تكون للكلمات أمثال هذه العلاقات مع قيم أخرى فى الوقت نفسه. فالمفردات العنصرية، على سبيل المثال (كاستعمال كلمة 'الزنوج' فى النص الوارد فى الفصل الثالث) لها قيمة خبراتية من حيث التمثيل العنصرى لطائفة عرقية معينة، ولكن

استخدامها – وعدم تجنبها – قد تكون له قيمة علائقية، وربما كانت تقوم على افتراض وجود أساس مشترك من الأيديولوجيا العنصرية بين المتحدث والمشاركين الآخرين.

وهاك مثالًا آخر من مقال نشر فى صحيفة الجارديان بقلم كريس هوكس، وچو موريللو، وچون هوارد (والتأكيد من عندى):

> نتصور أن رجال الصناعة قد وصلوا إلى المرحلة التى أصبحوا يدركون عندها ضرورة القيام بعمل ما، وإن لم يكونوا على ثقة بماهية هذا العمل. **ولسنا نقترح بأن تستمتع الصناعة بمشاهدة المشكلات الشخصية، أو بأن تتدخل دونما داعٍ فى الأحزان والأشجان الشخصية!** ومن شأن الإيحاء بأنها **تملك القوة العاملة لديها أن يحدث تأثيرًا عكسيًا.** لا بل ولا ندعو إلى العودة إلى **المذهب الأبوى** فى القرن التاسع عشر، حيث ازدهر أباطرة صناعة الشيكولاتة والصابون. ولكن مفهوم رجال الصناعة من حيث **التعامل مع الموظفين لديهم باعتبارهم شخوصًا كاملة** مفهوم لا نستطيع أن نتجاهله.
>
> النص ٥ – ٣ المصدر: صحيفة الجارديان، ١٧ ديسمبر ١٩٨٦

التعبيرات المطبوعة بالبنط الثقيل يمكن أن تعتبر صياغة مختلفة أيديولوجيًا عن الأعمال نفسها، على وجه الدقة، التى يقوم بها أصحاب العمل، ومن ثم فيمكن اعتبار هذا النص مثالًا للقيم الخبراتية فى الصياغة. ولكن المؤلفين يرفضون فيما يبدو الصيغ الثلاث الأولى ويفضلون الصيغة الرابعة باعتبارها جزءًا من الجهد المبذول للتوصل إلى علاقة ثقة وتضامن مع القراء المفترضين، وهى اللحظة التى تدخل فيها القيم الخبراتية فى الصورة. ولكن القيمة التعبيرية موجودة أيضًا، فالكتاب يفترضون، فيما نتصور، أن الصيغ الثلاث الأولى تمثل تقييمًا سلبيًا لدى القراء، وأن الصيغة الرابعة تمثل تقييمًا إيجابيًا، ومن ثم فإن تفضيل الصيغة الرابعة يعنى أن الكتاب يفترضون مشاركة القراء قيمهم.

وكثيرًا ما يطبق منتجو النصوص استراتيجيات تكفل تجنب القيم التعبيرية للألفاظ لأسباب علائقية. فإذا وصفت كلمة بأنها تلطُّفٌ فى التعبير كنت تعنى أنك

استبدلتها بكلمة تقليدية أو مألوفة حتى تتجنب القيم السلبية. ونص الطب النفسى الثانى يتضمن فيما يبدو عددًا من نماذج هذا التَّلَطُّف فى التعبير، ففيه العزلة بدلًا من الحبس الانفرادى فى النص الأول، والعنابر المقفولة بدلًا من العنابر المغلقة، والانفلات بدلاً من الهرب، والاستسلام للاكتئاب بدلاً من الانتحار.

ومن خصائص المفردات المتعلقة بالقيم العلائقية الطابع الرسمى الذى ناقشته فى الفصل الثالث. وفيما يلى السؤال الأول الوارد فى النص الخاص بالتحقيق والوارد هناك:

س : مستر إيرليكمان: صرحت قبل استراحة الغداء بأنك ترى أن دخول مكتب الطبيب النفسى إلزبرج كان مشروعًا لأسباب تتعلق بالأمن القومى. أعتقد أنك شهدت بهذا؟

أى إن الطابع الرسمى للموقف هنا يتطلب علاقات اجتماعية رسمية، وهو ما يتضح فى المفردات (وفى غيرها، فالمفردات تتسم بغلبة الخيارات 'الرسمية'، والابتعاد عن البدائل المتاحة غير الرسمية، إذ يقول "قبل استراحة الغداء"، و"صرحت"، بدلًا من "قبل ساعة الغداء"، و"قلت"، مثلًا) وهو تعبير عن التأدب، وحرص المشاركين على عدم إحراج بعضهما بعضًا (بمعنى الرغبة فى حب الناس، وتحاشى فرض شىء عليك) والاحترام للمنزلة والموقع.

السؤال الثالث: ما القيم التعبيرية للألفاظ؟

يتضمن نص الطب النفسى الأول عددًا من الأمثلة على تجسيد الألفاظ للتقييم السلبى للممارسات التى يصفها الكاتب، مثل عرضهم، والسجن، وألوان الإذلال، على سبيل المثال. ويوجد المزيد من الأمثلة فى النص ٥ – ٤ الذى يقوم بالدعاية لإحدى حفلات مهرجان سياسى وثقافى.

اليسار. في زى من الأزياء

'الموضة' دعاية للملابس، فهى تكشف لك عن ماهية الناس، وما يريدون أن يكونوه، ومذاهبهم السياسية. وصناعة 'الموضة' فى حالة من التغير المستمر، إذ تخرج لنا صورًا جديدة، حيث تلتقى أزياء الشارع بالأزياء الراقية، وبأبنائها 'أزياء المحلات الكبرى'.

وإذا كان برنامج اليسار يضع المذاهب السياسية الشخصية وأسلوب الملبس على قمته، فهل ينبغى أن يكون الوعى بالموضة جزءًا من الوعى السياسى، أم تراه مجرد ذريعة لممارسة النزعة الاستهلاكية؟ ما الجديد الثورى فى الزى الجديد الثورى؟

إن جمعية '**اليسار غير المحدود**' تفخر بأن تقدم أول عرض أزياء يسارى فى التاريخ، إذ يشارك فيه أحدث مصممى الأزياء من خريجى الجامعة بما صمموه، ويتلوهم بعض الراسخين المفضلين، مثل الأثواب الفضفاضة التى صممها كيسن ليفنجستون، وسترات السفارى، والقمصان الملساء من نوع قمصان تروتسكى، وسترة العمال الغليظة بما عليها من شارات، والقالب الأوروبى الأنيق لصحيفة الماركسية اليوم التى تقدم بها العمر، والكثير سوى ذلك.

وسيكون بين الحاضرين محررة باب 'أزياء الشارع' فى مجلة **الهوية**، **كارين فرانكلين**، ومصمم الأزياء الراقية **پول سميث**، والكاتبة المتخصصة فى أزياء المحلات الكبرى **أنچيلا ستيڤنز** التى لاتزال فى السابعة عشرة، والصحفية **كاثى مايرز** من مجلة حدود المدينة. والأضواء، والموسيقى، وعرض الأزياء... والسياسة.

النص ٥ – ٤ المصدر اليسار غير المحدود، ١٩٨٦

من المحتمل أن يجد عدد كبير من اليساريين التقليديين صدامًا بين القيم التعبيرية فى هذه الفقرة، ففى الجملة الثالثة على سبيل المثال (التى تبدأ بعبارة: "وإذا كان برنامج

اليسار..." نجد أن تعبيرى الوعى السياسى واليسار يحملان قيمًا تعبيرية إيجابية لمثل هؤلاء القراء. فى حين أن تعبيرات مثل النزعة الاستهلاكية، و(الوعى) بالموضة، وربما تعبير أسلوب الملبس ستكون لها قيمة سلبية. أضف إلى ذلك أن كلمات مثل الموضة وأسلوب الملبس يمكن أن تعتبر نشازًا فى الخطاب السياسى. وأظن أن تعبير المذاهب السياسية الشخصية ليس له قيمة تعبيرية محددة، لأن هذا التركيب اللفظى جديد نسبيًا على الخطاب السياسى. والتأثير الكامل قد يدفع أمثال هؤلاء القراء إلى الحيرة أو إلى الغضب حقًا.

والاختلافات بين أنماط الخطاب فى القيم التعبيرية للألفاظ مهمة أيضًا من الزاوية الأيديولوجية. فالمتكلم يعبر عن تقييمه استنادًا إلى نظم تصنيف تعتبر فى جانب منها نظم تقييم، ولدينا نظم أيديولوجية متضادة تجسد شتى القيم فى شتى أنماط الخطاب. ومن ثم فمن الممكن تفسير المثال الوارد أعلاه من حيث مدى تمثيله للصدام الأيديولوجى بين شتى أنماط الخطاب اليسارى ونظم التصنيف المختلفة، ففى الخطاب اليسارى غير التقليدى، تعتبر ألفاظ مثل (الوعى) بالموضة، ومثل المذاهب السياسية الشخصية عناصر ذات قيم إيجابية فى نظم التصنيف المرتبطة بالسياسة.

ولقد كانت القيمة التعبيرية للكلمات دائمًا من القضايا الرئيسية عند المهتمين بلغة الإقناع. وإذا كانت لاتزال تحتفظ بأهميتها من حيث تركيزنا هنا على الأيديولوجيا، فإن أهميتها أقل ومنظورنا إليها هنا مختلف، فليس ما يهمنا هنا حشد القيم التعبيرية لتحقيق غايات 'إقناعية' معينة، بقدر ما يهمنا إمكان إحالة هذه القيم التعبيرية إلى نظم تصنيف أيديولوجية متضادة.

السؤال الرابع: ما الاستعارات المستعملة؟

الاستعارة وسيلة لتمثيل جانب من جوانب الخبرة فى صورة جانب آخر، وليست مقصورة إطلاقًا على نوع الخطاب الذى ترتبط به نمطيًا، أى الشعر والخطاب الأدبى. ولكن أى جانب من جوانب الخبرة يمكن تمثيله من خلال أى عدد من الاستعارات، والذى يهمنا هنا بصفة خاصة هو العلاقة بين الاستعارات وبدائلها، إذ إن الاستعارات

المختلفة لها روابط أيديولوجية مختلفة.

وفيما يلى استهلال مقال نشر فى صحيفة اسكتلندية عن أحداث 'الشغب' عام ١٩٨١:

والسرطان ينتشر

إزاء انتشار أعمال الشغب على أيدى الشباب الهائجين من الجنوب، بدأ الناس حتى أكثر المتفائلين منهم يبدون مخاوفهم على المستقبل، خشية ألا تكون هذه البداية أسوأ ما فى الأمر. فإلى أى مدى يمكن أن تنتشر القلاقل؟ وإذا وصلت إلى اسكتلندا فأين تضرب ضربتها؟

التمثيل المجازى للمشاكل الاجتماعية فى صورة الأمراض، والذى توضحه هذه الفقرة، بالغ الانتشار. لاحظ أنه يتضمن استعارة للمرض نفسه باعتباره قوة غامضة لا عقل لها ودون المستوى الإنسانى (أين تضرب ضربتها؟) وأما الدلالة الأيديولوجية لصور المرض المجازية فهى أنها تعتبر المصالح المهيمنة مصالح المجتمع كله، وتفسر ألوان التعبير عن المصالح غير المهيمنة (الإضرابات، والمظاهرات، و'أعمال الشغب') بأنها تقوض (صحة) المجتمع فى ذاته. وقد نجد استعارة بديلة تمثل أعمال 'الشغب' فى صورة الجدل، أو المجادلة التى تعتبر 'أعمال الشغب' احتجاجات صاخبة على سبيل المثال. فالاستعارات المختلفة توحى بطرائق مختلفة للتعامل مع الأشياء: فالإنسان لا يتوصل إلى تسوية من طريق التفاوض مع السرطان، وإن كان يستطيع ذلك فى جدال مع خصم له. وأما السرطان فلابد من اجتثاثه واستئصاله.

السؤال الخامس: ما القيمة الخبراتية للمعالم النحوية؟

تتعلق الجوانب الخبراتية للنحو بالطريقة التى تتولى بها الأشكال النحوية فى لغة من اللغات تشفير الأحداث أو العلاقات فى العالم، والأشخاص أو الحيوانات أو الأشياء المرتبطة بهذه الأحداث أو العلاقات، وظروفها المكانية والزمنية، وأسلوب وقوعها وهلم جرًّا. ويتناول السؤال الفرعى الأول أدناه هذه الأمور أساسًا وعمومًا، وتتناول الأسئلة الفرعية الأخرى قضايا خاصة مرتبطة بها.

ما الأنماط السائدة من حيث العمل والمشاركة؟

عندما يود المرء التمثيل فى النص لعمل أو حدث أو حالة أو علاقة، سواء أكانت أى من هذه حقيقية أو خيالية، فكثيرًا ما يتوافر له أن يختار نمطًا من الأنماط النحوية المختلفة للعمل والمشاركة، وقد تكون لما يختاره دلالة أيديولوجية. هذا فحوى هذا السؤال. وعلينا إذا أردنا استكشافه تفصيلًا أن نتأمل جانبًا من جوانب النحو فى الجمل البسيطة باللغة الإنجليزية.

تتكون الجملة البسيطة من النوع 'الإخبارى' (انظر السؤال السادس) من فاعل يتلوه فعل، وقد يكون الفعل متبوعًا بعنصر أو أكثر من عنصر من هذه القائمة: المفعول به، والخبر، والملحق. والجملة البسيطة لها أنماط ثلاثة، وبكل نمط مجموعة مختلفة من العناصر. وأنا أضع فى الجمل التالية عنوانًا بعد كل عنصر، ولا تنس أن أى عنصر قد يتكون من كلمة واحدة أو أكثر.

- **فاعل [مبتدأ] + فعل + مفعول به**

ريجان (فاعل/ مبتدأ) يهاجم (فعل) ليبيا (مفعول به)

Reagan (subject) attacks (verb) Libya (object)

شرطة جنوب إفريقيا (فاعل/ مبتدأ) أحرقت (فعل) بلدة للسود (مفعول به)

South African Police (subject) have burnt down (verb) a black township (object)

عصابات الكونترا (فاعل) قتلت (فعل) كثيرًا من الفلاحين (مفعول به)

Contras (subject) have killed (verb) many peasants (object)

- **فاعل + فعل**

ريجان (فاعل/ مبتدأ) كان يصيد السمك (فعل)

Reagan (subject) was fishing (verb)

بلدة للسود (فاعل/ مبتدأ) احترقت (فعل)

A black township (subject) has burnt down (verb)

كثير من الفلاحين (فاعل/ مبتدأ) ماتوا (فعل)

Many peasants (subject) have died (verb)

- فاعل/ مبتدأ + فعل + خبر

ريجان (فاعل/ مبتدأ) كان (فعل) خطيرًا (خبر)

Reagan (subject) was (verb) dangerous (complement)

كثير من الفلاحين (فاعل/ مبتدأ) كانوا (فعل) قتلى (خبر)

Many peasants (subject) were (verb) dead (complement)

ليبيا (فاعل/ مبتدأ) تملك (فعل) نفطًا (خبر/ مفعول به)

Libya (subject) has (verb) oil (complement)

لاحظ أن المفعول به والخبر يأتيان بعد الفعل فى هذه الأمثلة[1] والفرق أن المفعول به، لا الخبر، هو الذى يمكن أن يتحول إلى مبتدأ [نائب فاعل] فى الجملة الموازية المبنية للمجهول، ويمكن تطبيق ذلك على جميع الأمثلة التى تتكون من فاعل + فعل + مفعول (وعلى سبيل المثال "بلدة للسود أُحْرِقَتْ على أيدى رجال شرطة جنوب إفريقيا") ولا تنطبق على أى مثال يتكون من مبتدأ [فاعل] وفعل ومفعول به أو خبر (فلا تستطيع مثلًا أن تقول بالإنجليزية: (*dangerous is been by Reagan!*) [ولا مقابل لها بالعربية، إلا إن عَدَّلْتَ التركيب وقلت 'خطيرٌ هو ريجان' وهو التعبير الذى أشاعته الصحافة ويمجه الذوق السليم].

---

(١) غنى عن البيان أن هذه الأبنية خاصة باللغة الإنجليزية ومقابلاتها بالعربية مختلفة، ولذلك فليست الترجمات ترجمات بالمعنى المفهوم بل وسائل إيضاحية وحسب للمسميات الإنجليزية، وقد أبحت لنفسى تحويل الفعل فى النمط الثالث إلى الماضى حتى يظهر الفعل المساعد (to be) فى اللغة العربية، أما فى المضارع فلا يظهر كما هو معروف، ونستعيض بالمبتدأ والخبر عن البناء المذكور، وذلك لأن المؤلف يستخدم الأبنية الإنجليزية فى إقامة حجته الخاصة بتأثير الأيديولوجيا فى الأبنية النحوية الإنجليزية. ولمن يريد الاستزادة فى هذا الباب أن يرجع إلى كتاب الدكتور إبراهيم عبادة الجملة العربية: مكوناتها، أنواعها، تحليلها. مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠٢ (المترجم)

وتوجد اختلافات أيضًا تسمح لضروب أخرى من الألفاظ أن تعمل عمل هذه العناصر المختلفة، فالفاعل [أو المبتدأ] أو المفعول به يمكن أن يكون اسمًا (مثل ريجان أو الأولاد) أو ضميرًا [متصلًا أو منفصلًا] (مثل أنا وأنت وهى إلخ) أو عبارة تتضمن اسمًا، تعرف باسم العبارة الإسمية (مثل بلدة من السود، أو كثير من الفلاحين) وهو ما يسمى البناء الاسمى (*nominalization*) (والمشروح أدناه). ويمكن للخبر أن يكون كذلك، لكنه يمكن أن يكون صفة (خطير، موتى) أيضًا. واللاحق يمكن أن يكون 'حالًا' (وهو الذى ينتهى بالإنجليزية أحيانًا بحرف '*ly*') أو شبه جملة من جار ومجرور. وشبه الجملة تتكون من حرف (فى، عن، على إلخ) يتبعه اسم أو عبارة اسمية (مثلًا فى البلد، على التل) ولا توجد لواحق فى الأمثلة التى توضح أنماط الجملة الثلاثة، وإن كان يمكن لأى نمط منها أن يكتسب شتى اللواحق. حاول أن تضيف اللواحق التالية إلى الأمثلة فى صيغة 'الحال'، سواء أكان 'الحال' مفردًا أو جملة حال: فى حالات كثيرة، من دون رحمة، فى جنوب إفريقيا، منذ ١٩٨٥، لسوء الحظ، مرة واحدة، تجدْ أنك تستطيع إضافة 'لاحقة' واحدة على الأقل إلى كل من الجمل المذكورة.

وهذه الأنماط الرئيسية الثلاثة للجملة تعبر فى أغلب الأحوال (وإن لم يكن فى جميع الأحوال) عن الأنماط الرئيسية الثلاثة لما يسمى العمل، وهى على الترتيب الأفعال (فاعل+ فعل + مفعول) والأحداث (فاعل + فعل) والتوصيف (مبتدأ + فعل + خبر). فالفعل يقتضى وجود مشاركين اثنين هما الفاعل (*agent*) والمفعول به (*patient*) وفعل الفاعل يقع على المفعول به بأسلوب ما، وهكذا ففى الأمثلة التى تتكون من فاعل وفعل ومفعول به أعلاه، ريجان، وشرطة جنوب إفريقيا، وعصابات الكونترا هى الفواعل، فى حين أن ليبيا، وبلدة للسود، وكثير من الفلاحين، فى موقع المفعول به. وليس جميع المشاركين، بالمناسبة، كائنات حية، وعلى الرغم من أن الفواعل أحيانًا ما يكونون كذلك (مثل كثير من الفلاحين) فإنهم أحيانًا ليسوا كذلك (مثل بلدة للسود).

والحادث (أو الحدث) يتعلق بمشارك واحد فقط، وقد يكون من الأحياء (كثير من الفلاحين فى أمثلة الفعل والفاعل الواردة أعلاه) أو من غير الأحياء (بلدة للسود).

ولكن جمل الفعل والفاعل ليست دائمًا أحداثًا، فإذا كان بها مشاركون أحياء فقد تمثل نوعًا خاصًا من الفعل الذى لا مفعول له، أو ما سوف أسميه الفعل غير الموجه. ويتضح الفرق إذا حددت السؤال الذى تعتبر جملة الفاعل والمفعول إجابة طبيعية له: فإذا كانت الجملة تمثل من الزاوية الطبيعية المحضة إجابة عن السؤال: ماذا حدث؟ كانت حدثًا، أما إن كانت تمثل بالصورة الطبيعية المحضة إجابة عن السؤال: ماذا فعل (الفاعل)؟ كانت فعلًا غير موجه. وعلى هذا الأساس نرى أن جملة مات كثير من الفلاحين حادث أو حدث، ولكن جملة ريجان كان يصيد [السمك] فعل غير موجه.

والتوصيف يتعلق أيضًا بمشارك واحد، ولكن الفعل تتلوه صفة من نوع ما، إما صفة يتسم بها [أى تنتمى إلى] الفاعل، ونسميها صفة المِلْكية إذا كان الفعل من صور (*have*) أو غير منتمية إليه أى غير مِلْكية بالنسبة لأفعال أخرى (أهمها فعل الكينونة *be*، ولكن أيضًا يحس، ويبدو، وعدد من أفعال أخرى). وتبدو الصفات اللاملكية نعوتًا صريحة (مثل ريجان خطير) [وهى كما سبق إيضاحه مبتدأ وخبر] وأحيانًا فى صورة أسماء (ريجان تهديد) [مبتدأ وخبر].

وتبين بعض الأمثلة التى قدمتها عاليه الإمكانيات الأيديولوجية لاختيار نمط من أنماط العمل، فتصوير موت الفلاحين فى نيكاراجوا فى صورة فعل له فاعل أو فواعل مسؤولون عنه، أى باعتباره حدثًا، أو تصويره باعتباره توصيفًا لحال قائمة، من الخيارات ذات الدلالة الواضحة، وقس على ذلك تصوير إحراق بلدات السود فى جنوب إفريقيا فى صورة حدث أو فعل له فواعل. وأمثال هذه الاختيارات الخاصة بإبراز الفاعل أو إبقائه فى الخلفية قد تتسم بالاتساق والآلية والمنطق السليم، ومن ثم فهى أيديولوجية، وقد تكون من باب التحرز الواعى أو الخداع المقصود. ومن الصعب أن نعرف إلى أى نوع ينتمى المثال التالى، فقد ورد فى مقال كتبه صحفى يدعى 'هوجو ينج'، ويقول فيه إن السياسيين يتلاعبون بأجهزة الإعلام أكثر مما تتلاعب أجهزة الإعلام بالصحفيين:

> كان (مستر كينوك) قد وافق منذ فترة على إجراء مقابلة معه يوم الأحد المقبل، وكان من الواضح أنه كان يتصور أن تجرى فى غمار الجلبة التى

أحاطت بانطلاق [حملة حزب العمال] التى كان شعارها "الاستثمار فى الشعب". ولكن حدث فى غضون ذلك أن تصدرت قضية الدفاع قائمة الاهتمامات، وتحول البرنامج استجابةً لهذه الأنباء، إلى برنامج عن سياسة حزب العمال الخاصة بالدفاع، ولم يكن زعيم الحزب يريد الخوض فى ذلك الموضوع...

النص ٥ – ٥ المصدر صحيفة الجارديان، ١٦ أكتوبر ١٩٨٦

لاحظ غياب الفاعل فى الجملة الثانية التى تقول إن قضية الدفاع تصدرت قائمة الاهتمامات (أى إنها حدث) وإن البرنامج تحول إلى... (وهو توصيف). وللمرء أن يسأل أين الفاعل الذى جعل قضية الدفاع تحتل موقع الصدارة وغير طبيعية البرنامج؟ ربما كانت المعلومات المتاحة عن الموقف آنذاك ذات صلة بالموضوع، ألا وهى أن مؤتمر حزب المحافظين كان قد انعقد قبل كتابة هذا العمود بأسبوع، واختار أن يجعل سياسة الدفاع التى وضعها حزب العمال القضية التى يجب على المحافظين التركيز عليها فى الحملة الانتخابية الوشيكة.

هل الفاعل غير واضح؟

فيما يلى الجزء الأول من نص صادفناه فى الفصل الثالث، ويزيد من إيضاح مرمانا، ويبين كذلك أن تعمية الفاعل يمكن أن يكون من ورائها دافع أيديولوجى:

مشكلة سقوط بعض حمولة المحجر

لاتزال الشاحنات غير المغطاة الخارجة من محجر ميدلبارو تثير المشاكل لأنها تُسْقِطُ بعض الأحجار منها...

النص الإنجليزى يتكون من جملتين بسيطتين هنا، وكل منهما يتكون من فاعل + فعل + مفعول به. أما فاعل الجملة الأولى فهو **الشاحنات غير المغطاة الخارجة من محجر ميدلبارو** وأما الفعل فهو **لا تزال تثير**، والمفعول به هو **المشاكل**. والجملة الثانية تتكون من فاعل 'مضمر' (هو الشاحنات) وفعل هو **تسقط** ومفعول به هو **الأحجار**. ففى

الجملة الأولى نجد أن الفاعل على غير العادة من الجماد، أى إن 'الفاعلية' فى تعبير 'إثارة المشاكل' منسوبة إلى الشاحنات، ولكن الأَوْلَى كما بينت فى الفصل الثالث، أن تُنْسَبَ إلى الأشخاص الذين يتحكمون فيها. وسبق لى أن قلت إن الفواعل من الأحياء، وهذا هو الحال عمومًا. ولكن الفواعل يمكن أن يكونوا أسماء للجماد، أو صفات مجردة، أو أبنية اسمية (انظر أدناه). ويجب على المرء فى أمثال هذه الحالات، وفى هذا المثال، أن يبدى الحساسية لأى تعمية للفاعلية أو للعِلّية أو المسؤولية وهى التعمية التى قد تكون من ورائها دوافع أيديولوجية.

هل الصيغة الفعلية ما تبدو عليه؟

لدينا فى الجملة البسيطة الثانية ما يمكن تمثيله عادةً بعبارة تفيد وقوع حدث ما، أى إن الأحجار (الفاعل بالإنجليزية كانت تسقط (الفعل) من الشاحنات (اللاحقة) ولكنه يقدم إلينا فى صورة فعل، ويجعل من الشاحنات فاعلًا من الجماد، وهو ما يدعم موقعها باعتبارها فاعلًا فى الجملة الأولى. والواقع أنه من المفيد عمومًا أن ننتبه إلى تغيير الصيغ الفعلية التى تنتمى عادة لنمط من الأنماط وجعلها تظهر من نمط آخر، وأن ننظر فى الأسباب الأيديولوجية من وراء ذلك.

هل تستخدم أبنية اسمية؟

انظر فى العنوان مشكلة سقوط بعض حمولة المحجر، تجد أن الصيغة الفعلية التى عادة ما تتخذ الشكل النحوى للجملة المفيدة يمكن أن تتخذ الشكل النحوى المختزل الذى نسميه البناء الإسمى، كما هو الحال هنا. ومعنى المصطلح أن الصيغة الفعلية تحولت إلى اسم (أو إلى اسم يتكون من عدة ألفاظ، مثلما نراه هنا). والشكل مختزل بمعنى فقدان بعض المعنى الذى عادة ما يجده المرء فى الجملة المفيدة، وهو هنا زمن الحدث، أى إن العبار ة تخلو مما يدل على زمن الحدوث، وصيغة البناء (انظر أدناه) والفاعل و/ أو المفعول به فى حالات كثيرة. ففى هذا المثال نجد أن البناء الاسمى

يضغط الصيغتين الفعليتين اللتين يفصح عنهما النص فى الجملتين البسيطتين، فأما كيف نكسر البناء الاسمى لإخراج هاتين الصيغتين فليس واضحًا. لاحظ غياب الفواعل، إذ لا يحدد العنوان من يثير المشكلة أو من يُسقط الأحجار، وهكذا يتسق العنوان مع النص فى الإبقاء على عدم نسبة العلية والمسؤولية بوضوح.

هل الجمل مبنية للمعلوم أم للمجهول؟

قد تظهر الصيغ الفعلية فى جمل مبنية للمعلوم أو مبنية للمجهول. وجميع أمثلة الجمل المكونة من فاعل + فعل + مفعول أعلاه مبنية للمعلوم. ومقابلاتها المبنية للمجهول هى: **هوجمت ليبيا من جانب ريجان، وأحرقت بلدة للسود على أيدى شرطة جنوب إفريقيا، وقُتل كثيرٌ من الفلاحين على أيدى عصابات الكونترا** [وهى صيغ ذات ركاكة واضحة بالعربية وإن كان بعضها قد بدأ يظهر فى أجهزة الإعلام]. ومن الممكن أيضًا فى كل حالة حذف العبارة الدالة على الفاعل وهى التى تبدأ [فى الإنجليزية] بكلمة (*by*) [ومقابلاتها بالعربية من جانب/ على أيدى إلخ] أى إن لنا أن نقول فقط **هوجمت ليبيا** وهلم جرًّا، حتى نحصل على جملة مبنية للمجهول لا فاعل فيها، وهى الصيغة التى لا توضح العلية ولا الفاعلية. وقد يكون السبب أحيانًا هو الرغبة فى تجنب الإطناب إذا كانت تلك المعلومات قد وردت من قبل فى صورة ما، وهو ما يصدق أيضًا على البناء الإسمى، ولكنه قد يكون فى حالات معينة تعمية للفاعل والعلية.

هل الجمل مثبتة أم منفية؟

وأقول أخيرًا إن أنماط الجمل الثلاثة قد تكون مثبتة أو منفية (عصابات الكونترا لم تقتل كثيرًا من الفلاحين، وهلم جرًّا). وللنفى، بوضوح، قيمة خبراتية ما دام الوسيلة الأساسية التى تعيننا على التميز بين ما هو غير واقع وبين ما هو واقع حقيقةً. ولكن أهميته الرئيسية توجد فى جهة أخرى، وهو التناص والسياق المتناص لأحد النصوص. وسوف يناقش هذا وذاك فى الفصل السادس.

السؤال السادس: ما القيم العلائقية للمعالم النحوية؟

تتسم النصوص بمعالم نحوية منوعة ذوات قيم علائقية، وسوف أركز هنا على ثلاثة معالم هى صيغ الجملة، والشكلية/ النوعية [بالأفعال المساعدة] والضمائر.

ما الصيغ المستعملة

الصيغ الرئيسية ثلاثة: صيغة الجملة الخبرية، والسؤال النحوى، وصيغة فعل الأمر. وجميع الأمثلة التى مرت بنا صيغ إخبارية، وتتميز الصيغ الإخبارية أو الخبرية بأنها تبدأ [فى الإنجليزية] بفاعل يتلوه فعل. وأما صيغ أفعال الأمر فلا يوجد فيها فاعل، إذ تبدأ بالفعل، مثل افتح (فعل) الباب (مفعول به)، أو مثل تعال (فعل) هنا (لاحق). وأما الأسئلة النحوية فهى أشد تعقيدًا بسبب تنوع أنماطها. فلدينا أولًا النمط الذى يبدأ بحرف من هذه الحروف: من؟ ماذا؟ متى؟ أين؟ لماذا؟ كيف؟ أى؟، وهى حروف تبدأ فى الإنجليزية بحرف *wh* وتنسب إلى هذين الأسئلة، مثل لماذا تشير على أعضاء نقابتك بالإضراب؟ أو أين ولدت؟ ولدينا ثانيًا النمط الذى يبدأ بفعل فى الإنجليزية "أتستطيع تقديم الملح لى؟" [وقد أجاز مجمع اللغة العربية حذف همزة السؤال الاستهلالية] "أتستمتع بالموسيقى؟" "أكنت المقصود؟"، وهذا النمط كثيرًا ما تكون إجابته بحرف 'نعم' أو 'لا'. ولذلك تسمى هذه الأسئلة بالإنجليزية أسئلة نعم/ لا.

وتختلف هذه الصيغ الثلاث فى تحديد مواقع الذوات. ففى حالة الجملة الخبرية المعتادة يعتبر موقع المتكلم أو الكاتب موقع المانح (للخبر أى للمعلومات) ويعتبر موقع المخاطَب موقع المتلقى أو المستقبل. وأما فى حالة جملة فعل الأمر فالمتكلم أو الكاتب يطلب شيئًا من المخاطَب (أى يطلب قيامه بعمل ما) فى حين أن المخاطَب يشغل موقع الفاعل الذى يصدع بالأمر (مثاليًّا!) وفى حالة السؤال النحوى، نجد أن المتكلم أو الكاتب أيضًا يطلب شيئًا من المخاطَب، وهو المعلومات فى هذه الحالة، وأن المخاطَب فى موقع من يزوده بالخبر أى بالمعلومات. وتعتبر ضروب التفاوت المنتظم فى توزيع هذه الصيغ بين المشاركين ذات أهمية فى ذاتها من حيث علاقات المشاركة: فطرح

السؤال أو الطلب، سواء كان للقيام بعمل ما أو للحصول على معلومات، يفيد عمومًا أن السائل أو الطالب يشغل موقع السلطة، وكذلك تقديم المعلومات، إلا إن كانت قد طُلبت.

ولكن الصورة تتسم بتعقيد يتجاوز ما ذكرناه كثيرًا، وذلك لعدة أسباب، الأول (أ) أن العلاقة بين الصيغ وبين مواقع الذوات ليست علاقة تناظر بين أطراف كل منهما، وثانيًا (ب) لأن مجموعة مواقع الذوات حافلة بما يزيد كثيرًا عما حددته حتى الآن. فأما بالنسبة للسبب (أ) فالواضح أن الجملة الخبرية قد تكون لها قيمة طلب المعلومات (مثل "**لابد أنكِ أختُ ألان**") وأن السؤال النحوى قد تكون له قيمة طلب القيام بعمل ما (مثل "هل تتكرم بالانصراف") وجملة فعل الأمر قد تمثل اقتراحًا، مثلًا ("**حاول نزع الغطاء**") وأما بالنسبة للسبب (ب) فنحن نواجه حشدًا من أفعال الكلام التى يمكن أن تصاغ نحويًّا بأشكال متنوعة، فى الصيغ الثلاث جميعًا، بحيث يقابلها حشد مواز من مواقع الذوات المحددة، مثل موقع الواعد فيما يقدمه من وعود، وموقع من يرمى بالاتهام فى التهم المطروحة، وموقع المشتكى من شكاواه، وهلم جرًّا. ولكن قيم أفعال الكلام المذكورة لا تتميز بمعالم شكلية. والواقع أن المفسرين هم الذين يحددون قيم هذه الأقوال، استنادًا من جانب إلى معالمها الشكلية، ومن جانب آخر إلى افتراضات المفسر. ولهذا السبب فإننى أتناولها فى الفصل السادس من حيث التفسير.

هل توجد معالم مهمة للنوعية العلائقية؟

فلننظر الآن فى مفهوم النوعيّة، وهو مفهوم مهم للقيم العلائقية والتعبيرية فى النحو[1]. وتختص النوعية بسلطة المتكلم أو الكاتب، ولها بعدان يتوقف تحديدهما على

---

(١) النوعية (modality) "ترجمة" اقترحها الأستاذ الدكتور مجدى وهبة، وهى تصف ظاهرة أو فئة نحوية خاصة باللغة الإنجليزية ويتعذر إيجاد مقابل يعتبر مرادفًا أو مكافئًا لهذه الفئة بالعربية ما دامت العربية تفتقر إلى هذه الفئة تحديدًا وتتضمن مقابلات أخرى خاصة بها للتعبير عن مدلولاتها. وأما تعريفها فيختلط بمفهوم مصطلح آخر هو (mood) وفقًا لما يقوله جيمز هيرفورد (Hurford) فى كتابه عن النحو الإنجليزى (١٩٩٤) وما قالت به جنيفر كوتس (Coates) فى كتابها **دلالات الأفعال المساعدة النوعية** (١٩٨٣) ومن قبلهما فرانك پامر

الاتجاه الذى تتخذه السلطة، فإذا كان الأمر يتعلق بسلطة أحد المشاركين بالنسبة إلى سلطة الآخرين نشأت نوعية علائقية ، أما إذا كان الأمر يتعلق بسلطة المتكلم أو الكاتب بالنسبة إلى صدق تمثيل الواقع أو احتمال هذا الصدق، أصبحت لدينا نوعية تعبيرية أى نوعية تقييم المتكلم أو الكاتب للحقيقة الواقعة. وسوف تناقش النوعية التعبيرية إلى حد ما فى إطار السؤال السابع. ويتوسل التعبير عن النوعية بالأفعال المساعدة النوعية [الخاصة باللغة الإنجليزية] مثل ما يلى:

(may, might, must, should, can, can't, ought)

ولكن أيضًا بشتى المعالم الشكلية مثل صيغة الحال وزمن الفعل.

(Palmer) فى كتابه الفعل الإنجليزى (١٩٧٤) [الفصل الخامس] وكتابيه التاليين المفصلين: الأول هو النوعية وأفعال النوعية فى اللغة الإنجليزية (١٩٧٩) والثانى النوع والنوعية (١٩٨٦) الذى يقرن حتى فى عنوانه بين (modality) [النوعية] والنوع [mood]. ولما كانت القاعدة المطبقة فى مبحث الترجمة تقول إنك لا تستطيع أن تترجم أى شىء عن اللغة المصدر إلا إذا كان له مقابل باللغة المستهدفة (أو اللغة الهدف) فإن عدم وجود مقابل فى العربية لكلمتى (modality) و(mood) باعتبارهما مصطلحين متخصصين فى علم اللغة يعنى استحالة العثور على المقابل العلمى الدقيق باللغة العربية لأى من هذين المصطلحين باعتبارهما مختصين بظواهر لغوية، وفى هذه الحالة يضع المترجم لفظًا قد تكون له عدة دلالات فى سياقات متباينة ثم يجعله فى نطاق البحث اللغوى فقط مقابلا للمصطلح الأجنبى، وواضعو المصطلحات ومؤلفو المعاجم يفعلون هذا باستمرار ولسنا فى مجال التدليل على صحته، فما يهمنا هو المعنى اللغوى الخاص الذى جعلنا المصطلح العربى يحمله عن المصطلح الإنجليزى. ويقول ر. ل. تراسك (Trask) فى معجمه المفاهيم الأساسية فى اللغة واللغويات (١٩٩٩) إن النوعية فئة نحوية ترتبط بالتعبير عن الإلزام، والإذن، والمنع، والضرورة، والإمكانية، والقدرة. وإنه يصعب الفصل بينه وبين النوع (mood) الذى يعبر عن درجة أو شكل من أشكال الواقع. ويضيف قائلًا "ولكن اللغويين أصبحوا يفضلون مصطلح النوعية (modality) على امتداد عدة عقود للتعبير عن الفئات الست المذكورة، والمصطلح مريح بصفة خاصة فى مناقشة لغة مثل الإنجليزية تتضمن مجموعة من الأفعال النوعية المساعدة للتعبير عن هذه المفاهيم. وهذه هى:

(can, could, may, might, will, would, shall, should, must, and ought)

إلى جانب أشكالها المنفية" (ص ١٨٩).

وأما أقرب الأفعال فى العربية إلى ما نسميه الأفعال المساعدة النوعية بالإنجليزية، فهو الفعل (كان) إذ نعتبره فعلًا 'ناقصًا'، وإن كان يمكن استخدامه 'تامًّا'، مثل قرينه الإنجليزى (to be). (المترجم)

وفيما يلى نص قصير يوضح معنى النوعية العلاقية:

كتب المكتبة التى لديك فات موعد إعادتها، ولن يسمح لك باستعمال بطاقة الاستعارة من المكتبة الخاصة بك حتى تعيد الكتب. وإن لم تعد الكتب فى غضون أسبوعين، كان عيك أن تدفع تكاليف استبدالها قبل أن تستعير كتبًا أخرى.

يوجد فى هذا النص فعلان مساعدان نوعيان، هما (may not) و(must). أما الفعل (may) وحده فباعتباره علاقيًا يمكن أن يفيد السماح بفعل شىء (*you may go*) [أى إن لك أن تذهب] ولكن إضافة حرف النفى (*not*) تجعل معناه 'عدم السماح'. والفعل (must) يفيد الإلزام "إنك ملزم بأن تدفع تكاليف الاستبدال". لاحظ أن السلطة وعلاقات السلطة التى يبنى عليها منتجو هذا النص قرارهم بعدم السماح، أو بفرض الإلزام على من يتلقى هذا النص، غير منصوص عليها صراحة. وترجع الأهمية الأيديولوجية للنوعية العلاقية، على وجه الدقة، إلى مزاعم السلطة المضمرة، وإلى علاقات السلطة المضمرة، من النوع الذى تمثله هذه الفقرة.

هل يُستخدم الضميران نحن وأنت/ أنتم؟

وإن كانا يستخدمان فكيف يستخدمان؟

كنت أشرت فى الفصل الثالث لضميرى المخاطب 'T' و'V' للمفرد والجمع على الترتيب، وكيف يرتبط استخدامهما بعلاقات السلطة والتضامن. ولا يوجد فى الإنجليزية نظام يميز بين 'T' و'V'، وأما القيم المرتبطة بكلمتى (*tu*) و(*vous*) بالفرنسية مثلًا، فالإنجليزية تعبر عنها بطرائق لا تدخل فى إطار نظام الضمائر فيها، مثل الاختيارات المتاحة بين الألقاب المختلفة وأساليب المخاطبة (أى مخاطبة شخص باسم بيرت، أو بيرت سميث، أو مستر سميث، أو سميث وحسب مثلًا).

ومع ذلك فإن الضمائر فى الإنجليزية ذات قيم علائقية من أنواع مختلفة. فلقد ظهرت مثلًا الجملة التالية فى افتتاحية صحيفة الديلى ميل البريطانية أثناء 'حرب جزر فوكلاند': "لا نستطيع أن ندع جنودنا يفقدون تفوقهم بالتخلى عن مواقعهم الحربية والدبلوماسيون الأرجنتينيون يلعبون 'الاستغماية' فى دهاليز الأمم المتحدة" (ديلى ميل ٤/ ٥/ ٨٧). والافتتاحية تستخدم (مثل الكثير من الافتتاحيات) ضمير المتكلم الجمع الذى يوصف بأنه 'شامل'، أى يشمل القارئ والكاتب معا، على عكس ضمير المتكلم الجمع 'الحصرى' الذى يشير إلى الكاتب (أو المتكلم) إلى جانب شخص واحد أو أكثر سواه، ولكن من دون أن يشمل المخاطب أو المخاطبين. فالصحيفة تتكلم باسمها وباسم قرائها بل باسم جميع المواطنين البريطانيين (من ذوى الرأى الصائب؟) وهى بذلك تزعم لنفسها سلطة معينة، تشبه ما بينته الأمثلة الخاصة بالنوعية العلائقية أعلاه، أى سلطة الحديث باسم الآخرين. ولاحظ أيضًا أن كلمة بريطانيا أو الحكومة يمكن أن تحل محل ضمير المتكلم الجمع الأول [لا نستطيع = لا تستطيع بريطانيا أو الحكومة] دون مساس بالمعنى، وهكذا فإن أسلوب الصحيفة فى إظهار التماهى بينها وبين الحكومة والدولة هو أن تعاملهما معاملة الأنداد لضمير المتكلم الجمع 'الجماعى' أى الشعب البريطانى كله. ويتمثل جانب من جوانب هذا الاختزال فى أنه يخدم الأيديولوجيات المشتركة التى تؤكد وحدة الشعب على حساب الإقرار بوجود انقسامات فى المصالح.

ومن الحالات الأخرى التى يفيدنا فيها أن نحاول تحديد العلاقات المزعومة ضمنًا حالة استخدام ضمير المخاطب المفرد أو الجمع، وأيضًا فى أجهزة الإعلام، حيث يتعدد المخاطبون أو من يمكن أن يعتبروا مخاطبين، الذين يجهل منتج النص هوياتهم. وعلى الرغم من جهل الكاتب الإعلامى بهويات أفراد الجمهور الذين يخاطبهم، فإن مخاطبتهم مباشرة باعتبارهم أفرادًا باستخدام ضمير المخاطب المفرد أمر بالغ الشيوع. ولنا فى الإعلانات مثال واضح، إذ يقول 'مانشيت' إعلان مكتوب عن حساء

'باتشيلور'، مثلًا "المحصول الأرشق أينما تتسوق". ومثل هذا التظاهر بالمخاطبة الشخصية ينتشر على نطاق واسع فى الإعلانات وفى غيرها، وربما كان ذلك يمثل محاولة لتجنب الإفراط فى تحاشى الطابع الشخصى. ارجع إلى الفصل الثامن حيث المزيد من مناقشة الموضوع. ويستخدم ضمير المخاطب أيضًا على نطاق واسع باعتباره ضمير تنكير، كما نرى مثلًا فى الخطاب السياسى للسيدة مارجريت ثاتشر: "عليك أن تكون قويًا أمام شعبك وعلى البلدان الأخرى أن تعرف أنك تلتزم بكلمتك". وهذا يوحى بعلاقة تضامن بين السيدة ثاتشر (الحكومة) والشعب عمومًا. انظر الفصل السابع لمزيد من التفاصيل.

السؤال السابع: ما القيم التعبيرية للمعالم النحوية؟

سأقتصر على النوعية التعبيرية فى تعليقاتى على القيم التعبيرية، إذ تتداخل الأفعال المساعدة التى تميز النوعية العلائقية مع الأفعال المساعدة التى تميز النوعية التعبيرية. وهكذا نرى أن الفعل المساعد (may) يرتبط بمعنى الإمكانية (يمكن أن ينهار الجسر) ويرتبط كذلك بمعنى السماح أو الإذن [مثل عبارة 'you may enter' أى 'يُسمح لك بالدخول'] وأن الفعل المساعد (must) يرتبط 'باليقين' (لابد أن ينهار الجسر تحت ذلك الوزن! (*The bridge must collapse under that weight!*) ويرتبط كذلك بالإلزام [مثل عبارة (you must go) أى يجب عليك أن تذهب] ونجد كذلك أن الفعل المساعد المنفى *can't* يفيد 'الاستحالة' (مثل من المحال أن يتحمل الجسر ذلك الوزن *The bridge can't take that weight*) وأن الفعل *should* يفيد الاحتمال أيضًا (مثل: من المحتمل [أو 'من المتوقع'] أن يتحمل الجسر هذا الوزن، أى *The bridge should take that weight*) وغير هذه من الأفعال المساعدة.

ولكن النوعية لا تقتصر، كما قلت فى القسم السابق، على الأفعال المساعدة النوعية. ولاحظ مثلًا بداية النص الذى أوردته فى إطار السؤال السادس: "كتب المكتبة لديك

فات موعد إعادتها". الفعل فات هنا فعل فى زمن الماضى البسيط. وهذا يمثل طرفًا ختاميًّا للنوعية التعبيرية، أى التزام قاطع من جانب منتج النص بصدق المقولة، والطرف الختامى المقابل هو نفى المقولة فى عبارة 'لم يفت موعد إعادة كتب المكتبة التى استعرتها' وهو يمثل التزامًا قاطعًا أيضًا بصدق المقولة المنفية. وأما البدائل الممكنة التى تستطيع الأفعال المساعدة تقديمها فتقع ما بين هذين الطرفين القاطعين مثل "لابد أن/ يجوز أن يكون موعد إعادة كتب المكتبة التى لديك قد فات"، والبدائل الممكنة الوسيطة تتضمن أشكالًا تتضمن صورًا للحال بالإنجليزية وخصوصًا صيغ الحال النوعية لا الأفعال المساعدة، أو الأفعال المساعدة، أو هذه وتلك معًا، كما فى الصيغ التالية: ربما/ من الممكن/ يجوز أن تكون كتب المكتبة التى لديك قد فات موعد إعادتها:

(your library books are probably / are possibly/ may possibly be overdue.)

واهتمامنا الأيديولوجى يَنْصَبُّ على مزاعم الصدق، أو مزاعم المعرفة التى تتجلى فى الصور النوعية. وتمثل الصحف لنا حالة طريفة. إذ نجد أن الصحفى عندما يروى حدثًا ما، فى إطار ما ينقله من أنباء، يصوره بصفة عامة فى صورة الواقع الصادق، أى الحقيقة، من دون اللجوء إلى البدائل النوعية الوسيطة التى ضربت عليها الأمثال عاليه. وتأمل بداية الخبر المبين فى النص ٥-٦، والذى كتبه جوردون جريج، المحرر السياسى بصحيفة ديلى ميل البريطانية، تجدْ أن الأفعال كلها فى زمن المضارع البسيط (يرقض، يضع خطة، تتجهز (أو تستعد)، يلوح) أو فى صورة المضارع التام (قُدِّمت الدعوة). وغلبة النوعيات القاطعة يدعم الرأى القائل بأن حالة العالم شفافة، كأنها تكشف عن معناها لأى مراقب من دون الحاجة إلى التفسير أو التمثيل. و'الأنباء' عادة ما تُخفى الخطوات المعقدة والمرتبكة لجمع المعلومات وتفسيرها، وهي التى يتطلبها إنتاج النصوص، والدور الذى تضطلع الأيديولوجيا به فيها، فالأيديولوجيات قائمة فى باطن الممارسات والافتراضات الثابتة التى يستعملها المفسرون فى التفسير.

'فوت' يرفض العرض المقدم من رئاسة الوزارة ولكن

ماجى تضع خطة الغزو

بقلم جوردون جريج، المحرر السياسى

تستعد **السيدة ثاتشر** للصدام الحاسم فى أزمة جزر الفوكلاند بإنزال لقوات الصاعقة والمظلات.

وبينما يلوح احتمال مواجهة دموية، قدمت الدعوة إلى زعماء المعارضة لمناقشة آخر التطورات معها.

النص ٥ – ٦ المصدر صحيفة ديلى ميل ٣ مايو ١٩٨٢

السؤال الثامن: ما وسيلة الربط بين الجمل (البسيطة)؟

يَنْصَبُّ تركيزى هنا على القيمة الترابطية للمعالم الشكلية للنص (على عكس القيم الخبراتية والعلائقية والتعبيرية)، إذ نجد لهذه القيمة جانبًا 'داخليًّا' يميزها عن غيرها، بمعنى أن للمعالم الشكلية قيمًا تلعب دورًا معينًا فى ربط أجزاء النص بعضها إلى بعض. ولكن القضية تتعلق أيضًا بالعلاقة بين النصوص والسياقات، إذ إن بعض المعالم الشكلية تشير إلى سياق الحال خارج النص، أو سياقه 'المتناص' أى إلى النصوص السابقة المتصلة بها (انظر الفصل السادس). كما إن بعض العناصر الشكلية ذات القيمة الترابطية كثيرًا ما تتسم بقيم أخرى، كما سوف نرى.

توجد عمومًا روابط شكلية بين الجمل فى النص، تعرف فى مجموعها باسم **التماسك** (cohesion). وقد يتضمن إحراز **التماسك** وجود روابط بين المفردات فى الجمل، إما بتكرار المفردات أو باستخدام مفردات مرتبطة بها. وقد يتضمن أيضًا استخدام أدوات وصل تميز شتى العلاقات الزمنية والمكانية والمنطقية (بالمعنى الواسع) بين الجمل. وقد يتضمن ما يسمى كلمات إحالية، وهى الكلمات التى تحيل القارئ إلى جملة سابقة أو –

فى حالات أقل – إلى جملة لاحقة. وسوف أطلق على أى معلم شكلى فى النص يتسم بقيمة تماسكية أى يشير إلى الارتباط بين جملة وجملة، اسم المعلم التماسكى. وأما التعليقات التالية على التماسك فهى منتقاة بحرص بحيث تقتصر على رابطتين فقط (فى السؤالين الفرعيين الأولين) وعلى الإحالة (السؤال الفرعى الثالث).

ما أدوات الوصل المنطقية المستعملة؟

سبب تركيزى على أدوات الوصل أنها قد تتضمن مفاتيح الافتراضات الأيديولوجية. وقد رأينا مثالًا سابقًا لها، يتضمن علاقة التسليم بشىء ما، فى النص المقتطف من صفحة المشكلات فى الفصل الرابع (النص ٤ – ٢): **لم أخرج حتى الآن مع أحد قط على الرغم من أن أمى تقول إننى جميلة فعلًا.** وأداة الوصل هنا هى على الرغم من، ولكن لاحظ أن الجملة يمكن أن يعاد صوغها باستعمال أدوات وصل أخرى: **تقول أمى إننى جميلة فعلًا، ولكننى لم أخرج مع أحد قط؛ أو رغم أن أمى تقول إننى جميلة فعلًا، فإننى لم أخرج مع أحد قط؛ أو تقول أمى إننى جميلة فعلًا، ومع ذلك فإننى لم أخرج مع أحد قط.** وفى كل حالة من هذه الحالات يعتمد ترابط المعنى على افتراض أنه إذا كانت الفتاة (بنت الأعوام الثلاثة عشر فى هذه الحالة) 'جميلة فعلًا' **(لا أن أمها تقول إنها جميلة فعلًا!)** فلها أن تتوقع إمكان خروجها مع أحد الفتيان.

وهاك مثالًا يتضمن علاقة نتيجة: **رفضوا أن يدفعوا الإيجار الأكبر عندما أُعلنت زيادة الإيجار. ونتيجة لذلك طُردوا من الشقة.** والافتراض فى هذه الحالة يقول إن عدم دفع الإيجار قد يؤدى إلى طرد السكان. وتعبير **على الرغم من** يشير إلى أن الأمر الذى كان من المتوقع أن يحدث، فى ظل الافتراض الذى أشرت إليه، لم يحدث فى الواقع، وأما تعبير ونتيجة لذلك فيشير إلى حدوث ما كان متوقعًا، أى إن العاقبة المفترضة لعدم دفع الإيجار قد تحققت فعلًا. والذى تبينه هذه الأمثلة أن العلاقات العِلِّيَّة أو القائمة على الأسباب فيما بين الأشياء والتى تعتبر قائمة على المنطق السليم قد تكون قائمة على المنطق الأيديولوجى السليم. ولكن أمثال هذه العلاقات لا تتوسل دائمًا بأدوات الوصل بل يمكن أن يوحى بها تجاور الجمل وحسب.

هل تتميز الجمل المُركَّبَةُ "بالتنسيق" أم "بالتغليب"؟

تجمع الجمل المُرَكَّبةُ بين الجمل البسيطة بطرائق شتى. ويشيع التمييز بين التنسيق الذى يعنى تكافؤ أوزان الجمل البسيطة التى تتكون الجملة المركبة منها، وبين التغليب حيث تتضمن الجملة المركبة جملة رئيسية (غالبة) وجملة ثانوية أو أكثر من جملة ثانوية فى موقع التابع. ونحن نستخدم فى الإنجليزية مصطلح (clause) لنصف به الجملة البسيطة الداخلة فى تركيب الجملة المركبة. وتتسم الجملة الرئيسية عمومًا بزيادة بروزها من حيث المعلومات عن الجمل الثانوية، وبأن مضمون الجمل الثانوية يشغل مكانة خلفية. ومن الأمور التى علينا أن ننتبه لها الطرائق التى تقسم فيها النصوص المعلومات، استنادًا إلى المنطق السليم، ما بين الأجزاء البارزة نسبيًّا والأجزاء الواقعة فى الخلفية نسبيًّا (وهو ما يعنى التقسيم إلى أجزاء مهمة نسبيًّا وأجزاء غير مهمة نسبيًّا). وفى بعض الحالات نجد أن مضمون الجمل الثانوية مفترض سلفًا، إما باعتباره معروفًا من قبل، وإما باعتبار أن جميع المشاركين يُسَلِّمون بصحته. ولنضرب مثالًا من جملة سبق الاستشهاد بها: "لا نستطيع أن ندع جنودنا يفقدون تفوقهم بالتخلى عن مواقعهم الحربية والدبلوماسيون الأرچنتينيون يلعبون الاستغماية فى دهاليز الأمم المتحدة". الجملة الأولى (المنتهية بكلمة الحربية) هى الجملة الرئيسية، والثانية (بقية الجملة) ثانوية. وإذا كانت الجملة الأولى تتضمن تأكيدًا فالجملة لا تؤكد أن الدبلوماسيين الأرچنتينيين يلعبون الاستغماية فى دهاليز الأمم المتحدة بل تفترض ذلك سلفًا. [أى إن الجملة لا ترمى فى المقام الأول إلى إعلامنا بما يفعله هؤلاء فى الأمم المتحدة بل تفترض أننا على علم سابق به]. انظر الفصل السادس حيث المزيد من مناقشة الافتراضات السابقة.

ما وسائل الإحالة إلى خارج النص أو داخله؟

تتوافر شتى الأدوات النحوية للإحالة بصورة مقتضبة إلى المواد التى سبق تقديمها فى نص من النصوص بدلًا من تكرارها كاملةً. وأبرز هذه الأدوات هى الضمائر وأسماء الإشارة (هو، هى، هذا، ذلك إلخ) وأداة التعريف (the) ['أل' بالعربية]. انظر الجملة التالية: **كتبت إحدى صديقاتى كتابًا عن الهند. وهى تحاول منذ عامين نشر الكتاب، ولكن [الناشرين] دأبوا على إخبارها بأنه لن يشتريه أحد.** وأداة التعريف هنا تهمنا بصفة خاصة فى هذا السياق لأنها تستخدم على نطاق واسع فى الإحالة إلى مدلولات

(أشخاص أو أشياء أو أحداث) لا يتضمنها النص، بل ولا تتضح من سياق الحالة الخاص بالتفاعل، وإنما تعتبر في عداد المفترض سلفًا. والنص ٥ - ٧ مثال على ذلك، وهو نص مطبوع على غلاف علبة تحتوى على حالة للصدر [سوتيان].



النص ٥ - ٧ المصدر: بيرلى

[العنوان يقول: حمالة صدر الأمهات، بالقطن، من إنتاج بيرلى]

[الكلام تحت الصورة: أول حمالة صدر ترعى أنوثتك وأمومتك معًا]

[تفاصيل الإعلان، على الترتيب: القفل أمامى للراحة والتيسير؛ تصميم خاص يمنع الانزلاق؛ الحمالة الأمامية قطنية من ثلاثة أجزاء للراحة والدعم؛ بطانة قطنية لزيادة امتصاص العرق؛ الحمالات مطاطة؛ القفل مكون من ثلاثة أجزاء لإحكام إغلاقه؛ متوافر باللون الأبيض فقط؛ المقاسات من ٣٤-٤٠ (بوصة) ورموزها E/ DD/ D/ C/ B]

[يطلب من كبرى المحلات الرئيسية، وعدد مختار من محلات البيع بالتجزئة]

ويفترض هذا الإعلان سلفًا وجود 'أم' و'امرأة' فى داخلك (أى فى داخل القارئة المفترضة) ويرجع توافق هذين الافتراضين السابقين إلى افتراض آخر وهو أن أنوثة المرأة (ربما بالمعنى الضيق هنا الذى يفيد جاذبيتها الجنسية للرجال) لا تتفق مع أمومتها، أى حتى أتت شركة بيرلى بحل للمشكلة! وانظر الفصل السادس أيضًا حيث أقول المزيد عن الافتراضات المسبقة.

السؤال التاسع: ما أعراف التفاعل المستعملة؟

تتعلق المعالم الشكلية على المستوى النصى بخصائص التنظيم الشكلى للنصوص الكاملة. وإزاء المعنى الواسع الذى يُستخدم فيه مصطلح النص فى هذا الكتاب (والذى قدمته فى الفصل الثانى) فإن هذا يشمل المعالم التنظيمية للحوار (مثل المحادثات، والدروس، والمقابلات الشخصية) وللكلام المنفرد (مثل الخُطب والمقالات الصحفية). ويتعلق السؤال التاسع أساسًا بالحوار، وأما السؤال العاشر فيشمل الحوار والكلام المنفرد (المونولوج). والسؤال التاسع يهتم اهتمامًا عريضًا بالمعالم التنظيمية رفيعة المستوى والتى تتسم بقيمة علائقية، ولكن السؤال العاشر يتناول المعالم ذات القيمة الخبراتية.

وسوف أركز فى السؤال التاسع على الأعراف المُطَبِّعَة وروابطها المضمرة بعلاقات السلطة، على نحو ما ناقشته فى القسم الخاص بنظم التفاعل المعتادة وحدودها فى الفصل الرابع. وإذن فإن ما يشغلنا هنا هو القيمة العلائقية للجوانب التنظيمية للحديث. ولقد سبق إيراد عدد من الأمثلة المناسبة لهذا الموضوع فى النصوص المقتطفة فى الفصول ٢-٤، مثل المقابلة الشرطية فى الفصل الثانى، والنص الخاص بوحدة الأطفال المبتسرين، والحوار بين مدير المدرسة والتلميذ فى الفصل الثالث، والاستشارة بين الطبيب والمريضة فى القسم الذى أشرت إليه لتوى فى الفصل الرابع.

ما نظام التناوب فى المحادثة؟

كيف يتناوب المحدثون أدوار الحديث فى الحوار؟ تعتمد الإجابة على طبيعة نظام التناوب المعمول به، وهذا يعتمد على علاقات السلطة بين المشاركين (ويعتبر جزءًا

منها). فلنبدأ بالنظر فى المحادثات غير الرسمية بين الأكفاء. يتحقق التناوب فى مثل هذه المحادثات بالتفاوض بين المشاركين على تناوب الأدوار وفقًا للصيغة التالية: للمتحدث أن يختار من يعقبه فى الكلام؛ فإذا لم يحدث هذا، فللمتحدث التالى أن يتكلم باعتبار هذا دوره؛ وإذا لم يحدث هذا، فللمتحدث أن يواصل الحديث. ومن المفترض أن جميع المشاركين يتمتعون بحقوق متكافئة وفق هذه الصيغة، أى أن يختاروا غيرهم، أو 'يختاروا أنفسهم'، أو يواصلوا الحديث.

والمحادثة غير الرسمية بين الأكفاء تتمتع بدلالة كبرى وقوة حشد عظمى بصفتها شكلًا مثاليًّا للتفاعل الاجتماعى، ولكن حدوثها بالفعل محدود إلى أبعد مدى فى مجتمعنا المتسم بالانقسام الطبقى وانفصام السلطة. وحيثما تحدث فعلًا، فإن حدوثها نفسه يحتاج إلى تفسير، ويجب ألا يعتبر، على نحو ما نشهده كثيرًا، 'الوضع الطبيعى' للتفاعل بصفة عامة.

وأما فى الحوار بين غير الأكفاء فإن حقوق التناوب غير متكافئة، على نحو ما بينته بعض المقتطفات التى نوقشت فى الفصول السابقة، فلننظر إلى عينة صغيرة من الخطاب فى قاعة للدرس:

المعلمة: أين يذهب [الهواء] قبل أن يصل إلى الرئتين؟
التلميذ: إلى القصبة الهوائية يا أستاذة.
المعلمة: فى القصبة الهوائية... والآن هل يستطيع أحد أن يذكر الاسم الآخر للقصبة الهوائية؟
التلميذ: قصبة الرئة.
المعلمة: قصبة الرئة... جميل.

النص ٥-٨ المصدر كولتارد ١٩٧٧: ٩٤

يختلف نظام التناوب هنا اختلافًا كبيرًا عن صيغة المحادثة غير الرسمية. فالتلاميذ يتناوبون الكلام عندما يوجه المعلم سؤالًا إلى الفصل كله أو إلى تلميذ فرد. والتلاميذ لا يستطيعون فى الحالات العادية اختيار أنفسهم، ولكن المعلمين على العكس من ذلك

دائمًا ما يختارون أنفسهم لأن التلاميذ لا يستطيعون اختيار معلميهم. ولا تقتصر القيود التى يواجهها التلاميذ على تناوبهم أدوار الكلام، بل إنها مفروضة أيضًا على مضمون ما يقولونه حين تحين أدوارهم [فى الكلام]، إذ عليهم الاقتصار، أساسًا، على تقديم إجابات عن أسئلة المعلم. كما إن معايير الصلة بين الإجابة والسؤال معايير من وضع المعلم أيضًا! وعلى الرغم من كثرة الأسئلة التى يطرحها المعلمون فإن لهم أيضًا أن يؤدوا مهام أخرى كثيرة عندما تحين أدوارهم فى الكلام، على عكس التلاميذ، فلهم أن يقدموا المعلومات أو يصدروا التعليمات مثلًا، أو – كما رأينا فى هذا المثال – يقدموا ردودًا تقييمية لإجابات التلاميذ، إما بتكرار الإجابة (فى القصبة الهوائية، قصبة الرئة) أو يقدموا تعليقًا تقييميًّا (جميل).وهيمنة مثل هذا الخطاب فى قاعات الدرس تستند إلى أيديولوجيات المراتب الاجتماعية والتعليم، كما إنه يعيد إنتاج هذه الأيديولوجيات. ومع ذلك فقد نجد قاعات للدرس التى تختلف فيها ممارسة الخطاب والأيديولوجيات اختلافًا بينًا.

هل توجد طرائق لسيطرة أحد المشاركين على مساهمات الآخرين فى الحديث؟

قلت فى الفصل الأول إن 'السلطة فى الخطاب' تعنى أن المشارك الذى يتمتع بسلطة أكبر يضع القيود على مساهمات المشاركين الأقل سلطة. وتتوافر شتى الأساليب لتحقيق هذا، وسوف أذكر أربعة منها:

المقاطعة

إرغام المتحدث على الصراحة

السيطرة على الموضوع

الصوغ

أما المقاطعة فقد بينتها فى النص الخاص بوحدة الأطفال المبتسرين فى الفصل الثالث. ولعلك تذكر أن الطبيب كان يقاطع طالب الطب ابتغاء السيطرة على مساهماته: أى لمنعه من الشروع فى الفحص الطبى قبل غسل يديه، أو منعه من تكرار المعلومات أو تقديم معلومات لا تتعلق بالموضوع.

واللجوء إلى المقولات الغامضة أو التى تحتمل وجهين من وجوه المعنى قد يكون مفيدًا فى أيدى المشاركين 'الأقل سلطة' عند تعاملهم مع ذوى السلطة، ولكن أصحاب السلطة قد يردون بإرغامهم على الصراحة، فقد يرغمون مشاركًا على أن يزيل الغموض بطرح أسئلة مثل: **هل هذا تهديد؟ هل تتهمنى بالكذب؟** والصمت سلاح آخر فى يد المشارك الأقل سلطة' خصوصًا باعتباره وسيلة لتحاشى تحديد موقفه بشأن ما يقوله المشارك ذو السلطة الأكبر. ولكن هذا الأخير قد يستطيع إرغام المشارك على كسر صمته وإجباره على الإجابة بأسئلة مثل: **هل تفهمنى؟** أو **هل توافقنى؟** أو **ما رأيك فى هذا؟**

ومن المحتمل أن يتولى المشارك ذو السلطة تحديد شكل 'التفاعل' والسيطرة عليه. فكثيرًا ما يكون المشاركون من ذوى السلطة (مثل المعلم) فى موقع يمكنهم من تحديد طبيعة 'التفاعل' وأغراضه فى بدايته، وعدم السماح بمساهمات لا تربطها صلة (فى نظرهم) بموضوعه.

ومن الأساليب التى تستخدم على نطاق واسع وبأشكال شتى أسلوب الصوغ، وقد يكون الصوغ فى الواقع إعادة صياغة لما قاله المتحدث أو ما قاله غيره، فى دور واحد أو سلسلة من الأدوار أو فى الحوار برمته فعلًا، وقد يقتصر على صياغة ما يُفْتَرَضُ أن يترتب على ما قيل، أو ما أوحى ما قيل به وحسب. وتستخدم ضروب الصوغ فى تحقيق أغراض معينة مثل التيقن من فهم [فحوى الحوار] أو التوصل إلى تحديد متفق عليه لما دار أثناء التحاور. ولكن الصوغ يستخدم أيضًا فى السيطرة على التحاور، وفى اللقاءات الإذاعية بوجه خاص على سبيل المثال، باعتباره حيلة لتوجيه المشاركين لتقبل مفهوم المتحدث لما حدث، وبذلك تقليل الخيارات المتاحة فى المساهمات التالية.

وفيما يلى مثال للصوغ واستعماله الاستراتيجى فى الخطاب. فالشخص 'ألف' يشرح للشخص 'باء' الأحداث التى أحاطت بكسر زجاج نافذة ما:

أ- كان الزجاج مكسورًا عندما دخلت للغداء

ب – حقًا.

أ – أى إن ذلك حدث أثناء حديثى للأولاد فى الطابق العلوى، يعنى.
ب – وإذن فإن الأولاد فى الطابق العلوى لم يكسروه.
أ – أتصور ذلك.

'الدور' الثانى من كلام 'باء' يقدم صوغًا لما يرويه 'ألف'، أى إنه 'يقدم' إلى 'ألف' خلاصة ما قاله الأخير، وهو أنه إن كان يتحدث للأولاد فى الطابق العلوى أثناء كسر الزجاج فإن الأولاد لم يكسروه. ويبدو أن 'أ' مضطر إلى التسليم بهذا. وقد يكون الصوغ من المزايا التى يتمتع بها ذوو السلطة، ولكن هذا لا يعنى أنهم ينجحون دائمًا فى السيطرة عليه. وفيما يلى اختتام مقابلة شخصية بين مدير مدرسة وتلميذ يشتبه فى ارتكابه بعض الجنح:

م – وأنت تنكر الخروج من المدرسة أثناء اليوم الدراسى ┐ أو
ت – ┘ أنكر خروجى
من المدرسة والذهاب إلى ذلك المحل وأخذ النقود. أو أى شىء. لأننى لم أفعل ذلك قط.

إن مدير المدرسة هنا يحاول إنهاء المقابلة بأن يقدم إلى التلميذ صوغًا لرد الأخير على التهم الموجهة إليه، ولكن محاولة المدير تفشل، ويسيطر التلميذ على الموقف بمقاطعة المدير وتقديم صوغه الخاص لإنكاره.

السؤال العاشر: ما الأبنية الواسعة النطاق التى يتسم بها النص؟

النص ٥ – ٩ مقال من صحيفتى المحلية. وهو يمثل كيف يمكن للنص كله أن يتسم ببناء معين، وربما كان يتكون من عناصر متوقعة فى نظام متوقع.

والأنباء المنشورة عن الحوادث العارضة (أو الأحداث) تشترك عمومًا فى العناصر الرئيسية التى نجدها فى هذا المثال وهى، فيما يبدو، ما حدث، وما تسبب فى حدوثه، وما اتخذ من إجراءات لمواجهته، وما العواقب المباشرة له، وما الآثار الناجمة عنه فى الأجل الطويل. فالفقرة الأولى تقدم لنا الآثار المباشرة، تتلوها إشارة إلى ما حدث. ثم تذكر الفقرة الثانية الإجراءات التى اتخذت لمواجهته وتزيد من ذكر تفاصيل ما حدث. وأما

الفقرة الثالثة فتزيد من تفصيلات الآثار المباشرة، وتشير الفقرة الرابعة بعد ذلك إلى العواقب فى الأجل الطويل. لاحظ أن الترتيب الذى تظهر به هذه العناصر ليس منطقيًا إلى حد بعيد، وأن أى عنصر من هذه العناصر يمكن أن يظهر فى أكثر من مكان واحد. والحق أن ترتيب العناصر فى الأخبار الصحفية يستند إلى أهميتها أو جدارتها بالنشر، بحيث يقدم العنوان مع الفقرة الأولى ما يعتبر أهم الجوانب، أو فحوى النبأ. وفى هذه الحالة نجد أن العنوان يؤكد ما بذل من جهد للتصدى للحادثة، وإن كان يتضمن الإشارة إلى ما حدث (الحريق).

رجال الإطفاء يخمدون الحريق

اضطر عمال النوبة الليلية فى خط التغليف بمصنع شركة نيرن للمنتجات المغلفة، بمنطقة سان جورج فى مدينة لانكاستر، إلى إخلاء المكان بعد اندلاع حريق فى أحد الأفران مساء الأربعاء.

وتصدت أربع سيارات مطافئ للحادثة، كما شارك رجال الإطفاء الذين كانوا يلبسون أجهزة تنفس خاصة فى مكافحة النيران التى شبت بعد أن اشتعل قسم من أقسام الفرن، بسبب توهج الأسلاك الخاصة بالضوء تحت الأحمر.

ونجمت عن الحريق أضرار خطيرة بأسلاك معدنية طولها عشرون مترًا، وبباطن آلة التغليف، كما ملأ الدخان غرفة التغليف وسد مداخلها.

ولكن القسم عاد للعمل كالمعتاد صباح يوم الخميس.

النص ٥ – ٩ المصدر صحيفة لانكاستر جارديان، ٧ أكتوبر ١٩٨٦

وتعتبر توقعات المشاركين عن بناء التفاعلات الاجتماعية التى يشاركون فيها، أو النصوص التى يقرؤونها، عنصرًا مهمًا من عناصر التفسير، كما يمكن تفسير عناصر معينة وفقًا لما هو متوقع فى الأماكن التى تقع فيها هذه العناصر، لا من حيث هويتها (انظر مناقشة النصوص الخاصة فى الفصل السادس). ولكن دلالة البناء العام ذات أجل طويل أيضًا، إذ يمكن لمثل هذه الأبنية أن تفرض مستويات عليا من النظم المعتادة

على الممارسة الاجتماعية بأسلوب يحدد الأغراض ويغلقها أيديولوجيًا. وفيما يتعلق بالأنباء التي تنشرها الصحف عن الحوادث في المصانع، مثلًا، نجد أن الإحاطة بالعناصر التي أشرت إليها تجعل من العسير على القارئ إدراك استبعاد عنصر من العناصر، وليكنْ سجل الأمان للشركة المعنية، بسبب عُرْفٍ من الأعراف 'المُطَبَّعَة'. ونجد على العكس من ذلك أن بعض جوانب الأحداث التي لم تفصل الأعراف بينها باعتبارها عناصر بنائية، عادةً ما تختفي عن الأنظار والوعي. وكثيرًا ما يحدث هذا بالنسبة لسجل الأمان والاحتياطات عند النظر في الحوادث التي تقع في المصانع.

المراجع

فيما يتعلق بالمفردات، ومعاني الألفاظ وعلاقات المعنى انظر ليتش (1974) وليونز (1977) وألان (1986). وارجع إلى كتابي كريس وهودج (1979) وفاولر وآخرين (1979) حيث مناقشات التصنيف، و'الإطناب' (overwording) وإعادة الصياغة (rewording) المشار إليهما على الترتيب بالكلمتين (relexicalization) and (overlexicalization) ويناقش الكتابان أيضًا العلاقة بين المعنى والأيديولوجيا. وللمزيد من المناقشة النظرية عن تلك العلاقة انظر پيشيه (1982) وڤولوشينوڤ (1973) وج. ب. طومسون (1984). وبولينچر (1980) يعتبر مفيدًا في شتى جوانب المعنى، بما في ذلك الاستعارة، والتلطف في التعبير. وفيما يتعلق بالاستعارة انظر ليكوف وجونسون (1980)؛ وچوتلي (1997).

والمدخل إلى النحو في هاليداي (1994) مثمر فيما يتصل بالدراسة النقدية للغة. وانظر أيضًا إيجينز (1994) وج. طومسون (1996). ويعتبر كتاب كويرك وآخرين (1985) مصدرًا شاملًا لجميع جوانب النحو. وفيما يتعلق بالربط بين الجمل انظر هاليداي وحسن (1976)، وعن الافتراضات المسبقة انظر ليڤنسون (1983). وسوف تجد مادة ثرية عن التحليل النحوي في إطار الدراسة النقدية للغة في فاولر وآخرين (1979) وكريس وهودج (1979)؛ وفاولر (1991).

وكتاب ساكس وآخرين (1974) دراسة كلاسيكية للتناوب في المحادثة؛ وانظر

أيضًا أتكينسون وهيريتيدج (1984)؛ وجودوين وهيريتيدج (1990). وأما سينكلير وكولتارد فقد وضعا فى كتابهما (1975) مدخلًا مبكرًا لتحليل الخطاب فى قاعة الدرس. وفيما يتعلق 'بالصوغ' انظر هيريتيدج وواطسون (1979). وفيما يتصل بتولى المشاركين المتسلطين السيطرة على الخطاب انظر ستابز (1983) وتوماس (1995)، وطولبوت (1998). وبالنسبة للمبانى الواسعة النطاق للنصوص انظر براون ويول (1983).

الفصل السادس

تطبيق التحليل النقدى للخطاب عمليًا : التفسير والشرح، وموقع المحلل

يواصل هذا الفصل تقديم الإجراء اللازم للتحليل النقدى للخطاب، وكان الفصل الخامس قد عالج مرحلة التوصيف، وننتقل الآن إلى مرحلتى التفسير والشرح، اللتين سوف أناقشهما بهذا الترتيب. وسوف يُختتم الفصل ببعض المسائل الخاصة بالعلاقة بين المحلل والخطاب الذى يتولى تحليله. ولنبدأ بالعودة لإلقاء نظرة سريعة على العلاقة بين المراحل الثلاث التى رسمت خطوطها العريضة فى الفصل الثانى، لإنعاش ذاكرة القراء من ناحية، وتأكيد جوانب القصور فى الاكتفاء بالتوصيف من ناحية أخرى.

قلت فى الفصل الخامس إن المعالم الشكلية للنصوص ذات قيم خبراتية، أو علائقية، أو تعبيرية، أو ترابطية، أو أى عدد من هذه القيم، كما أقمت الروابط بين الثلاث الأولى من هذه القيم بالجوانب الثلاثة للممارسة الاجتماعية التى قد تخضع (وفق ما يقوله الفصل الثالث) لقيود السلطة (المضمون والعلاقات والذوات) وما يرتبط بها من آثار بنائية (فى المعارف والمعتقدات، وفى العلاقات الاجتماعية، والهويات الاجتماعية). ولكن المرء لا يستطيع، كما هو واضح، أن يستقرئ هذه المعالم الشكلية لنص من النصوص مباشرة حتى يستنبط تأثير هذه الأبنية فى تركيب مجتمع من المجتمعات! فالعلاقة بين النص والأبنية الاجتماعية علاقة غير مباشرة تعتمد على وسائط معينة. وأول هذه الوسائط جميعًا الخطاب الذى يشكل النص جزءًا منه، إذ إن قيم المعالم النصية لا تصبح حقيقة واقعة، وفاعلة فى المجتمع، إلا إذا كانت باطنة فى التفاعل الاجتماعى حيث يجرى إنتاج النصوص وتفسيرها فى إطار من الافتراضات القائمة على المنطق السليم (وهى جزء مما أسميته موارد الأعضاء) فإن هذه هى التى

تمنح المعالم النصية قيمها. وأما عمليات الخطاب المذكورة واستنادها إلى إطار الافتراضات القائمة على المنطق السليم (وهى جزء مما أسميته موارد الأعضاء) فإن هذه هى التى تمنح المعالم النصية قيمها. وأما عمليات الخطاب المذكورة واستنادها إلى إطار الافتراضات القائمة على المنطق السليم، فهى تنتمى إلى المرحلة الثانية من الإجراءات، أى مرحلة التفسير.

وأما الوسيط الثانى الذى تعتمد عليه هذه العلاقة فهو السياق الاجتماعى للخطاب، لأن ضروب الخطاب التى تحمل فى باطنها هذه القيم لا تستطيع أن تصبح حقيقة واقعة وفاعلة فى المجتمع هى الأخرى، إلا إن كانت تمثل حلقات من العمليات المؤسسية والمجتمعية للصراع، ولأن افتراضات الخطاب القائمة على المنطق السليم تتضمن أيديولوجيات تتفق مع علاقات معينة للسلطة. وأما علاقة ضروب الخطاب بعمليات الصراع وعلاقات السلطة فتنتمى إلى المرحلة الثالثة من الإجراءات، أى مرحلة الشرح.

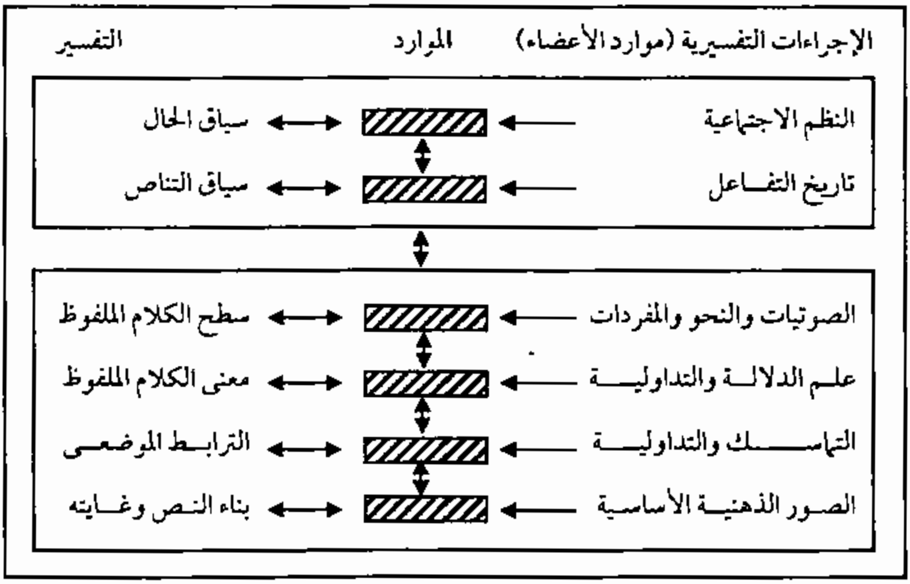
وهكذا فإذا كان اهتمام المرء مُنْصَبًّا على القيم الاجتماعية المرتبطة بالنصوص وعناصرها، وبالدلالة الاجتماعية للنصوص بصفة أعم، فلابد من استكمال التوصيف بالتفسير والشرح. ولاحظ أيضًا أن المشاركين فى الخطاب لا يدركون بوضوح، وبصفة عامة، اعتماد الخطاب على الافتراضات القائمة فى الخلفية، ولا الخصائص الأيديولوجية لهذه الافتراضات التى تربطها بضروب الصراع الاجتماعى وعلاقات السلطة . ومن ثم فلنا أن نعتبر التفسير والشرح إجرائين يطبقان على التوالى ابتغاء إماطة اللثام أو إزالة الغموض.

التفسير

أستخدم مصطلح التفسير باعتباره اسمًا لمرحلة من مراحل الإجراء المذكور، وأيضًا للدلالة على التفسير الذى يضعه المشاركون فى الخطاب للنصوص. وغايتى فى هذا تأكيد التماثل الجوهرى بين ما يفعله المحلل، وما يفعله المشاركون، وإن كانت توجد اختلافات أيضًا أناقشها فى آخر الفصل. وأما مرحلة التفسير فتتناول إنتاج المشاركين للنص وتفسير النص معًا، ولكننى أركز فى هذا الفصل على الجانب الأخير فقط. وسوف يتضمن الفصل السابع قدرًا من مناقشة عمليات الإنتاج.

رأينا فى الفصل الثانى أن التفسيرات تتولّد من خلال الجمع بين ما فى النص وما 'فى' داخل المفسر، بمعنى 'موارد الأعضاء' التى يستعين بها الأخير فى التفسير. ورأينا أيضًا أن المعالم الشكلية للنص تعتبر من وجهة نظر مفسر النص 'مفاتيح' تبث الحياة فى بعض عناصر 'موارد الأعضاء'، وأن التفسيرات تتولّد من خلال التفاعل الجدلى بين المفاتيح و'موارد الأعضاء'، ومن ثم فلنا أن نشير إلى هذه الموارد، من زاوية الدور الذى تقوم به فى المساعدة على توليد التفسيرات، بتعبير **الإجراءات التفسيرية**. وكثيرًا تسمى هذه الموارد باسم **المعارف الخلفية** أو الخلفية المعرفية، لكننى أعتقد أن هذه التسمية تفرض قيودًا لا لزوم لها، إذ لا تشمل الحجة التى أقمتها فى مناقشة الافتراضات القائمة على المنطق السليم فى الفصل الرابع، والتى تثبت أن الكثير من هذه الافتراضات أيديولوجية وهو ما يجعل كلمة المعارف مصطلحًا مُضَلِّلًا.

والشكل ٦ – ١ يقدم نظرة مختصرة لعملية التفسير التى سوف أخصص باقى هذا القسم لشرحها.



الشكل ٦ – ١ التفسير

فى العمود الأيسر من هذا الشكل، تحت عنوان التفسير، حددت ستة مجالات رئيسية للتفسير، فالمجالان الأولان فى القسم العلوى من الشكل البيانى يتعلقان بتفسير السياق، وأما الموجودة فى النصف السفلى فتتعلق بمستويات تفسير النص. وفى العمود الأيمن [وعنوانه الإجراءات التفسيرية (موارد الأعضاء)] قائمة بالعناصر الرئيسية لموارد الأعضاء وهى التى تقوم بوظيفة الإجراءات التفسيرية. وكل عنصر من عناصر هذه الموارد يرتبط بصفة محددة بمستوى التفسير الذى يقابله على الخط الأفقى داخل الشكل. وأما العمود الأوسط فيحدد نطاق الموارد التى ينهل منها كل مجال من مجالات التفسير على اليسار. ولاحظ أن هذه الموارد تتضمن فى كل حالة ما يزيد على الإجراء التفسيرى المبين فى العمود الأيمن، بمعنى وجود ثلاثة 'مدخلات' أو أربع فى كل 'خانة'. دعنى أبين بوضوح ما أعنيه فى العمودين الأيمن والأيسر، قبل أن أتطرق إلى 'الخانات'. وأبدأ بالقسم السفلى من الشكل البيانى، المتعلق بتفسير النص، وأحدد المستويات الأربعة وفق مجالات التفسير المبينة فى العمود الأيسر.

١- سطح الكلام الملفوظ. يتعلق هذا المستوى الأول من مستويات تفسير النص بالعملية التى يحول بها المفسرون سلاسل الأصوات أو العلامات فوق الورق إلى كلمات وعبارات وجمل يمكن التعرف عليها. وتحقيقًا لهذا عليهم أن ينهلوا من ذلك الجانب (من 'موارد الأعضاء' لديهم) الذى كثيرًا ما يشار إليه بتعبير 'معرفتهم باللغة'، وهو الذى قلت إنه يشتمل تحديدًا على 'الصوتيات والنحو والمفردات' فى العمود الأيمن. هذا المستوى لا يتصل اتصالًا خاصًا بموضوعنا، ولن أقول المزيد عنه.

٢- معنى الكلام الملفوظ. يتمثل المستوى الثانى من مستويات التفسير فى إضفاء معان على الأجزاء التى يتكون النص منها، وهى التى أطلق عليها 'الملفوظات'، مستخدمًا هذا المصطلح بمعنى فضفاض. ففى بعض الحالات، لا كلها، تتفق الملفوظات مع الجمل، أو مع 'مقولات' دلالية. وينهل المفسرون هنا من الجوانب الدلالية 'لموارد الأعضاء' لديهم، بمعنى الصور الممثلة لمعانى الألفاظ، والقدرة

على الجمع بين معانى الألفاظ والمعلومات النحوية والتوصل إلى المعانى المضمرة ابتغاء التوصل آخر الأمر إلى معانى المقولات بأكملها. كما ينهل المفسرون أيضًا من الأعراف التداولية داخل مواردهم، وهى التى تتيح لهم أن يحددوا أى فعل من أفعال الكلام يُستخدم الكلام الملفوظ فى 'أدائه'. وأما أفعال الكلام فأناقشها فى موقع لاحق من هذا القسم.

٣- الترابط الموضعى. وأما المستوى الثالث للتفسير فيقيم 'روابط المعنى' بين الملفوظات، بحيث ينتج (إذا أمكن ذلك) تفسيرات مترابطة بين كل ملفوظين أو عدد متوال من الملفوظات. ولك أن ترجع إلى مناقشة الترابط فى المعنى فى الفصل الرابع. ولكن المسألة هنا ليست مسألة علاقات ترابط 'شاملة' تربط أجزاء النص كلها بعضها بالبعض، أى مقالة صحفية كاملة أو محادثة تليفونية كاملة، على سبيل المثال، ولكنها تتعلق بعلاقات الترابط 'الموضعية' داخل جزء معين من أجزاء النص. وأما الترابط الشامل فيظهر فى الصورة فى المستوى التالى. وفى المستوى الثالث يعتمد المفسرون على 'معرفتهم باللغة' وهو ما يتعلق بالتماسك النصى الذى نوقش فى إطار السؤال الثامن فى الفصل الخامس. ولكن الترابط فى المعنى لا يمكن اختزاله فى التماسك الشكلى، فالمفسرون يستطيعون استنباط علاقات ترابط بين الملفوظات حتى فى غيبة مفاتيح التماسك الشكلية، استنادًا إلى الافتراضات المضمرة التى بيَّن الفصل الرابع أنها كثيرًا ما تكون ذات طابع أيديولوجى. وتعتبر العمليات الاستنباطية عمومًا من قضايا التداولية، ولذلك فإن تعريف التداولية فى الشكل ٦ - ١ يقول إنها عملية تفسيرية لهذا المستوى من مستويات التفسير والمستوى السابق أيضًا.

٤- بناء النص وغايته. تفسير بناء النص على المستوى الرابع يعنى أن يدرك المفسر كيف يرتبط النص كله بعضه بالبعض، أو ما أسميته آنفًا الترابط الشامل للنص. وذلك يعنى المطابقة بين النص وبين إحدى الصور الذهنية الأساسية المختزنة لدى المفسر، أو فلنقل إنها الصور التمثيلية لأنماط الخطاب المميزة والمرتبطة بأنماط

مختلفة من الخطاب. فما إن يقرر المفسر أنه بصدد محادثة تليفونية، مثلًا، حتى يعرف أن له أن يتوقع حدوث أشياء معينة وبترتيب معين (التحايا، تحديد موضوع المحادثة، تغيير الموضوعات، اختتام المحادثة، وكلمات الوداع). وأما أسميته 'غاية' النص فهو التفسير الموجز للنص – ككل – الذى يتوصل إليه المفسرون، وهو الذى عادة ما يختزن فى الذاكرة الطويلة الأجل، حتى يصبح متاحًا لمن يريد استرجاعه. والجانب الخبراتى لغاية النص يتمثل فى موضوعه الشامل، وأنا أفضل مصطلح الغاية على مصطلح الموضوع هنا باعتباره مصطلحًا عامًّا لأن غاية النص ذات جوانب علائقية وتعبيرية أيضًا. وسوف ترد أدناه مناقشات للغاية وللصور الذهنية الأساسية.

ولأنتقل الآن إلى القسم العلوى من الشكل البيانى، وهو الذى يتعلق (كما ذكرت آنفًا) بتفسير السياق. وأنا أفترض أن التفسير تفسير للسياق مثلما هو تفسير للنص، ولسوف أشرح افتراضى هذا وأبرره فيما بعد. فالواقع أن المفسرين يتوصلون إلى تفسيرات لسياق الحال اعتمادًا، إلى حد ما، على مفاتيح خارجية، أى على عالم الموقف المادى، وخصائص المشارك، وما سبق أن قيل، ولكنهم يعتمدون، إلى حد ما أيضًا، على بعض جوانب 'مواردهم الذاتية'، وهى التى يفسرون من خلالها هذه المفاتيح، وخصوصًا الصور الممثلة للنظم الاجتماعية – المجتمعية والمؤسسية – التى تسمح لهم بتحديد انتماء الحالات التى يوجدون 'فيها' فعلًا إلى أنماط حالات محددة. وصورة تفسير المشاركين للحالة هى التى تحدد أنماط الخطاب التى يقوم عليها التفسير، ويؤثر هذا بدوره فى طبيعة الإجراءات التفسيرية التى يتخذها مفسر النص. ولكن علينا أن نشير أيضًا إلى سياق التناص، فالمشاركون فى أى خطاب يستندون إلى افتراضات معينة بشأن أنواع الخطاب السابقة التى يرتبط بها الخطاب الراهن، وتحدد افتراضاتهم ما يمكن اعتباره معطيات أولية بمعنى كونه جزءًا من الخبرة المشتركة وجزءًا مما يقبل الإحالة إليه، أو الاختلاف معه، وهلم جرًّا.

فلننظر الآن فى 'الخانات' المظللة فى العمود الأوسط فى الشكل ٦-١، إذ إن الشكل يقصد أن يعتبر 'مضمون' كل خانة مزيجًا من شتى 'المدخلات' التى تبين الأسهم مصادرها. ولاحظ أولًا أن السهم الذى يربط كل خانة بمجال التفسير المبين إلى يساره سهم ذو رأسين، وهو ما يعنى أن التفسيرات السابقة تمثل جانبًا من جوانب الموارد المستخدمة فى التفسير، فى لحظة معينة من لحظات تفسير نص من النصوص، وأن هذا ينطبق على كل مجال من مجالات التفسير.

ولاحظ ثانيًا أن الخانات فى العمود الأوسط ترتبط فيما بينها رأسيًّا بأسهم مزدوجة الرؤوس، وهو ما يعنى أن كل مجال من مجالات التفسير ينهل من التفسيرات الخاصة بالمجالات الأخرى باعتباره جزءًا من 'مواردها'، وأعتقد أن هذا الاعتماد المتبادل واضح، إلى حد ما، بالنسبة لمستويات تفسير النص الأربعة. فأنت عند تفسيرك مثلًا لترابط المعنى الشامل و'غايته' فى نص من النصوص، تستفيد من تفسيراتك للترابط الموضعى لأجزائه، وتستفيد فى التوصل إلى هذه التفسيرات الأخيرة بتفسيراتك لمعانى الملفوظات، كما تستفيد فى التوصل إلى هذه أيضًا بتفسيرات الأشكال السطحية للملفوظات. ولكن الاعتماد المتبادل قائم أيضًا فى الاتجاه العكسى. فالمفسرون يتوسلون، مثلًا بتقديرات حدسية فى بداية تفسيرهم للنص بشأن بنائه النصى و'غايته'، ومن المحتمل أن تؤثر هذه التقديرات الحدسية فى المعانى المرتبطة بالملفوظات الفردية، وعلاقات الترابط الموضعية القائمة فيما بينها. ولنا أن نعبر بدقة عن هذا قائلين إن التفسيرات تتسم بخصيصة مهمة هى الجمع بين الانتقال من القمة إلى القاعدة (أى إن التفسيرات على المستوى الأعلى تشكل المستوى الأسفل) والانتقال من القاعدة إلى القمة.

وتماثل هذا العلاقة بين تفسيرات السياق وتفسيرات النص، إذ يضع المفسرون أحكامًا سريعة على ماهية السياق، ومن الممكن أن تؤثر هذه الأحكام فى تفسيرهم للنص، ولكن تفسير السياق يعتمد فى جانب منه على تفسير النص ويمكن أن يتغير فى أثناء تفسير النص.

وإذن فإن صورة التفسير التى نواجهها صورة مركبة إلى حد ما، وسوف أناقش فيما تبقى من هذا القسم، بمزيد من التفصيل، بعض جوانب ما يمثله الشكل ٦-١، بسبب

أهميتها الخاصة فى سياق هذا الكتاب، تحت العناوين التالية: سياق الحالة ونمط الخطاب؛ السياق المتناص والافتراضات المسبقة؛ أفعال الكلام؛ الصور الذهنية الأساسية، والأفكار ذات الصلة بهذه جميعًا مثل السيناريو، والإطار، والموضوع، والغاية.

سياق الحال ونمط الخطاب

سوف تستند مناقشة هذه القضية إلى الشكل ٦-٢ الذى يمثل 'بالرسم الصورى'، كيف يصل المفسرون إلى تفسيراتهم لسياق الحال وكيف يحدد ذلك القرارات الخاصة بنمط الخطاب المناسب للنهل منه. وأنا أفترض، ابتغاء التبسيط، أن كل تفاعل لا ينهل إلا من نمط خطاب واحد، على الرغم من أن ما قلته سلفًا ينفى ذلك فى الواقع، ويناقش الفصل السابع باستفاضة كيف يمكن لأحد التفاعلات أن ينهل من نمطين أو أكثر من أنماط الخطاب.

فلننظر إلى النصف الأسفل من هذا الشكل البيانى أولًا. فعلى الجانب الأيمن قدمت أربعة أسئلة تتعلق بالأبعاد الرئيسية الأربعة للحال: الذى يحدث، ومن الفاعل، وما العلاقات المطروحة، وما دور اللغة فيما يحدث؟ ولنا أن نعيد تقديم جانب من المقابلة الشخصية فى مخفر الشرطة، الواردة فى الفصل الثانى، لإيضاح هذه الأبعاد.

(١) رجل الشرطة : هل رأيت الذى كان فى السيارة؟

(٢) الشاهـــــدة: رأيت وجهه. نعم

(٣) رجل الشرطة: وما كان عمره؟

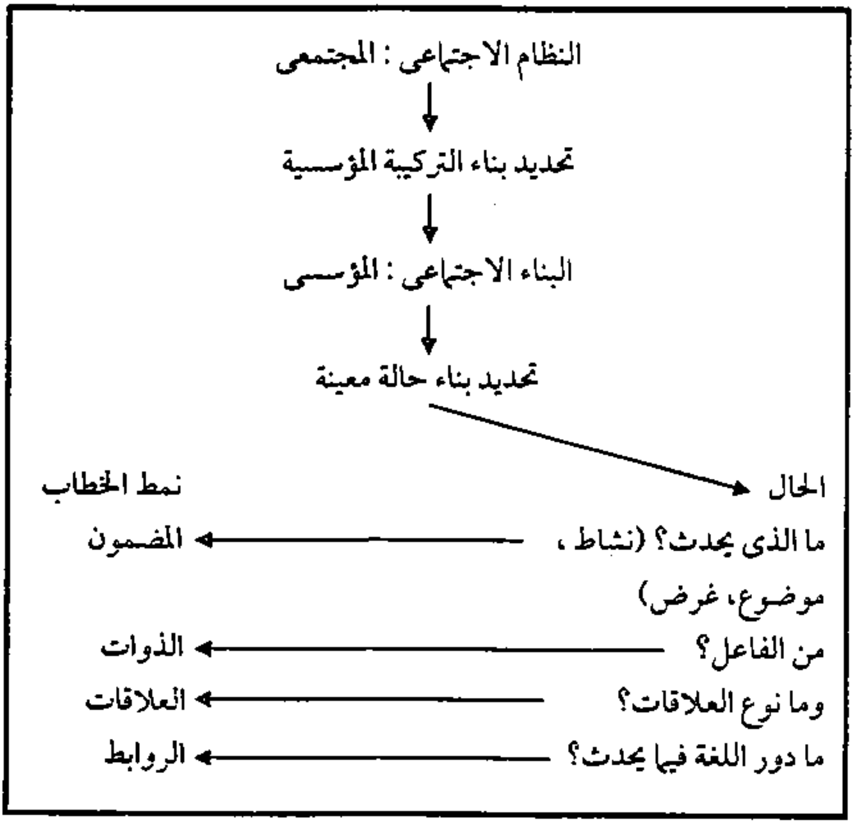
(٤) الشاهـــــدة: نحو ٤٥. وكان يرتدى...

(٥) رجل الشرطة: وما كان طوله؟

(٦) الشاهـــــدة: ست أقدام وبوصة.

(٧) رجل الشرطة : ست أقدام وبوصة. وشعره؟

(٨) الشاهـــــدة : أسود ومجعد.



الشكل ٦ – ٢ سياق الحال ونمط الخطاب

١ - "**ما الذى يجرى؟**" وضعت أقسامًا فرعية 'للذى يجرى' وهى النشاط، والموضوع، والغرض، ولا شك أننا نستطيع وضع أقسام أدق، ولكن هذه كافية لما نحن بصدده. أما الأول فهو الأعم الأشمل، إذ يسمح لنا بتحديد الموقف من حيث انتماؤه إلى نمط واحد من أنماط النشاط، أو الفئات المتميزة للنشاط، وهى التى ندرك تميزها داخل نظام اجتماعى محدد فى مؤسسة معينة، ولهذه المؤسسة أبنية نصية كبيرة من النوع الذى أشرت إليه فى إطار السؤال العاشر من الفصل الخامس. فعلى سبيل المثال، من شأن أنماط النشاط فى العمل الشرطى أن تتضمن القبض على أحد الأشخاص، وتقديم تقرير، وإجراء مقابلة شخصية مع شاهد من الشهود، وفحص أحد المشتبه بهم وهلم جرًّا. ونمط النشاط فى هذه الحالة إجراء مقابلة

شخصية مع الشاهدة. ومن المحتمل أن يفرض نمط النشاط قيودًا على مجموعة الموضوعات التى يمكن تناولها، وإن كان هذا لا يعنى أنه من الممكن التنبؤ بصورة آلية بتلك الموضوعات فى ضوء معرفتنا بنمط النشاط. وأما الموضوع هنا فهو وصف الشخص الذى زُعِمَ ارتكابُهُ للجريمة. وعلى غرار ذلك ترتبط أنماط النشاط أيضًا بأغراض معترف بها من الزاوية المؤسسية. والغرض الرئيسى فى هذه الحالة هو الحصول على أوصاف وروايات للجريمة المزعومة وتوثيقها (وتذكَّرْ أن رجل الشرطة يقوم بتعبئة استمارة معينة أثناء المقابلة الشخصية).

٢- "من الفاعل؟" الواضح أن السؤالين 'من الفاعل' و'ما نوع العلاقات' يرتبطان ارتباطًا وثيقًا، وإن كانا من الزاوية التحليلية منفصلين. ففى حالة السؤال الأول يحاول المرء يحدد مواقع الذوات التى أنشئت، وتختلف مواقع الذوات الناشئة وفقًا لنمط الحالة. ومن المهم أن نشير إلى أن مواقع الذوات تتسم بتعدد أبعادها، إذ يرجع أحد الأبعاد أولًا إلى نمط النشاط، وهو فى هذه الحالة مقابلة شخصية، والمقابلات الشخصية تتضمن مواقع ذوات لمن يتولى إجراءها (فردًا كان أو أكثر) ولمن تجرى المقابلة معه. وثانيًا نجد أن المؤسسة تنسب هويات ثقافية للذوات العاملين فى داخلها، ولدينا فى هذا المثال 'رجل شرطة' و'فرد من أفراد الجمهور'، وهو أيضًا 'شاهد'، ومن المحتمل أن يكون ضحية. ونجد ثالثًا أنه إذا اختلفت الحالة اختلفت مواقع الحديث والاستماع المرتبطة بها، أى مواقع المتكلم والمخاطب، ومن يستمع عرضًا لما يقال، والمتحدث باسم المؤسسة وهلم جرًّا، ولدينا فى هذا المثال دوران للمتكلم والمخاطب متناوبان بين رجل الشرطة والشاهدة.

٣- "وما نوع العلاقات؟" إذا كان الأمر خاصًا بمسألة العلاقات كان علينا أن نزيد من دينامية النظرة إلى مواقع الذوات حتى نتبين أنواع علاقات السلطة، والمسافة الاجتماعية وغيرها مما تنشئه الحالة وتجسده. وفى المثال المذكور نهتم عادة بطبيعة العلاقات القائمة بين أفراد الشرطة وأفراد 'الجمهور'، فنلاحظ مثلًا أن استكمال

المهمة من حيث الإجراءات الرسمية يبدو أشد إلحاحًا فى عينى الشرطى الذى يجرى المقابلة من التعاطف مع مشاعر الشاهدة التى شهدت لتوها جريمة تتسم بالعنف.

٤- "ما دور اللغة؟" تُستخدم اللغة باعتبارها أداة من أدوات تحقيق هدف مؤسسى وبيروقراطى واسع الإطار، فهى تستعمل للحصول على معلومات معينة من الشاهدة، وهى المعلومات اللازمة لملء استمارة رسمية تعتبر من وثائق القضية. ولا يقتصر دور اللغة من هذه الزاوية على تحديد نمطها، بمعنى أن نمط المقابلة المذكورة أسلوب واضح للحصول على المعلومات اللازمة، ولكنه يحدد 'القناة' الخاصة بها، أى إذا كان المستخدم هنا لغة منطوقة أو مكتوبة. فأحيانًا ما يتخذ الحصول على مثل هذه المعلومات البيروقراطية شكل اللغة المكتوبة، إذ يُطلب من الأشخاص أن يملأوا الاستمارات بأنفسهم. ولما كان الواقع فى هذا المثال مختلفًا عن الشكل الأخير، أى لما كان إجراء ملء الاستمارة قد تعقد بسبب إجراء المقابلة الشخصية، فإنه يدل على درجة السيطرة التى تمارسها الشرطة على جميع جوانب القضية، بمعنى أن المعلومات التى تدلى بها الشاهدة لن تتمتع بالصحة رسميًا إلا بالشكل الذى تقوم فيه الشرطة بدور الوسيط ودور من يتحقق من صحتها.

وأنا أضع فى الجانب الأيسر من الجزء السفلى للشكل البيانى ٦-٢ أربعة أبعاد رئيسية لنمط من أنماط الخطاب، بالمعنى الذى ذكرناه وهو مجموعة الأعراف الأساسية الخاصة بأحد أنظمة الخطاب المذكورة. فأما الثلاثة الأولى منها فهى مألوفة، أى إن نمط الخطاب تتجسد فيه قيود معينة على المضمون، وعلى الذوات، وعلى العلاقات، أو على المعانى الخبراتية والتعبيرية والعلائقية التى ينشئها هذا النمط. وأما الذى يبينه الشكل فهو أن هذه الأبعاد الخاصة بنمط الخطاب (الذى يرتبط عُرْفيًا بنمط معين من أنماط الحالة) تتشكل وفقًا لأبعاد الحالة التى أشرت إليها لتوّى، أى إن المضمون يشكله ما يجرى، والذوات يشكلها الفاعل (أو الفواعل)، والعلاقات تشكلها العلائق فيما بين الذوات. ويضاف إلى هذا بُعد رابع، وهو الروابط، والذى يحدده دور اللغة فيما يجرى،

وتتضمن الروابط أساليب ارتباط النصوص بسياقات الحالات التى تقع فيها وأساليب الارتباطات القائمة بين أجزاء نص من النصوص (بما فى ذلك ما أشرنا إليه باسم 'التماسك' بين الجمل) وتتغير هذه الأساليب وتلك ما بين أنماط الخطاب.

والواقع أن تحديد نوع الخطاب الذى يُعْتَمَدُ عليه فى إنتاج النصوص وتفسيرها فى أثناء أى تفاعل، وهو التحديد الذى تتحكم فيه كل حالة على حدة، يتحكم بدوره فى عناصر الموارد الذاتية [أى الخبرات الشخصية] التى يستعين بها الفرد فى تفسير النصوص، على نحو ما يبينه الشكل ٦-١. ولنا أن نتصور أن نمط الخطاب يعتبر معنىً ممكنًا إذا استعرنا مصطلح عالم اللغة مايكل هاليداى، إذ يقول إنه يُعَدُّ تجميعًا خاصًّا مقيَّدًا للمعانى الممكنة خبراتيًّا وتعبيريًّا وعلائقيًا وترابطيًّا. كما إن بعض عناصر الموارد الذاتية التى يستعان بها بصفتها مبادئ تفسيرية، تختص بنمط الخطاب المذكور وحده، وكذلك بتحقيق المعنى الممكن: المفردات، والعلاقات الدلالية، والأعراف التداولية، إلى جانب الصور الذهنية الرئيسية، والأطر، والنصوص الخاصة.

فلننظر الآن إلى قمة الشكل ٦ – ٢. وأول ملاحظة لنا هنا تقول إن تحليل حالة من الحالات من حيث الأبعاد الأربعة المشار إليها آنفًا للحالة يتوقف على التفسير. فلا المعالم الظاهرة للحالة المادية، ولا النص الذى سبق وضعه، يستطيعان بأنفسهما تحديد سياق الحالة، على الرغم من أنهما من المفاتيح المهمة التى تساعد المفسر على تفسير ذلك السياق. فالمفسر يجمع بين 'قراءة' هذه المفاتيح وبين أحد عناصر 'موارده الذاتية' وعلى ضوء هذا العنصر نفسه، ألا وهو عنصر النظم الاجتماعية التى يستعين بها فى التفسير، أى الصور المحددة التى تبين كيفية تنظيم 'الحيز الاجتماعى' والتى يختزنها المفسر فى 'موارده الذاتية'. والنظام الاجتماعى نوع من البناء الرمزى لأنماط الحالة الاجتماعية، وينحصر التفسير فى تخصيص نمط معين منها لحالة من الحالات الاجتماعية. ولك أن ترجع إلى المناقشة السابقة للنظم الاجتماعية فى الفصل الثانى.

ولنا أن نتصور حدوث ذلك على مرحلتين. ففى المرحلة الأولى التى يمثلها السطران العلويان فى الشكل البيانى، يصل المفسر إلى تحديد التركيبة المؤسسية، والقطع

فى أمر المجال المؤسسى الذى يحدث فيه التفاعل، استنادًا إلى النظام الاجتماعى المجتمعى فى 'موارده الذاتية'. ومعنى هذا أن النظام الاجتماعى المجتمعى يقسم الحيز الاجتماعى الشامل إلى أحوزة مؤسسية كثيرة، ولابد من وضع أية حالة فعلية فى قسم مؤسسى معين وفق هذا التقسيم. وفى المرحلة الثانية، التى يمثلها السطران الثالث والرابع فى الشكل البيانى، يصل المفسر إلى تحديد إطار الحالة، أو البت فى إطار نمط الحالة الذى يحدث التفاعل فيه استنادًا إلى النظام الاجتماعى المؤسسى الذى اختاره فى المرحلة الأولى. وهكذا فكل نظام اجتماعى مؤسسى يقسم الحيز المؤسسى إلى أنماط كثيرة من الحالات، وكل حالة فعلية يرمز لها بفئة من هذا البناء للأنماط (أو على الأقل من حيث علاقتها بهذه الفئة).

قلت فى الفصل الثانى إن نظام الخطاب يمثل بُعدًا من أبعاد أى نظام اجتماعى، سواء كان مجتمعيًا أو مؤسسيًا. ومن ثم فعندما يحدد المرء نمط حالة ما فى إطار أى نظام اجتماعى، فإنه يحدد نمطها أيضًا فى إطار نمط معين من أنماط الخطاب بناءً على نظام الخطاب الذى ترتبط به. وقد بينت هذا الازدواج فى الانتماء للأنماط فى الشكل ٦ – ٢ بصورة توحى بأن تحديد نمط الحال يسبق تحديد نمط الخطاب، وعلى الرغم من أن هذا التصور مفيد فى التحليل، فالواقع أن هذا وذاك متزامنان. كما يوحى الشكل ٦-٢ أيضًا بأن البت فى قيم كل بعد من الأبعاد الأربعة للحالة خطوة مستقلة عن غيرها وأن كل بُعْد يتولى وحده اختيار القيم الكامنة فى البُعْد الخاص بنمط الخطاب الذى يقابله. وأقول من جديد إن هذا التصور يفيد فى التحليل، ولكن كل نظام اجتماعى مؤسسى ينشئ عددًا صغيرًا نسبيًا من المُركَّبات العرفية للقيم الخاصة بأبعاد الحالات وهى المركَّبات التى تعتبر أنماط حالات معترفًا بها؛ كما يمكننا أن نعتبر أن كل نمط من أنماط الحالة يمثل فى جانب منه نمطًا من أنماط الخطاب، وهو مجموعة من القيم العرفية الخاصة بالأبعاد الأربعة لأنماط الخطاب.

سبق أن أقام الفصل الثانى الحجة على الصلة التى تربط ما بين النظم الاجتماعية ونظم الخطاب من ناحية، وبين أيديولوجيات معينة وعلاقات سلطة محددة من ناحية

أخرى. ومما يترتب على ذلك أن الحالات قد يختلف تفسيرها إذا اختلف المفسرون واستندوا إلى نظم اجتماعية مختلفة باعتبارها إجراءات تفسيرية. وأمثال هذه الاختلافات مألوفة عبر الثقافات، ومن المحتمل أن تكون من وراء حالات سوء التواصل أو انهيار الاتصال فيما بين المنتمين إلى ثقافات مختلفة (انظر الفصل الثالث). ولكن هذا وذاك يحدثان أيضًا داخل كل ثقافة من الثقافات بين المواقع الأيديولوجية المختلفة. ومعنى هذا أننا لا نستطيع وحسب أن نتجاهل السياق، أو نفترض أنه ذو شفافية تجعله متاحًا لجميع المشاركين عندما ندفع بأهمية دور السياق فى تفسير النص أو إنتاجه، بل علينا أن نحدد فى كل حالة ما يستند إليه عمل المفسرين من تفسير لسياق الحالة، وأن نفصل فيما إن كانوا يشتركون فى تفسير واحد أم لا. وعلينا أيضًا أن نعى كيف يمكن فرض تفسير مشارك يتمتع بسلطة كبرى على المشاركين الآخرين.

ومن العواقب الأخرى لذلك أن الأيديولوجيات وعلاقات السلطة التى تقوم عليها هذه الأيديولوجيات تؤثر تأثيرًا عميقًا ونفاذًا فى تفسير الخطاب وإنتاجه، إذ إنها راسخة فى باطن الإجراءات التفسيرية – النظم الاجتماعية – التى تمثل الأساس لأعلى مستوى من مستويات القرار التفسيرى الذى يعتمد عليها غيرُها ويتلخص فى إجابة سؤالك ما الحالة التى أواجهها؟ وقد تأكد هذا التأثير نتيجة للأبحاث الحديثة التى أجريت فى طبيعة تركيب الخطاب، إذ بينت أن سياق الحال عامل يتحكم فى التفسير تحكمًا أكبر كثيرًا مما كان متصورًا. فليس صحيحًا، على سبيل المثال، أن التفسير يتكون أولًا من حساب 'المعانى الحرفية' للجمل فى نص من النصوص، ويتلوه تعديل لهذه المعانى على ضوء السياق، على نحو ما كان مفترضًا (ولايزال) فى أحيان كثيرة. فالواقع أن المفسرين يعملون من البداية وفق مفترضات معينة عن السياق (وهى التى يمكن أن تخضع لتعديلات لاحقة) وهذه تؤثر فى أسلوب تحليل المعالم اللغوية للنص نفسها، بحيث لا يخلو تفسير لنص من النصوص من صورة ذهنية للسياق الخاص به. ويعنى هذا أن القيم التى تتمتع بها المعالم المعينة للنص تعتمد على تحديد المفسر للنمط الذى ينتمى إليه سياق الحالة.

والنتائج المضمرة فى اعتماد التفسير اعتمادًا جذريًا على سياق الحال قد تكون مزعجة إلى حد ما للغويين الذين اعتادوا اعتبار المعنى خصيصة لغوية محضة فى الأشكال اللغوية نفسها. ويتمثل أحد ردود الفعل المفهومة فى محاولة تضييق حدود السياق، أى ضغط المساحة الشاسعة التى يشغلها. ولكن الذى قلته لتوى يترتب عليه أن يتضمن سياق الحال الخاص بكل خطاب، مهما يكن، نظام العلاقات الاجتماعية والسلطوية على أعلى مستوى مجتمعى. ومثلما دأبت التقاليد على اعتبار الجملة، حتى ولو كانت جملة واحدة، قادرة على الإيحاء بلغة كاملة، فإن الخطاب المفرد يوحى بمجتمع كامل. والسبب أن نظم التصنيف والتنميط للممارسة الاجتماعية والخطاب التى يعتمد عليها كل شىء آخر – ما دَرَجْتُ على تسميته النظم الاجتماعية ونظم الخطاب – تتشكل فى الأرحام المجتمعية والمؤسسية لذلك الخطاب المفرد.

سياق التناص والافتراضات السابقة

لكل خطاب وكل نص يقع فى إطاره تاريخ، فهما ينتميان إلى سلسلة زمنية، وتفسير سياق التناص يعنى تحديد السلسلة التى ينتمى إليها النص، ومن ثم ما يمكن اعتباره أساسًا مشتركًا للمشاركين، أو افتراضًا سابقًا. ومثلما رأينا فى مسألة سياق الحالة، قد يصل المشاركون فى الخطاب إلى تفسير واحد تقريبًا أو إلى تفسيرات مختلفة، وقد يُفرض تفسير المشارك ذى السلطة الكبرى على الآخرين. وهكذا فإن التمتع بالسلطة قد يعنى القدرة على تحديد الافتراضات السابقة.

ليست الافتراضات السابقة من خصائص النصوص بل إنها تمثل جانبًا من جوانب تفسيرات منتجى النصوص لسياق التناص. وكانت رغبتى فى توكيد هذه المسألة من وراء إرجائى مناقشتها حتى الآن، وعدم إدراجها فى المرحلة الوصفية فى الفصل الخامس. لكننا نستطيع الوصول إلى الافتراضات المسبقة من طريق مفاتيحها فى النصوص، وتتضمن مفاتيحها عددًا كبيرًا من المعالم اللغوية المنوعة. وقد سبقت الإشارة إلى اثنين منها فى إطار السؤال الثامن فى الفصل الخامس، وهما أداة التعريف والجمل التابعة أو الثانوية. ومن المعالم الأخرى العبارات التى تبدأ بأدوات الاستفهام (من/ ماذا/ متى/ أين / لماذا/ كيف/ أى) والعبارات التكميلية بعد أفعال وصفات

معينة (يأسف، يدرك، يشير، يعى، يغضب إلخ ومشتقاتها الوصفية). [معنى العبارة التكميلية العبارة التى يمكن أن يستكمل بها المعنى وتتخذ صورة إضافة يمكن أيضًا أن تحذف][*] والمقتطف التالى يتضمن أنواعًا كثيرة من المفاتيح، وهو مقتطف من خبر منشور فى إحدى المجلات النسائية عن زفاف سارة فيرجسون إلى الأمير أندرو، واسم الكاتبة برندا ماكدوجال:

ألم يكن يومًا جميلًا؟

أشرقت الشمس، واحتشدت الجماهير بشتى ألوانها، وفى قلب ذاك كله رأينا سارة وأندرو، ينشران سعادتهما فى كل اتجاه حتى جعلاه يومًا لا ينسى... لهما ولنا.

وكنت قد شاهدت فى الليلة التى سبقت الزفاف، تلك المقابلة التليڤزيونية الساحرة، وربما شاهدها نصف سكان الأرض، وأذهلنى اكتمال علاقتهما. كيف كانا يتكاملان، فى الروح الفكهة، وفى ابتهاج كل منهما بشخصية الآخر، وفى التزامهما بالمستقبل. كان من الواضح أن سارة تدرك مقتضيات دورها الجديد باعتبارها زوجة بحار ودوقة ملكية، مع احتفاظها فى الوقت نفسه بحياتها العملية. لا شك أن ذلك أمر فريد فى تاريخ الأسرة المالكة، ولكن ما أشد تناغمه مع الحياة المعاصرة وعلاقاتها.

النص ٦ - ١ المصدر مجلة المرأة الأسبوعية، ٩ أغسطس ١٩٨٧

وتتضمن الافتراضات السابقة فى هذا المقتطف أن اليوم كان جميلًا، وأن الجماهير كانت زاهية الألوان، وأنها كانت سعيدة، وأن المقابلة التليڤزيونية كانت ساحرة، وأن علاقة الزوجين كانت كاملة، وأنهما متكاملان، ويستمتع كل منهما بشخصية الآخر،

(*) ففى المثال الذى أورده المؤلف يمكن للكاتب أن يقول إن فلانًا كان يعبر عن أسفه، وهذه جملة مفيدة ولكن لك أن تُلحق بها جملة تكميلية تقول 'لانخفاض مستوى استعمال الفصحى فى التعليم'، فهذه تستكمل المعنى وإن كان يمكن حذفها شكليًا، ويسمى هذا استكمالًا (complementarisation) وعادة ما تبدأ الجملة الاستكمالية بحرف (that) مثل (He said he was sorry that...).

ويلتزمان بالمستقبل، وأن الدور الذى اضطلعت به له مطالبه، وأن لها حياة عملية خاصة بها. والفقرة فذة فى مقدار الافتراضات السابقة، وبسبب طبيعة الموضوع وعدد الذين شاهدوا الزفاف فى التليفزيونية، كان من المحتوم أن تنقل الفقرة إلى معظم الناس على الأقل ما يعرفونه سلفًا، أى أن تقدم إلى الناس شذرات مما يُفترض أنه نصوص سابقة اطَّلعوا عليها بصفتهم من مشاهدى التليفزيون، أو مستمعى الإذاعة أو قراء الصحف.

أو بالأحرى يقصد النص أن يخبر الناس بما يعرفونه سلفًا، والواقع أن أمثال هذه النصوص 'الإعلامية' تجعل من المحال على الكاتب أن يعرف خبرات القراء الفعلية بنصوص أخرى، وعليه من ثم أن يبنى لنفسه 'قارئًا مثاليًّا' يتمتع بخبرات متناصة خاصة. ولا يوجد بطبيعة الحال ما يضمن أن النصوص التى يفترض الكاتب اطلاع قرائه عليها قد وُجدت خارج خيال منتج النص! وهكذا فإن منتجى النصوص فى أجهزة الإعلام لديهم وسيلة فعالة للتلاعب بالجماهير، وذلك بأن ينسبوا إلى خبراتها ما يريدون لها أن تقبله. ولما كانت الفقرة لا تصرح بمقولاتها المقصودة، فإن الناس أحيانًا ما يصعب عليهم تحديدها، ورفضها إذا شاءوا.

وهكذا فإن الافتراضات السابقة يمكن أن تكون صادقة أو متلاعبة، ولكنها قد تكون لها وظائف أيديولوجية، فما يفترضه منتج النص قد يكون فى عداد "المنطق السليم فى خدمة السلطة"، وفق ما جاء فى الفصل الرابع. ومن الأمثلة على ذلك تعبيرات مثل 'التهديد السوفييتى'، وهى التعبيرات التى تتكرر كثيرًا فى الموضوعات الصحفية، مثلًا، ومن الممكن أن تساعد على تطبيع مقولات مثيرة للخلافات الحادة، من خلال تراكمها، بمعنى أنها تغدو افتراضات سابقة، والافتراض السابق فى هذه الحالة أن الاتحاد السوفييتى يمثل تهديدًا (لبريطانيا أو لأوروبا أو للغرب). ومثل هذه الافتراضات السابقة لا تستدعى إلى الذهن نصوصًا معينة أو سلاسل نصوص، ولكنها تُنسب إلى خبرات القراء النصية بأسلوب غامض، فإذا كانت الافتراضات السابقة تُشتَقّ أحيانًا من نصوص محددة، فإنها تستند فى حالات أخرى وبأسلوب عام إلى 'الخلفية المعرفية'.

ويستطيع منتجو النصوص أيضًا، إلى جانب افتراض وجود عناصر السياق المتناص سلفًا، أو يبدوا اختلافهم مع هذه العناصر أو الطعن فى صحتها. ومن الوسائل المهمة لتحقيق ذلك استخدام صيغة النفى فى النص ٦-٢، وهو مقال منشور فى مجلة للمراهقين.

لن ينجح أى مقدار من معدات التجميل ولوازم الشعر فى تحويلك إلى فتاة ذات جمال باهر إن لم تكن أسنانك على ما يرام. وليس من دواعى الفخر أن تكونى قد امتنعت عن زيارة طبيب الأسنان فى السنوات الخمس الماضية، لكنه يعنى أنك تطلبين المتاعب وحسب. ليس العلاج مساويًا لقضاء أسبوع فى الاستماع إلى أغانى نانا موسكورى، ولا يتمثل عمل طبيب الأسنان فى رؤيتك لكوابيس أو التسبب فى إيلامك دونما داع. والكشف المنتظم على الأسنان أفضل خيار، فالوقاية خير من العلاج! إن لم تكونى ذهبت إلى طبيب الأسنان دهرًا طويلًا فتشجعى وحددى موعدًا للزيارة، فقيمته مؤكدة! لقد نشرت المؤسسة البريطانية لصحة الأسنان سلسلة من الكتيبات المفيدة عن العناية بالأسنان، ومن بينها معلومات عن طرابيش الضروس، وأمراض اللثة، وصحة الفم، والسكر، واختيار طبيب أسنان، وهى معلومات جديرة بالاطلاع عليها. للحصول على نسخة مجانية من أى كتيب، أرسلى ظرفًا عليه عنوانك إلى المؤسسة البريطانية لصحة الأسنان، وعنوانها

88 Gurnards Avenue, Unit2, Fishermead, Milton Keynes, Bucks

النص ٦ – ٢ المصدر مجلة بلوچينز، العدد ٤٨٨، ٢٤ مايو ١٩٨٦

يتكون هذا المقال من سلسلة من المقولات معظمها منفية. ولكن ما الدافع من وراء هذه المقولات المنفية جميعًا ما دام فى مقدور الكاتب التعبير عن مقصده بمقولات مثبتة؟ الواضح أن الكاتب يستخدم النفى للتعبير ضمنا عن اختلافه مع المقولات المثبتة

المقابلة (العلاج يعادل الاستماع إلى أغانى نانا موسكورى أسبوعًا كاملًا... إلخ) ولكن هذا عجيب ما دامت تلك المقولات المثبتة لم يقل بها أحد، وما دام القول بها غير متصل بهذا الخطاب بأية صورة من الصور. وأما ما يبدو أن الكاتب يفترضه فعلًا فهو أن هذه المقولات يمكن العثور عليها فى نصوص سابقة تقع فى إطار خبرة القراء. ويمكن أن يكون النفى، مثل الافتراضات المسبقة، صادقًا أو متلاعبًا أو أيديولوجيًّا.

وهذا المقتطف يعتبر ضربًا من الحوار بين منتج النص و(منتجى) غيره من النصوص التى تعتبر جزءًا من سياق التناص. والافتراضات السابقة تضفى صفة حوارية مماثلة مع نصوص أخرى، وإن تكن 'ديناميتها' أقل. ولما كانت النصوص مشتبكة على الدوام مع بعضها البعض فى علاقات تناص، فلنا أن نقول إنها دائمًا 'حوارية'، وهى الصفة التى يشار إليها أحيانًا تحت عنوان عام هو التناص.

ومفهوم السياق التناصى يقتضى منا النظر إلى ضروب الخطاب وإلى النصوص من زاوية تاريخية، على عكس الموقف المعتاد فى الدراسات اللغوية، وهو الذى يقول بإمكان تحليل النص من دون الإحالة إلى غيره من النصوص، وبعد تجريده من سياقه التاريخى. ويقوم الفصلان التاليان فى هذا الكتاب على القول بمثل هذا المنظور التاريخى. فالفصل السابع يدور حوله النظرة إلى النص باعتباره من إنتاج منتج يستمد مادته من مزيج من نمطين أو أكثر من أنماط الخطاب – أى من عرفين أو تقليدين أو أكثر – باعتبار ذلك أداة للانتفاع الإبداعى بموارد الماضى فى تلبية مقتضيات الاتصال المتغيرة للحاضر. وأما الفصل الثامن فيتضمن نطاقًا زمنيًّا أطول، إذ يبحث كيف تتجلى الفترات التاريخية فى تحولات نظم الخطاب، وكيف تشكل هذه التحولات، من جانب معين، تلك الفترات التاريخية.

أفعال الكلام

تعتبر أفعال الكلام جانبًا رئيسيًّا من جوانب التداولية، وهى الخاصة بالمعانى التى ينسبها المشاركون فى الخطاب إلى عناصر أحد النصوص استنادًا إلى 'مواردهم الذاتية' وتفسيراتهم للسياق، وهى التى تمثل جزءًا من المستوى الثانى لتفسير النص فى الشكل

٦-١. ومن ثم فإن الخصائص التداولية (أو معانى) النص ليست شكلية ولا تنتمى إلى مرحلة التوصيف للإجراءات الواردة فى الفصل الخامس، بل إلى هذه المرحلة.

كنت أشرت إلى أفعال الكلام فى مواقع معينة فى الفصول السابقة دون أن أشرح ما أعنيه بهذا المصطلح. فالقول بأن أحد أجزاء النص يمثل فعلًا من أفعال الكلام، يعنى أنه يحدد الوظيفة التى يؤديها منتج النص من خلال إنتاجه له، أى: هل يخبر عن شىء، أم يقدم وعدًا، أم يتوعد أم يحذر أم يطرح سؤالًا أم يصدر أمرًا وهلم جرًّا. ومن الممكن أن يؤدى منتج النص عدة أشياء فى الوقت نفسه، وهكذا قد يكون لعنصر مفرد عدة قيم من قيم أفعال الكلام، وهى قيم من المحال تخصيصها استنادًا إلى المعالم الشكلية لقول ما وحسب، فعند تخصيص القيم يأخذ المفسرون فى اعتبارهم السياق النصى لهذا القول (ما يسبقه وما يتلوه فى النص) وسياق الحال وسياق التناص له، وعناصر 'الموارد الذاتية'.

وعلى سبيل المثال، يشير من كتبوا عن خطاب قاعة الدرس إلى أن بعض الجمل الإخبارية والأسئلة النحوية التى يقولها المعلم قد تكتسب عند التلاميذ قيمة فعل أمر من أفعال الكلام إذا كانت تشير إلى عمل أو نشاط يلتزم التلاميذ بأدائه. ومن الأمثلة قول المعلم "الباب لايزال مفتوحًا" أو قوله "هل أغلقتم الباب". وقاعات الدرس التى يصفها هؤلاء الكتاب تقليدية إلى حد بعيد من حيث علاقات المعلم بالتلاميذ، كما إن الأوامر غير المباشرة التى توحى وحسب بالمطلوب تتسم بعلاقة سلطة قاطعة. وأما فى قاعات الدرس الليبرالية، حيث تسود أنماط خطاب ذات أيديولوجية مختلفة، فربما لم نسمع مثل هذه الأوامر الموحى بها، وإن نطق المعلم بها فربما لم يعتبرها التلاميذ أوامر (أو لم يعتبروها أوامر بالسهولة نفسها)، ولا شك أن اعتبارها أوامر أقل احتمالًا فى مراحل التعليم العالى أو اللاحق. والهدف الرئيسى الذى أرمى إليه أن تحديد قيم فعل الكلام أو 'القوى' الكامنة فى هذه الأمثلة يقتضى منا أن نعرف نوع سياق الحالة التى تصدر فيها الأقوال، ومن ثم تحديد أنماط النصوص العاملة. وأما شكل القول نفسه فلا يكاد يطلعنا على شىء.

لقد أشرت إلى الأوامر غير المباشرة. ولكن أفعال الكلام يمكن التعبير عنها تعبيرًا مباشرًا نسبيًّا (فعبارة أغلق الباب على سبيل المثال أمر) أو تعبيرًا غير مباشر نسبيًّا، مع تفاوت درجات غير المباشرة. وتختلف أنماط الخطاب فى أعرافها الخاصة بالتعبير المباشر عن أفعال الكلام، وترتبط هذه الاختلافات عمومًا بدرجة تمثيلها للعلاقات الاجتماعية التى تنطوى عليها. فالأوامر أو الطلبات غير المباشرة، على سبيل المثال، قد توجد فى المثال الوارد أعلاه حيث تتضح علاقات السلطة وضوحًا لا يلزم المعلم بأن يكون مباشرًا. وعلى العكس من ذلك، قد توجد فى المواقف التى تكون فيها سلطة الآمر أقل من سلطة المأمور، أو أن يكون المأمور غريبًا لا يطلب منه عادة تنفيذ أمثال هذه الأوامر، وهكذا تكون الصيغة غير المباشرة وسيلة لتخفيف وقع الأمر عليه. ومن جديد نرى أن هذه القيم البديلة المرتبطة بالصيغ غير المباشرة تؤكد أن تحديد قيم أفعال الكلام يتوقف على سياق الحالة ونمط الخطاب.

ولنضرب على هذا مثالًا آخر من الدورين الأولين (سؤال وجواب) من المقابلة الشخصية فى مخفر الشرطة الواردة فى الفصل الثانى ولابد أن القارئ يذكرها:

الشرطى: هل رأيت الذى كان فى السيارة؟

الشاهدة: رأيت وجهه. نعم.

إن سؤال الشرطى مباشر إلى حد كبير. ومع ذلك فلن نستطيع أن ننسب إليه قيمة إلا إذا أحلناه إلى قائمة الخيارات التى يمثل أحدها فى إطار نمط الخطاب العامل هنا، وهو فى هذه الحالة نمط خطاب المقابلات الشخصية بين الشرطة والشهود بهدف الحصول على المعلومات. والاختيار فى هذه الحالة غير مميز فى إطار نظام الخيارات المرتبطة بأفعال الكلام '**الأمرية**' [أى التى تتضمن الأمر بشىء] وقولى غير مميز يعنى أنه يخلو من فظاظة واضحة أو تلطف واضح.

ومن الممكن أن يعتبر الشكل المباشر نفسه للسؤال ذا فظاظة فى نمط خطاب مختلف، أى فى حلقة دراسية جامعية مثلًا. وطريقة إجابة الشاهدة عن السؤال تعتمد هى الأخرى على نمط الخطاب. وتوجد طرائق كثيرة وغير محددة للإجابة عن السؤال،

ولكن معظمها مستبعد هنا. فعلى سبيل المثال كان يمكن أن تكون الإجابة على النحو التالى: "**يا ربى! هذا سؤال صعب. فلأنظر فى الأمر. إنى واثقة أننى لمحت وجهه. نعم**" وكان من الممكن قطعًا أن نسمع هذه الإجابة، وقد تكون فى هذه الحالة طريقة فعالة لتحدى التوقعات المعيارية لنمط الخطاب المذكور! ولكن المتوقع هنا يتمثل فى الإجابة التى نسمعها فعلًا، أى الإجابة التى تقتصر على تقديم المعلومات المطلوبة.

والأعراف الخاصة بأفعال الكلام التى تشكل جانبًا من نمط الخطاب تجسد صورًا أيديولوجية للذوات وعلاقاتهم الاجتماعية. فإن وجوه عدم التناظر فى الحقوق والواجبات بين الذوات (وليكن بين رجل الشرطة الذى يجرى المقابلة وبين الشاهدة) قد تكون كامنة فى عدم التناظر بين الحقوق فى طرح الأسئلة، أو طلب القيام بعمل ما، أو الشكوى، وعدم التناظر فى الواجبات، كواجب الإجابة، أو القيام بالعمل، أو تبرير أفعال المرء. أو فلنقل أيضًا إن الأعراف التى تتحكم فى درجة التعبير عن أحد أفعال الكلام بطريقة مباشرة أو غير مباشرة قد تختلف باختلاف الذوات، وفقًا للافتراضات الخاصة بمدى وجوب التزام الذات بالتأدب تجاه الذوات الأخرى وأساليب ذلك التأدب، ومدى تحاشى الذات لمظهر التسلط على الآخرين، وهلم جرًّا. والخلاصة أنه من المفيد للمرء أن يسأل عندما يعرض له أى نمط من الخطاب أو أى جزء يمثله، عَمَّنْ يستعمل أنواعًا معينة من أفعال الكلام وأن يحددها ويتحرى الأشكال التى تتخذها.

الأطر والسيناريوهات والصور الذهنية

تمثل الصورة الذهنية جانبًا من الإجراءات التفسيرية على المستوى الرابع من مستويات تفسير النص فى الشكل ٦-١، وأما الإطار والسيناريو فهما يرتبطان بها ارتباطًا وثيقًا وهذا سبب إدراجهما فى هذه المناقشة. وهى جميعًا تمثل أسرة من أنماط التمثيل الذهنى لجوانب معينة من هذا العالم، وتتميز بخصيصة كل تمثيل ذهنى بصفة عامة، ألا وهو أنه ذو طابع أيديولوجى متغير. واستخدام المصطلحات الثلاثة ليس قياسيًّا، إذ نصادف استخدامها بمعان مختلفة. والشكل ٦-٣ يلخص أسلوب التمييز

بين الأفكار الثلاث بحيث يتفق مع التميز بين المضمون والعلاقات والذوات الذى أستخدمه دائمًا.

والصورة الذهنية (*schema*) تمثيل لنمط معين من أنماط النشاط (وهو الذى أشرت إليه عاليه بتعبير نمط النشاط) من حيث العناصر المتوقعة فى تتابع متوقع. أى إنها تمثيل ذهنى "للأبنية النصية الواسعة النطاق" التى ناقشتها فى السؤال العاشر بالفصل الخامس. ولعلك تذكر المثال الذى أوردته آنئذ للخبر الصحفى عن إحدى الحوادث، وهو ما ذكرت أنه يتكون من: سبب الحادثة، شكل التعامل معها، والأضرار أو الإصابات الناجمة عنها، ونتائجها فى الأجل الطويل. أو لعلك تذكر مثال المحادثة التليفونية الذى استخدمته آنفًا. وهكذا فإن الصور الذهنية صور نمطية ذهنية لأمثال هذه الأبنية وهى تقوم بوظيفة إجراءات التفسير.

الصورة الذهنية	المضمون: نشاط
الإطار	المضمون : الموضوع
السيناريو	الذوات / العلاقات

الشكل ٦ – ٣ الأطر والسيناريوهات والصور الذهنية

وإذا كانت الصور الذهنية تمثل طرائق السلوك الاجتماعى، فإن الأطر تمثل الكيانات التى تَعْمُرُ العالم (الطبيعى والاجتماعى). فالإطار يمثل أي شيء يمكن اعتباره موضوعًا، أو مادة يتناولها المرء أو أى شيء يقبل الإحالة إليه داخل نشاط من الأنشطة. وكنت قد استخدمت المصطلح من قبل فى القسم الخاص بالافتراضات المضمرة والمعنى المترابط والاستنباط فى الفصل الرابع، حيث أشرت إلى الأطر الخاصة 'بالمرأة'، وهى الأطر التى فَعَّلَتْهَا المفاتيحُ النصية فى النص. وقد تمثل الأطر أنماطًا من الأشخاص أو غيرهم من الأحياء (امرأة، معلم، سياسى، كلب... إلخ) أو كائنات من الجماد (منزل، كمبيوتر... إلخ) أو أنشطة (الجرى، الهجوم، الموت... إلخ) أو مفاهيم مجردة (الديموقراطية، الحب.. إلخ). وقد تمثل أيضًا عمليات مُرَكَّبَةً أو سلسلة من

الأحداث التى تشارك فيها أمثال هذه الكيانات: مثل وقوع طائرة، أو مصنع سيارات (إنتاج السيارات) أو عاصفة رعدية.

وإذا كانت الأطر تمثل كيانات يمكن استدعاء صورها أو الإحالة إليها فى الأنشطة التى تمثلها الصور الذهنية، فإن السيناريو يمثل الذوات التى تقوم بهذه الأنشطة وعلاقاتها. فهى تشير إلى طرائق سلوك فئات محددة من الذوات فى الأنشطة الاجتماعية، وكيف تتصرف فئات محددة من الذوات تجاه بعضها البعض، أى أسلوب إدارتها للعلاقات. فلدى الناس مثلًا سيناريوهات للطبيب وللمريض والتفاعل المتوقع ما بين الطبيب والمريض.

وتتداخل السيناريوهات والأطر فى نقاط معينة (إذ توجد علاقة وثيقة بين السيناريو الخاص بفئة من الذوات والإطار الخاص بفئة الأحياء المقابلة لها مثلًا) وبين الصور الذهنية والأطر (فالأطر الخاصة بالأنشطة المعقدة لا تختلف اختلافًا شاسعًا عن الصور الذهنية مثلًا). وهذا متوقع لأن المصطلحات الثلاثة تحدد ثلاثة أبعاد عامة إلى حد بعيد لشبكة بالغة التعقيد من الصور التمثيلية الذهنية. لاحظ أيضًا وجود حالات اعتماد متبادل بين هذه المفاهيم الثلاثة، بمعنى أن الصورة الذهنية قادرة على التنبؤ بموضوعات معينة ومواد معينة، وكذلك بعض المواقع المحددة للذوات وعلاقاتها، ومن ثم أطر وسيناريوهات معينة. ومع ذلك فالمفاهيم الثلاثة تختلف اختلافات تجعلها مستقلة بعض الشىء عن بعضها البعض، ومن ثم فمن المعقول التمييز بينها فى التحليل. وعلى الرغم من أننى خصصت دورًا فى التفسير للصور الذهنية وحدها فى الشكل ٦ - ١، فإن الأطر والسيناريوهات تنهض بدور خاص بها فى إجراءات التفسير، وعلى سبيل المثال فى التوصل إلى تفسيرات للموضوع والغاية (وتفاصيل ذلك فى القسم التالى). وهى تقوم بهذا كله وفقًا للعلاقة الجدلية بين المفاتيح النصية والموارد الذاتية، وهو ما أؤكده باستمرار: فالمفاتيح النصية تستدعى الصور الذهنية أو الأطر أو السيناريوهات، وتأتى هذه جميعًا بتوقعات تؤثر فى أسلوب تفسير المفاتيح النصية اللاحقة.

لأسلوب تفسير الناس للغاية التى يرمى إليها النص أهمية كبرى فى تحديد تأثير نص من النصوص. فالغاية هى التى تحفظها الذاكرة عمومًا، أو تستدعيها، أو تحيل إليها تناصًا أو تشير إليها فى نصوص أخرى. والاسم المألوف للجانب الخبراتى أو مضمون الغاية هو الموضوع، ولكن الغاية لا يمكن اختزالها فى الموضوع، ما دامت للغاية أيضًا أبعاد علائقية وتعبيرية. وانظر مثالًا على هذا النص المقتطف من صحيفة الديلى ميل فى الفصل الثالث (النص ٣ – ٤) وعنوانه **القائد الجديد لقوات المظلات**. إن موضوع هذا النص يمكن تمثيله بمقولة معينة وهى: زوجة قائد الكتيبة الثانية للمظلات تقول إن زوجها سوف يحسن أداء مهمته. ولكن للغاية من النص بعدًا تعبيريًّا آخر يتعلق بالمرأة نفسها. إذ إن النص، كما قلت فى تعليقاتى عليه فى الفصل الثالث، ينقل معنى ضمنيًّا يقول إن السيدة جينى كيبيل 'زوجة صالحة' وشخص يدعو للإعجاب، من خلال القيم التعبيرية المنسوبة إليها.

كيف ينقل النص هذا المعنى ضمنًا؟ أعتقد أنه يعتمد بوضوح وجلاء على قدرة الموارد الذاتية للمفسر على القيام بهذا، فالنص لا يصرح بالمعنى المذكور أى إن جينى كيبيل 'زوجة صالحة'، ولو لم تكن لدى المفسرين صورة ذهنية عن الصفات النمطية المفترضة للزوجة الصالحة لما استطاعوا إدراك بعض هذه الصفات الموجودة فى النص ومن ثم استنباط المعنى المذكور. فإذا عبرنا عن هذا بمصطلحات القسم السابق قلنا إن المفسرين ينتفعون بالسيناريو الخاص 'بالزوجة الصالحة'. والواقع أن لنا أن نعتبر أن الصور الذهنية والأطر تشارك السيناريو فى القيام بدور ما فى تفسير الغاية: فهى تعتبر أنساقًا نمطية يمكن تطبيقها على نصوص تختلف فيما بينها اختلافات لانهائية. وما إن نتبين أن النص يمثل نسقًا من الأنساق، حتى نتخلص بسرور من التفاصيل الكثيرة فيه ونختزله فى الشكل الهيكلى للنسق المألوف ونحفظه فى الذاكرة الطويلة الأجل ونستدعيه عندما نريد. و لنا أن نطبق هذا على وحدات نصية متفاوتة الأطوال، من فقرة واحدة، إلى فصل فى كتاب، إلى محادثة، إلى كتاب كامل أو سلسلة محاضرات.

وإذا كان من خصائص غاية النص أن تكون لها آثارها الطويلة الأجل فى المفسر، فمن المهم أن نكون على وعى بالأصول الاجتماعية للجهاز المعرفى الذى يرتكن المفسر إليه فى تفسيره للغاية. فالصور الذهنية والسيناريوهات والأطر تتغير، كما سبق أن قلت، أيديولوجيًّا، مثل الموارد الذاتية، وهذه جميعًا هى التى تحمل الطابع الأيديولوجى لأصحاب السلطة المهيمنين اجتماعيًّا، ومن المحتمل أن تصبح موردًا مُطَبَّعًا للجميع. ومن ثم فإن علاقات السلطة غير المتكافئة يمكن أن تفرض قيودًا غير مباشرة على الطرائق المعتادة لاستيعاب النصوص وتَمَثُّلِهَا. ولكن هذا يبدأ إدخالنا مرحلة الشرح، وهى قضية الجزء الثانى من هذا الفصل.

الخلاصة

قبل تلخيص ما قلته فى هذا القسم عن التفسير فى صورة مجموعة من الأسئلة، أجد لزامًا على أن أبين بإيجاز التضاد بين عملية المشاركة فى التفسير (التى انْصَبَّ تركيزى عليها حتى الآن) وبين عملية إنتاج النصوص، وأن أشير إلى وجود اختلافات بين المشاركين فى الخطاب من حيث مواردهم الذاتية.

تعتبر عملية إنتاج النص فى الحقيقة موازية لعملية تفسيره، غير أن إجراءات التفسير المرتبطة بالمستويات الأربعة لتفسير النص فى الشكل ٦ – ١ يُعتمد عليها هنا فى إنتاج أبنية سطحية للملفوظات، ومعانى الملفوظات، ومجموعات ذوات معانٍ مترابطة محليًّا من الملفوظات، ونصوص تتميز بالترابط الشامل فى المعنى، بدلًا من تفسيرها. وأما فى حالة تفسير السياق فالفروق تختفى، إذ يقوم منتجو النصوص ومفسروها بتوليد تفسيرات لسياقات الحال وسياقات التناص الخاصة بالخطاب. كما تتوازى عمليتا الإنتاج والتفسير من زاوية أخرى لم أشر إليها من قبل، إذ لا بد أن يفترض منتجو النصوص أن مفسريها، أو من يحتمل أن يفسروها، قادرون على استخدام إجراءات تفسيرية معينة، والعكس صحيح، أى إن على المفسرين أن يفترضوا أن النصوص التى يفسرونها تتمتع بهذه الإجراءات. وكثيرًا ما يصبح هذا بمثابة افتراضات متبادلة، أى افتراض المتحدث أن من يحادثه يحيط بإجراءات التفسير التى يحيط بها المتحدث نفسه.

ولكن هذا لا يتحقق فى حالات كثيرة. فقد يختلف المشاركون، كما قلت آنفًا، فيما يتوصلون إليه من تفسيرات لسياق الحال (وسياق التناص أيضًا). ومن ثم فقد يعتمدون على إجراءات تفسيرية مختلفة على المستويات الأربعة للتفسير النصى فى الشكل ٦ – ١، وبذلك تختلف القيم المنسوبة لمعالم نصية معينة باختلاف المفسرين. زد على ذلك أن تفسيرات السياق، وبالتالى إجراءات التفسير، قد تتغير أثناء التفاعل بالنسبة لأحد المشاركين أو بالنسبة لهم جميعًا. وتؤكد هذه الاعتبارات أهمية الحساسية للاختلافات بين المشاركين، وفيما يتعلق بالتفسير من زمن إلى زمن، وعلينا أن نبدى الحساسية لإمكانية أخرى، وهى أن مثل ذلك التنوع للمشاركين قد يعنى أن المشارك ذا السلطة قد يحاول أن يفرض تفسيره الخاص للسياق وإجراءاته التفسيرية على المشاركين الأقل سلطة. ولعلك تذكر مناقشة السلطة المواقفية فى الفصل الثالث (قسم السلطة فى الخطاب).

ولألخص الآن ما قلته عن التفسير فى ثلاثة أسئلة يمكن طرحها بشأن أى خطاب، وقد يجد القراء فائدة فى الرجوع إليها عند القيام بتحليلاتهم:

١- **السياق**: ما التفسير أو التفسيرات التى يقدمها المشاركون لسياق الحال وسياق التناص؟

٢- **نمط الخطاب أو أنماطه**: على أى نمط أو أنماط للخطاب يعتمد النص؟ (ومن ثم علام يعتمد من قواعد أو نظم أو مبادئ الصوتيات، أو النحو، أو تماسك الجمل، أو المفردات، أو الدلالة أو التداولية، ومن الصور الذهنية والأطر والسيناريوهات)؟

٣- **الاختلاف والتغير**: هل تختلف الإجابات عن السؤالين الأول والثانى باختلاف المشاركين؟ وهل تتغير فى أثناء التفاعل؟

ومرحلة التفسير تقوم بتصحيح أوهام الاستقلال من جانب الذوات فى الخطاب، فهى تفصح عما يعتبر مضمرًا بصفة عامة عند المشاركين، ألا وهو اعتماد ممارسة الخطاب

على افتراضات المنطق السليم فى مواردهم الذاتية وفى نمط الخطاب. وأما المهمة التى لا تضطلع بها وحدها فهى شرح علاقات السلطة والهيمنة والأيديولوجيات القائمة فى صُلب هذه الافتراضات، والتى تجعل ممارسة الخطاب العادية موقعًا للصراع الاجتماعى. وتحقيقًا لهذا نحتاج إلى مرحلة الشرح.

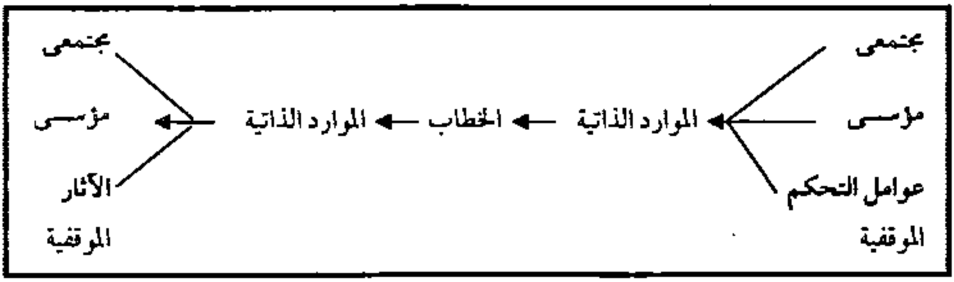
الشرح

ننتقل من مرحلة التفسير إلى مرحلة الشرح بالإشارة إلى أن الاستفادة من بعض جوانب الموارد الذاتية باعتبارها إجراءات تفسيرية فى إنتاج النصوص وتفسيرها تؤدى إلى إعادة إنتاج هذه الجوانب؛ ولعلك تذكر مناقشة إعادة الإنتاج فى الفصل الثانى (فى قسم جدلية الأبنية والممارسات). وتعتبر إعادة الإنتاج عند المشاركين عمومًا من الآثار الجانبية غير المقصودة و'غير الواعية'، إن صح هذا التعبير، للإنتاج والتفسير. فإعادة الإنتاج تربط ما بين مرحلتى التفسير والشرح، لأنه ما دامت المرحلة الأولى تتعلق بأسلوب الإفادة من الموارد الذاتية فى تحليل الخطاب، فإن الأخيرة تتعلق بتكوين الموارد الذاتية وتغييرها اجتماعيًّا، وهو ما يتضمن، بطبيعة الحال، إعادة إنتاجها فى ممارسة الخطاب.

وأما هدف مرحلة الشرح فهو رسم صورة الخطاب باعتباره جزءًا من عملية اجتماعية، وباعتباره ممارسة اجتماعية، وتبيان كيف تتحكم فيه الأبنية الاجتماعية، وما يمكن لضروب الخطاب أن تؤدى إليه من آثار تراكمية فى هذه الأبنية، بالحفاظ عليها أو تغييرها. وحالات التحكم والتأثير المذكورة تعتمد على 'وساطة' الموارد الذاتية، وهكذا فإن الأبنية الاجتماعية تشكل الموارد الذاتية، وهذه بدورها تشكل ضروب الخطاب، وضروب الخطاب تحافظ على الموارد الذاتية أو تغيرها، وهى التى تقوم بدورها بالحفاظ على الأبنية أو تغييرها. ونظرًا لتوجه هذا الكتاب، فإن الأبنية الاجتماعية التى يركز عليها هى علاقات السلطة، والعمليات والممارسات الاجتماعية التى يركز عليها هى عمليات الصراع الاجتماعى وممارساته. وهكذا فإن الشرح يعنى

النظر إلى الخطاب باعتباره جزءًا من الصراع الاجتماعى داخل إطار علاقات السلطة.

ولنا أن نتصور أن للشرح بُعْدَيْن، وهو ما يتوقف على تأكيدنا للعملية أو للبناء، أى على عمليات الصراع أو علاقات السلطة. فلنا أن نرى من ناحية معينة أن ضروب الخطاب تمثل أجزاءً من الصراعات الاجتماعية، وأن نضعها فى سياقاتها الخاصة بهذه الصراعات (غير الخِطابية) وآثار هذه الصراعات فى الأبنية. ومن شأن هذا تأكيد الآثار الاجتماعية للخطاب، وتأكيد الإبداع، وتأكيد المستقبل. ونستطيع أن نبين من ناحية معينة أن علاقات السلطة تتحكم فى ضروب الخطاب، وهذه العلاقات نفسها ناجمة عن الصراعات، (وفى حالتها المثالية المطَبَّعَة) ينشئها أصحاب السلطة. ومعنى هذا تأكيد التحديد الاجتماعى للخطاب وتأكيد الماضى، أى تأكيد نتائج صراعات الماضى. وينبغى فحص الآثار الاجتماعية للخطاب وعوامل التحكم الاجتماعى فى الخطاب، على ثلاثة مستويات للتنظيم الاجتماعى، وهى المستوى المجتمعى، والمستوى المؤسسى والمستوى الموقفى. وهذا يوضحه الشكل ٦ – ٤.



الشكل ٦ – ٤ الشرح

ولنا أن نستعين فى العمل بافتراض يقول إن كل خطاب له عوامل تتحكم فيه وآثار يحدثها على المستويات الثلاثة جميعًا، وإن كان المستويان 'المجتمعى'، و'المؤسسى' لن يتميزا بوضوح إلا فى أنماط الخطاب الأقرب إلى الطابع المؤسسى، ومن ثم فإن أى خطاب تشكله علاقات السلطة المؤسسية والمجتمعية، ويسهم (وإن يكن إسهامًا طفيفًا) فى الصراعات الاجتماعية.

فلأحاول إيضاح ما يعنيه هذا الإسهام فى الصراعات وما لا يعنيه. إنه لا يعنى أن كل خطاب يتجلى فيه التنازع، أى الصراع الاجتماعى، كما رأينا فى الفصل الثانى، ولا أن يتخذ بالضرورة شكل الصراع السافر أو التنازع السافر. فمن الجائز أن نجد أن الخطاب الذى يتوصل فيه المشاركون، فيما يبدو، إلى تفسيرات متطابقة (تقريبًا) للموقف، ويستعينون بالموارد الذاتية (الإجراءات التفسيرية) نفسها، وأنماط الخطاب نفسها، ثمرة من ثمار علاقات السلطة وإسهامًا فى الصراع الاجتماعى. ولنضرب لذلك مثلًا من محادثة متناغمة وعادية تمامًا بين زوج وزوجة، إذ يؤدى عدم التكافؤ فى تقسيم 'العمل' فى المحادثة بين المرأة والرجل، وهو أمر معتاد تمامًا، إلى أن تتجلى فى كلام كل منهما العلاقات الاجتماعية الأبوية داخل مؤسسة الأسرة والمجتمع كله، كما يسهم إسهامًا ضئيلًا، مرجحًا الجانب المحافظ، فى الصراعات الدائرة حول موقع المرأة فى الأسرة والمجتمع.

وأما من حيث المستويات الثلاثة للتنظيم الاجتماعى فى الشكل ٦-٤، فإننى أقول بوجود ثلاث طرائق للنظر إلى الخطاب نفسه، وأن ذلك يتوقف على تركيزنا عليه باعتباره ممارسة موقفية أو مؤسسية أو مجتمعية. ولا يعنى هذا بالضرورة أو فى الأحوال العادية أننا ننظر إلى معالم مختلفة فى الخطاب على هذه المستويات المختلفة، بل كثيرًا ما تكون أنظارنا موجهة إلى المعالم نفسها من منظورات مختلفة، كأنما كنا نغير الفلاتر [مرشحات الضوء] أمام عدسة آلة التصوير . فلقد لوحظ مثلًا فى المحادثات المنزلية المعتادة تمامًا بين المرأة والرجل، أن المرأة أكثر انفعالًا واندماجًا وتفهمًا وتقديرًا لما يقوله الرجل أثناء حديثه (بألفاظ مميزة مثل الغمغمة أو نعم، لا، حقًا، أوه) مما يبديه الرجل أثناء حديث المرأة. ويمكن اعتبار هذه الظاهرة أولا، من حيث الموقف، دليلًا على موقف بعض النساء الداعم لأزواجهن فى بعض العلاقات المنزلية الخاصة، ولكننا يمكن أن ننظر إليها من الزاوية المؤسسية والمجتمعية بصفتها مَعْلَمًا من عدد المعالم التى تبين الميل إلى وضع المرأة فى موقف 'الممثل الثانوى' على مسرح المحادثة وظفر الرجال بأدوار النجوم.

وأما من حيث الآثار فقد يعيد الخطاب إنتاج العوامل الاجتماعية التى تتحكم فيه والموارد الذاتية التى ينهل منها دون تغيير يذكر، وقد يسهم بدرجات متفاوتة فى تغيير هذه وتلك. ونستطيع أن نرى هذه الإمكانيات المتضادة فى العلاقات المتضادة بين منتجى النصوص (ومفسريها) وبين مواردهم الذاتية. ففى الحالة الأولى يشتبك المنتج فى علاقة معيارية مع موارده الذاتية، بمعنى أنه يتصرف وفقًا لها بأسلوب مباشر إلى حد ما. وفى الحالة الأخيرة يتخذ المُنتِجُ علاقة إبداعية مع موارده الذاتية بمعنى أنه ينهل منها ويجمع بين عناصرها بأساليب خلاقة، وبهذا يغيرها. وقد تصبح بعض اتجاهات الانتفاع الخلاق بالموارد الذاتية وتطويعها اتجاهات منتظمة، وبقدر هذا الانتظام تحدث تحولات طويلة الأجل فى الموارد الذاتية، ومن ثم فى العلاقات الاجتماعية التى تقوم عليها هذه الموارد.

وبصفة عامة يعتمد اختيار أحد هذين النوعين المتضادين من العلاقات بين المشاركين ومواردهم الذاتية على طبيعة الموقف. فالعلاقات المعيارية مع الموارد الذاتية ترتبط بالمواقف التى لا إشكالية فيها للمشاركين، فى حين أن العلاقات الإبداعية مع الموارد الذاتية تتميز بها المواقف ذوات الإشكاليات. ويعتبر الموقف غير ذى إشكالية إذا كان المشاركون يستطيعون تفسيره بيسر وتناغم باعتباره مثالًا لنمط الموقف المألوف، أى إذا كان ما يحدث، ومن يشمله الحدث، والعلاقات بين من يشملهم الحدث، تتسم بالوضوح و'تتفق مع أنماطها المألوفة'. وفى مثل هذه الحالات تمثل الموارد الذاتية معايير مناسبة (أنماط الخطاب وإجراءات التفسير) يمكن اتباعها وحسب. وينشأ العكس إن لم تكن الأمور واضحة، وعجزت الموارد الذاتية عن تقديم معايير حاسمة. وهنا لا يتفق نمط الموقف العملى مع نمط الموقف المألوف، مما يضطر المشاركين إلى النهل من الموارد المختزنة فى 'مواردهم الذاتية' بأساليب خلاقة حتى ينجحوا فى التصدى للخصائص الإشكالية للموقف. وأمثال هذه المواقف تشكل لحظات أزمة للمشاركين، وعادة ما تنشأ عندما يصبح الصراع الاجتماعى سافرًا، وعندما تتأزم الموارد الذاتية وعلاقة السلطة من ورائها، وهى من نتائج الصراعات السابقة التى تتسم باستقرار مؤقت. ويقدم الفصل السابع مثالًا موسعًا لموقف أزمة من هذا النوع الإشكالى الإبداعى.

ما أيسر أن يؤدى النظر فى عوامل التحكم فى الخطاب وآثاره، خصوصًا على المستويين المؤسسى والمجتمعى، إلى تحليل تفصيلى من وجهة نظر علم الاجتماع. وليس هذا مستغربًا ما دمنا نبحث الخطاب باعتباره ممارسة اجتماعية. ولكن المرء يواجه عادة حدودًا عملية تمنعه من المغالاة فى اتباع هذا النهج فى تحليله النقدى للغة. ولا توجد قواعد عرفية تحدد المدى الذى يجوز للمرء أن يبلغه فى تحليل الجوانب المؤسسية والمجتمعية من زاوية علم الاجتماع. وإذا كان المرء ينتوى الشروع فى إجراء بحث تفصيلى فربما كان عليه إجراء قدر من التحليل من الزاوية المذكورة، ومن المفيد للباحث الذى تقع اهتماماته الأساسية فى مجال اللغة أن يتعاون مع عالم الاجتماع، وأما فى الحالات التى لا تتسم بالطموح نفسه فقد تكفى الإحاطة ولو بصفة عامة بالمؤسسة وبالمجتمع من حيث الفئات والعلاقات الاجتماعية لتهيئة الإطار الاجتماعى للخطاب.

ومرحلة الشرح تتعلق بمنظور خاص للموارد الذاتية، إذ ينظر إليها على وجه التحديد باعتبارها أيديولوجيات. ومعنى هذا أن الافتراضات الخاصة بالثقافة والعلاقات الاجتماعية والهويات الاجتماعية التى تشتمل عليها الموارد الذاتية يُنظر إليها من زاوية خضوعها لسيطرة علاقات السلطة الخاصة فى المجتمع أو المؤسسة ما دامت هذه العلاقات تتحكم فيها، وكذلك من حيث إسهامها فى ضروب الصراع الدائرة للحفاظ على علاقات السلطة المذكورة أو تغييرها، أى إن النظرة إليها أيديولوجية.

ولألخص الآن ما سبق أن قيل عن الشرح، فى صورة أسئلة ثلاثة يمكن طرحها (مثل الأسئلة الثلاثة الخاصة بالتفسير أعلاه) عن أى خطاب معين يتعرض للفحص.

١- التحكم الاجتماعى: ما علاقات السلطة على المستويات الموقفية والمؤسسية والمجتمعية التى تساعد على تشكيل الخطاب؟

٢- الأيديولوجيات: ما عناصر الموارد الذاتية ذات الطابع الأيديولوجى التى يُنهل منها؟

٣- الآثار: ما موقع هذا الخطاب بالنسبة للصراعات على المستويات الموقفية والمؤسسية والمجتمعية؟ هل هذه الصراعات سافرة أم خفية؟ هل الخطاب معيارى فيما

يتعلق بالموارد الذاتية أم إبداعى؟ هل يسهم فى الحفاظ على علاقات السلطة القائمة أم فى تغييرها؟

الخاتمة: موقع المحلل

هذا ختام تقديم الإجراءات التى تتكون من ثلاث مراحل، والتى استغرق عرضها الفصلين السابقين، ويقتضى اختتامها النظر فى موقع المحلل فى مرحلتى التفسير والشرح، ابتداءً بالأولى. كيف يستطيع المحلل الاطلاع على عمليتى إنتاج الخطاب وتفسيره؟ إن هاتين العمليتين تحدثان فى أذهان الناس، ويتعذر على المرء إذن أن يراقبهما مراقبته للعمليات الجارية فى العالم المادى. والمدخل الوحيد المتاح للمحلل يتمثل فى قدرته شخصيًا على المشاركة فى العمليات الخِطابية التى يفحصها. ونقول بعبارة أخرى إن على المحلل أن يرتكن إلى موارده الذاتية (الإجراءات التفسيرية) حتى يشرح كيف يرتكن المفسرون إلى مواردهم الذاتية. أى إن تحليل العمليات الخِطابية مهمة موكلة إلى شخص ينتمى إلى 'داخل الحلقة' [أى حلقة محللى النصوص ومفسريها] ومن ثم فهو 'عضو' فيها، ولذلك أطلقت على الموارد التى ينهل منها المفسر والمحلل مصطلح 'موارد الأعضاء'. [وبسبب غرابة التصور الذى يقوم عليه المصطلح، أى وجود ما يجعل المحلل عضوًا فى 'حلقة' أو مجموعة أو فئة تقتصر عضويتها عليه وعلى المفسر، وأيضًا بسبب عدم تقبل الباحثين والكُتاب له منذ أن قدمه المؤلف عام ١٩٨٩، حرصت على أن أقرنه بمعناه الحقيقى فى البداية أى 'الموارد الذاتية'، ثم الاكتفاء بهذا الأخير بعد ذلك].

ولكن إذا كان المحللون يستندون إلى مواردهم الذاتية حتى يشرحوا كيف تعمل الموارد الذاتية للمشاركين فى الخطاب، فمن المهم أن يُبدى المحللون حساسية لنوع الموارد التى يعتمدون عليها فى التحليل. ويقتصر الاختلاف الذى يميز المحلل عن المشاركين فى هذه المرحلة من مراحل الإجراءات على الوعى الذاتى وحده فى الحقيقة. فالمحلل يقوم بما يقوم به المفسر المشارك نفسه، ولكن اهتمام المحلل ينصب – على عكس حال المفسر – على شرح ما يفعله. زد على ذلك أن ممارس التحليل النقدى يرمى إلى

إزالة هذا الاختلاف نفسه، أى إن عليه اكتساب الوعى الذاتى بشأن جذور الخطاب فى الافتراضات القائمة على المنطق السليم فى الموارد الذاتية. ارجع إلى الفصل التاسع حيث المزيد من التفاصيل.

وتمييز موقع المحلل فى مرحلة الشرح أيسر من تمييز موقع المشارك، لأن 'الموارد' التى يستند إليها المحلل هنا مستمدة من نظرية اجتماعية، ولعلك تذكر أننى وضعت الخطوط العريضة للعناصر الأساسية لمواردى فى هذا الصدد فى الفصل الثانى. ولكن الوعى الذاتى يتمتع بالأهمية نفسها إذا كان المرء يريد أن يتجنب الارتكان إلى افتراضات عن المجتمع دون الاستناد إلى نظرية معينة، أو كان يتصور أن الشرح يمكن أن يتمتع بالاستقلال عن النظرية أو أن يكون محايدًا نظريًا. ولا شك أن المفسرين يتمتعون بدرجات متفاوتة بنظرات عقلانية خاصة عن ممارسة الخطاب، تتمثل فى افتراضاتهم عن المجتمع، ولكن هذه النظرات العقلانية لا ينبغى أن تُقبل دون تمحيص. وأقول من جديد إن الغاية التى يرمى إليها ممارس التحليل النقدى تتمثل فى سد الفجوة بين المحلل والمشارك من خلال التنمية الواسعة الانتشار للفهم العقلانى للمجتمع والنظريات الاجتماعية. انظر الفصل التاسع.

المراجع

فيما يتعلق بالتمييز بين الوصف والتفسيرات والشرح انظر فيركلف (1985) وكاندلين (1986)؛ وعن التفسير انظر چيمسون (1981)، وج. ب. طومسون (1984) ليسيركيل (1999) وعن إجراءات التفسير انظر شيكوريل (1973). وتعتبر دراسات ليفنسون (1983) وتوماس (1995) وفيرسويرين (1999) مقدمات للتداولية، وهى تعالج أفعال الكلام، والإضمار (implication) و(implicature) والافتراضات المسبقة. انظر أيضًا سيرل (1969) بشأن أفعال الكلام وتعتبر دراسة شانك وإيبلسون (1977) دراسة كلاسيكية عن الصور الذهنية وما يتصل بها من أفكار. ويتوافر كم هائل من الدراسات من منظور علم اللغة الاجتماعى عن تحليل سياق الحالة. ودراسة داونز (1984) مقدمة لعلم اللغة الاجتماعى؛ وانظر أيضًا كوپلاند ودياڤورسكى (1999)

وهايمز (1962). وأما كتاب هاليداى وحسن (1985) فهو مكتوب من وجهة نظر اللغويات المنهجية. وبخصوص اعتماد التفسير اعتمادًا جذريًا على سياق الحال انظر جارود (1986). وتتضمن دراسة جيدينز (1991) وصفًا عامًّا من وجهة نظر علم الاجتماع للمشكلات المتعلقة بموقع المحلل فى التحليل الاجتماعى. والمثال الذى ضربته لاستخدام أفعال الكلام فى خطاب قاعة الدرس عاليه مقتطف من كتاب سينكلير وكولتارد (1985).

الفصل السابع

الإبداع والصراع فى الخطاب:

خطاب المذهب الثاتشرى

من أهداف هذا الفصل سد ما يشبه الفجوة التى تركتها عند مناقشة الإجراءات فى الفصلين الخامس والسادس، إذ قلت كلمات قليلة نسبيًا عن عمليات إنتاج النصوص. وللفصل هدف آخر وثيق الصلة بهذا الهدف، وهو بلورة مفهوم الذات فى الخطاب، الذى قدمته فى الفصلين الثانى والرابع، إذ إن عرضى لمفهوم الذات فيهما يقول إنه يتسم بخصيصتين متضادتين فيما يبدو، الأولى هى أنه يخضع لسيطرة المجتمع والثانية أن الذات قادرة على الإبداع الفردى، بمعنى أن الذات مرغمة على السلوك فى الخطاب سلوكًا تمليه مواقع الذوات التى سبق تشكيلها، وأنها مع ذلك قادرة على السلوك الإبداعى الذى يغير من أعراف الخطاب. وسوف أسوق الحجة على أن السيطرة الاجتماعية والإبداع الفردى لا يتسمان بالتضاد الذى يبدوان عليه فى الظاهر.

وللفصل هدف ثالث وهو إتاحة الفرصة لنا لتطبيق الإجراءات التى قدمتها فى الفصلين الخامس والسادس على مثال مُطَوَّل. وسوف تستغرق معظم صفحات هذا الفصل دراسة حالة خاصة بخطاب المذهب الثاتشرى، أى بالخطاب السياسى الذى اقترن بما يسمى الاتجاه الثاتشرى فى المذهب المحافظ البريطانى. وسوف نعمل على تحليل مقتطف من مقابلة إذاعية مديدة مع السيدة ثاتشر نفسها. وسوف يدور هذا القسم من هذا الفصل حول سلسلة من الأسئلة عن المقابلة. وعلى غرار الفصول السابقة، أرجو أن يعالج القراء بأنفسهم هذه الأسئلة قبل قراءة إجاباتى المقترحة.

إنتاج النصوص

فلننظر أولًا وقبل كل شىء إلى الصلات التى تربط ما بين إنتاج النص، وبين السيطرة الاجتماعية، وبين إبداع الذات. وأريد التركيز فى هذا القسم على أحد الدوافع

الذى قد لا يكون بالضرورة أو حتى فى الأحوال العادية صادرًا عن وعى الذين ينتجون النصوص، أى محاولة حل مشكلات من شتى الأنواع فى علاقتهم بالعالم وبغيرهم من الناس. ولنا أن نصنف أمثال هذه المشكلات بأسلوب التمييز – الذى غدا مألوفًا للقارئ – بين المضمون، والعلاقات والذوات. وقد يصبح موقع المنتج إشكالية فى أى جانب من هذه الجوانب.

أما إشكالية موقف المنتج فيما يتصل بالمضمون فتنشأ عندما ينشأ تفاوت بين الصور التى تمثل العالم وتقوم على المنطق السليم (الأيديولوجى) عند المنتج وبين العالم نفسه. وقد يحدث هذا بسبب تغيرات معينة فى العالم على سبيل المثال، أو لأن الصور التمثيلية فى ذهن المنتج قد اصطدمت بصور تمثيلية لا تتفق معها. ومن الحالات المألوفة المنتمية إلى النوع الأول حالة الصحيفة التى تحاول مثلًا أن تتعامل مع حدث يتناقض فيما يبدو مع أسلوبها المعتاد فى تصوير ذلك 'الجزء' من العالم، ولنقل إن صحيفةً تؤيد الشرطة بانتظام وفى السَّرَّاء والضَّرَّاء وجدت أن عليها أن تتعامل مع الإصابات الخطيرة التى تعرض لها أفراد 'الجمهور' على نطاق واسع أثناء فض الشرطة لصف العمال الذين يمنعون غيرهم من دخول المصنع أثناء الإضراب عن العمل.

وقد تنشأ إشكالية من حيث العلاقات فى موقف المنتج، بمعنى العلاقات الاجتماعية بين منتج النص ومفسره أو مفسريه (المخاطب أو الجمهور). وقد نجد مثالًا عليه فى أى تفاعل فى أى نمط من شتى أنماط سياقات الحال، إذا كان المنتج والمخاطب ينتميان إلى جنسين مختلفين. والتفاعل الذى يختلف فيه الجنسان يثير إشكاليات على نطاق واسع هذه الأيام بسبب ازدياد الخلاف حول المواقع الاجتماعية النسبية للمرأة والرجل.

وأما إشكالية موقع المنتج من حيث الذوات فقد تتعلق بموقع الذات أو بالهوية الاجتماعية للمنتج، أو بموقع الذات أو الهوية الاجتماعية للمفسر أو المفسرين. ويمكن ضرب الأمثلة على النوع الأول من مجال التعليم حيثما نشأ الشك فى موقع الذات الخاص 'بالمعلم' على وجه الدقة، أى على سبيل المثال عندما يقوم التلاميذ أو الطلاب

بتضييق الفجوة بينهم وبين المعلم، إما باكتساب منزلة الكبار أو باكتساب معارف أو مؤهلات تعادل ما يتمتع به المعلم منها. وهذه الحالة الأخيرة تتعلق تحديدًا بالمواقف التى يمثل فيها موقف المفسر مشكلة لمنتج النص. وقد يحدث هذا مثلًا للسياسى الذى يحاول الحفاظ على المشاركة فى الأيديولوجيا أو الولاء، أو إيجاد هذه المشاركة، بين أفراد الجمهور (الذين يمثلون قطاعات شتى من السكان). ودراسة الحالة الواردة فى مكان لاحق فى هذا الفصل تقدم لنا مثالًا على ذلك.

وليست هذه الأنماط الثلاثة من المشكلات الخاصة بموقع المنتج ذات طبيعة خِطابية محضة، ولكننى أعرضها بأسلوب يرمى إلى الكشف عن جوانبها الخطابية. ومن الممكن النظر إلى هذه الأبعاد الخِطابية لمشكلات المنتجين باعتبارها من ثمار زعزعة أعراف الخطاب، أو إذا استعملت المصطلح الذى قدمته فى الفصل الثانى، باعتبارها نتيجة لهدم نظم الخطاب، بمعنى أن العلاقة المستقرة نسبيًّا بين أنماط الخطاب فى نظام من نظم الخطاب تتعرض للتقويض. وأقول بعبارة أخرى إن منتجى النصوص يصادفون مشكلات لأن أساليب العمل المألوفة لم تعد متاحة لهم مباشرة. والواقع أن هدم نظم الخطاب له أسباب اجتماعية، على نحو ما سوف نرى أدناه.

وإذا كانت المشاكل نتيجة للهدم، فإن حلها يقتضى قدرًا من إعادة البناء، أى يتطلب أن تكون الاستراتيجية الخاصة بحل إشكالية موقع المرء استراتيجية خلاقة، وعادة تنظيم أنماط الخطاب المألوفة فى مجموعات جديدة باعتبار ذلك وسيلة لإيجاد طرائق جديدة للعمل حتى تحل محل الطرائق القديمة التى أصبحت إشكالية. وقد نجد أدلة على إعادة البناء فى المعالم الشكلية لنص من النصوص، فالمعالم الشكلية تعتبر آثارًا لعملية الإنتاج، وإذا كانت هذه العملية تقوم على الجمع بين أنماط منوعة للخطاب، فلنا أن نتوقع التنوع فى الآثار المذكورة. ولنا أن نعبر عن ذلك بما جاء فى الفصل الخامس قائلين إن المعالم الشكلية ذات قيم خبراتية وعلائقية وتعبيرية، ومن ثم فإننا نجد الدليل على إعادة البناء الخلاقة إذا كانت المعالم الشكلية تتضمن تضاربًا فى بُعد من أبعاد القيمة المشار إليها، أو فى أكثر من بُعد واحد.

وأحيانًا ما نجد أن آثار أنماط الخطاب المختلفة التى نهل منها النص واضحةٌ ويسهل الفصل بينها نسبيًّا فى النص. ولكن على منتجى النصوص إذا أرادوا النجاح فى حل المشكلات من طريق إعادة البناء أن يجعلوا نصوصهم تبدو 'متلاحمة'، بمعنى أن آثار أنماط النصوص المختلفة فيها لا يسهل الفصل بينها، وأن يحققوا تناغم القيم فيما بينها. ومن المحتمل أن يحتاج هذا إلى مرور فترة زمنية معينة، فالنصوص التى تتولّد من إعادة بناء معينة لأنماط الخطاب قد يزداد تلاحمها باطراد، ثم يتحقق أخيرًا عند اكتساب التركيبة الجديدة لأنماط الخطاب الصبغة الطبيعية. وهكذا فإن حالات إعادة البناء التى ينجح فيها منتجو النصوص فى ضروب معينة من الخطاب استجابة لخبرتهم بإشكاليات معينة تصبح إعادة بناء لنظام الخطاب. وقد يؤدى ذلك إلى أن يتحول ما كان فى بدايته تركيبة جديدة من أنماط الخطاب إلى نمط خطاب مستقل. وينطبق هذا على حالة الإعلانات، إذ إنها تستعير فى البداية معلمًا من معالم التفاعل المباشر (وجهًا لوجه) مثل الشكل المباشر للتخاطب باستعمال الضمير "أنت"، ولكن هذا الاستعمال اكتسب الصفة الطبيعية الآن إلى الحد الذى أصبح معه ما كان يمزج بين نمطين من أنماط الخطاب، أى 'العام' و'الخاص'، نمط خطاب مستقل فى رأى البعض. انظر الفصل الثامن للمزيد من مناقشة الإعلان.

كان تركيزى إلى الآن منصبًّا على ما يواجهه المنتج النص من مشكلات وعلى محاولات حلها. وكان هذا ينتمى إلى مجال التفسير ويتعلق بالإجراءات ولكن التفسير يحتاج إلى استكماله بمرحلة الشرح، فإذا كان هدم نظم الخطاب وإعادة بنائها يؤثران فى الأفراد ويتطلبان الإبداع الفردى، فإن عوامل التحكم فيهما وآثارهما تقع خارج الفرد، أى فى الصراعات بين الفئات الاجتماعية. فمن الممكن تفسير ما يصادفه المرء من هذه المشكلات الفردية تفسيرًا اجتماعيًّا يقول إنها مؤشرات على هدم نظم الخطاب التى تنشأ فى أثناء الصراعات الاجتماعية، ولك أن ترجع إلى الفصل الثالث الذى يناقش الخطاب باعتباره غاية للصراع الاجتماعى وموقعًا له، وتفسير ما يقوم به المرء من محاولات فردية لحل المشكلات تفسيرًا يبين أنها خطوات تتخذها الصراعات الاجتماعية للوصول إلى هدم نظم الخطاب.

إذن ما شأن العلاقة التى بدأنا بها هذا القسم بين إنتاج النصوص، وبين الذات باعتبارها تجمع بين الخضوع للسيطرة الاجتماعية وبين الطاقة الخلاقة؟ لقد دأبت على لفت الأنظار هنا إلى الطبيعة الاجتماعية للطاقة الإبداعية الفردية، إذ إن الطاقة الإبداعية للفرد تخضع لسيطرة المجتمع، بمعنى أن الطاقة الإبداعية تزدهر فى ظروف اجتماعية خاصة، أى عندما تؤدى الصراعات الاجتماعية باستمرار إلى هدم نظم الخطاب؛ كما إن الطاقة الإبداعية للذات طاقة تشكيل اجتماعية، بمعنى أن الأفعال الخلاقة الفردية تؤدى تراكميًّا إلى إعادة بناء نظم الخطاب. وهكذا فإن الجانب الاجتماعى والجانب الفردى – ما هو خاضع للتحكم وما هو خلاق – غير متضادين ولا يمثلان مفارقة، بل إنهما وجهان لعملية جدلية من التثبيت والتحويل.

دراسة حالة

النص الذى سوف نفحصه مقتطف طويل من مقابلة إذاعية أطول كثيرًا بين مارجريت ثاتشر، رئيسة الوزراء البريطانية، والمذيع مايكل تشارلتون، وكانت قد أذيعت فى البرنامج الثالث لهيئة الإذاعة البريطانية يوم ١٧ ديسمبر ١٩٨٥، ونرمز للأولى بالحرف ث (ثاء) وللثانى بالحرف ش (شين).

ش كُنْت يا رئيسةَ الوزراء فى جامعة أوكسفورد فى الأربعينيات من القرن العشرين وكُتِبَ لبريطانيا بعد الحرب أن تبدأ عهدًا من الازدهار النسبى، لم تشهد مثيلًا له من قبل، وأما اليوم فيبلغُ عددُ العاطلين ثلاثة ملايين وربع والواقع مم [غمغمة] أن الأداء الاقتصادى لبريطانيا، وفق أحد القياسات قد هبط إلى مرتبة الاقتصاد الإيطالى. والآن. هل تستطيعين أن تتصورى أنك عدت اليوم إلى الجامعة، وما لا بد أن تبدو عليه الفُرَصُ المتاحةُ لبريطانيا والآفاق المتاحة للجميع اليوم

ث هذان عالمان مختلفان اختلافًا شديدًا أى ما تتحدث عنه لأن أول شيء راعنى بقوة وأنت تتحدث الآن عن تلك الأيام أننا نتمتع اليوم

بمستوى معيشى لم نكن نحلم به آنذاك وأستطيع أن أذكر ما قاله راب بطلر عندما عدنا [أى حزب المحافظين] إلى الحكم فى عام ١٩٥١ – ١٩٥٢، إذ قال إننا إذا سلكنا السلوك الصحيح فإن المستوى المعيشى سوف يتضاعف فى غضون خمس وعشرين سنة أى سوف يبلغ ضعف ما كان عليه آنئذ مم [غمغمة] وكان على حق تقريبًا وذلك رائع لأنه كان أمرًا لم يخطر على بالنا قط والآن لا أعتقد أن للمرء أن يفكر تفكيرًا ماديًّا كاملًا بالضرورة فالحق أننى أعتقد أنه من الخطأ أن يكون تفكيرنا ماديًّا وذلك فى الحقيقة لأن نوع البلد الذى تريده تخلقه قوة شعبه وأعتقد أننا نعود الآن إلى رؤيتى لبريطانيا عندما كنتُ فى شبابى وكنتُ درجت دائمًا على اعتناق هذه الفكرة اسمع إن بريطانيا بلد يتمتع أبناؤه بالاستقلال فى التفكير، كما يتمتعون بالاستقلال فى العمل، والاستناد إلى المبادرة الشخصية وهم لا ينتظرون أن يأمرهم أحد ولا يحبون أن يسوقهم أحد فهم يعتمدون على أنفسهم ومن قبل كل ذلك ومن بعده فهم مسؤولون عن أسرهم وشىء آخر مم [غمغمة] كان نوعًا من [غمغمة] وأظن أن بارى هو الذى قال: افعل ما تحب أن يفعله الـ[غمغمة] افعل للآخرين ما تحب أن يفعلوه لك وهكذا فأنت تفعل شيئًا للمجتمع والآن أعتقد أنك إذا كنت تنظر إلى بلد آخر فسوف تقول إن ما يجعل البلد قويًّا فإنه شعبه هل يحسنون إدارة صناعاتهم هل علاقاتهم الإنسانية جيدة مم [غمغمة] هل يحترمون القانون والنظام وهل أسرهم قوية وكل هذه الأشياء

ش { وتعرف أن الأمر يتجاوز الاقتصاد كثيرًا
ولكنك تعرفين

الناس لا تزال الناس لا يزالون يسألون أين تذهب الآن الجنرال ديجول كانت له رؤية لفرنسا مم [غمغمة] فكرة معينة عن فرنسا كما كان يقول مم لقد حاربتِ ثلاث معارك كبرى فى هذا البلد حرب جزر فوكلاند مم والمعركة ضد عمال المناجم ورجال

الحكم المحلى وضد الإنفاق العام والناس فى اعتقادى يودون أن يسمعوا رأيك فى هذه الرؤية التى لديك لبريطانيا ولا بد أنها قوية فما تستلهمين فى عملك

ت يخيل إلىّ أنه ربما تكون أفضل إجابة أجيبها أن أقول كيف أرى ما على الحكومة أن تفعله وإذا كانت الحكومة تؤمن حقيقةً بالشعب ما ينبغى للشعب أن يفعل أعتقد أن الحكومة يجب أن تكون بالغة القوة حتى تتمكن من القيام بما لا يستطيع القيام به إلا الحكومة عليها أن تقوى على الدفاع لأن بريطانيا التى أراها تدافع دائمًا عن حريتها وهى دائمًا حليف يعتمد عليه وهكذا لابد أن تكون قويًا أمام شعبك ولا بد للبلدان الأخرى أن تعرف أنك ملتزم بكلمتك ثم ننتقل إلى الأمن الداخلى وأقول فعلًا إنك لابد أن تبدى القوة بالنسبة للقانون والنظام وأن تفعل فقط ما لا يستطيع أن يفعله إلا الحكومات ولكن هناك ما ينتمى بعضه للحكومة وبعضه للشعب لأنك لا تستطيع الحفاظ على القانون والنظام إلا إن كنت تعتمد على شراكة الشعب وإذن لابد أن تكون قويًا وتعلى من قيمة العملة ولا يستطيع ذلك إلا الحكومات بالسياسة المالية السليمة وإذن لابد أن تخلق الإطار اللازم لنظام تعليمى جيد والضمان الاجتماعى وفى هذه المرحلة لابد أن تقول الأمر فى أيدى الشعب فالناس مبتكرون خلاقون وهكذا فأنت تتوقع من الشعب أن يخلق صناعات مزدهرة وخدمات مزدهرة نعم أن تتوقع من الناس من كل واحد ومن الجميع مهما تكن خلفيتهم أن تتاح لهم الفرصة للصعود إلى أى مستوى يمكن أن ترفعهم قدراتهم إليه نعم فأنت تتوقع من الناس بشتى ألوان خلفياتهم ومهما يكن تقريبًا مستوى دخولهم أن يستطيعوا أى أن تتاح لهم فرصة امتلاك العقارات وهذا ذو أهمية بالغة أعنى امتلاك عقار فامتلاك المنزل يمنحك بعض الاستقلال ويجعلك تساهم فى المستقبل ما دام يشغلك أمر أطفالك

ش ولكن هل لك أن تلخصى هذه الرؤية

ث ( ) ذكرت رؤيتى فأرجو أن تدعنى أواصل الحديث فقط وإذن فليس هذا كافيًا إذا كنت مهتما بالمستقبل نعم من المحتمل أن تدخر وربما كنت فى حاجة إلى قدر ضئيل من الدخل المستقل الخاص بك وهكذا فأنت تفكر باستمرار فى المستقبل وإذن فإنها إلى حد كبير صورة بريطانيا التى يتمتع فيها الشعب بالاستقلال عن الحكومة وإن كان الشعب يعى بأن على الحكومة أن تكون قوية وأن تفعل ما لا يستطيع أن يفعله إلا الحكومات

ش ولكنك تستطعين تلخيصها فى عبارة أو عبارتين فالهدف تحقيق ماذا أو استعادة بريطانيا لماذا ما دام من الواضح أنها تخاطر بالكثير والانتصار فى مكان مثل جـــزر فوكلاند ذو أهمية فى فلسفتك لبريطانيا توازى أهميته لبريطانيا بالنسبة

ث أعتقد

بالنسبة لاستعادة السياسة المالية السليمة وتخفيض عرض النقود فى بنك انجلترا

ث ولكن ذلك بَيِّنٌ بطبيعة الحال أننا يُعتمد علينا فى الدفاع عن الحرية وعندما يكون جزء من بريطانيا فنحن قد تعرض للغزو ذهبنا لأننا كنا نؤمن بالدفاع عن الحرية وأمكن الاعتماد علينا وأعتقد أننى إذا استطعت تلخيص ذلك فى عبارة وأتصور أن هذا من أصعب ما يمكن قلت فى الواقع إنه إعادة أفضل ما فى الشخصية البريطانية إلى امتيازه الســابق

ش ولكن هذا كان يعنى شيئًا يسمى المذهب الثاتشرى فهل هذا وصف يمكن قبوله باعتباره يختلف اختلافًا كاملًا عن المذهب المحافظ التقليدى فى هذا البلد

ث لا بل إنه المذهب المحافظ التقليدى

ش ولكنه راديكالى وشعبى ومن ثم فليس محافظًا

ث إنه راديكالى لأننا فى الوقت الذى تسلمت فيه السلطة كنا نحتاج إلى أن نكون راديكاليين وهو شعبى لا أقبل اعتباره شعبيًا بل أقول إن الكثير

مما قلته مَسَّ وترًا فى قلوب الأشخاص العاديين لماذا السبب يرجع إلى أنهم بريطانيون ولأن من طبعهم الاستقلال فعلًا ولأنهم لا يقبلون قطعًا أن يتلاعب بهم أحد وذلك لأننا فعلًا على استعداد لتحمل المسؤولية ولأنهم يتوقعون فعلًا الولاء لأصدقائهم وحلفائهم الموالين لهم وهو ما تسميه بالمذهب الشعبى. أقول إنه مس وترًا فى قلوب أشخاص أعرفهم لأنه مس وترًا فى قلبى أنا منذ سنوات كثيرة كثيرة.

النص ٧ – ١ المصدر: مقابلة شخصية بين مارجريت ثاتشر ومايكل تشارلتون، راديو هيئة الإذاعة البريطانية، البرنامج الثالث، ١٧ ديسمبر ١٩٨٥

دراسة الحالة: التحليل

على نحو ما بينت فى بداية هذا الفصل، سيعتمد تنظيم هذا القسم على سلسلة من الأسئلة وأوصى القراء بتحليل هذه الأسئلة بأنفسهم قبل الإطلاع على إجاباتى المقترحة. وتتعلق الأسئلة الأربعة الأولى بمرحلة الوصف فى الإجراءات المشار إليها آنفًا. وقد اقتضى ما يركز عليه هذا الفصل أن تتعلق هذه الأسئلة خصوصًا بالمعالم النصية التى تعتبر آثارًا لعملية إنتاج النص. فأما بالنسبة للأسئلة من ١ – ٣ فإن هذه آثار لإعادة بناء أنماط الخطاب فيما يتصل بالعلاقات بين من تجرى المقابلة معه (السيدة ثاتشر) والجمهور (السؤال الأول) وبموقع الذات الخاص بزعيمة سياسية (السؤال الثانى) ومواقع الذوات للمخاطبين فى جمهور الإذاعة (السؤال الثالث). ولم أخصص سؤالًا للمضمون، أو الصور التى تمثل العالم، لأنها أقل أهمية من العلاقات والذوات فى هذه الحالة. ويتعلق السؤال الرابع بآثار الصراع فى النص، ويتعلق السؤال السادس بمرحلة الشرح.

'المذهب الثاتشرى'

أود قبل أن نبدأ التعرض للأسئلة أن أحدد بإيجاز سياق المقتطف وموضوع دراسة

الحالة وهو خطاب المذهب الثاتشرى، وذلك برسم الخطوط العريضة للسياق السياسى للمذهب الثاتشرى. ومعنى هذا أننى أستبق مرحلة الشرح فى الإجراءات، ومن ثم أستبق الإجابة عن السؤال السادس. ولكن، كما قلت فى الفصل الخامس، لا يوجد مبرر لتطبيق الإجراءات على نظام معين دون غيره، بل كثيرًا ما يكون من المفيد أن نعود إلى مرحلة سبق للمرء تطبيقها على ضوء ما يظهر من التطبيق على المراحل الأخرى – ومفهوم المذهب الثاتشرى الذى سوف أقدمه يدين بمعظم جوانبه للتحليل السياسى المرتبط بمجلة الحزب الشيوعى الماركسية اليوم.

إن بريطانيا تعانى منذ عقود من تدهور نسبى، باعتبارها أمة صناعية، وقوة عالمية. وقد عجزت الحكومات المتوالية للمحافظين والعمال عن إيقاف هذا التدهور أو تحويله إلى تقدم، على الرغم من بعض النجاحات المؤقتة. ومنذ بداية الكساد الرأسمالى العالمى فى بداية السبعينيات والتدهور يتعمق، كما تعرضت بريطانيا لأزمة مطولة، لم تقتصر على الاقتصاد، بل إنها أزمة اجتماعية عامة تتجلى فى مظاهر كثيرة، من بينها تكثيف الكفاح العمالى، وتدهور أحوال المدن، ونشوء أزمات فى خدمات الرعاية الاجتماعية، وانطلاق العنصرية، والأزمة المنتشرة على نطاق واسع فى العلاقات بين النساء والرجال وهلم جرًّا. ولم تنجح حكومتا المحافظين (١٩٧٠-١٩٧٤) والعمال (١٩٧٤-١٩٧٩) فى حل هذه الأزمة فى السبعينيات وانتهت كل منها بالتشتت الذى يمثله إضراب عمال مناجم الفحم وخفض أيام العمل الأسبوعى إلى ثلاثة، فى عهد إدوارد هيث، وما يسمى 'شتاء الأحزان' فى عهد چيمز كالاهان.

ويعتبر المذهب الثاتشرى رد فعل جذرى يمينى على المشكلات العميقة وحالات الإخفاق السياسى. وهو جذرى أو راديكالى بمعنى أنه خرج على توافق الآراء الذى نشأ فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، ونعنى به التسوية السياسية التى كان الحزبان السياسيان الرئيسيان يحترمانها حتى ذلك الحين، والتى كانت عناصرها الرئيسية تتمثل فى الالتزام بالقضاء التام على البطالة وتقديم الرعاية الاجتماعية. ومن ثم فقد كانت ترفض المذهب المحافظ التالى للحرب، وخصوصًا المذهب المحافظ الذى ارتبط باسم إدوارد هيث، رفضًا حاسمًا مثل رفضها للاتجاه العمالى الديموقراطى الاشتراكى. أى إنها

حاولت تحويل ألوان الطيف السياسى وحدود العمل السياسى المقبول بصورة قاطعة إلى اليمين.

وكان تحقيق ذلك يتطلب منها لا أن تضع سياسات جديدة وحسب بل أن تحاول أيضًا إعادة بناء الخريطة السياسية، وإعادة تكوين قاعدتها السياسية الخاصة. ويوصف المذهب الثاتشرى بأنه "شعبى سلطوى"، وهو الوصف الذى يحاول التصوير الصادق للمزيج الجديد من العناصر السياسية التى حاول الجمع بينها، وأول هذه العناصر الالتزام ("السلطوى") بتقوية الدولة من جوانب معينة (الدفاع، و'القانون والنظام'، والتحكم فى عرض النقود، والسيطرة على النقابات إلخ) حتى يتسنى الاستمرار للنزعة المحافظة التقليدية. والعنصر الثانى الذى نشأ من الليبرالية الجديدة، يتركز حول الالتزام 'بحرية السوق' التى لا يعوقها 'تدخل' الدولة، ويقتضى تراجع الدولة من جوانب أخرى، وخصوصًا مشاركة الدولة مشاركة مباشرة فى الاقتصاد من خلال الصناعات المؤممة. والعنصر الثالث هو 'المذهب الشعبى'، ويعنى الاتجاه إلى مخاطبة 'الناس العاديين' مباشرة، وهو الاتجاه الذى يبنى فى الواقع صورة 'للشعب' بصفته كيانًا سياسيًا قوميًا، مضادًا 'لتدخل الدولة'، وللنقابات، مناصرًا للأسرة، وللملكية الخاصة، وامتلاك الأسهم وهلم جرًا.

وهذا الترابط الجديد بين العناصر السياسية ناشئ إلى حد ما من ضروب إعادة البناء فى الخطاب الثاتشرى. ففى غمار صراع الثاتشريين مع خصومهم السياسيين داخل حزبهم وخارجه، إذ هم يثيرون الإشكاليات فى الخطاب السياسى لخصومهم ويهدمونه، محاولين فرض بنائهم الخاص له. وأفضل ما يمثل هذه الجهود فى النص الذى نعرض له إنشاء موقع للذات باسم 'الشعب' (وخصوصًا جانبه الذى يمثل جمهور المستمعين للإذاعة) باعتباره ذاتًا سياسية (السؤال الثالث). ويمثله إلى حد ما أيضًا تكوين العلاقات بين السيدة ثاتشر وبين جمهورها، وبصفة أعم بين الزعيم السياسى وبين 'الشعب'، وإن كان هدم العلاقات الأولى (البعيدة والسلطوية) يمثل مشكلة حاول الزعماء المتابعون التصدى لها.

كما يواجه الثاتشريون مشكلة ترابط لم يتسببوا فيها، ألا وهى كيف يمكنهم أن ينشئوا موقعًا للذات خاصًا بزعيمة سياسية فى سياق اجتماعى يتسم بالتمييز الراسخ بين الجنسين (السؤال الثانى). والمحاولات الخاصة التى تبذلها السيدة ثاتشر واضحة إلى حد ما أيضًا فى النص، وإن كانت تتطلب الإحالة إلى معالم غير ممثلة، مثل نبرات صوتها ومظهرها. كما تتمثل الطبيعة الراديكالية للمذهب الثاتشرى أيضًا، فى جانب منها، فى الأسلوب السياسى 'العدوانى' نسبيًا الذى لا يحجم عن مهاجمة الخصوم السياسيين، وهو ما يتجلى – ولو إلى حد بالغ الضآلة وحسب – فى الإحالة أثناء إقامة الحجة إلى السياق المتناص للنص (السؤال الرابع).

العلاقات: السيدة ثاتشر و'الشعب'

عادةً ما تمثل المقابلة الشخصية تفاعلًا مباشرًا (وجهًا لوجه) بين شخصين، بحيث يتناوبان دور السائل والمجيب (وفقًا لما يحدده الأول) بحيث يتبادلان دورى المتحدث والمخاطب. ومع ذلك فعندما تجرى هذه المقابلة الشخصية فى الإذاعة أو فى التليفزيون، فإن هذه العلاقة تتعقد، بسبب احتمال تأثر من يشاركان فيها بالجمهور أو بالسامعين. وإزاء التنوع فى تركيب جمهور أجهزة الإعلام واستحالة تحديد طبيعة أفراده، يصبح لزامًا على المتحدث أن يفترض وجود مستمع 'مثالى'، وأن يهيئ له موقع الذات الخاص به، وسوف يتعرض السؤال الثالث خصوصًا لطبيعة موقع الذات الذى تنشئه السيدة ثاتشر.

ويكفينا مؤقتًا أن نقول إن السيدة ثاتشر تفترض أن المستمع 'المثالى' 'شخص عادى، فرد من أفراد الشعب. والذى يهمنا هنا هو العلاقة التى تضع السيدة ثاتشر نفسها فيها مع ذلك 'الشخص العادى' الذى يمثله جمهور الإذاعة. والقضية لا تقتصر على العلاقات بين الزعماء السياسيين و'الشعب' فى الخطاب الثاتشرى. ولعلك لاحظت أن المستمع لا يظهر صراحةً فى النص على الإطلاق، إذ ينشأ موقع الذات الخاص بالمستمع بصورة غير مباشرة من خلال تمثيل السيدة ثاتشر لخبرات ومعتقدات وآمال 'الشعب' كله، وهو ما يشمل جمهور المستمعين ضمنًا.

وهاك إذن السؤال الأول، متبوعًا بإجابتى. وأقترح على القراء أن يركزوا على جمع 'الأدلة' النصية اللازمة لإجاباتهم بخصوص الضميرين 'نحن' و'أنتم' (ارجع إلى السؤال السادس فى الفصل الخامس)؛ وعلى القيم العلائقية للمفردات، وانظر خصوصًا إلى الفوارق بين الأسئلة التى يطرحها المذيع وإجابات السيدة ثاتشر، وما يمكن أن تعنيه هذه الفوارق من حيث سيطرة السيدة ثاتشر على مسار المقابلة (انظر السؤال الثانى فى الفصل الخامس)؛ وعلى الدلالات العلائقية الموحى بها لما تؤكده السيدة ثاتشر من أقوال عن 'الشعب' (ومن ثم عن الجمهور) فى السطور (٢٠) – (٢٥) مثلًا.

السؤال الأول: ما القيم العلائقية للمعالم النصية؟ هل توجد تناقضات فى القيم العلائقية يمكن أن تشير إلى ترابط جديد بين أنماط الخطاب؟

١- نحن. تستخدم السيدة ثاتشر ضمير المتكلم الجمع أساسًا فى السطور (١١) – (٩) و(٧٩) – (٨١)، بصورة شاملة وحصرية (ارجع إلى التمييز بينهما فى الفصل الخامس). والاستعمال الشامل (مثل: إننا نتمتع اليوم بمستوى معيشى لم نكن نحلم به آنذاك) ذو دلالة علائقية لأنه يصور السيدة ثاتشر وجمهورها والجميع فى صورة من يركبون السفينة نفسها. أى إنه يجعل الزعيم من 'الشعب'. ولكن، حتى فى هذه الحالة، لا يتضح لنا على وجه الدقة من تزعم أنهم يتمتعون بمستوى معيشى لم يكونوا يحلمون به. فعندما يشير جمع المتكلم إلى كيان جماعى مثل 'الشعب البريطانى'، يمكن أن ننسب أشياء إلى هذا الكيان لا تنطبق بالضرورة على أى فرد من أفراده، فإذا كنا نحن أحسن حالًا، فذلك لا يعنى أننى أحسن حالًا! والزعم بأن الكيان الجماعى يتمتع بمستوى معيشى معين وهو يتسم فى الواقع بوجوه تفاوت صارخة قد يعتبر من قبيل التضليل.

وعدم التحديد الدقيق للكيان الذى يعود عليه الضمير يبرز بوضوح أكبر فى حالات أخرى. فليس من الواضح مثلًا فى السطور (٧٩) – (٨١) إذا كان ضمير المتكلم الجمع يشير حصريًّا إلى كيان جماعى (الدولة أو الحكومة) وهو ما يستبعد المخاطبين، أو إذا كان يستخدم بمعنى شامل للإشارة إلى الشعب كله، مثل المثال السابق. واحتمال وجود الدلالتين يسمح فى الواقع بتصوير ما كانت عليه الحكومة وما آمنت به وفعلته فى صورة ما كان الشعب عليه وما كان يؤمن به ويفعله. وعلى الرغم من القيمة العلائقية

التى تكمن هنا أيضًا فى رسم صورة لوجود الجميع فى السفينة نفسها، فإن اتجاه الاستيعاب معكوس، بمعنى أن التعبير يجعل الزعيم يستوعب 'الشعب'، أو قل إن الزعامة أو الحكومة تستوعب الشعب. ولدينا حالة واحدة من الدلالة الحصرية التى لا لبس فيها ولا غموض فى استعمال ضمير المتكلم الجمع فى السطر (١٣)، حيث يشير إلى الحزب السياسى للسيدة ثاتشر.

٢- أنتم: يستخدم ضمير المخاطب جمعًا ومفردًا [ومنفصلًا ومتصلًا] باعتباره ضمير 'تنكير' بمعنى إشارته إلى الشعب بصفة عامة. ويكثر وروده فى السطور (٢٦) – (٢٨) و(٤٥) – (٦٨). وترتبط القيمة العلائقية لهذا الضمير، من جانب معين، باختياره بدلًا من ضمير التنكير 'المرء'. وللقراء أن يحاولوا استبدال هذا الضمير الأخير بضمير المخاطب المذكور ليروا كيف يؤدى ذلك إلى التغيير فى القيمة العلائقية (مثلًا فى السطور (٦١) – (٦٣): امتلاك المنزل يمنح المرء بعض الاستقلال، ويجعل المرء يساهم فى المستقبل، والمرء يشغله أمر أطفال). ولنقل أولًا إن لفظ 'المرء' يقوض معنى 'الناس بصفة عامة' لأن الناس بصفة عامة لا يستخدمون ذلك اللفظ، فهو إلى حد كبير ضمير خاص بالطبقة الوسطى، ولذلك فمن الصعب أن تنجح فى التأثير فى الناس العاديين وإقناعهم بالخبرة المشتركة إذا استخدمت لفظة المرء. وأما كلمة 'أنت' فهى على العكس تستخدم لإشاعة الشعور بالتضامن والمشاركة فى الخبرة فى كلام الطبقة العاملة. وأقول ثانيًا إن كلمة المرء يمكن أن تستخدم أحيانًا باعتبارها طريقة مهذبة للإشارة إلى ضمير المتكلم. ويمكن تفسير الأمثلة التى قدمتها لتوى على هذا النحو، أى باعتبارها وسيلة مهذبة للتعبير عن المصالح الذاتية.

وهكذا فإن كلمة أنت، كما ذكرت، توحى بالتضامن، واستخدامها يمكّن السيدة ثاتشر من الإيحاء بأن ممارساتها ورؤاها ومبادئها تنتمى إلى الشعب بصفة عامة، وبذلك تزعم لنفسها ضمنًا مكانة فرد من أفراد 'الشعب'. كما إنها تسمح فى غمار ذلك بتشويش التمييز بين المنظورات. ومن المفيد مثلًا، فى السطور (٤٥) – (٦٨) أن نحاول أن نرى إن كان أى من التعبيرات التالية يمكن استبداله بيسر بضمير المخاطب: الحكومة، أنا، الشخص العادى. والسطور (٥٥) – (٥٨) يمكن تفسيرها باعتبارها تنميقًا لما تظن السيدة ثاتشر وأتباعها أنه عقيدة شائعة (ولاحظ أن عبارة أتوقع يمكن أن تحل بسهولة كبيرة محل عبارة تتوقع أنت فى السطور (٥٥)، (٥٨) و(٥٩)، والواقع أن السطور (٦١) – (٦٨) تدور حول الشخص العادى (من الطبقة المتوسطة!) ومن خلال اختزال مشاغل (نوع) الحكومة التى ترأسها، والمعتقدات السياسية الخاصة بفصيل سياسى معين، وطموحات 'الشخص العادى' الذى ينعم برغد العيش بحيث تكتسب مكانة الخبرة

المشتركة، تساعد السيدة ثاتشر أيضًا على تشكيل موقع للذات تشكل فيه هذه كلها مجموعة مترابطة المعنى.

وينقلنا هذا إلى قضايا السؤال الثالث.

٣- القيم العلائقية للمفردات. يبدو أن اختيار السيدة ثاتشر للمفردات موجه فى جانب منه إلى المستمعين، أو الجمهور، لا إلى المذيع، وحيثما كان الأمر كذلك نجدها تنتقى مفردات تؤكد من جديد تضامنها مع 'الشعب'. ففى السطر (٢٣) نجد أن بعض القوالب الثابتة مثل **لا ينتظرون أن يأمرهم أحد**، ومثل **لا يحبون أن يسوقهم أحد**، وعبارة **يفعل شيئًا** (للمجتمع) تنتمى إلى هذه الفئة. فأما التعبيران الأولان فيهما من سمات المحادثة العارضة، وأما الثالث فيذكرنى بأعضاء المنظمات الطوعية من أبناء الطبقة المتوسطة، ولن نتوقع أيا من هذه التعابير لو كانت هذه المناقشة الدائرة بين أشخاص ذوى وعى سياسى ناضج وتتسم بالخصوصية.

ومن المفيد أن نقارن أسئلة المذيع تشارلتون وإجابات السيدة ثاتشر من حيث المفردات لأن الاختلافات تشير إلى معلم له دلالته العلائقية المهمة على المستوى النصى. ففى السطور (٣٧) - (٣٩) يطلب تشارلتون من ثاتشر أن تقول كلامًا محددًا عن **رؤيتها وعما يلهمها** فى عملها. ولكن السيدة ثاتشر لا تستعمل فى إجابتها تعبيرات مثل هذه، ولا مفردات التحليل الذاتى والاستبطان، بصفة عامة. فإذا نظرنا إلى نصوص الأسئلة والإجابات وجدنا أن تشارلتون يطلب من ثاتشر أن تفصح عن ذاتها، ولكنها تقدم إجابة تمثل الخطوط العريضة للنظرة الثاتشرية إلى مسؤوليات الدولة وحدودها. وهكذا فإن إجابة ثاتشر على السؤال غير ملتزمة به نسبيًّا. لماذا؟ ربما لأن تحليل الذات (ومفرداته) قد يؤدى فى رأيها (وفى الحقيقة فى رأيى) إلى 'استبعاد' بعض 'الناس العاديين' الذين تحاول إظهار التضامن معهم.

ويوجد مثال آخر فى السطور (٨٩) - (٩٣) حيث يبدو أن تشارلتون يطلب من ثاتشر الدخول فى مناقشة تجريدية إلى حد ما عن السياسة، وهو ما لا تفعله السيدة ثاتشر. وفى نطاق عدم التزامها برد مباشر تحول معنى الصفة الراديكالى من معناها السياسى شبه التقنى إلى معناها فى 'اللغة العادية'، (فعبارتها "**كنا نحتاج إلى أن نكون راديكاليين**" تعنى "**كنا نحتاج إلى اتخاذ إجراء حاسم**") وهى ترفض أيضًا الوصف بالشعبية، ولا شك أن سبب ذلك يقوم إلى حد ما على أسس أيديولوجية (فالكلمة تنتمى للتحليل اليسارى للمذهب الثاتشرى) وربما كان يرجع فى جانب منه إلى أن الكلمة توحى بلغة المفكرين.

ولاحظ أنها تستعيض عنها بتعبير يقول "يمس وترًا فى قلوب الأشخاص العاديين"، واختياره مثال جيد للمذهب الشعبى، فالتعبير يتسم بلون من العاطفية القومية التى يكرهها معظم المفكرين كراهية التحريم وإن كانت تمثل دعامة راسخة فى نظرة بعض 'الناس العاديين'.

وفى هاتين الحالتين نرى أن إجابات السيدة ثاتشر تبتعد بمسار الحوار عن الوجهة التى يبدو أن تشارلتون يريد الوصول إليها، ولكنها قد تصبح إشكالية للسيدة ثاتشر من حيث ما تزعمه من تضامن مع 'الناس العاديين'.

٤- توكيدات السيدة ثاتشر عن 'الشعب'. ونصل أخيرًا إلى مقولات السيدة ثاتشر عن 'الشعب'، فى السطور (٢١) – (٢٥)، مثلًا. وأما ما له دلالة بشأن هذه المقولات من حيث علاقة السيدة ثاتشر بالجمهور، وكذلك علاقتها باعتبارها زعيمة سياسية 'بالشعب'، فهو أنها تزعم لنفسها ضمنًا سلطة إطلاع الناس على ماهيتهم، أو، ما دامت هى نفسها جزءًا من الشعب، حق الإفصاح باسم الشعب عن رؤيته لذاته. ومن آثار هذا إيجاد مسافة بين السيدة ثاتشر وبين الشعب، إذ يجعلها تظهر فى صورة من تتمتع بسلطة خاصة، ما دامت تتمتع بالزعامة. ولا شك فى وجود تضاد واضح فى استخدام ضمير المخاطب والمفردات التى أشرت إليها. ولكن ما شأن ضمير المتكلم فى صيغة الجمع؟ على الرغم من أننى قلت آنفًا إن هذا الضمير يضع الجميع فى سفينة واحدة ويؤدى إلى الاستيعاب المتبادل بين الزعيم والشعب، فإنه لا يتمتع بقيمة التضامن التى يحملها ضمير المخاطب (أنت/ أنتم)، وفى إشارة السيدة ثاتشر إلى ضمير المتكلم نجدها، هنا أيضًا، تعود للحديث، باعتبارها الزعيمة، باسم 'الشعب'.

والخلاصة إذن أن هذه المعالم النصية تتسم بالقيمتين المتضادتين للتضامن والسلطة، وهو ما يوحى بارتباط جديد بين أنماط الخطاب. ولعلك لاحظت أن هذه المعالم كلها تقبل التفسير من حيث علاقتها بمواقع الذات فى ضوء السؤالين الثانى والثالث، وعلى غرار ذلك نجد أن المادة التى نناقشها أدناه فيما يتعلق بهذين السؤالين تمثل ما قيل حتى الآن عن العلاقات. وليس فى هذا ما يدعو إلى الدهشة، فعلى الرغم من أن التمييز بين

العلاقات والذوات مفيد من الزاوية التحليلية فلا يوجد فاصل قاطع فى الواقع بين العلاقات الاجتماعية والهويات الاجتماعية، بل إن التعديل فى أحد الطرفين يقتضى التعديل فى الطرف الآخر.

موقع الذات: الزعيمة السياسية

يواجه العدد القليل نسبيًا من النساء اللائى يشغلن مواقع بارزة فى قطاع الأعمال، وفى المهن، والسياسة، وعمومًا فى أى مكان خارج المنزل، مشكلة معقدة توحى بأن المرأة تخسر فى كل حال، وهو ما يلخصه القول الشائع "المرأة ملعونة إذا تصرفت مثل الرجل، وملعونة إذا لم تفعل ذلك". وهى تُلعن إذا تصرفت مثل الرجل بمعنى أن السلوك الذكورى يجعل المرأة عرضة للوصمة التى تعود بضرر كبير عليها فى مجتمعنا وهى وصمة 'عدم الأنوثة'. وهى تُلعن إذا لم تفعل بمعنى أن الذين يشغلون مواقع بارزة لا يُقبلون إلا إذا التزموا فى سلوكهم بما يلتزم به شاغلو هذه المواقع دائمًا. ولما كانت المواقع البارزة تقليديًا من نصيب الرجال باستثناءات بالغة القلة (مثل رئيسة الممرضات فى مستشفى ما، أو مديرة مدرسة ابتدائية) فإن احتلال للرجال لهذه المواقع كان يعنى أن السلوك 'ذكورى'.

وقد واجهت السيدة ثاتشر هذه المعضلة التى اتخذت صورة بالغة الحدة لأن نوع السياسة اليمينية الراديكالية التى التزمت بها تؤكد تأكيدًا خاصًا ضرورة الحزم والحسم والشدة والتشدد فى الزعامة السياسية. وجميع السمات التي ذكرتها تنتمى فى أعرافنا إلى سلوك الرجال، وإذا كان سلوك أى امرأة يتصف بهذه الصفات فإنها يعرضها للسخرية منها باعتبارها 'عديمة الأنوثة'. ولكن انطباعى الشخصى هو أن السيدة ثاتشر استطاعت أن تبنى لنفسها موقع ذات يجعلها زعيمة سياسية، وهو ما جعل الناس تراها على نطاق واسع فعلًا فى صورة من تتمتع بهذه الخصال جميعًا من دون أن تفقد أنوثتها.

ويرجع هذا، فى أحد جوانبه إلى وقع حديثها فى الآذان وكيف تبدو للناظرين، ومن الطريف أنها قدمت نصائح كثيرة على امتداد حياتها العملية بشأن هذا وذاك، وأنها بذلت جهدًا كبيرًا حتى نجحت فى تغييرهما. وأقترح أن تتأمل مظهرها عند إجابة

السؤال الثانى، وأما بالنسبة لوقع حديثها فى الآذان فقد نجحت بفضل التعليم على أيدى المحترفين فى خفض نبرات صوتها وتقليل السرعة التى تتكلم بها. وكان من دوافع ذلك أن صوتها كان يعتبر 'حادًّا'، والحدة فى الصوت (وفق الأنماط السائدة) تعتبر من صفات صوت المرأة المرتبطة بالانفعال الشديد. وإلى جانب فقدان صوتها للحدة، فإن نبراتها الآن أقرب إلى نبرات 'الزعماء السياسيين'، كما يرى البعض أن البحة فى صوتها جذابة جنسيًّا.

وأقترح أن يركز القراء فيما يتعلق بهذا السؤال على المعالم التالية فى النص: النوعية، خصوصًا النوعية العلائقية الخاصة بالإلزام (يجب، ينبغى إلخ) والنوعية التعبيرية (الحق القاطع، اليقين، الاحتمال، الإمكان) وأرى أن يركزوا على السطور (٤٠) – (٧١) (انظر السؤالين ٦ و٧ فى الفصل الخامس)؛ وتناوب الأدوار، خصوصًا السطر (٦٥) (انظر السؤال ٩ فى الفصل الخامس)؛ ومعالم النص التى تعبر عن 'الشدة'؛ وتوكيدات السيدة ثاتشر عن 'الشعب'، ومن أمثلته السطور (٢١) – (٢٥) التى سبق النظر فيها فى إطار السؤال الأول؛ ومظهر السيدة ثاتشر – شعرها، ملابسها، حليها إلخ – فى الصور التى رأيتها لها.

السؤال الثانى: ما القيم الخاصة بالمعالم النصية من حيث موقع الذات لمنتج النص؟ هل توجد تناقضات قد تشير إلى ترابط جديد بين أنماط الخطاب؟

١ – النوعية. النوعيات السائدة فى السطور (٤٠) – (٧١) هى المعنى العلائقى 'للإلزام'، وهو الذى تعبر عنه الأفعال المساعدة يجب، ينبغى، لابد أن، والنوعية التعبيرية الخاصة بالحقيقة القاطعة التى يعبر عنها الزمن المضارع. وتوجد أنواع أخرى أشير إليها أدناه. ولكنى أكتفى مؤقتًا بالإشارة إلى أن نمطى هذه النوعية يتيحان للسيدة ثاتشر أن تشغل موقعًا سلطويًّا فيما يتعلق بما يجب أن تفعله (الحكومات) وما يمثل الواقع الراهن.

ومما له دلالته أن السيدة ثاتشر تستخدم تعبير [*have (got) to*] أى لا بد أن فى مواقع كان يمكنها فيها استخدام (*must*) أى يجب. فإذا كان الفعل يجب يفيد السلطة الشخصية للمتحدث، فإن تعبير لابد أن يفيد الإلزام المبنى على إرغام خارجى من نوع ما، وقد يتمثل مثلًا فى قواعد مؤسسة من المؤسسات. واستخدام السيدة ثاتشر لهذه العبارة

الأخيرة يعنى ضمنًا أن الالتزام ليس مبنيًّا فحسب على وجهة نظرها، ولكن على طبيعة الحكومة بصورة غير محددة، كأنها كان ما تقوله عن الحكومة أمرًا يتعلق بحقيقة واقعة لا برأى من الآراء. ويتدعم الانطباع بأن هذا أمر واقع فى السطرين (٦٩) – (٧١)، فالمقولة التالية للعبارة المبدوءة بالحرف أن (السطر ٧٠١) والتى تعقب الفعل يعى مفترضة سلفًا، بحيث نجد أن السيدة ثاتشر أصبحت تعامل ما كانت تعتبره رأيًا معاملة الحقيقة المسلم بها. وأما الزمن المضارع القاطع فأفضل ما تمثله السطور (٥٤-٦٣). لاحظ وجود معنى نوعى تعبيرى سلطوى آخر فى السطر (٥٠) – الاستحالة (لا تستطيع).

وفى النص معان نوعية أخرى غير سلطوية. إذ تبدأ السيدة ثاتشر إجابتها على سؤال تشارلتون قائلة (يخيل إلىَّ أنه ربما أستطيع أن أجيب) بدلًا من أن تقول مثلًا (ربما استطعت الإجابة). وتعبيرها يوحى بإنكار الذات الذى يتناقض بوضوح مع النوعية السلطوية المهيمنة. كما يوجد تعبير آخر له قيمة مماثلة إلى حد ما فى (٨٢) – (٨٣) "وأتصور أن هذا من أصعب ما يمكن". كما نجد المعنى النوعى التعبيرى الخاص بالاحتمال فى السطور (٦٧) – (٦٨). فالسيدة ثاتشر تتحول من الحقيقة القاطعة إلى الاحتمال أثناء تحولها من امتلاك منزل، وهو جزء من خبرة شائعة وإن لم تكن شاملة بالتأكيد، إلى الادخار والدخل المستقل، وهذه لا شك من حالات الأقلية. والتراجع عن المعنى القاطع يوحى بأنها تعمل حسابًا خاصًّا لحساسية هذا الموضوع بالنسبة لكثير من الناس الذين لا أمل لهم فى الحصول على 'دخل مستقل'، ويدعم هذا الانطباع صيغة 'التخفيف' فى عبارة 'قدر ضئيل'. وهكذا نجد بعض التناقض فى قيم المعالم النوعية ما بين النزعة السلطوية وإنكار الذات أو الحصافة.

٢- تناوب الأدوار. يتبدى معلم تناوب الأدوار، فى السطر (٦٥) الذى أشرت إليه عاليه، فى محاولة المذيع مايكل تشارلتون مقاطعة السيدة ثاتشر وإعادتها إلى السؤال الذى طرحه عليها أصلًا، وهو الذى لم تلتزم إلى حد ما بإجابته. والطريف هو أن السيدة ثاتشر ترفض محاولة تشارلتون التحكم فى المقابلة وتعبر عن رفضها بأسلوب مهذب على ما فيه من حزم يتجلى فى الصياغة (أرجو أن تدعنى أواصل الحديث فقط). وعمومًا تتعامل السيدة ثاتشر بهذا الأسلوب مع ما تعتبره محاولات غير لازمة للتحكم فى المقابلات الشخصية.

٣- 'الصلابة'. يعتبر مثل هذا التناوب فى الأدوار تعبيرًا عن صلابة السيدة ثاتشر وقوة عزيمتها. ويوجد تعبير آخر عن ذلك فى استعمال 'اسمع' فى السطر (٢١). إذ إن ابتداء عبارة منطوقة بكلمة 'اسمع' تعنى اعتزام إرغام المخاطب على أن يلزم حدوده، أو

تصحيح ما أساء فهمه تصحيحًا يتسم بالشدة. وعلى الرغم من أن السيدة ثاتشر، فيما يبدو، تستشهد بمُعَلِّم لها لا تحدده فى هذه الحالة، فإنها عادة ما تستخدم فى كلامها لفظ 'اسمع'، وفى جزء لاحق من المقابلة نفسها تستشهد بما قالته هى نفسها فى مقالة كتبتها وتقول فيها اسمع إن كانت الديموقراطية تقتصر على كونها مزادًا علنيا فى وقت الانتخابات فلن يكتب لها الاستمرار.

٤- توكيدات السيدة ثاتشر عن 'الشعب'. سبقت لى مناقشة دلالة ما تدعيه السيدة ثاتشر من الحق فى إطلاع 'الناس' على ما هم عليه، وهو ما يتفق بوضوح مع العناصر الأخرى للجانب السلطوى/ الصلب فى موقع الذات الخاص بها. وانظر إلى مدى ما يتضمنه المقتطف من هذا الادعاء، والإشارة السافرة إلى سلطة السيدة ثاتشر فيما تقوله فى السطر (٩٦)، فى الفعل أعرف.

٥- مظهر السيدة ثاتشر: نأتى أخيرًا إلى مظهر السيدة ثاتشر. فإنها تتمتع بجميع السمات الخاصة بالأنثى البالغة الأنيقة بنت الطبقة المتوسطة، وتصفيف شعرها دائمًا محكم كأنها خرجت لتوها من عند مصفف الشعر، وهى تفضل إرتداء حلل من قطعتين. وهى تضع على صدرها قطعة من الحُلِىّ وحول جيدها قلائد وفى أذنيها قرط، وتحمل عمومًا حقيبة يد.

موقع الذات: 'الشعب'

يحتاج كل حزب سياسى، أو اتجاه سياسى، إلى قاعدة اجتماعية، بمعنى وجود قطاع أو قطاعات من السكان يمكن للحزب أن يزعم أنه يمثلها وله أن ينشد مؤازرتها له. ومن الشائع أن يزعم الحزب السياسى أن هذه القاعدة الاجتماعية تشمل السكان كلهم، وأن خصائص 'الشعب' لا تختلف عن خصائص مناصريه. ولكن هذه القواعد الشعبية لا توجد بالضرورة فى صورة 'جاهزة' بل إنها لا بد من تكوينها (ومن ثم تكوين 'الشعب') فى حالات كثيرة من خلال التحام فئات اجتماعية منوعة فى قاعدة سياسية متماسكة. ويصدق هذا بصفة خاصة على حزب المحافظين فى بريطانيا، وهو الذى دائمًا ما اعتمد على قاعدة تتضمن أقلية لا بأس بها من الطبقة العاملة إلى جانب

الطبقتين الرأسمالية والمتوسطة. كما يصدق هذا بصفة خاصة أيضًا عند ظهور اتجاه جديد مثل أتباع المذهب الثاتشرى الذين لا يستطيعون الاعتماد الكامل على القاعدة التى سبق بناؤها. ولكن ذلك يصدق على حزب العمال أيضًا، وهو الذى يرى أنه يحتاج إلى مؤازرة الطبقة الوسطى حتى يفوز فى الانتخابات.

ويتمثل جانب من هذا الجهد فى بناء أو إعادة بناء موقع ذات للناس الذين يمثلون أهدافًا للخطاب السياسى، وخصوصًا جماهير المستمعين والقراء العريضة. وموقع الذات فى المقتطف الذى ننظر فيه خاص، بصورة محددة، بالمستمعين، أى بجمهور الإذاعة الذى يفترض أنه يمثل 'الشعب' كله. وما نشهده هنا يعتبر أساسًا محاولة لتصوير جمهور المستمعين فى صورة المعتنقين لعقائد وقيم وافتراضات تتفق مع مزيج العناصر السياسية التى تشكل ما أشرت إليه آنفًا باسم 'الشعبية السلطوية' للسياسة الثاتشرية. ولكن ذلك يجرى بصورة غير مباشرة، كما سبق لى أن ذكرت، إذ تقدم السيدة ثاتشر مزاعم كثيرة عن 'الشعب' بحيث توحى ضمنًا بأن جمهور المستمعين يمثل 'الشعب'.

وبالنسبة للسؤال الثالث أقترح التركيز على التنسيق، وكنت قد ذكرت هذا المصطلح فى الفصل الخامس (السؤال ٨) حيث يفيد الربط بين الجمل البسيطة المتكافئة الوزن فى الجملة المركبة، عمومًا بحروف مثل واو العطف أو 'لكن' أو الحرف 'أو'. والواقع أن شتى العناصر النحوية يمكن تنسيقها، إلى جانب الجمل البسيطة، مثل العبارات الاسمية، والجمل الثانوية، ولننظر إلى العناصر المرتبطة بواو العطف أو بالحرف لكن فى السطور (٤٤) – (٤٥)، (٤٥) – (٤٧)، (٥١) – (٥٥)، (٦٨) – (٧١). ولكن فى النص قوائم منوعة تتميز ببروز أكبر، ولنا أن نعتبر عناصرها منسقة وإن لم تكن ترتبط ارتباطًا سافرًا ببعضها البعض، فهى قوائم مقولات، وقوائم أسئلة، وقوائم عبارات اسمية، وقوائم عبارات 'سببية' فى السطور (٢٢) – (٢٧)، (٢٩ – ٣١)، (٥٥ – ٥٦)، (٦١)، (٦١) – (٦٣)، (٨٠) – (٨١)، (٩٣) – (٩٥).

السؤال الثالث: ما القيم التى تتسم بها المعالم النصية من حيث مواقع الذوات لأفراد الجمهور؟ هل توجد تناقضات قد تشير إلى إعادة بناء جديدة لأنماط الخطاب؟

بعض الأبنية المنسقة فى النص تنسب خصائص سافرة 'للشعب البريطانى'، فى السطور (٢٢) – (٢٧)، (٦٨) – (٧١)، (٩٣) – (٩٥). وتضيف السيدة ثاتشر المزيد من هذه الأبنية على امتداد المقابلة الشخصية، ولكن دعونى أورد مقتطفًا قصيرًا آخر:

ليس من ذلك من سمات البريطانيين فنحن لا نحب أن يرغمنا أحد ولن نطلب شيئًا من رؤساء النقابات فليست وظيفة رؤساء النقابات أن يرأسوا 'شعبهم' بل أن يستجيبوا للشعب. ويوجد بناءان آخران ، الأسئلة فى السطور (٢٩) – (٣١) والمقولات فى السطور (٩٣) – (٩٥)، حيث نرى الصفات التى تحبذها المتحدثة فى شعب من الشعوب، وأعتقد أننا يمكن أن نعتبر أنها تساهم ضمنًا فى رسم صورة موقع الذات الخاص بجمهور المستمعين.

فإذا جمعنا بين هذه السطور كلها استطعنا أن نلخص مفهوم 'الشعب' فى نظر السيدة ثاتشر على النحو التالى: شعب يعتمد على نفسه، مستقل فى الفكر والعمل، مستقل عن الحكومة، يتحمل المسؤوليات العائلية، يستخدم الموارد استخدامًا حصيفًا من أجل الأطفال، ينفر من إرغامه على أى شىء (من جانب 'رؤساء النقابات' مثلًا، أو، طبقًا لما يوحى به النص، من جانب تدخل الدولة)، ويؤيد الحكومة القوية (من زوايا معينة) ويحترم القانون والنظام ويناصر الأسرة، ويقوم بالأنشطة الخيرية فى المجتمع المحلى، ويتمتع بالإخلاص الشخصى والسياسى، وبالكفاءة الاقتصادية. وللمرء أن يتصور، بطبيعة الحال، أوصافًا لا تنبئ عن مثل هذا المستوى من كرم النفس، مثل ما يلى: الانحصار فى الذات والنزعة الفردية، السلطوية فيما يتعلق 'بالقانون والنظام' والقهر من جانب الدولة عمومًا، والأسرة، والنقابات، والرعاية الاجتماعية، والتعصب – وما إلى ذلك بسبيل! ولكن الواضح أن كلا من هاتين النظرتين تجمع بين العنصر الليبرالى الجديد الذى يعنى اعتماد الفرد على نفسه وتخفيض الرعاية الاجتماعية للأفراد والأسر، وبين العناصر التقليدية للفكر المحافظ التى تعنى دعم الدولة القوية فيما يتعلق بالقانون والنظام أو العلاقات الدولية، ومؤازرة التصور التقليدى للأسرة.

فلننتقل الآن إلى أبنية أخرى لم نشر إليها حتى الآن، فالمثال ينسب فى السطرين (٤٤) – (٤٥) لبريطانيا خصيصتين، هما دفاعها عن حريتها وكونها حليفًا يعتمد عليه. أى إن بريطانيا تعامل هنا معاملة الأشخاص (فهذه الصفات تصف بالتعبير غير المجازى الناس لا الدول) وهو ما يجعل من السهل اعتبار أن هذه الصفات تنطبق من جديد على 'الشعب' خصوصًا لأن الصفة الثانية يعود صداها فى عبارة "حلفاء موالين" فى السطر (٩٦). وهذا المثال يطبق فى السطرين (٨٠) – (٨١) الصفتين أنفسهما على ضمير المتكلم الجمع، وهو الذى يمكن أن نعتبره، كما سبق لى أن ذكرت، عائدًا على الحكومة أو على

"الشعب" كله. وما دمنا نستطيع فى هذه المرحلة إدراك أن هذه الصفات تنتمى "للشعب"، فمن اليسير تفسير ضمير المتكلم الجمع باعتباره يشير إلى "الشعب".

ونجد فى حالات أخرى مقولات تتسم بتنسيق قد يكشف عن حساسية السيدة ثاتشر لما يتميز به الجمهور من تنوع فى الشرائح التى تحاول تحقيق تلاحمها فى قاعدة واحدة. وربما أفضل مثال قولها فى السطر (٦١) "امتلاك عقار فامتلاك المنزل". إذ إن بعض أفراد القاعدة الشعبية للسيدة ثاتشر يرون أن امتلاك عقار ذو معنى باهر يزيد على قدرة الانتفاع بالرهن العقارى، وأما الغالبية فمن المحال أن ترى فيه ما يزيد عن هذا. ولدينا حالة أخرى فى السطور (٥١) - (٥٥) حيث إن إعلاء قيمة العملة تعبير يفهمه كل أفراد الجمهور، ولكن السياسة المالية السليمة تعبير شبه تقنى ينتمى إلى النظرية الاقتصادية الثاتشرية ولا يستطيع إدراك دلالته إلا "المحيطون ببواطن الأمور". ولدينا مثال آخر يختلف بعض الشىء فى السطور (٤٥) - (٤٧) حيث يعامل الجزء الثانى من العبارة المنسقة الشئون الحكومية معاملة الأشخاص، أى من حيث العلاقات فيما بين الأشخاص (أنك ملتزم بكلمتك) وربما كان القصد من هذا توصيل الفكرة إلى شرائح معينة من الجمهور. وقد يخطر على بال المرء هنا ما اشتهر من القياس الذى تقيمه السيدة ثاتشر بين الاقتصاد القومى والاقتصاد المنزلى. والمثال الأخير بالغ الاختلاف فالتنسيق بين الصناعات المزدهرة والخدمات المزدهرة (٥٦) نموذج صغير للطاقة الإبداعية الأيديولوجية، وتفسيره يقتضى من الجمهور الافتراض المضمر بإمكان تقييم الخدمات وفق معايير نجاح تماثل ما يُطبق على الصناعات، وهو افتراض ثاتشرى حقًا. وهذا المثال ينتمى فى الواقع إلى فئة المضمون، أى تمثيل العالم.

وهناك ملاحظة أخيرة حول استخدام السيدة ثاتشر للقوائم. فعندما يواجه المرء قائمة ما فإنه يواجه فى الحقيقة مجموعة من الأشياء التى يرتبط بعضها ببعض ولكن دون أدنى إشارة إلى نوع الارتباط على وجه الدقة. وهذا يعنى أن على المفسر أن 'يقوم بالعمل المطلوب'، بمعنى أن يستنبط الروابط التى تُركت مضمرة. وهكذا ففى حدود قيام قوائم السيدة ثاتشر 'بعمل' أيديولوجى تجاه جمهورها، فإن أفراد الجمهور يُجتذبون إلى أداء بعض هذا العمل تجاه أنفسهم!

الصراع: سياق التناص

لا يستنكف المذهب الثاتشرى، كما سبق أن قلت، مهاجمة الخصوم السياسيين، وإن لم تكن فى النص الذى ننظر فيه أية إشارات سافرة على الإطلاق إلى الخصوم. ولكن فيه

عددًا محدودًا من الإشارات المستترة إليهم، ولنا أن نعتبرها وفقًا لما قاله الفصل السادس إشارات إلى نصوص معارضة فى سياق التناص. ولنا عند إجابة هذا السؤال التركيز على جملتين منفيتين (٢٢) – (٢٣) وتقع المقولات المعارضة المؤكدة (المطبوعة بالبنط الأسود) فى السطور (٤٨)، (٥٠)، (٥٥) – (٥٦)، و(٩٣) – (٩٥).

السؤال الرابع: ماذا فى معالم النص من آثار الصراع بين منتجة النص وبين خصومها؟

١- الجمل المنفية. المقولات المنفية تستدعى وترفض المقولات المثبتة المقابلة لها فى سياق التناص، ولكن الصورة أشد تعقيدًا مما يوحى به هذا فى حالة المقولات المنفية فى السطرين (٢٢) – (٢٣) لأنه من المحال أن نتصور نسبة المقولتين المثبتين التاليتين إلى الخصوم السياسيين للسيدة ثاتشر: إنهم ينتظرون أن يأمرهم أحد، / إنهم يحبون فعلًا أن يسوقهم أحد. وتنحصر المسألة فى أن منتجى النصوص، عندما يحيلون القارئ إلى النصوص المعارضة فى سياق التناص، يعيدون صياغة هذه النصوص فى جميع الأحوال، فيستبدلون صياغة أيديولوجية معارضة بصياغة خصومهم. والسيدة ثاتشر فى هذه الحالة تحيل القارئ إلى صيغة موجبة أخرى كى تبرز خطأها، والأرجح أن تكون هذه على النحو التالى: الناس تحتاج إلى الإرشاد أو الناس على استعداد صادق لتلقى الإرشاد (من هيئات الرعاية الاجتماعية).

٢- المقولة المؤكَّدة. هذه فى الواقع عكس النفى. فهى تستدعى وترفض مقولة منفية مقابلة لها. وفى السطر (٤٨) من المقتطف مثلًا نقرأ "**لابد أن تبدى القوة بالنسبة للقانون والنظام**" وهو ما يمكن أن يحيل القارئ، بعد تعديل الصياغة المشار إليه آنفًا، إلى مقولة منفية مثل "**لا يوجد ما يدعو إلى تضخيم قضية القانون والنظام**" فى سياق التناص. وقس على ذلك السطر (٥٠). وأما فى السطور (٩٣) – (٩٥) فإن التوكيد المضاد يعمل بأسلوب مختلف إلى حد ما، إذ يعتبر طريقة لتكرار المقولات التى صرحت بها فى موقع سابق من المقتطف وأما المثال الوحيد على المقولة المعارضة فيقع فى السطرين (٥٥) – (٥٦): فإن كلمة الشعب تحمل تأكيدًا خاصًا، ونفسر تأثيره بأنه يعنى "أنت تتوقع من الشعب لا من سين أو صاد أن يخلق صناعات مزدهرة وخدمات مزدهرة". وأما تحديد هوية سين أو صاد فمتروك للجمهور استنادًا إلى معرفته الاجتماعية، وكذلك السياق المباشر الذى تجرى فيه السيدة ثاتشر مقابلة بين الشعب وبين الحكومة. وأتصور أن المقصود بسين وصاد هو الحكومات، وأن السيدة ثاتشر تشير هنا إلى سياسات خصومها السياسيين التى تقول بأن على الحكومات أن تتحكم مباشرة فى الاقتصاد وفى الخدمات. والتنسيق الذى يربط الصناعات المزدهرة والخدمات المزدهرة تنسيق دقيق هنا إذ ينسب

إلى المعارضة التزامها بمسؤولية الحكومة عن الخدمات التى تقول إن معايير نجاحها هى معايير نجاح الصناعة نفسها.

التفسير

علينا أن نحاول الآن أن نعيد، جزئيًّا، بناء عملية الإنتاج عند السيدة ثاتشر حتى نبين كيف تنشأ المشكلات وكيف نحاول حلها. وأسلوب العمل المثالى يقتضى منا أن نعيد بناء العمليات التفسيرية عند أفراد الجمهور، وإلا استحال علينا أن نعرف إن كان الحل الذى وضعته السيدة ثاتشر قد نجح عند الجمهور. ولكننى سوف أقدم تعليقًا أو تعليقين على ذلك فى الختام، بسبب عدم إدراجنا أية معلومات عن الجمهور فى دراسة الحالة. والوضع المثالى أيضًا أن نستكمل المعلومات المتاحة لنا والتى تمكننا من تفسير عملية الإنتاج عند السيدة ثاتشر بما تقدمه من مبررات لاختياراتها النصية، على سبيل المثال.

ولسوف أفترض افتراضًا أدناه يرمى إلى تبسيط الحالة فأعتبر أن محاولات السيدة ثاتشر لحل المشكلات، وما يرتبط بها من الجمع بين أنماط الخطاب، خاصة بنمط الخطاب المحدد الذى اقتطعنا منه المقتطف وأنها جديدة عليه. والواقع يقول إن هذا بالقطع ليس صحيحًا، فإن السيدة ثاتشر تستفيد من الجمع بين أنماط خطاب أصبحت تقليدية عندها ولا تحتاج إلى إعادة خلقها من جديد فى كل خطاب. ولنا أن نتصور أن هذه تمثل 'رأسمال' متراكمًا من جميع ما أنجزته من قبل فى إعادة البناء. وهكذا فإن افتراضى القائم على التبسيط سوف يجعل هذا الخطاب الخاص يبدو أكثر تجديدًا مما هو عليه فى الواقع.

السؤال الخامس: ما المشكلات التى تنشأ للسيدة ثاتشر فى غضون إنتاج النص بسبب حالات التناقض بين مواردها وبين تحليلها للموقف؟ وما الصور الجديدة للجمع بين أنماط الخطاب التى تولدها فى محاولة حلها؟

فلنبدأ بتفسير سياق التناص، مستخدمين الإطار الوارد فى الفصل السادس. والتفسير الذى أقول بها استنادًا إلى الأدلة النصية هو نفسه، فيما يبدو، التفسير الذى تستعمله

السيدة ثاتشر. فأما من حيث 'ما يحدث' فإن نمط النشاط مقابلة سياسية إذاعية، ولاحظ أن هذا التعريف يقدم لنا مكانة مؤسسية مزدوجة أى تجمع بين السياسة والإذاعة. وأما من زاوية المشاركين، ومن حيث 'نوع العلاقات' فإن مواقع الذوات للمشاركين هى: (١) متحدث، ومخاطب، ومستمعون (أى مواقع الكلام والاستماع المرتبطة بالموقف)، و(٢) من يُجرى المقابلة، ومن تجرى معه المقابلة، و'المشاهدون' (المواقع المرتبطة بنمط النشاط. ولما كانت لدينا مكانة مؤسسية مزدوجة فإن لدينا أيضًا (٣) مجموعتين من الهويات المنسوبة إلى المشاركين وفق المؤسستين، فالأولى تنتمى إلى الإذاعة، وتضم الشخصية الإعلامية، والصحفى، والجمهور. والثانية تنتمى إلى السياسة، وتضم الزعيم السياسى، والصحفى، وأفراد الجمهور. ومن الجوانب الأخرى ذات العلاقة بالمشاركين أن السيدة ثاتشر امرأة تخاطب القائم بالمقابلة، وهو رجل، أمام جمهور يجمع بين النساء والرجال، وأن هذا الجمهور من المحتمل أن يتمتع بالتنوع الاجتماعى والسياسى، وإن كان التنوع محدودًا ما دامت هذه مقابلة مذاعة فى البرنامج الثالث [برنامج الخاصة].

وافتراضى يقول، حتى هذه اللحظة، إن تفسير موقف المذيع مايكل تشارلتون لا يختلف كثيرًا عن تفسير موقف السيدة ثاتشر، وإن كان من المحتمل أن يختلف تفسير كل منهما إلى حد ما للأغراض والموضوعات (جوانب 'ما يحدث'). فالوعاء المؤسسى للخطاب عند تشارلتون هو الإذاعة، وللسياسة مكانة ثانوية، باعتبارها موضوعًا وحسب، والمستمعون فى المقام الأول جمهور الإذاعة، والسيدة ثاتشر أساسًا 'شخصية عامة'. وهكذا فإن الغرض من البرنامج (بل من سلسلة البرامج التى ينتمى إليها هذا) هو إتاحة الفرصة للجمهور حتى يطلع على آراء شخصية عامة مهمة.

وتقبل السيدة ثاتشر، فى الظاهر، هذا كله. ولكنها ملتزمة تقريبًا، على مستوى خفى، باعتبارها سياسية، بأن تعتبر أن الوعاء المؤسسى للخطاب هو السياسة، وأن تعتبر الإذاعة وسيلة سياسية، وأن المستمعين فى المقام الأول أفراد الجمهور، وأنها فى المقام الأول زعيمة سياسية. ومن ثم فإن لديها غرض يكمن تحت قبولها الظاهرى للتعريف الذى يقدمه المذيع لأغراض المقابلة، وهو غرض لا تعترف به صراحة (وإن كان مفهومًا على نطاق واسع) وهو غرض استراتيجى يتلخص فى إحداث تأثيرٍ مُوَاتٍ سياسيًّا فى أفراد 'الجمهور' من المستمعين. ويؤدى هذا الغرض الاستراتيجى بالسيدة ثاتشر إلى التخلى عن 'ذاتها' وعدم محاولة الانتساب إلى الجمهور الذى تفترضه، بل أن تبنى صورة لنفسها، وصورة لجمهور مستمعيها، وصورة للعلاقة بينهما تتفق مع غرضها الاستراتيجى.

وأنا أركز هنا على السياق الموقفى لا على سياق التناص، ولكن دعونا نتأمل الأخير

لحظة واحدة: إن على السيدة ثاتشر أن تقوم بتقييم خبرة التناص التى يتمتع بها المذيع والجمهور حتى تحدد ما ينبغى السكوت عنه والنصوص التى يمكنها الإحالة إليها. ويبدو أن تقييمها للجمهور حاسم، فهى تتحاشى افتراض خبرات تناص قد يتمتع بها المذيع ولا يتمتع بها الكثير من أفراد الجمهور. ومن الأمثلة على ذلك آثار الصراع التى نوقشت فى الإجابة عن السؤال الرابع.

ولننتقل الآن إلى حالات التناقض بين بعض العناصر فى هذا التحليل، وموارد السيدة ثاتشر، وكيف تبدو كمن يحاول التوفيق بينها. وسوف أتبع ترتيب الأسئلة من ١ - ٣ أعلاه، فأناقش العلاقات ثم موقع الذات الخاص بالسيدة ثاتشر، وبعده موقع الذات الخاص بالجمهور.

فأما عن العلاقات، فسوف أفترض تبسيطًا للأمور أن موارد السيدة ثاتشر تتضمن أنماط خطاب تجسد افتراضات معينة عن العلاقات بين الزعماء السياسيين والجمهور تتفق تقريبًا مع افتراضات تشيرشيل أو آتلى أو إيدن من بين رؤساء الوزراء الذين جاءوا بعد الحرب. وإذا لخصنا هذه الافتراضات فى وصفة للزعامة السياسية وجدناها تقول "حافظ على ابتعادك وأكد سلطتك". والواقع أن رؤساء الوزارات الذين توالوا منذ الحرب، قد صادفوا زيادة مطردة فى تعقيد هذه العلاقة القائمة على الابتعاد والتسلط، لأسباب أشير إليها عندما نأتى إلى السؤال السادس. وفى هذا المثال نستطيع أن نرى أن هذا ينشأ مباشرة من التناقض بين هذه الموارد وبين تحليل علاقات المشاركين التى تحاول السيدة ثاتشر فرضها على السياق لأغراض استراتيجية. وقد اختلفت باختلاف السياسيين أشكال الاستراتيجية التى تتبعها السيدة ثاتشر لحل المشكلة، بالجمع بين العناصر العلائقية لخطاب المحادثة (كاستعمال ضمير المخاطب وغيره) وبين العناصر العلائقية لنمط الخطاب السياسى التقليدى المعبرة عن السلطة (أى الكلام باسم 'الشعب'). وهكذا تتغير الوصفة لتصبح "ازعم تضامنك ولكن أكد سلطتك". ولكن أمامنا خطرًا يتمثل فى أن من يزعم التضامن يعجز عن الحفاظ على السلطة، وهو ما يجعل تحقيق هذا المزيج إشكالية معينة. وتزداد شدة الإشكالية بالنسبة للسيدة ثاتشر بسبب الاستبعاد التقليدى للمرأة عن مواقع السلطة. ويؤدى بنا هذا إلى التناقض التالى.

ففى حالة موقع الذات الخاص بالسيدة ثاتشر، نرى تناقضًا بين الموارد التى طالما أتيحت للسياسيين (باستثناء التغييرات فى الموارد التى أسهمت السيدة ثاتشر نفسها فى استحداثها قبل إجراء المقابلة الشخصية) بما فى ذلك الافتراضات الكامنة فى أنماط الخطاب والتى تقول إن موقع الذات للزعيم السياسى موقع ذكورى، وبين الحقيقة الواضحة وهى أن السيدة ثاتشر امرأة، بل وبين صورة الذات التى ترغب السيدة ثاتشر فى إبرازها فى

السياق لأسباب استراتيجية أيضًا. ونلاحظ أن المشكلة فى هذه الحالة لا تتعلق بهدم بناء سابق لأنماط الخطاب بالنسبة للزعيمة السياسية، إذ لم يقم من قبل مثل هذا البناء قط. ومن الممكن تلخيص الاستراتيجية التى تطبقها السيدة ثاتشر لحل المشكلة فى الوصفة التالية "كونى سلطوية، حاسمة، صلبة، ولكن من دون الانتقاص من أنوثتك". ويبدو هذا متناقضًا لأن الصفات الثلاث فى الجزء الأول ترتبط جميعًا بالذكورة. وأما ما تفعله السيدة ثاتشر فهو الجمع بين العناصر السلطوية التعبيرية الخاصة بنمط الخطاب السياسى الذكورى التقليدى (مثل النوعية السلطوية)؛ وبين عناصر 'الصلابة' التعبيرية (كقولها 'اسمع'! ورفضها لمحاولة المذيع حرمانها من دورها فى الحوار) الخاصة بأنماط خطاب ذكورية أخرى؛ وبين عناصر أنثوية تعبيرية تكتسب أشد وضوح لها فى الخطاب البصرى للزى الذى تتزيَّا به، وأيضًا معالم النوعية غير السلطوية، مثل قيمتى إنكار الذات والحصافة اللتين نسبتُها إلى هذه المعالم، فهى أنثوية نمطية. وعلى الرغم من إحراز السيدة ثاتشر نجاحًا باهرًا فى بناء موقع زعيمة أنثوية، فإن ذلك الموقع أبعد ما يكون عن الموقف النسوى (أى مذهب نصرة المرأة). وارجع إلى المناقشة فى السؤال السادس.

ونصل أخيرًا إلى موقف الذات الخاص بأفراد 'الجمهور' الذين يشكلون جمهور المستمعين. ويقع التناقض فى هذه الحالة بين الافتراضات التى يصادفها المرء فى الأشكال التقليدية للمذهب المحافظ بشأن 'الجمهور'، وبين 'الجمهور' التى تبنيها السيدة ثاتشر اهتداءً بالتزاماتها وأهدافها السياسية المحددة. أى إن استراتيجية السيدة ثاتشر، كما رأينا، ترمى إلى الجمع بين عناصر معينة من المذهب المحافظ التقليدى (مثل العاطفة الوطنية، والالتزام بالأسرة.. إلخ) وبين الخطاب الليبرالى الجديد (المناهض لتدخل الدولة وما إلى ذلك بسبيل). والخصائص الأخرى لصورة 'الشعب' التي ترسمها تترتب على ما سبق قوله عن العلاقات وعن موقع الذات للسيدة ثاتشر: أى إن 'الشعب' يقبل الزعماء المتسمين بالصلابة والحسم، ويقبل حق هؤلاء الزعماء فى القول بتضامنهم مع 'الشعب' وفى الإفصاح عن رغباتهم وآمالهم ومخاوفهم وهلم جرًّا. وهذا تصوير 'شعبى' للشعب، وعنصر آخر من عناصر إعادة البناء الجديدة عند السيدة ثاتشر.

الشرح

ووفقًا لمقتضيات مرحلة الشرح حسبما عُرضت فى الفصل السادس، أرى أن علينا الآن أن ننظر فى خطاب السيدة ثاتشر باعتباره عنصرًا من عناصر عمليات اجتماعية تجرى على المستويين المؤسسى والمجتمعى، وأن نبين أنه يخضع أيديولوجيًّا، لسيطرة

علاقات السلطة وصراع السلطة، مثلما يتحكم فيهما على هذين المستويين أيضًا. وسوف أجعل السؤال السادس ذا شقين، يتفق كل منهما مع أحد المستويين، مستوى المؤسسة الاجتماعية ومستوى المجتمع.

السؤال ٦ أ : ما العمليات المؤسسية التى ينتمى إليها هذا الخطاب، وكيف تحدد الأيديولوجيا صورته وكيف يحدد صورة الأيديولوجيا؟

إن الوعاء المؤسسى لهذا الخطاب معقد إلى حد ما، لأن السياسة تتدخل فى عدد من المؤسسات، مثل الأحزاب السياسية، والمؤسسات السياسية (مثل البرلمان) والمؤسسات الحكومية (الأجهزة البيروقراطية للدولة مثلًا) وأجهزة الإعلام بطبيعة الحال. ويتعلق سؤال طريف بالمسار الذى سار فيه الخطاب الثاتشرى مخترقًا الحدود المؤسسية. وفى المثال الحالى نرى أن الوعاء المؤسسى المباشر هو أجهزة الإعلام (الإذاعة) ولكن السيدة ثاتشر، كما قلت عاليه، لا تسمح لنفسها بالتقيد بهذا الوعاء.

وأما العمليات المؤسسية التى ينتمى إليها الخطاب فهى، عمومًا، الصراع بين الأحزاب السياسية (فى أجهزة الإعلام والمؤسسات الأخرى) فى سبيل المؤازرة السياسية والسلطة السياسية (الحكومية) وبصفة أخص صراع 'اليمين الجديد' الثاتشرى للتفوق داخل حزب المحافظين، ثم فى سبيل السلطة الحكومية، ثم فى سبيل بناء توافق جديد فى الآراء السياسية. ولك أن ترجع إلى المناقشة العامة للمذهب الثاتشرى أعلاه. ولقد كان الخطاب الثاتشرى الذى ننظر فى نموذج منه عاملًا مهمًا فى هذا الصراع، وربما يكون مثالًا مُقْنِعًا لطاقة الخطاب على التأثير فى علاقات القوة وثمار الصراعات، من خلال تشكيله للأيديولوجيات وآثاره التي تتحكم فيها. وسوف أركز فى هذا المستوى على الطرائق التى يحدد بها خطاب السيدة ثاتشر هذه الأيديولوجيات وصورته الإبداعية، كما أناقش كيف تحدد الأيديولوجيا صورته فى إجابة السؤال ٦ ب.

يمكن اعتبار خطاب السيدة ثاتشر ذا طاقة على السيطرة الأيديولوجية على العلاقات الاجتماعية فى حدود قدرته على إيجاد ارتباط خاص بين السلطة والتضامن فى العلاقات ما بين السيدة ثاتشر، باعتبارها زعيمة سياسية، وبين 'الجمهور'. ولكن الواقع، كما ذكرت آنفًا، أن عزل مقولات السيدة ثاتشر أو مقولات المذهب الثاتشرى وفصلها عن سواها يتضمن قدرًا ما من التزييف، إذ إن هذه المقولات تشكل جانبًا من جوانب إعادة البناء الأعم للعلاقة بين الزعيم والجمهور، وهو الجهد الذى شاركت فيه معظم الأحزاب السياسية الرئيسية. ويعتبر النمو الهائل فى أهمية أجهزة الإعلام باعتبارها موقعًا مؤسسيًا للصراع السياسى عاملًا يفسر لنا ذلك، إذ أصبح من الصعب الحفاظ على علاقة متعالية أبوية إزاء الالتزام الغلاب لأجهزة الإعلام بالحفاظ على علاقات تقوم على المساواة

بين الإعلاميين و'العاملين' والجماهير. لكننى أومن بوجود أسباب مجتمعية أعمق سوف أتناولها أدناه. لقد أصبحت بعض صور المزج بين التضامن والسلطوية الآن من أعراف الزعماء السياسيين ولكن تأثيرها – من حيث التضامن – فى العلاقة الاجتماعية بين السياسيين وباقى السكان يستحيل التسليم به. فإن التضامن الذى يبديه السياسيون تضامن مع صور مصطنعة وخيالية للجمهور، وهم لا يعربون عن تضامنهم مع جميع الشرائح المتنوعة للجمهور الفعلى، بل ومن المحال أن يتصور أحد مثل أن هذا الزعم متبادل! فمثل هذا 'التضامن' زائف وهى أعود لمناقشته فى القسم الخاص بالسؤال ٦ ب.

وأما التأثير الأيديولوجى للسيدة ثاتشر فيما يتعلق بالهويات الاجتماعية للزعيمة السياسية و'الجمهور' فإنه يعود بتحديد أكبر – إلى إبداعاتها الخاصة. فلقد اكتسبت المؤسسات السياسية نوعًا جديدًا من الزعامة التى تجمع بين الخصائص السلطوية التقليدية وبين الأسلوب الصلب المقدام فى الزعامة، فإنها دعمت موقف اليمين الجديد فى السياسة فى بريطانيا، أما مدى تدعيمها لموقف المرأة فمسألة لم تحسم بعد، ولا شك أن المرأة سوف يسهل عليها أن تشغل مواقع سيادية قيادية بفضل ارتياد السيدة ثاتشر لهذا المجال، وإن كان ذلك فى حدود صارمة، وارجع إلى السؤال ٦ ب حيث أناقش ذلك. وأما فيما يتعلق بالهوية الاجتماعية 'للجمهور'، فالظاهر أن السيدة ثاتشر وأتباع المذهب الثاتشرى قد نجحوا إلى حد كبير فى إنشاء قاعدة اجتماعية للنزعة الفردية القائمة على المنافسة التى يدعون إليها.

والآن إلى السؤال ٦ ب، والانتقال من المستوى المؤسسى إلى المستوى المجتمعى:

السؤال ٦ ب : ما العمليات المجتمعية التى ينتمى إليها هذا الخطاب؟ وكيف تحدد الأيديولوجيا صورته وكيف يحدد صورة الأيديولوجيا؟

سوف أعلق على هذا الخطاب باعتباره جزءًا من عمليتين مجتمعيتين، الأولى هى الصراع الطبقى بين الطبقة الرأسمالية (أو الكتلة المهيمنة التى تشكلها) وبين الطبقة العاملة وحلفائها؛ والثانية هى الصراع بين المرأة والرجل. ولن يقتصر تركيزى هنا، كما فعلت فى تناول السؤال ٦ أ، على جوانب الخطاب التى تقوم بالتشكيل الأيديولوجى فقط، بل سوف أركز أيضًا على أسلوب تفاعل هذه الجوانب مع العناصر التى تخضع للتحكم الأيديولوجى فيه. وسوف يعود هذا بنا إلى العلاقة الجدلية بين التحكم الاجتماعى فى الذات وطاقة الذات الإبداعية، وهى التى كانت نقطة انطلاقنا فى بداية الفصل.

ولنبدأ بالعلاقات الاجتماعية، فنقول إن الكتلة المهيمنة فى مجتمعنا الرأسمالى تمارس

الهيمنة الاقتصادية والسياسية على الطبقة العاملة والطبقات الوسطى الأخرى فى المجتمع، على نحو ما بينته فى الفصل الثانى (انظر الطبقة والسلطة فى المجتمع الرأسمالى) ومن ثم فإن علاقة أصحاب السلطة فى الحياة العامة بجماهير السكان علاقة تحكم وسيطرة. والملاحظ فى السياسة، وفى غيرها من المجالات، أن الطامحين إلى السلطة – الأحزاب التى تسعى للظفر بسلطة الحكم – يسعون إلى تحسين أحوال الطبقة العاملة بدرجات متفاوتة، من دون أن يطعنوا فى السيطرة الطبقية. ومن ثم فإن عنصر السلطة فى الزعامة السياسية، مثل الزعامة فى مجالات أخرى، تتحكم فى تحديده العلاقات الطبقية.

لماذا إذن يتصنع الزعماء السياسيون التضامن مع 'الشعب'؟ أعتقد أن ذلك فى جوهره استجابة للتغيرات فى ميزان القوى بين الطبقة الرأسمالية وكتلتها المهيمنة من جانب وبين سائر المجتمع من جانب آخر. فلقد شهد القرن العشرون زيادة تدريجية وإن لم تكن دائمًا ميسرة، فى قدرة الطبقة العاملة وحلفائها على تحديد مسار الأحداث داخل الرأسمالية، من خلال نمو النقابات، والتمثيل السياسى فى البرلمان والحكومة من خلال حزب العمال وهلم جرًّا. وإزاء ذلك ظهرت أيديولوجية 'شراكة' حاولت تصوير المجتمع الرأسمالى فى صورة المجتمع الخاضع 'للشراكة' بين الرأسماليين والعمال. وهكذا اختفت العلاقات السطحية المميزة للتفاوت الاجتماعى برمتها من مؤسسات كثيرة، وليست السياسة سوى مؤسسة واحدة منها.

ويرتبط 'تضامن' الزعماء السياسيين مع 'الجمهور' ارتباطًا وثيقًا إلى حد بالغ بظاهرة أعم من ظواهر أجهزة الإعلام الجماهيرية، وغيرها من المجالات الاجتماعية، وهى مفهوم إضفاء طابع شخصى مصطنع، وكنت قدمت هذا المفهوم فى الفصل الثالث، وسوف أقول المزيد عنه فى الفصل الثامن. وإضفاء الطابع الشخصى الاصطناعى يحاكى التضامن، ويبدو أنه كلما زادت 'جماهيرية' أجهزة الإعلام، وكلما قل من ثم احتكاكها بالأفراد أو بجماعات معينة فى جماهيرها، ازداد حدب الإعلاميين وكبار 'الشخصيات' (والسياسيون من بينهم) على ادعاء علاقتهم بأفراد الجمهور باعتبارهم أفرادًا يتقاسمون مساحات شاسعة من الأراضى المشتركة. ويعمل هذا الشكل من أشكال التضامن باعتباره استراتيجية 'احتواء'، بمعنى أنه يمثل إقرارًا بقوة الطبقة العاملة وحلفائها من ناحية، لكنه يمثل نقابًا من المساواة يُمَكِّنُ ضروب التفاوت الحقيقية من ورائه فى المجتمع

الرأسمالى أن تستمر من ناحية أخرى. وهكذا فإن العنصر المسيطر أيديولوجيا 'يحتوى' فى داخله العنصر الخلاق والخاضع للسيطرة الأيديولوجية. وهذه هى العلاقة التى سوف أبين أنها تشمل شتى أرجاء الخطاب الثاتشرى.

فإذا انتقلنا إلى الهوية الاجتماعية لزعيمة سياسية، استطعنا أن نرى كذلك سياسة احتواء تُمارس تحت قناع الارتقاء بموقع المرأة، وهو ما يحققه التأويل السطحى لما تقوله السيدة ثاتشر وتفعله. وقد رأينا نساءً ذوات سلطة بعدها، ولكن السيدة ثاتشر، فى إحرازها السلطة، تصور أسلوبًا من أساليب المرأة يعتبر فى جوهره أبويًا، وهو يعيد إنتاج المجتمع الأبوى فى التظاهر بأن يخترقه. وهذه مفارقة إذن، فإن ما يبدو كسبًا للمرأة يمثل هزيمة للمذهب النسوى [أى نصرة المرأة]. وكما هو الحال فى العلاقات الاجتماعية، يتضمن إنجاز السيدة ثاتشر عنصر إقرار أو تسليم معين، أى التسليم بازدياد قوة المرأة فى الاقتصاد، وفى المهن، وفى الحياة العامة. ولكنه كذلك تسليم ذو حدين، إذ يعنى احتواء الارتقاء بالمرأة داخل حدود أبوية. ولنا أن نقول ما يماثل هذا عن الحدود التى تتقدم فيها المرأة لاحتلال مواقع ذات سلطة أكبر نسبيًا فى الشركات والمهن والشرطة وهلم جرًا.

ولكن حالة الهوية الاجتماعية التى ترسمها السيدة ثاتشر 'للجمهور' تختلف بعض الشىء وذلك أن المسألة لا تتضمن إقرارا أو تسليمًا بأى معنى من المعانى. ومع ذلك فإن القول بأن الإبداع الأيديولوجى الظاهر يخضع للاحتواء داخل معايير السلطة الطويلة الأجل التى تعمل فى نطاقها السيدة ثاتشر قول صحيح. وبعض الأبنية المحافظة التقليدية لصورة الجمهور تؤكد بعض العناصر التى تظهر فى أبنية السيدة ثاتشر لا فى غيرها، فهى تؤكد خصوصًا التزامات معينة، مثل الأمة والأسرة باعتبارها تعريفات 'للجمهور'، وأما فى سياق الصراع الطبقى فى أى مجتمع رأسمالى، فالعامل الحاسم لا يتمثل فى أسلوب تعريف 'الجمهور' على وجه الدقة بقدر ما يتمثل فى عدم تعريفه من زاوية الطبقة الاجتماعية. وفى هذا الصدد تعتبر صورة 'الجمهور' عند ثاتشر مجرد صورة محلية من بين صور أخرى. كما توجد روابط بين السياسة وشتى المجالات المؤسسية التى تتشكل أو تتكون فيها بعض الأشكال الجماعية 'للجمهور'، مثل 'المستهلكين' فى مجال الإعلان، من دون أن تظهر فيها قط الطبقة الاجتماعية، أو مواقع الأفراد فى عمليات الإنتاج الاقتصادى وما إلى ذلك بسبيل.

الخاتمة

قلت لتوى عاليه إن خطاب السيدة ثاتشر يتميز بعلاقة احتواء بين العوامل الأيديولوجية الخلاقة، والعوامل المسيطرة أيديولوجيا، وإن الأولى لا تنشأ وتترعرع إلا داخل حدود تضعها الأخيرة. ويعتبر هذا إيضاحًا خاصًا للمقولة العامة التى استهللت بها هذا الفصل عن الإبداع الفردى والسيطرة الاجتماعية. فليس الإبداع الفردى بحال من الأحوال، فى الخطاب أو بصفة أعم، بذلك الجهد الإرادى المستقل عن المجتمع الذى شاع تصوره، فدائمًا ما توجد ظروف اجتماعية معينة تمنحه الفاعلية وتفرض القيود عليه بل إنها قد تؤدى إلى إفساده جزئيًا (كما فى هذه الحالة).

المراجع

اعتمدت اعتمادًا كبيرًا فى هذا الفصل على كريس (1985) الذى يتضمن مناقشة مفيدة للعلاقة بين الذات والإبداع والسيطرة الاجتماعية فى الخطاب. ويعتبر عمل فوكوه، خصوصًا فوكوه 1972 خلفية عامة لهذا الفصل. انظر أيضًا فيركلف (1992a). ولاكلاو وموف (1995) عمل نظرى مهم عن الخطاب السياسى. وفيما يتعلق بالخطاب السياسى 'لحزب العمال الجديد' انظر فيركلف (2000a) وفيما يتعلق بالمذهب الثاتشرى انظر هول وجاك (1993) وجيسوب وغيره (1988). وكتاب كاندلين ولوكاس (1988b) يقدم تحليلًا موحيًا للجمع الخلاق بين أنماط الخطاب فى خطاب المشورة [التى يقدمها الاختصاصيون الاجتماعيون] بشأن تنظيم الأسرة. وانظر أيضًا فيركلف (1992a).

الفصل الثامن

الخطاب فى التغير الاجتماعى

ينبغى أن توجه الدراسة النقدية للغة اهتمامها إلى الأبعاد الخِطابية للاتجاهات الاجتماعية الرئيسية حتى تبت فى الدور الذى يلعبه الخطاب فى نشأة التغير الاجتماعى وتطويره وتدعيمه. وهذا يعنى تركيز انتباهنا على التغييرات فى النظام المجتمعى للخطاب أثناء فترة معينة. وأرجو أن أبدأ بداية متواضعة فى هذا الفصل بالنظر فى العلاقة بين اتجاهات اجتماعية معينة واتجاهات معينة فى نظم الخطاب فى الرأسمالية المعاصرة. ولعل القراء يذكرون مناقشتى الموجزة لهذه العلاقة فى الفصل الثانى، وعلى الرغم من أننى أشير إلى بريطانيا فإن الاتجاهات الاجتماعية والاتجاهات الخطابية لها نظائر على ما يبدو فى المجتمعات المماثلة.

الاتجاهات فى المجتمع والخطاب: ملخص

فى صُلْب التحليل الذى أجراه يورجن هابرماس للرأسمالية المعاصرة الزعم بأنها تتميز إلى حد ما بوجود 'نظم' تستعمر حياة الناس وأن هذه النظم تضخمت أبعادها فوصلت إلى ما يعتبر أزمة. وأما 'النظم' فهى المال والسلطة، أو الاقتصاد والدولة والمؤسسات. إذ نرى من ناحية أن الاقتصاد وسوق السلع – فى صورة المذهب الاستهلاكى – يؤثران تأثيرًا هائلًا لا ينقطع فى شتى جوانب الحياة، وأشد وسائطه وضوحًا هى التليفزيون والإعلان. ونرى من ناحية أخرى أن الدولة والمؤسسات تمارس سيطرة غير مسبوقة (خصوصًا من جانب المؤسسات العامة) على الأفراد من خلال شتى أشكال البيروقراطية.

والذى أريد أن أقوله هو إن أشكال 'استعمار' حياة الناس المذكور يتكون جانب منها من عناصر 'الاستعمار' فى النظام المجتمعى للخطاب. وأما النظام المجتمعى للخطاب فهو بناء معين للمقومات المؤسسية لنظم الخِطاب، وأما الأبنية القائمة فيجوز

(كما رأينا فى الفصل السابع) أن تتعرض للهدم فى غمار الصراع الاجتماعى. ولنا أن نرى أن الاتجاهات الاجتماعية التى حددها هابرماس تفرضها الكتلة المهيمنة فى الصراع، وأنها تتضمن إعادة بناء أنظمة الخطاب المجتمعية السابقة. وأنا واثق أن الكثير من القراء على وعى بهذه 'العملية'، وخصوصًا بالأسلوب الذى تمكنت به صور خطاب المذهب الاستهلاكى والبيروقراطية من 'استعمار' أنماط خطاب أخرى، أو توسيعها على حسابها. وسوف يجد القراء فائدة فى النظر فى أمثلة خاصة بهم أثناء قراءتهم هذا الفصل.

ولنا أن ننظر فى عمليات إعادة البناء المذكورة باعتبارها تحولات فى العلاقات البارزة بين أنماط الخطاب داخل النظام المجتمعى للخطاب. وقد ظهرت أنماط خطاب المذهب الاستهلاكى بوضوح وجلاء داخل نظم الخطاب، وخصوصًا خطاب الإعلان، وأنماط الخطاب البيروقراطى، مثل خطاب المقابلات الشخصية. والظهور الواضح لا يقتصر معناه على شغلها موقعًا بارزًا، أو على أن الناس على وعى بأهميتها، بل يعنى أيضًا أنها تمثل موردًا ينهل الناس منه على نطاق واسع. وينتمى النمطان [المميزان للمذهب الاستهلاكى والبيروقراطية] إلى ما يسميه هابرماس الخطاب الاستراتيجى، أى الخطاب الموجه لتحقيق غايات نفعية، وإحراز النتائج. ويقوم التضاد بصفة عامة بين الخطاب الاستراتيجى وبين الخطاب التوصيلى الذى يهدف إلى تحقيق التفاهم بين المشاركين. وبروز النمطين المشار إليهما أولًا يمكن تفسيره بأنه استعمار الخطاب الاستراتيجى للخطاب التوصيلى فى النظام المجتمعى للخطاب. (لاحظ أن هذا معنى خاص وضيق أشد الضيق لمعنى صفة 'التوصيلى').

وقد أدت الصور المذكورة لاقتحام الاقتصاد والدولة للحياة إلى نشأة مشاكل وأزمات خاصة بالهوية الاجتماعية لكثير من الناس الذين خبروها وعالجوها على أسس فردية لا من خلال أشكال الصراع الاجتماعى. ويسعى عدد كبير من الناس اليوم إلى طلب شكل من أشكال المساعدة على حل 'المشكلات الشخصية'، إما فى الصورة العارضة للأعمدة الصحفية والمقالات الخاصة بالمشاكل فى المجلات، وإما فى شتى صور العلاج أو تلقى المشورة. وقد غدت أ نواع خطاب العلاج والمشورة وما إليهما

تمثل مجموعة أخرى، بارزة اجتماعيًا، فى داخل النظام المجتمعى للخطاب. وهكذا أصبحت – مثل أنماط خطاب المذهب الاستهلاكى والبيروقراطية – تمثل موقع استعمار داخل نظام الخطاب.

وسوف أناقش فيما يلى الجوانب المذكورة للنظام المجتمعى للخطاب، واحدًا بعد الآخر تحت العناوين التالية:

الإعلان والمذهب الاستهلاكى

تكنولوجيات الخطاب والبيروقراطية

خطاب العلاج

وتجنبًا للإيحاء بأن الاتجاهات التى حددتها عاليه لا يوجد غيرها فى الرأسمالية المعاصرة، فالقول بهذا خطأ، فإننى أختتم الفصل بمناقشة موجزة لاتجاهات أخرى، تعتبر مضادة من زاوية معينة، فى داخل المجتمع والخطاب.

الإعلان والمذهب الاستهلاكى

أبدأ هذا القسم بمناقشة المذهب الاستهلاكى ثم أنتقل إلى النظر فى "لائحة الممارسة الإعلانية البريطانية" ابتغاء تحديد 'النشاط' الأيديولوجى فى الإعلانات. وبعد ذلك أناقش ثلاثة من أبعاد النشاط الأيديولوجى فى الخطاب الإعلانى واحدًا بعد الآخر، أولها العلاقة التى يبنيها بين المنتج/ المعلن وبين المستهلك، وثانيها أسلوب بناء 'صورة' لأحد المنتجات، والثالث أسلوب بناء مواقع ذوات للمستهلكين. وتمثل هذه الأبعاد، على الترتيب، القيود المفروضة على العلاقات، والمضمون، والذوات، بالدلالات التى استخدمتها على امتداد هذا الكتاب. وبعد ذلك أناقش العلاقة بين العناصر اللغوية والبصرية فى الإعلان، والزيادة المطردة فى بروز الصورة البصرية. وأخيرًا آتى إلى ما أشرت عليه آنفًا بتعبير الاتجاهات 'الاستعمارية' للخطاب الإعلانى.

المذهب الاستهلاكى

من خصائص الرأسمالية الحديثة المذهب الاستهلاكى الذى يتضمن تحويل التركيز الأيديولوجى من الإنتاج الاقتصادى إلى الاستهلاك الاقتصادى، وإلى إيجاد مستوى غير مسبوق 'لتعدى' الاقتصاد على حياة الناس. فلنرصد بإيجاز ظهور المذهب الاستهلاكى قبل النظر إلى تأثيره المعاصر.

نشأ المذهب الاستهلاكى من مجموعات من الظروف الاقتصادية والتكنولوجية والثقافية التى أخذ معظمها ينمو ويترعرع منذ العقود الأولى للقرن العشرين، وعلى الرغم من أننا نستطيع رصد اتجاهات استهلاكية فى الجزء الأول من هذه الفترة، قل فى العشرينيات على سبيل المثال، فقد ازداد بروز المذهب الاستهلاكى على امتداد الفترة كلها مع تطور أنماط الظروف الثلاثة المشار إليها، بل ولقد ساعد على أن يغذو نموه نفسه بالإسهام فى تطورها، وخصوصًا فى المجال الثقافى.

وترجع الظروف الاقتصادية فى المقام الأول إلى مرحلة تطور الإنتاج الرأسمالى للسلع. فالمذهب الاستهلاكى ثمرة من ثمار الرأسمالية الناضجة، إذ بلغت الطاقة الإنتاجية حدًّا يتيح إنتاج أنواع من السلع لا حصر لها فى الظاهر وبكميات لا حصر لها فى الظاهر أيضًا. وأما الجانب الثانى من جوانب الظروف الاقتصادية فهو موقع قوة العمل: فالمذهب الاستهلاكى يعتمد على مستويات للأجور تتيح لقطاع كبير من السكان فائضًا لا يستهان به من المال بعد سداد التكاليف الأساسية للعيش، ويتيح أيضًا تخفيض ساعات العمل، وهو الذى يؤدى إلى توافر قدر كبير من أوقات الفراغ.

وأما الظروف التكنولوجية فهى أولًا الصحافة الحديثة، وهى التى كانت قائمة من قبل فى بداية القرن، ولكنها شملت، ثانيًا، ظهور السينما والإذاعة والتليفزيون. فأما 'الانطلاق' الحقيقى للمذهب الاستهلاكى فلم يبدأ إلا بظهور التليفزيون لا باعتباره ظاهرة تكنولوجية وحسب بل أيضًا باعتباره مؤسسة ثقافية استأثرت بنسبة كبيرة من وقت الفراغ لدى نسبة كبيرة من السكان.

وأما المجموعة الثالثة من الظروف، وهى التى ينصبُّ عليها التركيز هنا، فهى ثقافية. إذ قامت الرأسمالية – فى غمار التصنيع وبناء المدن – بتمزيق الروابط الثقافية التقليدية الخاصة بالأسرة المديدة، وبالمجتمع المحلى أو المجتمع الإقليمى أو المجتمع العرقى، وبالدين وما إلى هذا بسبيل. وقد حلت محل هذه الروابط التقليدية فى بعض الحالات روابط أخرى وَلَّدَها الناس فى بيئاتهم المدنية والصناعية الجديدة، وأهمها الروابط الطبقية.

ولكن ذلك لم يحدث فى جميع الحالات، بل حتى حيثما وُجدت هذه الروابط، فإنها كانت تتعرض للتقويض فى حالات كثيرة، كتدهور التصنيع على سبيل المثال، ويحيط كثير من القراء بأشكال شعور الأفراد بفقدان المجتمع المحلى أو بعدم وجوده أصلًا، ومنها الإحساس بانعدام الجذور، وفقدان الإحساس بحقيقة الواقع، وقلق المرء على هويته الاجتماعية، وهلم جرًّا. ويرى كثير من الناس أن هذه خبرات فردية محضة. وهذا الفصل بين الأشخاص وبين مجتمعاتهم الثقافية التى يمكنها أن توفر لهم الشعور بالهوية وبالقيم وبالأهداف هو العامل الذى يؤدى عمومًا إلى نمو الممارسة العلاجية والخطاب العلاجى، على نحو ما أقيم عليه الحجة فيما بعد.

ومما يشغلنا بصورة مباشرة تفوق ما سبق أسلوب نجاح رأس المال، من خلال الوسائط الإعلانية، فى الزعم بأنه سد هذه الفجوات. والإعلان بطبيعة الحال أبرز ممارسة مرئية للمذهب الاستهلاكى وأبرز خطاب بصرى له، وأشد ما يدهشنا من خصائصه مباشرة نطاقه الهائل، إذ نتعرض جميعًا للحقن بجرعات يومية هائلة من الإعلانات، وقد يحلو للقراء أن يحسبوا عدد الإعلانات التى يشاهدونها أو يسمعونها كل يوم، فى الإذاعة والتليفزيون والصحف والمجلات واللافتات أو الملقاة فى صناديق البريد، وفى الدكاكين ومراكز التسوق وما إلى ذلك بسبيل. ويستند الإعلان إلى نطاقه 'الكمىّ' المحض فى تحقيق أهم آثاره 'الكيفية'، ألا وهو إنشاء مجتمعات ثقافية للحلول محل المجتمعات التى دمرتها الرأسمالية. وإمداد الناس بالحاجات والقيم. ولك أن تقول إن هذه المجتمعات الجديدة قد أدت إلى نزوح المجتمعات القديمة، ولم تحل

محلها وحسب، إذ إن هذه المجتمعات المصطنعة (أو المُخلَّقة) تُقَدَّمُ باعتبارها بدائل عن المجتمعات الحقيقية. ويُطلق على هذه المجتمعات اسم المجتمعات الاستهلاكية. وتكمن فى ذلك الدرجةُ غيرُ المسبوقة 'لتعدِّى' الاقتصاد على حياة الناس، وهو ما أشرت إليه آنفًا. ويناقش السؤال التالى كيفية حدوث ذلك.

الأيديولوجيا ولائحة الممارسة الإعلانية البريطانية

سأتبع فى مناقشة كيفية بناء الإعلان لمجتمعات استهلاكية مدخلًا غير مباشر، أى من خلال مناقشة بعض المقتطفات من لائحة الممارسة الإعلانية البريطانية، وهى مدونة طوعية لأصول الممارسة تديرها هيئة المعايير الإعلانية، وتطبق على المطبوعات والأفلام السينمائية. وتعتمد الهيئة المذكورة فى تمويلها على اتحاد الشركات الإعلانية، وهو الذى تزعم الهيئة أنه يتمتع بالاستقلال. وتُطبَّق لائحة إجبارية مماثلة على الإذاعة والتليـفـزيون، وتديرها "هيئة الإذاعة المستقلة".

وفيما يلى مقتطفات قصيرة من النسخة المختصرة للائحة:

١- ينبغى أن تكون جميع الإعلانات قانونية مهذبة صادقة أمينة.

٢- لا تفرض بنود اللائحة قيودًا على حرية التعبير عن الرأى، بما فى ذلك التقديرات الذاتية لمدى جودة المنتجات أو جاذبيتها، بشرط التحقق دائمًا مما يلى:

- وضوح أن التعبير يفصح عن الرأى وحسب؛
- أنه من غير المحتمل أن يؤدى ذلك الرأى أو الأسلوب الذى يعبر به عنه إلى تضليل المستهلكين حول أى أمر يثبت صحته التقدير الموضوعى المبنى على أسس مقبولة عمومًا.

٣- لا يجوز أن يتسبب أى إعلان فى جعل الأطفال يعتقدون أنهم سيصبحون أدنى منزلة من غيرهم من الأطفال، أو سيفقدون حب غيرهم، إذا لم يشتروا منتجات معينة أو لم يجعلوا غيرهم يشتريها لهم.

وأهم ما أريد إيضاحه بشأن هذه اللائحة أنها ترمى إلى التحكم فى معالم المستوى السطحى للإعلان، وهى التى تتعلق بطبيعة اعتباره نوعًا من الاتصال الاستراتيجى، وبصفة أخص الاتصال الذى يهدف إلى الإقناع، بمعنى أنه موجه إلى بيع أشياء معينة (انظر المزيد أدناه) ولكنها تتجاهل ما أقول إنه العنصر الأهم مجتمعيًا، أى الوظيفة الأيديولوجية للإعلان. وأما الإجابة الموجزة عن سؤالنا كيف يبنى الإعلان مجتمعات استهلاكية فهى أنه يبنيها "من خلال الأيديولوجيا".

والبند الأول فى المقتطف الوارد أعلاه يلخص جانبًا أساسيًّا من جوانب اللائحة، والبند الثانى جزء من المواصفات التفصيلية للإعلان 'الصادق'، وهو يبين أن اللائحة تستند إلى التمييز الحاسم بين حقائق معينة، تقبل التقدير الموضوعى، وما ينتمى إلى الآراء وهى ذاتية. فأما بالنسبة للحقائق فاللائحة تفرض على الإعلانات تدعيم مزاعمها بأدلة صحيحة. واللائحة لا تتضمن إلا خيارين هما 'الواقع' و'الرأى' عند تقييم أحد الإعلانات من حيث علاقته بالحقيقة.

ولكن هذا مبنى على نظرة بالغة السطحية إلى العلاقة بين الخطاب والحقيقة، بمعنى أنها لا تأخذ فى اعتبارها إلا ضروب المزاعم والتقييم السافرة. وما شأن الافتراضات الموحى بها حيث يسلِّم الخطاب بالحقيقة دون مناقشة؟ إن الافتراضات الموحى بها [أى الخفية الكامنة] جانب لازم فى كل خطاب، وهى فى العادة، كما رأينا فى الفصل الرابع، ذات طبيعة أيديولوجية. وهكذا تتمكن اللائحة من إهمال الأيديولوجيا بتجاهلها جانب الحقيقة الموحى به فى الخطاب. وأعتقد أن هذا الإهمال يظهر بوضوح وجلاء فى البند الثانى، إذ أرى أن الإعلانات تتسبب فعلًا فى أن تخامر الأطفال المشاعر المشار إليها فى النص على نطاق لا يستهان به، لا بسبب إشارة الإعلان إلى العواقب الوخيمة على علاقة الطفل بأقرانه إذا لم يستطع مثلًا شراء لعبة معينة، ولكن بسبب الأيديولوجيا الموحى بها.

وسوف أفصح بالتفصيل فى القسم التالى عن أسلوب العمل الأيديولوجى للإعلانات. ولألخص أولًا ما سوف أقوله:

١- بناء العلاقات. يجسد الخطاب الإعلانى تمثيلًا أيديولوجيًا للعلاقة بين المنتج/ المعلن للمنتجات المعلن عنها والجمهور، وهو ما يسهل 'العمل' الأيديولوجى الرئيسى.

٢- بناء الصور. تدفع الإعلانات جماهيرها إلى الانتفاع بعناصر أيديولوجية فى 'مواردها الذاتية' فى تكوين 'صورة' للمنتجات المعلن عنها.

٣- بناء المستهلك. تستخدم الإعلانات 'الصور' التى 'يساعد' الجمهور فى توليدها للمنتجات باعتبارها وسائل معينة، وبذلك تبنى مواقع ذوات 'للمستهلكين' باعتبارهم أعضاء فى جماعات المستهلكين، وهذا كما سبق أن قلت هو العمل الأيديولوجى الرئيسى للإعلان.

مثال

سوف نستخدم المثال المبين فى النص ٨ – ١ خلال باقى المناقشة لموضوع الإعلان.

بناء العلاقات

يعتبر الإعلان عن الغسالة ميل، شأنه شأن عموم الإعلانات، خطابًا 'جماهيريًا' بمعنى أن له جمهورًا واسعًا غير محدد. وله أيضًا منتج مُركَّبٌ وغير محدد (من وجهة نظر الجمهور) إذ يتكون فى جانب منه من الفريق المنتج للمجلة التى أخذ منها (مجلة الإذاعة البريطانية راديو تايمز) وفى جانب آخر من فريق الوكالة الإعلانية التى وضعت تصميم الإعلان، وفى جانب ثالث من الشركة التى صنعت الغسالة وتحاول بيعها. وهو خطاب 'ذو اتجاه واحد' بمعنى عدم تناوب دورى المنتج للنص والمفسر له، فالمعلن هو المنتج للنص والجمهور هو المفسرون. وتشترك الإعلانات، بطبيعة الحال، فى هذه الخصائص مع خطاب أجهزة الإعلام الجماهيرية بصورة عامة.



النص ٨ - ١ المصدر شركة ميل ليمتد

والطبيعة الجماهيرية وغير المحددة للجمهور، والطبيعة المركّبة وغير المحددة للمنتج، تمثلان تحديًا للمعلن. إذ سوف يقرأ أفراد من الجمهور هذا الإعلان و(ربما!) يشترون المُنتج، وهكذا فإن المعلن يحتاج إلى مخاطبة أفراد الجمهور، مفترضًا سلفًا أن

المتكلم محدد الهوية. أى إن منتج النص وجمهوره فى حاجة إلى المسحة الشخصية، ولكن الظروف الفعلية لإنتاج الخطاب الإعلانى وتفسيره تقضى بأن تكون هذه مسحة شخصية مصطنعة وارجع إلى تقديمى هذا المصطلح فى الفصل الثالث.

حاول بالتركيز على المعالم النصية أن ترى كيف يتحقق فى هذا الإعلان إضفاء الطابع الشخصى المصطنع على أفراد الجمهور ومنتج النص.

يكمن جانب من الطابع الشخصى المصطنع الذى يضفيه الإعلان على فرد من أفراد الجمهور فى الموقع الذى يبنيه المعلن للمستهلك، وهو ما أناقشه أدناه. ولكنه يكمن فى جانب آخر منه فى العلاقة الذى تكتسب طابعًا شخصيًا بين المنتج والمستهلك، كما تفصح عنها المعالم النصية المنتشرة فى الخطاب الإعلانى، مثل المخاطبة المباشرة لأفراد الجمهور بضمير المخاطب، والجمل المبدوءة بفعل الأمر ("اعتبرها عبئا أزحته عن ذهنك" على سبيل المثال).

وأما إضفاء الطابع الشخصى المصطنع على المنتج فيتحقق فى جانب منه بالمخاطبة المباشرة لأفراد الجمهور، وهو ما يوحى بأن من يخاطبهم فرد واحد. ولكن هذا المتحدث ذو هوية غير محددة، إذ يختلف هذا النص عن النصوص الأخرى التى تتضمن ضمير المتكلم الجمع الذى يحدد هوية المتحدث باعتباره من يتحدث باسم الشركة التى أنتجت السلعة. ومع ذلك فإن المتحدث يكتسب طابعًا فرديًا من خلال القيم التعبيرية التى يختارها (فيما يُزعم!) انظر على سبيل المثال إلى أبنية الجمل فى متن النص (أى باستثناء العناوين) تجد أن العناصر الإعلانية المألوفة (مثل مخاطبة القراء، ووصف السلعة ومزاياها، ودعوة القراء إلى متابعة الإعلان [بشراء السلعة]) والمزاعم الكثيرة عن الغسالة، قد ضُغِطَتْ فى جمل تتميز أساسًا بالقصر والتركيز. فالتراكيب تتميز بكفاءة الإيجاز والوصول إلى المراد بلا لف ولا دوران، وصورة المتحدث تتخذ بناءً فرديًا يتسم بهذه الخصائص. وهو ما ينطبق، كما أبين أدناه، على الغسالة والمستهلك، أى إن المتحدث يخاطب أفراد الجمهور بصوته الخاص ويحدثهم عن سلعة تتفق معه ومعهم.

بناء الصور

تدعو الإعلانات جماهيرها إلى الاستفادة من بعض العناصر الأيديولوجية فى الموارد الذاتية لأفراد هذه الجماهير فى إنشاء 'صورة' للسلعة المُنتَجَة المعلن عنها. كيف يتحقق هذا فى حالة الإعلان عن الغسالة ميل؟

أعتقد أنه يتحقق من خلال مفاتيح معينة فى نص الإعلان، وهى مفاتيح لغوية وبصرية معًا، بحيث تنشئ إطارًا لأسلوب الحياة "الحديثة"، يرتبط ارتباطًا عامًا بالشرائح الشبابية والدينامية للطبقة الوسطى، ثم تستخدم هذا الإطار فى تفسير السلعة باعتبارها جزءًا من أسلوب الحياة المذكور. أما المفاتيح البصرية فهو ديكور الغرفة الرشيق الأنيق النظيف الذى يفصح عن حياة أسرة ذات كفاءة وإتقان، ومشهد الحديقة المشوش على اليمين، مع (ما نتصوره) من وجود رجل البيت وامرأته اللذين يتمتعان بثمار كفاءة جهودهما. وأما المفاتيح اللفظية فهى التعبيرات الكثيرة الخاصة بأولويات أسلوب الحياة 'الحديثة'، مثل اليسر، والكفاءة، والاقتصاد، والجمال: عبء أزحته عن ذهنك، يسيرة الاستعمال، اقتصادية، ذات كفاءة، يُعتمد عليها، قوية التحمل وهلم جرًّا.

ويتوسل إنتاج صورة السلعة بتداعى المعانى، إن صح هذا التعبير، إذ تستدعى إلى الذهن أسلوب الحياة الحديثة الذى يتميز بالرشاقة وبالكفاءة، بحيث تصبح الغسالة الكهربائية جزءًا منه، وأما خصائصها المادية، باعتبارها مُنتَجًا هندسيا، فترتفع قيمتها فى غضون بناء الصورة، بمعنى أنها تكتسب خصائص ثقافية تضاف إلى خصائصها المادية. وعملية "الرفع" أو الارتقاء المذكورة ذات أهمية حاسمة للسلع الحديثة، خصوصًا عندما تتنافس عدة منتجات تشترك فى الخصائص المادية نفسها تقريبًا فى سبيل الاستحواذ على سوق معينة.

ولكن بأى معنى من المعانى تعتبر هذه العملية عملية أيديولوجية؟ إنها أيديولوجية لأن الإطار الذى تستدعيه، والذى وصفته بأنه أسلوب الحياة 'الحديثة'، بناء أيديولوجى يستخدم وسيلة لتوليد صورة السلعة المنتجة، مثلما يجرى إنتاجه لذاته، وإعادة إنتاجه، من أجل ذاته. وهكذا فإن الإطار يضع فى قالب واحد ذواتًا اجتماعية تتسم بأنواع خاصة من العلاقات والأنشطة والأجواء والقيم وما إلى ذلك بسبيل، باعتباره تزكية قوية 'للوصفة' التى تحدد كيف يعيش المرء، فى العالم الحديث، إلى جانب الخرافة التى تقول إن أسلوب الحياة المذكور متاح للجميع، وهى أيديولوجية لأن القيم الأساسية لأسلوب الحياة المشار إليه تتداخل مع الاهتمامات الأساسية للرأسمالية المعاصرة، ومن بينها اعتبار الحد الأقصى من الكفاءة هدفًا لا فى الأنشطة الاقتصادية وحسب (إذ إن ذلك مألوف من زمن بعيد) بل أيضًا فى جميع تفاصيل حياة الشخص 'الخاصة' (التى لم تعد خاصة!). وهكذا فإن الإعلان يسوق الناس إلى الاعتراف بأسلوب الحياة المذكور واتباعه انظر أدناه) وبذلك يساعد على إضفاء الشرعية على الرأسمالية المعاصرة.

قلت عاليه إن العمل الأيديولوجى الرئيسى للإعلان بناء مواقع ذوات للمستهلكين باعتبارهم أعضاء فى جماعات استهلاكية، وإن هذا العمل يستخدم صورًا يولدها أفراد الجمهور للمنتجات باعتبارها وسائل توصيل. فلنتأمل الآن كيف ينجح هذا فى حالة الإعلان عن الغسالة ميل.

حدد طابع موقع الذات الذى ينشئه الإعلان عن الغسالة 'ميل' للقارئ. ما نوع الجماعة التى يمكن أن ينتمى إليها الشاغل المثالى لموقع الذات المذكور؟ كيف تسهم صورة المنتَج عند القارئ فى موقع القارئ باعتباره ذاتًا مُسْتَهْلِكة؟

إجابة هذا السؤال تتبع بدقة إجابة السؤال الأخير، إذ إن موقع الذات الذى أُنشئ للقارئ يقوم، على وجه الدقة، على أساس قبوله الإطار الأيديولوجى – باعتباره ينتمى إلى المنطق السليم المطبع – الذى يحتاجه المرء لتفسير الإعلان وتخصيص صورة للمُنتَج. والشاغل المثالى لموقع الذات المذكور ينتمى إلى جماعة تتفق حاجاتها وقيمها وذائقتها مع الحاجات والقيم والذائقة الباطنة فى الإطار. إنها جماعة يشغلها تيسير أمور الحياة بأقل تكلفة ممكنة. أى إنها جماعة من المستهلكين، إذ إن هذه المشاغل تنسب عمومًا إلى المستهلكين. وهى جماعة تتطلب من بيئتها الميسرة أن تتسم بخصاص عملية وجمالية مثل الخصائص الممثلة هنا، أى القدرة على أداء الوظيفة، وسهولة الصيانة، والرشاقة البسيطة، وترى وقت الفراغ فى صورة محددة، يوحى بها مشهد الحديقة. أى إنها جماعة ذات ذائقات بالغة الخصوصية.

ولكنْ بأى معنى يمكن للمرء أن يتحدث عن بناء الإعلانات للمستهلك أو لجماعة المستهلكين؟ لقد حول الإعلان الناس إلى مستهلكين، أى إنه أحدث تغييرًا فيما أصبح الناس عليه، بمعنى أنه يقدم أشد النماذج اتساقًا فى المعنى وإلحاحًا على الذهن

لحاجات المستهلِكِ وقيمه وذائقته وسلوكه. ولقد فعل هذا بمخاطبة الناس كأنها كانوا جميعًا قد بلغوا من قبل مكانة المستهلكين الكاملة وفقًا للمنطق السليم. والقضية العامة هى أن الناس إذا أُرغموا فى كل يوم على احتلال موقع الذات للمستهلك، فسوف يصبحون على الأرجح مستهلكين. وهكذا فإن ما قد يبدأ فى صورة لعبة ما، أو تجربة مريبة لأفراد الجمهور، من المحتمل أن ينتهى الأمر به، بفضل ضغط العادة الهائل، إلى أن يغدو حقيقة واقعة.

وما ينطبق على المستهلكين، ينطبق أيضًا على جماعات الاستهلاك المحددة، فالإعلان يستطيع أن يطلع الناس على أساليب حياة (وأنساق إنفاق) ربما لم يصادفوها إلا من طريق الإعلان، لكنه يدعوهم أيضًا إلى الالتحاق بجماعة المستهلكين التى اختاروها (إذ يزعم الإعلان أن الأمر قائم على الاختيار وحسب) وأن يعتبروا أن هذه الجماعة بما تتعرض له من تحولات سريعة تمثل أولى ما ينبغى أن يلتحقوا به. ومن المحتمل فى غضون ذلك أن يقل عدد المشاركين من فئات أخرى، ولنا أن نقول إن أشد الخاسرين جماعات الإنتاج، أى من الطبقات الاجتماعية، وفصائل وأقسام معينة من الطبقات الاجتماعية (مثل جماعات الحِرَفِيّين أو النقابات العمالية).

العناصر اللغوية والبصرية فى الإعلان

تزداد باطراد فى مجتمعنا أهمية المزج بين العناصر اللفظية والبصرية فى تشكيل النصوص، ويتصدر التليفزيون هذا المزج، فالتليفزيون باعتباره وسيطًا لا ينتج إلا أمثال هذه النصوص المُرَكَّبة، ولكن الإعلانات فى المطبوعات تزيد باطراد من تأكيدها إياها. كما تزداد باطراد أيضًا أهمية العنصر البصرى فى الإعلان، إذ شاع الرأى الذى يقول إن إبراز الصورة أحد الخصائص الرئيسية لثقافة 'ما بعد الحداثة'.

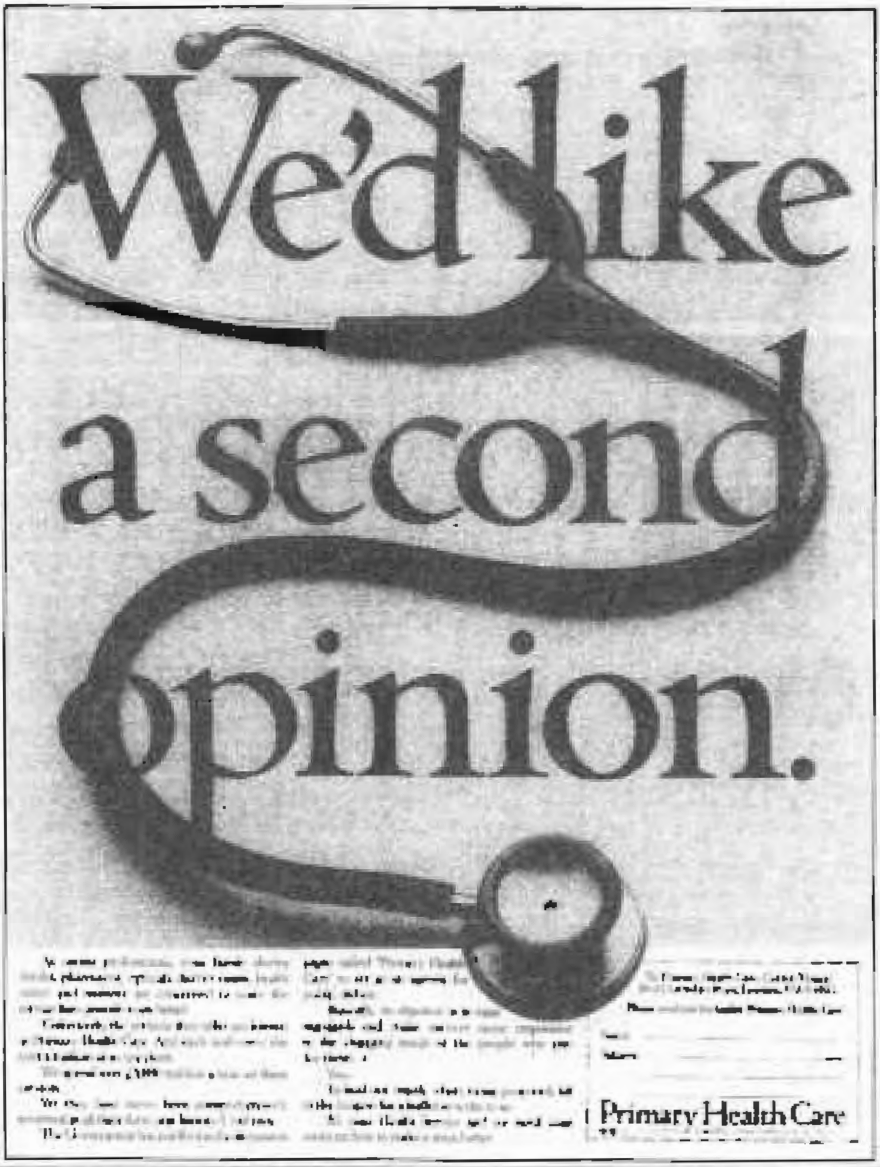
ويتفق هذا الاتجاه مع ما أقوله عن العمليات الأيديولوجية فى الإعلان. فالصور البصرية تؤكد، من ناحية، اعتماد عملية بناء الصور على الجمهور، فحيثما وضعت الصور البصرية جنبًا إلى جنب لم يجد المفسر مفرًّا من إقامة رابطة بينها، ولكن اللغة

تتطلب تقديم الروابط اللازمة إليه، وإن لم تكن تقدمها، كما رأينا، فى حالات كثيرة. ومن ناحية أخرى نرى أن بناء 'جماعات المستهلكين' يتحقق بيسر أكبر من خلال الوسائل البصرية أساسًا، لأن الوسيط البصرى يمكن استخدامه بسهولة أكبر فى إنتاج 'صور زائفة' بالمعنى الأفلاطونى، أى نسخ مطابقة لأصول لم توجد قط! ولزيادة الإيضاح نقول إن الصور البصرية تسمح للإعلان بأن يخلق بسهولة أكبر عوالم معينة وربما نجح فى إقناع المشاهدين بأن المستهلكين يسكنونها، بسبب قوة الأيديولوجيا التى تعبر عنها مقولة "إن الكاميرا لا تكذب".

انظر إلى الإعلان عن الغسالة ميل فى ضوء هذه التعليقات، كيف تتفاعل العناصر البصرية واللفظية فى بناء الصورة، والمستهلك، ومجتمع المستهلكين؟

اتجاهات استعمارية فى الخطاب الإعلانى

نستطيع أن نتصور من زاوية معينة أن الإعلان يقوم بدور المستعمر، وتشمل هذه الزاوية الزيادة الهائلة فى حجم الإعلانات على امتداد العقود الثلاثة الماضية، ودرجة تعرض الناس لتأثير الإعلان يوميًّا، و'تغلغل' الإعلان فى الجوانب غير الاقتصادية للحياة، وخصوصًا نفاذه إلى البيوت من طريق التليفزيون. لقد تعرضت الأسرة، والحياة الأسرية، للاختراق من جانب الاقتصاد، ومن جانب القوى الطبقية المهيمنة داخل الاقتصاد، وهذه العناصر الاستعمارية قد أثرت تأثيرًا ما فى إعادة بناء الحياة الأسرية وفى غيرها من الجوانب غير الاقتصادية للحياة.



النص ٨ – ٢ المصدر: وزارة الصحة والتأمينات الاجتماعية

ولكن لنا أن نجد اتجاهات استعمارية أشد وضوحًا حيث تتعرض أنماط الخطاب للتأثر بالخطاب الإعلاني. والنص ٨ – ٢ مثال من خطاب الإعلام الجماهيري، أي الرسائل الرسمية الموجهة من السلطات العامة إلى "الجمهور". فالواضح أن النص

يستخدم شكلًا إعلاميًا مألوفًا، ومع ذلك فلا يوجد مُنتَجٌ واضح يعلن عنه، ويبدو فى الظاهر كأنما يقتصر على تقديم المعلومات وطلب إبداء الرأى، أى إنه ليس إعلانًا على الإطلاق! ومع ذلك فإن لدينا "مُنتَجًا" ما، والقراء مطالبون ببناء صورته: ألا وهو مصدر المعلومات، وطلب إبداء الرأى، وهو (إذا تمكنت من قراءة الكلام المطبوع بالبنط الصغير فى الركن الأيمن من الإعلان) وزارة الصحة والتأمينات الاجتماعية (أى 'مرفق الصحة').

ما المعالم الإعلانية لهذا النص، من حيث بناء العلاقات، وصورة 'المُنتَجِ'، وموقع الذات 'للمستهلك' (الجمهور)؟

يتضمن النص إضفاء الطابع الشخصى 'الاصطناعى' على أفراد الجمهور (مثل استعمال ضمير المخاطب، وأفعال الأمر: 'أرجو إرسال الكتيب إلىّ') وإضفاء الطابع الشخصى على منتج عن طريق استعمال ضمير الجمع الحصرى للمتكلم، نحن، فى العبارة الأخيرة التى تقول: (نحن مرفقك الصحى ونحن فى حاجة إلى آرائك) إلى جانب استخدام ضمير المتكلم الجمع الشامل (يستخدمه مليون شخص من بيننا). وتُبنى لصورة المرفق الصحى صورة من خلال ضمائر تستدعى إلى ذهن القارئ 'بعض صفات الطبيب' فى الصورة المرافقة للنص: فهو يتكون من صورة للسماعة الطبية إلى جانب شذرة من 'كلام الأطباء' مطبوعة فوقها (نريد رأيًا ثانيًا) وهكذا تُنقَلُ إلى المرفق الصحى من هذا الإطار بعضُ القيم المهنية، والوعى العميق بالمسؤولية وهلم جرًا. وموقع الذات الذى أُعِدَّ للقارئ موقع فرد من أفراد الجمهور يهمه الأمر ويحيط ببعض المعلومات ولكنه يريد أن يعرف ما هو مقترح عليه، ويستطيع أن يسهم 'برأى ثان' يستحق النظر فيه. ويزداد الارتقاء بصورة المرفق الصحى بافتراض أن هذه الهيئة العامة، أى الهيئة الجماهيرية، هيئة تحترم 'الجمهور'.

ولنا أن نعيد ارتباطنا فى هذه المرحلة بما عرض له الفصل السابع من هدم لنظم الخطاب وإعادة بنائها. ويمكن تحليل هذا النص باعتباره مزيجًا من المعالم المستمدة فى جانب منها من نموذج الخطاب الإعلانى، وفى جانب آخر من نمط الخطاب الإعلامى التقليدى. ويمكن اعتبار هذا المزج إعادة الإفصاح عن نظام خطاب الإدارة الصحية

(والإدارة العامة بصفة أشمل) باعتباره أثرًا من آثار استعمار الإعلان لهذا النظام من أنظمة الخطاب. كما يربط هذا أيضًا بين النمطين الرئيسيين للخطاب الاستعماري اللذين حددتهما فى بداية هذا الفصل، الأمر الذى يوضح التداخل بين النزعة الاستهلاكية وبين البيروقراطية، وأن الأولى تغذو الأخيرة. وارجع إلى مثال آخر فى مكان لاحق من هذا الفصل.

ونستطيع أن نرى على ضوء هذا المثال كيف يتمكن الإعلان من استعمار وتشكيل أنماط الخطاب السياسية، وخصوصًا خطاب المذهب الثاتشرى الذى نظرنا فيه فى الفصل السابع. فإن مارجريت ثاتشر، كما رأينا، تبنى علاقة مع 'الجمهور' تستند فى جانب منها إلى إضفاء الطابع الشخصى الاصطناعى، وتقدم إلى مستمعيها مفاتيح محبوكة بدقة حتى يتمكنوا من بناء صورة زعيمة سياسية، كما تبنى صورة 'الجمهور' باعتباره جماعة استهلاك سياسية، إن صح هذا التعبير، وتدعو الأشخاص الحقيقيين إلى الانضمام إليها. وكما هو الحال فى الإعلان الخاص بمرفق الصحة يتفق المنتج مع السلعة: إذ إن السيدة ثاتشر تحاول 'أن تبيع نفسها'، وهكذا فإن الازدياد المطرد فى إدارة السياسة الحزبية من خلال خطاب جماهيرى ذى اتجاه واحد فى أجهزة الإعلام، متخذًا من الإعلان نموذجًا له، يبتعد بهذه السياسة باطراد عن الخطاب ذى الاتجاهين الذى يعتمد على التلاقى المباشر (وجهًا لوجه). أى إن لقاء الناخبين شخصيًا بطرق أبواب منازلهم لاستمالتهم، والتناظر وتقارع الحجج السياسية، والاجتماعات السياسية، تقل أهميتها باطراد باعتبارها من عناصر الخطاب فى السياسة. ويؤدى تأثير التعميم فى علاقة الاستهلاك الاقتصادية إلى فقدان السياسة الحزبية لقاعدتها فى حياة الناس. وتقل مشاركة الناس فى السياسة باعتبارهم مواطنين بالتدريج، ويزداد اشتراكهم فيها تدريجيًا أيضًا بصفتهم مستهلكين، كما إن القواعد الشعبية للمشاركين تبتعد تدريجيًا عن المجتمعات الحقيقية التى ينتمون إليها، وتقترب تدريجيًا من الأشكال المعادلة سياسيًا لجماعات المستهلكين، وهى التى يبنيها الزعماء السياسيون لهم. ومن الممكن بطبيعة الحال أن تسير هذه العمليات فى عكس الاتجاه، إلى جانب وجود اتجاهات معارضة 'تعويضية' [تمثل الكفة الأخرى للميزان]. انظر القسم بعنوان اتجاهات أخرى أدناه.

أتوسع فى هذا القسم فى الفكرة التى طرحتها فى بداية هذا الفصل وهى التى تقول إن سيطرة الدولة من خلال البيروقراطية كانت لها آثار كبرى فى نظم الخطاب، وأناقش أولًا الاتجاه الاجتماعى إلى زيادة السيطرة على الناس من خلال شتى أشكال البيروقراطية، ثم أنتقل إلى فحص ما أطلقت عليه مصطلح تكنولوجيات الخطاب، أى أنماط الخطاب التى تتضمن التطبيق – بقدر ما من الوعى الذاتى – للمعارف العلمية الاجتماعية لتحقيق السيطرة البيروقراطية. وسوف تقول حجتى إن تأثير البيروقراطية فى نظم الخطاب يتحقق من خلال الانتشار 'الاستعمارى' لتكنولوجيات الخطاب، وبعدها أقدم مثالًا على تطبيق البحث العلمى الاجتماعى على تكنولوجيات الخطاب، وهو الذى يسمى التدريب على المهارات الاجتماعية، مشيرًا إلى إحدى تكنولوجيات الخطاب (التى أشرت إليها من قبل بألفاظ مختلفة) وهى المقابلة الشخصية. وعندها أقدم مثالًا يتضمن تكنولوجيتين للخطاب، الأولى وثيقة المعلومات الخاصة بالجمهور والاستمارة الرسمية.

البيروقراطية

يقول عالم الاجتماع ماكس ڤيبر إن البيروقراطية "تنظيم مراتبى يهدف إلى التنسيق العقلانى لعمل كثير من الأفراد سعيًا إلى تحقيق مهام إدارية واسعة النطاق وأهداف تنظيمية". ومفهوم 'العقلانية' فى هذا التعريف محدود ويقتصر اقتصارًا صارمًا على دلالته النفعية: بمعنى أن العقلانية هى تحقيق المواءمة المنتظمة بين الوسائل والغايات لأية مؤسسة أو منظمة بيروقراطية. وأما 'المراتبية' و'التنسيق' المذكوران فى التعريف فهما يؤكدان عنصر السيطرة فى هذه العقلانية على الغايات والوسائل، بمعنى يجمع بين السيطرة الداخلية من المستويات العليا داخل البيروقراطية وسيطرة البيروقراطية على الناس. وكثيرًا ما يبدو الناس، من منظور العقلانية البيروقراطية، فى صورة 'أشياء' يجوز إصدار الأوامر لها، والتحقق منها وتسجيلها ونقلها وما إلى ذلك بسبيل.

وقد اقتضى نمو الدولة الحديثة فى ظل المجتمع الرأسمالى قدرًا كبيرًا من التوسع فى البيروقراطية التى جعلت الدولة تبسط سيطرتها على جوانب ما تفتأ تزداد من حياة الناس. واتضح خصوصًا هذا التوسع والتدخل منذ ميلاد 'دولة الرعاية الاجتماعية'، وهى التى نشأت استجابة للتجربة المريرة المتمثلة فى آثار السوق غير المقيدة فى فترة الكساد التى شهدتها العشرينيات والثلاثينيات، إذ أصبح على الدولة أن تحمى الناس من بطش السوق، والواقع أن الدولة قد نجحت فعلًا فى تحسين أحوال الحياة لمعظم الناس، وإن كانت منجزاتها تتعرض اليوم للتهديد. ولكن هذه العملية كانت سلاحًا ذا حدين، إذ كانت دولة الرعاية الاجتماعية تُدار من خلال بيروقراطيات كثفت من تدخلها فى حياة الناس وعمقت بذلك من سيطرتها عليهم. وفى ضوء صورة الدولة التى رسمتها بالخطوط العريضة فى الفصل الثانى، فإن هذا يعنى آخر الأمر سيطرة الطبقة الرأسمالية والكتلة المهيمنة على حياة الشعب. وكان هذا الجانب البيروقراطى و'التدخلى' من جوانب دولة الرعاية سببًا فى نشأة وانتشار صورة الدولة باعتبارها جهاز تدخل لا يحس بحاجات الشعب، وهى الصورة التى استغلها المذهب الثاتشرى، كما رأينا فى الفصل السابع.

تكنولوجيات الخطاب

أوردتُ عاليه تعريفًا لتكنولوجيات الخطاب يقول إنها أنماط الخطاب التى تتضمن التطبيق، بقدر ما من الوعى الذاتى، للمعارف العلمية الاجتماعية لتحقيق السيطرة البيروقراطية. والذى أقصده أنماط معينة من الخطاب مثل المقابلات الشخصية، والاستمارات الرسمية، واستمارات الاستجواب، والاختبارات والامتحانات، والسجلات الرسمية، والفحوص الطبية، والدروس، وهى التى تخضع – فى ذاتها – للأبحاث الاجتماعية العلمية، وحيث تُودَعُ نتائج هذه البحوث فى تكنولوجيات الخطاب، فتساعد على تشكيلها وتعديلها. وتدخل تكنولوجيات الخطاب فى فئة أعم وأشمل هى فئة الخطاب الاستراتيجى، أى الخطاب الموجه إلى تحقيق أهداف ونتائج نفعية.

وتعتبر تكنولوجيات الخطاب ظاهرة حديثة بصفة خاصة، مثل العلوم الاجتماعية التى تغذوها. وهى تمثل التأثير العام للبيروقراطية والدولة الحديثة فى نظام الخطاب المجتمعى. وعلى الرغم من إمكان إرجاع أصولها إلى مؤسسات محددة، فلقد غدت تكتسب صبغة 'عبر مؤسسية' تتيح لها أن تتسرب إلى داخل مجموعة معينة من المؤسسات فتستعمرها، وأن ترتبط بعناصر خِطابية أخرى، بمجموعة كاملة من الطرائق المتنوعة. وهى تقابل ما يطلق عليه البعض مصطلح 'الأنواع'، وإن كنت أرى أن هذا المصطلح لا يتضمن الوصف المحدد بدرجة كافية لما أعنيه.

وقد اقترنت تكنولوجيات الخطاب بتغيير جوهرى مؤكد فى النظام المجتمعى للخطاب فى الفترة الحديثة، ونعنى به تشكيل الخطاب إلى درجة غير مسبوقة وفقًا لحسابات معينة، تتسم بالوعى الذاتى للعلاقة بين الوسائل والغايات، وتستند إلى العقلانية البيروقراطية النفعية القائمة على أساس المعرفة بالخطاب نفسه. وتقدم هذه المعرفةَ أقسامٌ معينةٌ من العلوم الاجتماعية المتخصصة فى دراسة الخطاب واللغة. وهى مثال لظاهرة أعم من ظواهر الفترة الحديثة، أى تداخل السلطة والمعرفة، والاعتماد الهائل للسلطة على المعرفة، كما تؤكد أهمية التحليل النقدى للخطاب الذى يستكمله التحليل النقدى لعلوم اللغة والخطاب حسبما أقمت عليه الحجة فى الفصل الأول.

التدريب على المهارات الاجتماعية

دخلت نتائج البحث الاجتماعى ساحة الممارسة الخِطابية من عدة طرق، من بينها طريق التدريب على المهارات الاجتماعية الذى نشأ من البحث النفسى الاجتماعى فى المهارات الإجتماعية. ويقوم هذا البحث على نظرة نفعية للممارسة الاجتماعية باعتبارها نشدان أهداف متناغمة مع العقلانية البيروقراطية التى وصفتها آنفًا. وهكذا فإن وحدات الممارسة والخطاب الكبرى، مثل المقابلة الشخصية، يُفترض أنها تتكون من وحدات صغرى متتابعة مُنْتَجَةٍ من خلال التطبيق الآلى للمهارات التى تُختار استنادًا إلى مدى إسهامها فى تحقيق الأهداف. ومن المفترض أن هذه المهارات يمكن عزل بعضها عن بعض ووصف كل منها، وأن مظاهر العوار فى الممارسة الاجتماعية يمكن التغلب عليها بتدريب الأشخاص على الاستفادة من هذه المهارات.

ويجرى تطبيق التدريب على المهارات الاجتماعية على نطاق واسع، فقد استُخدم فى تدريب المرضى النفسانيين، وغيرهم ممن يعتبرون 'غير أكفاء' أو 'عاجزين' اجتماعيًا، كما استُخدم لتدريب الاختصاصيين الاجتماعيين والصحيين، ومقدمى المشورة الاجتماعية، والمعالجين والأطباء لمساعدتهم على زيادة فاعلية تعاملهم مع عملائهم أو مرضاهم، إلى جانب استخدامه فى تدريب مديرى الشركات والمشرفين على المبيعات بغرض الارتقاء بالإدارة والبيع على الترتيب، وفى تدريب الموظفين العموميين فى المؤسسات البيروقراطية على التغلب على ما تتسم به هذه المؤسسات من طابع غير شخصى يشوب صورتها فى أعين الناس، ويقيم مسافة ما بينها وبينهم، الأمر الذى ينتقص من مشروعيتها وفاعليتها.

والنظر إلى الممارسة الاجتماعية من زاوية المهارات الاجتماعية يؤدى، على الأرجح، إلى اختزال الممارسة عمومًا والخطاب خصوصًا فى الجانب الذى دأبنا على وصفه 'بالمضمون'، أى بالأهداف أو الأغراض النفعية. وأما ما وصفناه بالأبعاد العلائقية والأبعاد الذاتية/ التعبيرية للخطاب، فلا تُمنح فى هذا الصدد أية مكانة أصيلة أو مستقلة خاصة بها، بل إنها على الأرجح تختزل فى مكانة 'المتغيرات التابعة'، وأن ينظر إليها من زاوية إمكان التلاعب بها فى غضون المحاولة الدائبة لتمكين الخطاب/ الممارسة من تحقيق أقصى تأثير ممكن فى تحقيق الأهداف النفعية. والنماذج الناجحة التى يُدْعَى المتدربون على المهارات الاجتماعية إلى محاكاتها تتميز بالتلاعب المنتظم بهذا المعنى، ومن ثم فقد يصح قولنا إن التدريب على المهارات الاجتماعية يسهم فى تدعيم التلاعب بالعلاقات والذوات فى الواقع الفعلى.

فلنقدم الآن مثالًا محددًا. والنص التالى مقتطف من الاستراتيجية الموصى بها لإجراء 'مقابلة شخصية'، ولتكن مقابلة 'تأديبية' فى مكان العمل، أو فى إحدى المدارس، بحيث "تجعل المقابلة مناسبة ألطف وأفعل". والنص مقتطف من كتاب كتبه عالم النفس الاجتماعى الشهير مايكل أرجايل:

[البند الأول محذوف]

٢- المشرف (م) يقيم تقاربًا وجدانيًّا مع العميل (ع) الذى قد يكون بالغ التوتر بشأن المقابلة. وسوف تزداد سهولة ذلك إذا حافظ (م) على اتصاله اليومى بـ(ع). وقد يتبادلان المحادثات الودية حول اهتماماتهم المشتركة، بحيث تنخفض الحواجز الخاصة بفوارق المنزلة بينهما، ويصبح (ع) على استعداد للكلام بحرية.

٣- قد يكون من الضرورى للمشرف أن يشرح للعميل وجود مشكلة، وقد تتمثل فى تأخر وصول (ع) باستمرار إلى مكان العمل، الأمر الذى أدى إلى انخفاض الإنتاج، أو أن (ع) قد انخفضت درجاته [فى المواد الدراسية] انخفاضًا شديدًا.. إلخ. ويمكن أداء ذلك ببيان بعض الحقائق الموضوعية، لا بإصدار الأحكام، كما ينبغى القيام به بأسلوب لطيف لا مغاضب.

٤- يدعو (م) الآن (ع) إلى أن يعرب عن رأيه فى الوضع الراهن، أى ما يتصور أنه السبب من ورائه. وقد تكتنف ذلك محاولات للحصول على معلومات أوْفَى، إذا كان (ع) عازفًا عن الكلام دون قيود. والمشرف متعاطف ويبين أنه يريد أن يفهم موقف (ع)، وقد يسأل (م) (ع) إن كان يعتقد أن الموقف مُرْضٍ؛ ويستطيع فى مقابلة تقييمية أن يطلب من (ع) تقييم أدائه بنفسه. وقد يقدم (ع) معلومات جديدة تشرح سبب المشكلة، ويقترح كيف يمكن حلها، وربما انتهت المقابلة فى هذه اللحظة.

[٥ و ٦ محذوفان]

٧- إذا كان من الضرورى إجراء مقابلات أخرى، فربما اقتضى الأمر اللجوء إلى أساليب أشد صرامة للتأثير فى (ع). ويتمتع معظم المشرفين بإمكان التحكم فى العقوبات المادية، مثل حجب المكافآت [الحوافز]، وإيقاف الترقيات، والفصل من العمل آخر الأمر. ويقول (م) إنه لا يرغب عادة

فى فصل (ع)، فهو يريد إبقاءه ولكنه يريد منه تغيير سلوكه. وإمكان استخدام أمثال هذه العقوبات يجب أن يُذكر أولًا بتردد وباعتباره احتمالًا مستبعدًا، وليكن باستعمال عبارات موضوعية كقول المشرف "ما أكثر الآخرين الذين يودون الحصول على هذا العمل!" أو "قد أُضطر إلى إخبار الذين يدفعون أجرك عن مستوى أدائك".

٨ – ينبغى أن تنتهى المقابلة بمراجعة لما اتفق عليه الطرفان، والخطوات البناءة التى قررا اتخاذها، والموعد التالى للقاء (م) مع (ع) لمناقشة سير العمل وما إلى ذلك بسبيل. كما ينبغى أن تنتهى المقابلة بأقصى ما يمكن من جو البشاشة والود.

(أرجايل: 1978 ص ٢٤٣ – ٢٤٥)

ما الأساليب التى توحى بها التوصيات بالتلاعب فى الأبعاد العلائقية والذاتية للخطاب لأسباب مؤسسية؟

من خلال دعوة التوصيات للمشرفين بأن يحاكوا موقعًا معينًا للذات وعلاقة خاصة بالعملاء، تحث التوصيات المشرفين على التظاهر بالتضامن والمساواة مع العملاء (الفقرة ٢) وبالتعاطف (الفقرة ٤) وبالتظاهر بالبشاشة (الفقرة ٣) والود (الفقرة ٨) إلى جانب العزوف عن اتخاذ إجراءات جذرية (الفقرة ٧). وأما مبرر التظاهر بهذه الصفات المذكورة فهو احتمال جعل المقابلة "ألطف وأفعل"، وأنا أفسر الفاعلية بأنها تشير إلى الهدف النفعى المتمثل فى حل مشكلات 'التأديب'.

وترجع أهمية هذه التوصيات أيضًا إلى ما تفترضه ضمنًا، إذ إنها تفترض أن للمشرفين الحق فى السيطرة الكاملة على مضمون المقابلات وعلاقاتها وذواتها، وأن لديهم القدرة على تنفيذ وجوه التلاعب المقترحة بالعلاقات والذوات كيفما شاءوا دون أن يخشوا الاعتراض عليهم. وفى مقابل ذلك تفترض أن العملاء لا يتمتعون بأدنى سلطة. ومن هنا تنشأ مفارقة معينة بشأن هذه التوصيات: إذ إن الإقدام فى ذاته على وضع توصيات موجهة لمشارك واحد تُفترض فيه القدرة على تنفيذها وفرضها على

الآخر كما يحلو له، يستبعد المشارك الآخر فى حدث يكاد يقوم على المساواة التى تقترحها التوصيات.

وربما تكون هذه المفارقة مجرد جزء من المفارقة الأعمق التى تمارس فى مقابلة شخصية لا فى لقاء تعنيف صارخ، إذ إن المقابلة قد استعمرت جهاز التأديب فجعلت عملية التأديب تبدو على غير ما هى عليه. وهذه هى المحاكاة الأساسية التى تُعتبر صور المحاكاة الأخرى المشار إليها عاليه أشكالًا منقحة منها. وعلى هذا المستوى تتحول طبيعة العملية التأديبية من خلال إدماجها فى الافتراضات القائمة على المنطق السليم التى تستند إليها المقابلة الشخصية: أى إن لكل طرف من الطرفين ما يسهم به فى العملية (تمشيًا مع الاتجاه الحديث لتحقيق الانضباط من خلال الانضباط الذاتى)؛ وإن للقائم بالمقابلة أو من يتولى التأديب الحق (ما دامت تتوافر أدلة مبدئية على وقوع مخالفة للنظام) فى أن يدس أنفه ويستكشف شتى جوانب السلوك والدوافع لدى من يتعرض للتأديب أو إجراء المقابلة؛ وإن الأخير ملتزم بأن يبدى التعاون فى ذلك، وهلم جرًّا.

وتوجد أنماط كثيرة مختلفة من المقابلات الشخصية التى يمكن اعتبارها ثمرة من ثمار الربط بين المقابلة الشخصية، باعتبارها من تكنولوجيات الخطاب، وبين شتى نظم الخطاب المؤسسية المختلفة. وهكذا لا ينبغى اعتبار التوصيات الواردة أعلاه قابلة للتطبيق بسهولة على جميع المقابلات، والواقع أن أرجايل يولى اهتمامًا بنمطين آخرين، ويكل منهما على حدة، وهما المقابلة الشخصية الخاصة بالاختيار (أى باختيار الأشخاص المتقدمين للوظائف) والمقابلة الشخصية الخاصة بالمسح الاجتماعى.

ولكن تأثير البحوث الاجتماعية فى المقابلات الشخصية من هذين النمطين ومن غيرهما يتسم باتجاهات مشتركة. إذ يذكر أرجايل، على سبيل المثال، وجود التقارب الوجدانى وإنشاء علاقة مساواة بين القائم على المقابلة والمتقدم لها، فى جميع الحالات. وهذان يقتضيان، كما رأينا فى المقابلة الشخصية مع المستخدمين، التلاعب بالجوانب العلائقية والذاتية للخطاب من خلال المحاكاة أو التظاهر. وتشبه الخصائص المذكورة للمقابلات ما دأبنا على الإشارة إليه بمصطلح إضفاء الصبغة الشخصية المصطنعة، فى وقت سابق من هذا الفصل. وأقول إن لنا أن نستخدم هذا المصطلح فى الإشارة إلى

جميع ظواهر الخطاب الاستراتيجى، سواء فى نوعه الاستهلاكى أو البيروقراطى، حيث نرى التلاعب بالقيم العلائقية والذاتية لأسباب نفعية. وقد يتمثل هذا فى بناء أشخاص أو أفراد خياليين، مثل المتحدث والمخاطَب فى الإعلان، أو فى التلاعب بمواقع الذات أو بالعلاقات القائمة بين أفراد حقيقيين (فيما يتعلق بالمساواة أو التضامن أو الصلة الحميمة أو ما شئت!) فى المقابلات الشخصية. ويعتبر إضفاء الطابع الشخصى الاصطناعى عنصرًا رئيسيًّا من عناصر إعادة البناء المنهجية لنظام الخطاب المجتمعى الذى يشغلنى فى هذا الفصل.

وإلى جانب تدريب من يتولون إجراء المقابلات الشخصية على المهارات الاجتماعية، يزداد شيوع تدريب المتقدمين لهذه المقابلات على هذه المهارات باطراد. إذ أصدرت وزارة العمل كتيبًا يقدم للعاطلين العون فى اكتساب مهارات الحصول على وظيفة. وقد انتشرت، فيما يبدو، فكرة وهمية (أو فى بعض الحالات محاولات للإيهام) بأن زيادة تدريب الناس على مهارات الحصول على عمل، سوف تزيد من الأعمال والوظائف المتاحة، أو بعبارة أخرى، أن عجز الأشخاص عن الحصول على وظائف أو أعمال يرجع إلى أوجه نقص خاصة بهم، بما فى ذلك عجزهم، على سبيل المثال، عن النجاح فى خوض المقابلات الشخصية، لا بسبب أوجه النقص فى النظام الاجتماعى.

ومع ذلك فربما كان هذا النوع من التدريب يمثل ما أشير إليه فى الفصل الأخير بمصطلح التمكين، الذى يعنى تنمية طاقة الأشخاص على استكشاف كل ما هو ممكن، مهما يكن، داخل نظام من نظم الخطاب، من دون تغييره فعليًّا. والواقع أن للتمكين وجوهًا كثيرة تبرره، كما أقول فى الفصل التالى، باعتباره وسيلة لمنح الثقة للفئات الاجتماعية الخاضعة للهيمنة وإذكاء إدراكهم لإمكاناتهم الكامنة، لكننى أشعر أننا نواجه ما يشبه المعضلة هنا.

فالأمر لا يقتصر على أن بعض تطبيقات التدريب على المهارات الاجتماعية مشكوك فى التزامها بالأخلاق الاجتماعية العلمية، خصوصًا عند تنمية مهارات الذين يهيمنون على غيرهم أو يتلاعبون بهم لتحقيق أهدافهم النفعية الخاصة، ولكن من

المحتمل أيضًا أن يكون لاختزال الممارسة الاجتماعية والخطاب الاجتماعي في مجرد 'المهارات' تأثير محتوم يُضعف من خطاب التواصل، وأعني به الخطاب الذي لا يقوم على الرغبة في تحقيق أهداف نفعية لأي مشارك فيه، بل يُمارَسُ ممارسة حقيقية بروح التعاون ابتغاء التفاهم والتوصل إلى أرضية مشتركة. ومن المحتمل أن يكون له هذا التأثير السالب للقوة، إذ ربما يصبح من الصعب في ظل الانتشار المتزايد لإضفاء الصبغة الشخصية المصطنعة أن نمنع الظن بأن أصدق صور الممارسات العلائقية والذاتية مصطنعة هي الأخرى. وإذا كانت تحيط بنا الأشكال المصطنعة للصلة الوثيقة والصداقة والمساواة والتعاطف، أفلا يؤثر ذلك في قدرتنا على تبيين الصور الصادقة لأية حالة من هذه الحالات؟

المعلومات والجمهور والاستمارات الرسمية

يعتبر تقديم المعلومات إلى 'الجمهور' من طريق الهيئات البيروقراطية، وطلب المعلومات من 'أفراد الجمهور' من خلال استمارات خاصة، من تكنولوجيات الخطاب التي كثيرًا ما يقترن بعضها بالبعض في سياقات الرعاية الاجتماعية. فالأجهزة البيروقراطية تصدر كتيبات إعلامية تصف شتى المزايا التي تأتي بها 'الرعاية' وتحدد الذين يستحقون الحصول عليها، وقد تقترن هذه الكتيبات أو تتضمن في داخلها استمارات تلزم 'المستحقين' للرعاية بملئها حتى يتمكنوا من التقدم بطلب الحصول على المزايا المذكورة. وتمثل هاتان التكنولوجيتان، إلى جانب المقابلات الشخصية، الزيادة الهائلة فيما يطلبه المجتمع من توصيل وتواصل مع جمهور أفراده الخاضعين للهيمنة.

وقد غدت خصائص هذه الكتيبات والاستمارات الرسمية أساسًا لخلاف دائم وشائع في حقبة 'دولة الرعاية'، باعتبارها نوعًا من حرب العصابات التي دارت رحاها على المستوى 'العام'، والمستوى 'الخاص' أيضًا، في لقاءات المحادثات في الحياة اليومية ضد البيروقراطية. ومن الشكاوى الرئيسية أن هذه المادة تدق على أفهام نسبة كبيرة من الأشخاص الذين يفترض توجيهها إليهم؛ بسبب صعوبة هضم الشكل والتنظيم، وتعقيد بناء الجمل، واستخدام المصطلحات التقنية، وما إلى ذلك بسبيل. وارتبطت هذه

الشكوى بالمستوى المنخفض للحصول على المزايا، أى بإحجام عدد كبير من 'المستحقين' عن التقدم بطلباتهم.

وتعرضت الكتيبات والاستمارات الرسمية لتحولات أساسية استنادًا إلى المشورة العلمية الاجتماعية الخاصة بكيفية التصدى لهذه الشكاوى. والنصان ٨ – ٣ و٨ – ٤ مثالان حديثان يبينان بوضوح وجلاء الجهد الذى بذل فى جعل أمثال هذه الوثائق قريبة من أفهام الناس. والنصان هما، على الترتيب، الجزء الرئيسى من كتيب إعلامى عن **استكمال دخل الأسرة** من إنتاج **وزارة الصحة والتأمينات الاجتماعية**، والصفحة الأولى من استمارة التقديم للحصول على '**استكمال الدخل**' المذكور، وهى استمارة تتكون من أربع صفحات. وكانت الاستمارة تُوَزَّعُ مع (أى داخل) الكتيب.

ما الهدف (أو الأهداف) أو الغرض (أو الأغراض) البيروقراطية التى يحاول النصان تحقيقها، وكيف تتجلى هذه فى المعالم النصية؟

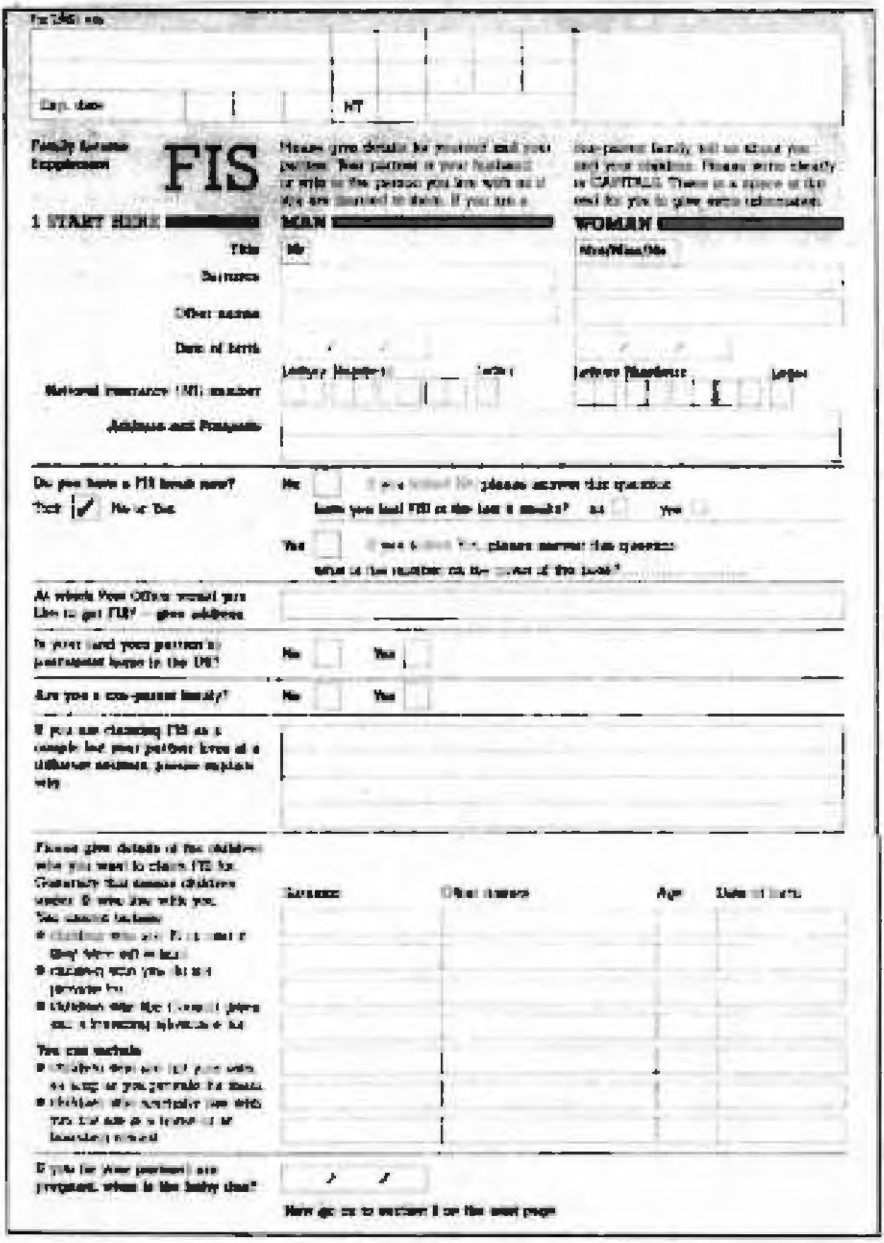
الغرض البيروقراطى الرئيسى للكتيب، فيما يبدو، 'حث' من يستحقون تلقى معونة استكمال الدخل على التقدم بطلبها. ومعظم جمل الشرط الكثيرة (التى تبدأ بالحرف 'إذا') ترمى إلى تحديد القطاع الخاص من السكان، على وجه الدقة، الذى يستحق الحصول عليها (مثلًا: **إذا كنت تعمل ولديك أطفال فينبغى أن تحيط بنظام استكمال دخل الأسرة**). وأما الهدف الرئيسى للاستمارة فالمفترض أنه جمع المعلومات اللازمة لتقدير مدى استحقاق المتقدم للمعونة بشكل يسهل 'تفريغ بياناته'. ويتجلى هذا فى شتى طرائق 'تبسيط' النص، مثل استخدام جمل بسيطة نسبيًّا، ومفردات غير تقنية، وخصائص كثيرة لما يسمى 'التوضيب' الطباعى، مثل اختيار نوع الحروف، وتنوع الألوان، وأحجام الحروف واختلاف الحرف الصغير عن الكبير، وأنماط الحروف، وتحديد خانات لكتابة الإجابة، وتقديم اختيارات متعددة لتيسير ذلك. وصورة الاستمارة توضح بعض هذه الملامح أكثر من توضيح غيرها. ويتميز الكتيب أيضًا بالتبسيط، والمفترض أن هذا يهدف إلى ضمان تقدم أكبر عدد من الناس بالطلبات، ويتجلى هذا أيضًا فى النحو والمفردات وشتى جوانب 'التوضيب' الشكلى.

ويمثل التبسيط تلاعبًا ببعض جوانب مضمون النص، ولكن التبسيط هنا، شأنه فى هذا شأن كل تبسيط للخطاب البيروقراطى، يقترن بالتلاعب بالعلاقات والذوات، وبإضفاء المسحة الشخصية المصطنعة. وفى القسم المعنون **وهذه الأشياء مجانية**، مثلًا، يبدو أن منتج النص هو الوزارة المذكورة، وهو يشغل موقع الذات الخاص بالمعلن، ويبنى للقارئ موقع الذات الخاص بالمستهلك. وهذا يبين أن جانبى تعدى النظام على حياة الناس، واللذين أوضحتهما، وهما الجانب الاقتصادى/ الاستهلاكى، والجانب البيروقراطى/ الخطاب التكنولوجى، ليسا مستقلين، بل إنهما يتداخلان بازدياد. ومن الممكن، بصفة خاصة، الانتفاع بموقع ذات المستهلك القوى الذى يبنيه الإعلان فى تحقيق أغراض بيروقراطية. لاحظ أيضًا أن الإعلان يشارك تكنولوجيات الخطاب خصيصة اعتماده على البحث العلمى الاجتماعى، والواقع أن المنطق قد يقبل توسيع فكرة تكنولوجيات الخطاب بحيث تتضمن الإعلان.

والملاحظ بصفة أعم توجيه الخطاب إلى القارئ مباشرة، وتوجيه الأسئلة وأفعال الأمر إليه. ومن الأبعاد الشائعة فى إضفاء الصبغة الشخصية المصطنعة، يُعْدُ التظاهر بالمساواة، على نحو ما رأينا آنفًا فيما يتعلق بالمقابلات الشخصية، وتبدو فى هذه الحالة محاولة ما لوضع منتج النص على قدم المساواة مع القارئ من خلال اختيار التعبيرات التى قد يستعملها معظم القراء، كما يمكن اعتبار تبسيط المفردات والنحو فى الوقت نفسه تحقيقًا للتكافؤ. ولكن هذا لا يتحقق بانتظام فى النص كله (فإن كلمة **شريك**، على سبيل المثال، تستَخدم على نطاق محدود بمعنى الشخص الذى يعيش المرء معه) ولكن فى النص نماذج كثيرة على ذلك، كاستعمال تعبير مثل **"أن ينال"** بدلًا من تعبير **"من ينطبق عليه الشروط"** فى العنوان **"من الذى يستطيع أن ينال ذلك؟"** أو تعبير **"يعيش مع"** بدلًا من المصطلح **"يشترك فى الإقامة مع"**، وإن كان الاستعمال المعتاد للتعبير الأول قد يفى بالمعنى المضمر المحذوف وهو **"كأنما كانا زوجًا وزوجة"**.



النص ٨ – ٣ المصدر وزارة الصحة والتأمينات الاجتماعية


FIS

Family Income Supplement

1 START HERE

MAN

WOMAN

Title

Mr

Mrs/Miss/Ms

Surname

Other names

Date of birth

National Insurance (NI) number

Address and Postcode

Do you have a FIS book now?

No

Yes

Surname

Other names

Age

Date of birth

النص ٨ – ٤ المصدر وزارة الصحة والتأمينات الاجتماعية

ومثل هذه المعالم التى توحي بالمساواة ترتبط بخصائص معادلة لها فى تكنولوجيات الخطاب المذكورة التى تضع منتج النص فى موقع السلطة الراسخة. فأفراد الجمهور

يمارسون ملء الاستمارات، مثلًا، ملتزمين التزامًا كبيرًا بشروط الهيئة البيروقراطية: ومن المفترض أن الأخيرة من حقها أن تطلب الإحاطة بشتى التفاصيل الشخصية وأن على أفراد الجمهور تقديمها، وأن الأخيرة تمارس سلطة كاملة بشأن البت فى مدى صحة أو خطأ المحتوى، وأشكال الإجابة وما إلى ذلك بسبيل. ومن الممكن أن يؤكد التبسيط افتقار المتقدم للسلطة، وأرى أن هذا ينطبق على 'قواعد المرور' فى الاستمارة: (**ابدأ هنا، اذهب الآن إلى القسم ٢ فى الصفحة التالية**) وعلى تصميم الاستمارة بحيث تخلو من الأسئلة التى تتطلب أكثر من الإجابة عنها 'بنعم' أو 'لا' فى بعض الحالات، أو من الإجابات التى لا يزيد طولها عن الطول المعيارى فى حالات أخرى. وأعتقد أن إضفاء الصبغة الشخصية المصطنعة قد يدعم موقع البيروقراطية والدولة بإخفاء علاقتها النفعية و'التلاعبية' بالجمهور وراء واجهة من العلاقة الشخصية المتكافئة، لكن بشرط ألا يرى الناس الحقيقة خلف هذا القناع!

خطاب العلاج

قلت فى بداية هذا الفصل إن من آثار تعدى الاقتصاد والدولة على عدد متزايد من مجالات الحياة، مواجهة أعداد كبيرة من الناس لمشكلات و'أزمات هوية' يرون أنها مشكلات فردية 'شخصية'، ومن ثم يسعون لطلب العون من بعض المصادر. ولدينا شتى أنواع الهيئات التى تقدم مثل هذه المعونة، وتتراوح أنواعها من الطب النفسى على المستوى المهنى إلى المنظمات التطوعية مثل المنظمة السامرية.

وقد ولَّدَتْ هذه المنظمات ضروبًا بالغة التنوع من العلاج وتقنيات تقديم المشورة. وأول ما يلاحظه المرء فيها أنها أمثلة أخرى لتكنولوجيات الخطاب، فهى تشارك غيرها من هذه التكنولوجيات كونها أشكالًا تطبيقية للمعارف العلمية الاجتماعية. ولكنها تختلف عن أنماط تكنولوجيات الخطاب التى ناقشتها آنفًا فى أنها لا ترتبط بعلاقة مباشرة بالعقلانية البيروقراطية. وإذن فمن المفيد التمييز بينها باعتبارها **تكنولوجيات علاجية** وبين **تكنولوجيات التأديب**. ومع ذلك فسوف أسوق الحجة لاحقًا على أن لها علاقة مهمة بالعقلانية والبيروقراطية.

وفيما يلى مقتطف من مقابلة شخصية علاجية بين عميل (ع) ومعالج (م):

(١) ع : المسألة غامضة جدًّا. ولكن كما تعرف فأنا دائمًا ما، دائمًا ما يخطر لى على أن هذه العملية كلها بالنسبة لى تشبه فحص أجزاء الصورة المقطعة لتجميعها فى اللغز المعروف. ويبدو لى، كأننى الآن منكب على فحص الأجزاء الفردية التى ليس لها معنى يعتد به فى الواقع. وربما أتناولها من دون أن أبدأ حتى التفكير فى نسق معين. ودائمًا ما تعتادنى هذه الفكرة. وهذا غريب لأننى، فى الواقع، لا أحب الألغاز من هذا النوع. ودائمًا ما كنت أشعر بالضيق منها. ولكن هذا إحساسى. وأنا أعنى أننى التقط قطعًا صغيرة (والمعالج يومئ ويشير بيديه خلال هذه المحادثة كلها لإيضاح ما يعنيه العميل) وليس لها أى معنى على الإطلاق، إلا، أعنى – الإحساس الذى تكتسبه من مجرد تحريكها من دون رؤية أى نسق تشكله، ولكن من مجرد اللمس، ربما شعرت، أعنى أن هذه القطعة سوف تحل فى مكان ما هنا.

(٢) م : وذلك فى اللحظة التى، فى العملية أعنى، تحس فيها بملمس وشكل وتصور القطع المختلفة، إلى جانب إحساس محدود فى الخلفية يقول، نعم، يقول إنها سوف تتفق مع غيرها على الأرجح فى مكان ما، ولكن معظم الانتباه مركز على السؤال "ما نوع إحساسى بها؟ وما ملمسها؟"

(٣) ع : صحيح. يكاد يكون لها جانب مادى. أعنى. إه –

(٤) م : لا تستطيع وصفها أى وصف من استخدام يديك. شعور بأنها حقيقية، كأنها لها كيان محسوس فى –

(٥) ع : ومرة أخرى أشير إلى الإحساس بأننى موضوعى جدًّا، ومع ذلك فلم أقترب من نفسى إلى هذه الدرجة قبل اليوم.

(٦) م : كأنك تبتعد لتبصر نفسك وفى الوقت نفسه تشعر بأنك اقتربت من نفسك بهذا الأسلوب أكثر من –

(٧) ع : [يغمغم] ومع ذلك فللمرة الأولى منذ شهور لا أفكر فى مشكلاتى. لست أفكر فيها فعلًا، ولا أحاول حلها.

(٨) م : لدى الانطباع أنك لا تجلس مثلًا وتقول سأعمل على حل 'مشكلاتى'. ليس ذلك الإحساس على الإطلاق.

(٩) ع : صحيح. صحيح. أتصور لن ما – أن ما أقصده فعلًا أننى لا أجلس حتى أحل لغز الصورة المقطعة، أن أضم أجزاءها فالمسألة أننى لا بد أن أرى الصورة. قد يكون الأمر كذلك، وربما كنت استمتع فعلًا بعملية اللمس والتحسس، أو ربما كنت أتعلم شيئًا.

(١٠) م : يوجد على الأقل ذلك الإحساس بأن اللمس هو المقصود، وليس بأنك تفعل هذا حتى ترى صورة ما، ولكنه الشعور بالرضى بالتعرف على كل جزء. هل هذا –

(١١) ع : تمامًا. تمامًا. هو ذاك. ولا يزال يصبح ذلك النوع من الإحساس، من اللمس. إنه أمر طريف جدًا. أحيانًا لا يكون ممتعًا تمامًا، وأنا واثق ولكن –

(١٢) م : خبرة من نوع مختلف إلى حد ما.

(١٣) ع : نعم. تمامًا.

النص ٨ – ٥ المصدر روجرز ١٩٦٧ : ٧٧ – ٧٨

انظر إلى العلاقة بين المعالج (م) وما يقوله، وبين ما يقول العميل (ع). انظر بصفة خاصة فى مدى ما تتضمنه أقوال المعالج من أحكام على أقوال العميل، أو السيطرة عليها، أو إبداء التقارب الوجدانى مع العميل.

أعتقد أن أقوال المعالج، إن شئنا الإجابة الموجزة على هذا السؤال، وإن أخذنا بدلالاتها السطحية على الأقل، لا تصدر أحكامًا على أقوال العميل ولا

تحاول السيطرة عليها. بل إن المعالج يبدى تقاربًا عاطفيًا مع العميل. انظر إلى ما يقوله المعالج فى الدور (٢). لاحظ أولًا أن الشكل 'التراكيبى' لهذه الدور يجعله امتدادًا للدور السابق للعميل: فالدور (١) ينتهى بجملة ربما شعرت المتبوعة بجملة اسمية فى موقع المفعول به للفعل شعرت، والدور (٢) مبنى باعتباره جملة اسمية أخرى (التى تبدأ بعبارة وذلك فى اللحظة التى) وهى التى تعتبر معطوفة [أى بحرف التنسيق: الواو] على الدور (١) ولاحظ أن المعالج يرجع صدى القول المباشر الموجه إلى الذات (قارن عبارة إن هذه القطعة ستحل فى مكان ما هنا بعبارة إنها سوف تتفق مع غيرها على الأرجح فى مكان ما). وهذه العلاقة الشكلية بين الدورين (١) و(٢) تبين علاقتهما الوظيفية، أى إن الدور (٢) إعادة صوغ لنهاية الدور (١)، فهو يشرحها بدقة. وهذا النسق يتكرر على امتداد المقتطف، وفى كل حالة يقبل العميل إعادة صوغ المعالج لما قاله (صحيح) فى الدور (٣) على سبيل المثال. ويبدى المعالج تقاربه العاطفى بإنتاج إعادة صياغة مقبولة لأقوال العميل.

أُجْرِىَ استعراض شامل فى الآونة الأخيرة لقضايا تقديم المشورة جاء فيه إن معظم تعريفاته تقول إنه "شكل من أشكال التواصل المباشر بين شخصين، وإنه يتميز بالتوصل إلى تفاهم عاطفى دقيق بينهما كثيرًا ما يوصف بالمصطلح العلمى "التآلف الوجدانى" أو "التقمص الوجدانى"، وإنه يركز على مشكلة واحدة أو أكثر من مشاكل العميل، وإنه يخلو من الأحكام السلطوية والضغوط القسرية من جانب المستشار". وحيثما رُئِىَ أن جذور المشكلة داخلية لا خارجية، فإن الهدف يتمثل فى التعامل معها بتحقيق تغييرات سلوكية معينة، بناء على أن العميل قد تمكن من فهم أمور معينة عن ذاته لم يكن واعيًا بها من قبل.

وأما 'المهارات المعاونة' من جانب المستشار التى تيسر حدوث ما أشرنا إليه فهى تخضع للتأمل الواعى والسيطرة الواعية. ومن القضايا المعلقة قضية تقول: إلى أى مدى ينبغى لردود فعل المستشار أن تتجاوز شرح أقوال العميل أو إعادة صياغتها؟ والمعالج

النفسى اللامع كارل روجرز يصف دور المعالج على النحو التالى: "إنه لا يكتفى بمجرد تكرار كلمات عميله أو مفاهيمه أو مشاعره. بل إنه يحاول النفاذ إلى المعنى المضمر فى التجربة الشعورية الباطنة الحاضرة، وهو الذى تشير إليه كلمات العميل أو مفاهيمه". ولكن إذا كان المستشار سوف يقدم أمثال هذه التفسيرات إلى العميل، فلن يكون الحد الفاصل قاطعًا بين مساعدة العميل على صوغ معانيه الخاصة وبين توجيه العميل لتقبل صياغة المعالج لها بل سيصبح مشوشًا إلى حد ما.

فالعلاج والمشاورة يقدمان العون للأفراد الذين يعانون من أمراض ولَّدها المجتمع، وهو ما يتضح فى الاستعراض الشامل المشار إليه آنفًا:

> بدأ فى الظهور فيما يبدو مجال جديد من مجالات التخصص، متخذًا صورته ببطء من الأدوار المهنية المنوعة الكثيرة التى يرتبط بها، واستجابة لحاجة اجتماعية يحس بها الناس إحساسًا عميقًا، وهى الحاجة إلى تقديم الإرشاد والدعم للأفراد وسط الدوامة الهائلة للتغيير الاجتماعى والاقتصادى وزيادة تنقل السكان جغرافيًا، والانهيار الجزئى للحياة الاجتماعية فى المناطق التى تسودها الحياة المدنية... ويصطبغ المجال بصفة إنسانية عميقة فى شتى أشكاله... ويعتبر عاملًا جوهريا يحقق التوازن مع الاتجاهات الشمولية الظاهرة بوضوح وجلاء أيضًا فى شتى أرجاء نسق التغير الصناعى والثقافى الحديث.

ولكن إذا افترضنا قدرة العلاج وتقديم المشورة على التخلص من آثار الأمراض الاجتماعية بالكشف عن الطاقات الخفية للأفراد، فلنا أن نعتبرها فى حدود ذلك الافتراض من الممارسات الأيديولوجية التى قد تتنافس مع ممارسات التعبئة السياسية المبنية على الافتراض المضاد الذى يقول إن العلل الاجتماعية يستحيل علاجها إلا بالتغيير الاجتماعى. بل إن ميشيل فوكوه يقول إن 'الاعتراف' [لدى الكاهن] الذى يمكن اعتباره جامعًا للعلاج والتشاور، قد أصبح من المكونات ذات الأهمية الحيوية للسيطرة الاجتماعية.

والواقع أن سرعة استعمار 'تقديم المشورة' للعديد من نظم الخطاب المؤسسية، الخاصة بالعمل، والتعليم، والخدمات الاجتماعية، والطب العام، والتوجيه المهنى، والقانون والدين يطرح تساؤلات عن علاقته بالسيطرة الاجتماعية. وفيما يلى، على سبيل التمثيل، مقتطف من مناقشة لتقديم المشورة فى مجال التعليم.

فى المدرسة ذات الطابع السلطوى القوى، لا يتوقف جميع أفراد تلك الجماعة، من مدير المدرسة إلى أدنى المراتب، عن إصدار الأوامر إلى كل من لهم عليه سلطة رسمية، ومن ثم فلا يكاد يوجد مجال للإرشاد إلا الرعاية ذات الصبغة الأبوية الشديدة، وتقديم الإرشاد بالسذاجة التى يتسم بها الهواة؛ ولا تكاد تلوح فرصة لغرس أى تفهم حقيقى للمشاركة فى المسؤولية، والانضباط الذاتى للأفراد، والاهتمام بالآخرين واحترامهم باعتبارهم بشرًا. أما إذا كانت المدرسة تهدف فعلًا إلى تحقيق أقصى مراقى النمو الشخصى للأفراد جميعًا، فينبغى أن نكف عن الظن بأن مسؤولية المدير تنتقص من مسؤولية العاملين، بل ولا يمكن أن نسمح لمسؤولية العاملين أن تنتقص من مسؤولية التلاميذ.

وقد يخرج المرء من هذا التضاد بين نمطين من أنماط المدرسة، بنتيجة منطقية تقول إنه يقترح العمل بتقديم المشورة باعتبارها تكنولوجيةً معينةً داخل آلية ترمى إلى تحقيق النظام الاجتماعى فى المدارس وإضفاء المشروعية عليه، أى بصفته مذهبًا 'فرديًا جماعيًا' ما دام يرى أن المدارس شراكات تفيد جميع الأفراد فيها. والمرء يجد أيديولوجيات التشارك هذه فى هيئات أخرى، بما فى ذلك الهيئات الصناعية والتجارية. ويجوز لنا أن نعتبر تقديم المشورة فى أمثال هذه الحالات تكنولوجيات تأديب وتكنولوجيات علاج فى الوقت نفسه. وأما انتشاره فيمكن أن ينظر إليه باعتباره يتفق مع التغيرات فى استراتيجيات تحقيق الانضباط، وهى التى تكلف الفرد بتحقيق انضباطه بنفسه.

وختامًا لهذا القسم دعونا ننظر إلى مثال لتقديم المشورة فى أحد نظم الخطاب المُسْتَعْمَرَة. وفيما يلى مقتطف من جلسة مشاورة حول العمالة، وبصفة أخص من جلسة

تشاور فى منتصف الحياة العملية لامرأة ناجحة من سيدات الأعمال، تصادفها صعوبات مع رئيسها وتحاول أن تنتقل إلى عمل آخر. والمقتطف مأخوذ من برنامج إذاعى بُنى بالفعل حول مناقشة بين مخرج البرنامج (م) والاستشارى (ش) إلى جانب مقتطفات من جلسات التشاور المستخدمة لإيضاح بعض المسائل الواردة فى المناقشة (ع : العميل). والنص يبدأ بهذا المقتطف، ولكن دورى المتحدثيْن الأخيريْن يعيدانا إلى المناقشة بين المخرج والاستشارى. و(النقطة التى حولها مسافة تعنى وقفة قصيرة، والشرطة تعنى وقفة أطول).

(١) ع : والأمر الصعب الآخر أننى إذا لم أنجح فى الحصول على هذا العمل فاعتقد أن الصعوبة الحقيقية ستكون فى الواقع فى. البقاء حيث أنا. أعنى إذا لم أحصل عليه فإننى أكاد أواجه إغراء الاستقالة. أصبح عاطلة.

(٢) ش : يعنى هناك الـ. هل كلمت زوجك فى هذا الموضوع.

(٣) ع : إم. بشكل عابر نعم. هددت بهذا فى أكثر من مناسبة واحدة. نملك. ذلك. لفترة قصيرة. بسبب وجود ميراث. حرفيًا أعنى بمجرد مجرد مصادفة محضة (غمغمة). فى الظروف العادية لا.

ش : همم.

(٤) ش : وإذن يعنى. الأمر فى يدك. سيكون الأمر محزنًا لأنه من الأيسر كثيرًا أن يحصل المرء على عمل (ع: ممم) من عمل. وهكذا. إذا لاحت لك فرصة أو واتتك. أن. تبقى. و. تصرى على أسنانك فسوف يكون ذلك حسنًا جدًا. وهل نظرت فى أن التعامل. مع التوتر العاطفى. والضغط من. تجاهل و. كأنما يصلبك الآخرون الذين نشأت فعلاً وبلغت النضج الشخصى معهم—

(٥) ع : أدرك ذلك باعتباره بيانًا موضوعيًا لكننى لست واثقة أننى أستطيع إدراكه عندما يصبح ذاتيًا.

(٦) م : هل تقول لها هنا يا مايكل إن المعاناة مفيدة لك.

(٧) ش : سؤال وجيه لست واثقًا أننى أعرف أن أجيبه بنفسى اه: سؤال وجيه.

النص ٨ – ٥ المصدر: 'تقديم المشورة فى التوظف'، راديو هيئة الإذاعة البريطانية، البرنامج الرابع، ٧ ديسمبر ١٩٨٦

الدور رقم (٢) يلفت أنظارنا على الفور بسبب الافتراضات المتحيزة جنسيًّا التى يقوم عليها لجوء الاستشارى مباشرة إلى الإحالة للزوج باعتباره يمارس سلطة التحكم فى الأفعال المتهورة. ولكن المسألة التى أريد التركيز عليها هى أن استعمار الاستشارة لبعض نظم الخطاب مثل النظم المرتبطة بالعمل، يجعل قواعده الأساسية الخاصة بالعلاج وبالتوجه الشخصى والفردى تتفق مع الأهداف المؤسسية.

لاحظ سؤال المخرج فى الدور رقم (٦). ما الذى يقوله الاستشارى للعميلة؟ أو بالأحرى ما الذى يفترضه سلفًا فى (٤)؟ وهل الافتراض المسبق ذو طبيعة علاجية أو طبيعة تأديبية متعلقة بالعمل؟

المفترض سلفًا هو الكلام الذى يبدأ بكلمة التعامل وينتهى بعبارة نشأت وبلغت النضج الشخصى. وهذا الافتراض المسبق فى الواقع يمزج بين الحالة الخاصة (أى "إن هذه التجربة سوف تحقق لك النمو الشخصى") وهى المشار إليها فى العبارة الثانوية، والافتراض العام القائم على المنطق السليم الذى يحدد لهذه الحالة الخاصة معنى (أى "إن الشخص الذى يتعامل مع التوتر العاطفى.. إلخ تنمو شخصيته وتنضج") وهو ما تفصح جزئيًّا عنه الجملة الرئيسية ("نشأت فعلًا وبلغت النضج الشخصى"). وإقامة التعادل بين النجاح فى التعامل مع التوتر العاطفى وبين النمو والنضج الشخصى يمثل جانبًا من جوانب المنطق السليم الذى يقوم عليه التشاور. والطريف هنا أن هذه المقولة تتمتع بمرونة كافية تضمن أن يدرج فيها التوتر والضغط الناشئان من العمل. والتوتر والضغط، وسائر ما يرتبط بهما من عائلات هذه الأمراض، أصبحت، بصورة متزايدة، من الجوانب المألوفة فى الحياة العملية للناس، إذ إن الذين لا يزالون فى أعمالهم يتعرضون لضغوط ما تفتأ تشتد لزيادة إنتاجيتهم. وليست هذه الظواهر بطبيعة الحال لوازم للعمل على الإطلاق (ناهيك بأن تكون مُسْتَحَبَّةً فيه)، وإذا كان التشاور بشأن العمل ينسب إليها دورًا إيجابيًّا فى 'نمو الشخصية' فإنه يساعد، فيما يبدو، على إضفاء المشروعية عليها.

اتجاهات أخرى

لا تشرح الاتجاهات التى رصدناها فى المجتمع وفى الخطاب، والتى ناقشتها فى هذا الفصل، جميع ما يجرى على مستوى المجتمع ومستوى الخطاب فى الرأسمالية المعاصرة على الإطلاق. وتأكيدًا لهذا دعنى أختتم هذا الفصل بإشارة موجزة إلى بعض الاتجاهات التى تعتبر من زاوية معينة مضادة للاتجاهات التى ناقشتها، وذلك ما دامت تشير إلى زيادة التفتت لا إلى زيادة التكامل.

سبق أن أشرت إلى شكل من أشكال رد فعل الأشخاص على زيادة تعدى الاقتصاد والدولة على حياتهم، ويتمثل رد الفعل المذكور فى السعى لحلول فردية لإحساسهم بفقدان توجهاتهم وفقدان الهوية وما إلى ذلك بسبيل فى شتى صور العلاج، والمشاورة، وخدمات المعونة. ولكن ردود أفعال الأشخاص كانت تتخذ أحيانًا صورًا جماعية بدرجات متفاوتة من خلال أشكال الكفاح. ويتمثل أحد معالم الحالة السياسية الراهنة فى وجود عدد هائل من المنظمات والحركات التى لم تستطع القنوات التقليدية للعمل السياسى – من خلال الأحزاب السياسية، والنقابات، والكنائس – أن تحتويها (وإن كنا نسمع عن رأى يقول إن التحالف مع هذه القنوات التقليدية، وفيما بينها، هو الطريق الوحيد لمقاومة النظام). ويتجلى فى تنوع هذه الحركات الاجتماعية الجديدة (كما سوف أسميها) فى ذاته نطاق تعدى النظام على الحياة، وجوانب الحياة الكثيرة التى تتعرض للضغوط بسببه.

والواقع أن أى رصد للحركات الاجتماعية الجديدة يبين تنوعها المحير، فهى كثيرًا ما تتفاوت فى بعض الجوانب مثل حجم قواعدها الاجتماعية، وطبيعتها، ونطاق القضايا التى تشغلها، وعلاقتها المباشرة أو غير المباشرة بحالات التعدى من جانب النظام وهلم جرًّا. ويجوز أن تضم القائمة: الحركة النسوية، وجماعات الحفاظ على البيئة ومكافحة الأسلحة النووية، والحركات القومية، وجماعات أسلوب الحياة البديل، وحركة السود والجماعات العرقية، وحركة تحرير ذوى الميول الجنسية المثلية، والحركة السلمية، وجماعات تحرير الحيوان، وما إليها بسبيل.

ومثلما تتجلى الاتجاهات التكاملية التى نوقشت من قبل فى حالات تكامل استعمارية داخل النظام الاجتماعى للخطاب، تتجلى اتجاهات التشتت أو التفتت المذكورة فى انتشار بعض أنماط الخطاب، وخصوصًا فى تفتيت الخطاب السياسى البديل. والمقتطف الصحفى فى النص ٨ – ٧ على سبيل المثال يمثل الخطاب النسوى: وهو افتتاحية مقالة منشورة فى صحيفة نسوية.

ركز على مفردات هذا النص، وتأمل خصوصًا كيف يصوغ نمط الخطاب النسوى الذى يستند إليه المقال التعابير الخاصة بحالات الاغتصاب وأشكال إجراءات الاحتجاج عليها وردود الأفعال لهذه الإجراءات.

تكشف صياغة العبارات الخاصة بحالات الاغتصاب عن سمة من سمات المفردات التى تميز النص كله؛ وهى التعبيرات المركبة التى تتكون من مفردات ذات صياغة نسوية خاصة مثل عنف الذكور، والجرائم المرتكبة ضد المرأة، والناجيات بعد الاغتصاب. ولاحظ أن مفردات هذه التراكيب تنتمى إلى تصنيف نسوى متميز للأشخاص والأحداث فى المجال النسوى للعمل السياسى: وعنف الذكور ليس مجرد شىء يحدث وحسب بل ظاهرة أساسية (وهدف) للمجال. لاحظ أيضًا وجود صياغة لوصف فئة من الأشخاص لا وجود لها فى أنماط الخطاب الأخرى وهو الناجيات بعد الاغتصاب (وليست عبارة ضحايا الاغتصاب معادلة لها، لأن الأخيرة يمكن أن تشير إلى امرأة لم تعش بعد الاغتصاب)، واختيار الصياغة له دلالة سياسية، لا من حيث الإيحاء بأن المغتصبين أحيانًا يقتلون ضحاياهم، بل أيضًا من حيث التركيز على الاغتصاب باعتباره كارثة وشناعة لا تحتمل، فالمرء قد ينجو بعد وقوع زلزال أو تحطم سفينة، بل قد تكتب له الحياة بعد تفجير قنبلة ومحاولة القتل.

فإذا انتقلنا إلى أعمال الاحتجاج وجدنا أيضًا عددًا من التعابير المركبة مثل: غضب النساء، "النساء الغاضبات"، الغضب النسوى، والعمل المباشر. والتعليقات الواردة أعلاه عن عنف الذكور تنطبق أيضًا على غضب النساء وأنواع هذه العبارة: فهى صياغة تنتمى إلى فئة ذات دلالة سياسية وتعبوية فى مجال السياسة النسوية، وليست مجرد طريقة للإشارة إلى أن بعض النساء يتصادف أن يشعرن بالغضب. ومن المحتمل أن الدعاة

النسويات قد أخذن مفهوم العمل المباشر من الحركة السلمية.

وصياغة الردود على الإجراءات التى تتخذها المرأة مستقاة من وضح المفردات النسوية السياسية مثل كراهية المرأة، وعدو المرأة، وأبوى، وضد المرأة. ونلاحظ أخيرًا عدد المرات التى تتكرر فيها عبارات أساسية مثل عنف الذكور وغضب المرأة فى النص. وهى تتضمن كلمة المرأة نفسها، وفى النص مواقع كان يمكن للمرء أن يتوقع فيها الإشارة للمرأة بضمير مؤنث (أو يستبدل بها ضمير مؤنث) أو حذف الإشارة وحسب، ولكنها لم تحذف. والجملة الأخيرة فى الفقرة الثانية مثال على ذلك، إذ كان يمكن استبدال عنفهن، وعبارة أنهن يتسببن فى انقسام الحركة بالعبارات الواردة بالنص وهى "عنف" النساء، وعبارة "إن النساء يتسببن فى انقسام الحركة".

الخاتمة

لا تمثل الاتجاهات فى النظام المجتمعى للخطاب فى أى مجتمع يتسم بالتعقيد مثل مجتمعنا مسارًا بسيطًا فى اتجاه واحد، فهى متناقضة ويصعب تلخيصها. وقد اقتصر هذا الفصل على تقديم إجابات أولية عامة عن السؤال الذى يتجاهله الناس بشأن السمات المميزة للنظام المعاصر للخطاب واتجاه حركته، لكننى أرجو أن يجد القراء فيه على الأقل ما يدل على أهمية هذا السؤال داخل النطاق العام للاستكشاف الاجتماعى للحاضر.

Misogynist hysteria unleashed over Molesworth rapes

Three women were raped at Molesworth peace camp over the past 12 months, as reported in *Outwrite* no. 50. The four known rapists have been and still remain active in peace circles. Meanwhile, sections of the peace movement agonise, with little apparent success, over how to effectively deal with male violence and feminist anger. In addition, the demand made by the rape survivors and their supporters that Molesworth peace camp be closed altogether, in recognition of the crimes against women committed there, crimes which have gone ignored, trivialised and even disbelieved, remains unmet.

Predictably, the response of some male pacifists exposes rampant misogyny. An examination of some of the letters published in recent issues of *Peace News* speak for themselves. Opinions range the spectrum of typical patriarchal reaction — disbelief at the occurrence of the rapes; likening the efforts of the women to close the peace camp to those of Tory MPs and bailiffs; condemnations of the 'violence' of the women for taking direct action at Molesworth in protest; accusations that the women are dividing the peace movement, and so on.

Almost all objectors withdraw support from *Peace News* for what they describe as its biased, militant and offensive stance on the issue. The stance in question is PN's support for the women demanding the closure of the camp. However, PN's non-editorial stand on this would seem to be contradicted by their decision to publish offensive, anti-women statements in their letters pages. PN comments that they see their role as 'working to change these uninformed and misogynist views on rape by allowing open debate whilst making our own positions clear in editorial statements.' They go on to state that suppression of such views would alienate rather than bring about changes, a position that is at once questionable and potentially dangerous. The protesting women are angry, declaring that PN has violated its own anti-sexist policy.

Still, it is clear that these virulent attacks on the women, disguised as moral outrage, reveal fear of women's anger. The causes of the anger, ie. the rapes of the women by individual men, seem to have been forgotten and buried in accusing fingers point at the women who, in their anger, destroyed some property at the camp and spray painted benders and caravans. After all, violence against property must be punished, while violence against women, the commonest crime of all, continues to go unnoticed.

What is being displayed is the paucity of understanding of issues surrounding rape and male violence against women and women's anger. Can non-violent strategies work effectively against individual acts of male violence against women? The failure of the peace movement to work out effective strategies, strategies that permit expression of anger rather than containment of it, is emerging.

Perhaps the most offensive letter published in *Peace News* 17th October, is the diatribe delivered by Keith [illegible] who protests that 'Molesworth is becoming the scapegoat for all rapes against all women throughout time', and goes on to whine about the women who want to close the camp and who 'are trying to enforce that with with violence' (our italics). '... *Instead of diminishing, the violence and anger of the women is growing. It seems that sharing their rage and grief, rather than healing them and healing them, is increasing these angry women's even more. Instead of dispersing in destruction, they are drawing strength from that destruction, a dreadful, fearful strength ... are the angry women acknowledging the rightness* [illegible] *the lynch mobs, the bandits they are becoming?*' Fear reigns, is the man trembling?

This self-opinionated bigot then suggests that both peace and feminist movements take a long very hard look at what they are doing, and also, that male violence must be dealt with. But how? No strategies are offered. Must we conclude that community sipping camomile tea by the campfire is the true expression of harmonious fraternal relations?

The rape survivors, and supporters, themselves are undeterred, and continue their campaign, addressing meetings, facing the issue and getting an inevitably mixed response of abuse (they have been compared to the NF) and support. CND groups are being asked to stop supporting Molesworth peace camp, which continues to function as a mixed camp, and a proposal is to be put to CND National conference in mid-November asking that groups withdraw support. CND office has expressed its deep concern and has claimed that since it doesn't set up peace camps, it is not empowered to close them, but 'condemns unequivocally all violence'. The outcome remains to be seen. That the issue is now being debated and is even on the agenda of the CND National conference is a victory in itself. But only partial, considering the overwhelming reaction that the women had to battle with, and the fact that the rapists remain free.

Sheila

Contact the rape survivors and supporters at: [illegible] Cambridge

النص ٧ – ٨ المصدر صحيفة 'أوت رايت' العدد ٥٢ نوفمبر ١٩٨٦

المراجع

فيما يتعلق بالاتجاهات فى الرأسمالية المعاصرة، والحركات الاجتماعية الجديدة، والخطاب الاستراتيجى فى مقابل الخطاب التوصيلى، استعنت بكتاب هابرماس (1994) وانظر أيضًا هارفـى (1990). وكتاب ماى (1985) وچـى وآخرين (1996) يركزان على قضية نوع اللغة المستخدمة فى الاقتصاد الحديث. والكتب التى وضعها لايس وآخرون (1996) وويليامسون (1978) وفيذرستون (1991) ولورى (1996) مصادر مفيدة لدراسة الإعلان والمذهب الاستهلاكى. وتعليقاتى على الدولة ودولة الرعاية تستفيد من كتاب هول (1984) وهابرماس. انظر أيضًا چـيسوپ (1990). وفكرة 'تكنولوجيات الخطاب' تستند إلى تحليلات ميشيل فوكوه لتكنولوجيات السلطة، انظر أيضًا دريفوس ورابينوف (1982). وفيما يتعلق بعلم اجتماع 'الذائقة' انظر بورديو (1984). وفيما يختص 'بالتدريب على المهارات الاجتماعية' استفدت من كتاب أرجايل (1978). وأول نص من نصوص المشاورة مقتطف من "بعض الاتجاهات الواضحة فى العلاج" فى كتاب روجرز (1967). وأما المقتطفات التى لم أشر إلى مصادرها فى أواخر هذا الفصل فمقتبسة من ڤـون (1976). وفيما يتعلق بثقافة ما بعد الحداثة، ومذهب ما بعد الحداثة انظر چـيمسون (1984) وإيجلتون (1996).

الفصل التاسع

الدراسة النقدية للغة والتحرر الاجتماعى:

تعليم اللغة فى المدارس

أنظر فى هذا الفصل فى المسألة التالية: كيف يمكن للدراسة النقدية للغة أن تسهم فى تحرير الخاضعين للهيمنة والقهر فى مجتمعنا. وبعد مناقشة عامة موجزة لإمكان إسهام الدراسة النقدية للغة فى التحرر الاجتماعى، يركز الفصل على مجال معين يمكن تنمية هذه الإمكانية فيه، وهو تدريس اللغة فى المدارس. وتقول حجتى إن **الوعى النقدى باللغة**، المبنى على الدراسة النقدية للغة، يجب أن يكون من الأهداف المهمة لتعليم اللغة، وأقدم بعض الاقتراحات حول أساليب تنميته. وأما السبب الرئيسى لاختيارى التركيز على هذه القضية فهو اتصالها بالأحوال الراهنة، ونظرًا للتغييرات الكبرى فى السياسات والممارسات التعليمية التى يجرى تنفيذها أو يُعتزم تنفيذها، ونظرًا بصفة أخص إلى التقرير الذى قدمته لجنة كينجمان، ومداولات لجنة كوكس عن تدريس اللغة الإنجليزية فى المدارس. (والإحالة فى ذلك كله إلى الفترة التى كتبت فيها الطبعة الأولى للكتاب. ولم نشهد إحراز أى تقدم كبير منذ ذلك الوقت فى السياسة الرسمية من حيث الوعى النقدى باللغة).

قلت فى الفصل الافتتاحى فى هذا الكتاب إن أحد أغراضى من وراء كتابته أن أساعد على رفع الوعى بأساليب إسهام اللغة فى تمكين بعض الناس من الهيمنة على البعض الآخر، لأن الوعى يمثل الخطوة الأولى على طريق التحرير. وكون الوعى باللغة، بصفة خاصة، عنصرًا مهمًا من عناصر تلك 'الخطوة الأولى'، نتيجة مترتبة على أساليب عمل الهيمنة فى المجتمع الحديث، فالهيمنة تعمل، كما دأبتُ على تأكيد ذلك، بطرائق تزداد شدتها، من خلال 'الرضى' لا 'القسر'، ومن خلال الأيديولوجيا، ومن خلال اللغة، ولكن ازدياد الشدة المطرد لا يعنى الاقتصار عليها، فلا يجوز اختزال أسلوب الهيمنة فى توليد الرضى، واستعمال أوعية الأيديولوجيا واللغة، مثلما لا يجوز اختزال التحرر فى 'إماطة اللثام'، والتغيير وممارسات الخطاب. بل إننا، حتى ونحن

نركز على اللغة والخطاب، علينا أن نذكِّر أنفسنا بأن التحرر الاجتماعى يدور فى المقام الأول حول مسائل عملية محسوسة، مثل البطالة، والإسكان، وإمكان الالتحاق بالتعليم، وتوزيع الثروة، وتخليص النظام الاقتصادى من عوادى المصلحة الشخصية والربح ونزواتهما.

وإذا كان للدراسة النقدية للغة أو لأى أسلوب آخر للتحليل النقدى للمجتمع أن يسهم فى التحرر الاجتماعى من خلال رفع مستوى الوعى، فلابد من تلبية شروط معينة أولًا. ولنا أن نميز ما بين الشروط 'الموضوعية' والشروط 'الذاتية'. وربما يكون الشرط الموضوعى الرئيسى واضحًا، ولكنه جدير بإعادة ذكره، أى أن تكون الأوضاع الاجتماعية العامة فى حالة تسمح بإمكان التقدم نحو التحرر الاجتماعى. ومعنى هذا أن الطاقة التحررية للدراسة النقدية للغة فى ظل دكتاتورية فاشية، أو حتى فى ظل نظام ديموقراطى تتمتع الكتلة المهيمنة فيه بموقع حصين، طاقة محدودة إلى حد بعيد! وأما الشروط الذاتية فتضم أولًا فئات الشعب الخاضعة للهيمنة، فيجب أن تتمتع بالقدرة على الانتقاد ورفع مستوى وعيها، وهو ما يتوقف على خبرتها بالكفاح الاجتماعى. فالمقهورون لن يتبينوا قهرهم لمجرد أن أحدًا من الناس كلف نفسه عناء تنبيههم إليه، بل لن يتبينوه فعلًا إلا من خلال خبرتهم الخاصة بالقهر، وأنشطتهم فى الكفاح ضده. وهكذا فإن الكفاح ورفع الوعى يرتبطان بعلاقة جدلية، بمعنى أن الكفاح يهيئ الناس لزيادة الوعى، وهو ما يمنحهم القوة على القيام بالكفاح. أضف إلى ذلك الشروط الذاتية المتعلقة بمن يقومون بدور العامل المساعد فى رفع مستوى الوعى، أى إنه لابد من وجود أفراد يتمتعون بالخلفية النظرية القادرة على تمكينهم من سلوك هذا المسلك، والمشاركة فيما يتعرض له المقهورون مشاركة تكفى لضمان تقبلهم باعتبارهم عوامل مساعدة. وكثيرًا ما يكون هؤلاء معلمين بصورة رسمية أو غير رسمية، وإن لم يكن ذاك هو الواقع بالضرورة. وقد يتمثل جانب من 'معداتهم'، وهو جانب واحد فحسب، فى إحاطتهم بالدراسة النقدية للغة، والقدرة على الاستعانة بوسائط من كتب مثل هذا الكتاب للتواصل مع من لا يتمتعون بالخلفية اللازمة لقراءتها.

إن فى مجتمعنا سياقات اجتماعية كثيرة يمكن للدراسة النقدية للغة أن تنهض فيها بدور فى ضروب الكفاح من أجل التحرر الاجتماعى. وبعض هذه السياقات تعليمية (كالمدارس والكليات وسياقات التدريب 'أثناء العمل' أو 'أثناء الخدمة'... إلخ) أو من غيرها مثل أنشطة فروع النقابات، والمنظمات السياسية، والجمعيات النسوية، وجمعيات الحفاظ على البيئة، واتحادات المستأجرين والعديد من أنماط اللقاءات فى أماكن العمل، أو المنازل، أو الحانات، أو المقاهى أو الشوارع. فلأعلق بإيجاز شديد على ثلاثة من أمثال هذه السياقات قبل التركيز على تدريس اللغة فى المدارس.

من السياقات التى يعمل فيها معلمون محترفون تدريس اللغة الإنجليزية باعتبارها لغة ثانية. ويتعامل هؤلاء المعلمون مع بعض القطاعات الاجتماعية التى تعانى أشد الحرمان من المزايا التى يتمتع بها غيرها، وإحساس أفرادها بالخضوع للسيطرة والنزعة العنصرية إحساس بالغ الحدة. ويرى بعض هؤلاء المعلمين أن دورهم يتضمن أصلًا تمكين هؤلاء الطلاب – بتعبير أحد الممارسين – من "التعامل مع المواقف التواصلية خارج قاعة الدرس، حيث كفة السلطة المؤسسية راجحة ضدهم، وإعدادهم لإظهار التحدى والمعارضة والإثبات فى الحالات التى تقتضى ديناميات السلطة منهم الموافقة، والرضوخ والصمت". ويجب أن تقوم هذه العملية التعليمية "على أساس الحوار حول معنى السلطة وتشفيرها فى اللغة" وهو ما يشير إلى وجود دور للدراسة النقدية للغة. وهكذا فإن تعليم الإنجليزية باعتبارها لغة ثانية حالة يعتبر فيها إنماء الوعى النقدى بالخطاب أساسًا لنموذج من الصراع الأيديولوجى الخِطابى، وهى مثال سبق ترسيخ جذوره إلى حد ما.

ولدينا مثال آخر يفتقر، فى حدود ما أعلم، إلى مثل هذه التقاليد الراسخة، وإن تكن إمكانياته تبدو، برغم هذا، كبيرة، ألا وهو تدريب العاملين فى المرافق العامة الذين يتصلون اتصالًا مباشرًا بالفئات الاجتماعية الخاضعة للسلطة، كالعاملين بالتمريض على سبيل المثال. فالواقع أن عددًا كبيرًا من أمثال هؤلاء العاملين يتعرضون لضغوط هائلة لتكييف ممارساتهم حتى تتفق مع معايير نفعية محضة مثل 'الكفاءة' و'فعالية

التكاليف'. ويعنى هذا، لكثير منهم، توقع قيام عدد أقل من هؤلاء العاملين 'بالتعامل' مع أعداد أكبر من الناس. ومن ثم، ففى حدود ظهور الخطاب أو 'التواصل' فى التدريب، تظهر هذه السمات فى شكل 'التواصل' و 'المهارات الاجتماعية' التى يتمثل دافعها الأول فى تحقيق الكفاءة فى التعامل مع الأشخاص. ولا شك أنك تذكر مناقشة 'المهارات' فى الفصل الثامن. أى إن الدراسة النقدية للغة يمكن أن تكون موردًا مهما لمن يشغلهم أمر هذه التطورات.

وتوجد حالة أخرى خارج المجال الرسمى للتعليم أو التدريب، وهى إمكانية البناء على أسس البحث النقدى فى أجهزة الإعلام، وتوفرها حركة النقابات العمالية فى بريطانيا، إذ يرى كثير من النقابيين أن الممارسات الإعلامية تضر بمصالح النقابات خصوصًا وبأفراد الطبقة العاملة عمومًا. ويقوم جانب من هذا الموقف السلبى على الخبرة الجماعية المريرة للأسلوب الذى استخدمته وتستخدمه أجهزة الإعلام فى وصفها لأنشطة النقابات وممارساتها، مثل أشكال الاقتراع والانتخابات والإضرابات. ولكن الباب يكاد يكون مغلقًا فى وجه الانتفاع العام بأساليب التحليل القادرة على تمكين النقابيين من إجراء رصد تفصيلى لإنتاج أجهزة الإعلام، على الرغم من أن مثل هذا الرصد يمكنه تدعيم حملاتهم الرامية إلى السيطرة الديموقراطية على أجهزة الإعلام، وعلى إتاحة 'حق الرد' للذين تصورهم هذه الأجهزة وهلم جرًّا. وأعتقد أن الدراسة النقدية للغة من الموارد التى يمكنها المساعدة فى هذا الصدد، وعلاقتها بالقضية واضحة فى أعين الكثير من النقابيين.

تعليم اللغة فى المدارس:
الوعى النقدى باللغة.

ذكرت عاليه لجنة كينجمان باعتبارها أحد أسباب تركيزى على تعليم اللغة فى المدارس. وكانت عدة عوامل قد أسهمت، فيما يبدو، فى اتخاذ القرار بإنشاء هذه اللجنة، وكان من بينها الخلاف الذى نشب فى أعقاب المحاولة التى قام بها مفتشو تعليم اللغة الإنجليزية لوضع أهداف لتعليم اللغة الإنجليزية، والخطوات التى اتخذت على طريق

إنشاء منهج دراسي قومي في عدد من المواد الدراسية 'الأساسية'. وكان من العوامل الكبرى ما تردد من شكاوى بشأن المستويات، وخصوصًا مستوى إجادة القراءة والكتابة، وكثيرًا ما كانت هذه الشكاوى من أصحاب العمل أو من السياسيين الذين يرجعون أصداءهم. وفيما يلي، على سبيل المثال، التبرير الذي قدمه كينيث بيكر، وزير التعليم آنذاك، في نوفمبر ١٩٨٦، لإنشاء اللجنة المذكورة: "كثيرًا ما أسمع أصحاب العمل يشكون من أن عددًا كبيرًا ممن انتهوا من المرحلة الدراسية وتقدموا بطلبات الحصول على أعمال أو وظائف، أي بعد أن قضوا إحدى عشرة سنة في التعليم الإلزامي، لا يستطيعون الكتابة البسيطة الواضحة ومن دون ارتكاب أخطاء واضحة".

لابد أن القلق يساورنا جميعًا إزاء انخفاض القدرات اللغوية للكثير من الأطفال عند تركهم التعليم، ولكن الواضح أن الشكاوى من تدني المستويات كثيرًا ما تتخذ صورًا نفعية ضيقة النطاق، كأنما لم تكن القدرات اللغوية إلا مهارات أو أدوات (وهما من الكلمات التي يشيع استخدامها) لإنجاز مهام معينة (بأسلوب 'بسيط' و'واضح' ودون أخطاءوهلم جرًّا) وكأنما لم يكن تعليم اللغة إلا تدريبًا على اكتساب هذه المهارات. ونحن نجد مثل هذه التعبيرات النفعية في الخطاب الذي ألقاه بيكر في يناير ١٩٨٧، وحدد فيه أعضاء اللجة واختصاصاتها:

> ... راعني وجود فجوة معينة. فالتلاميذ يحتاجون إلى الإحاطة بأسرار اللغة الإنجليزية حتى يتمكنوا من استخدامها استخدامًا فعالًا. ولم تعد معظم المدارس تعلم النحو بالأسلوب القديم.
>
> لكنها لم تستعض عنه بشيء يذكر. لم تعد لدينا أرضية مشتركة بشأن أبنية اللغة الإنجليزية وطرائق عملها، أو بشأن الأسلوب الذي تستخدمه لنقل المعنى وإحداث آثار أخرى. علينا أن نزود المعلمين بنموذج صحيح للغة للمساعدة على تحسين تدريسهم.

الصورة المرسومة للغة هنا موجهة لتنفيذ المهام وحسب، للاستخدام الفعال للغة، وإحداث آثار معينة مثل نقل المعنى. بل وتتخذ اللغة المستخدمة في الإشارة إلى تدريب

المعلمين شكلًا يوحى بالمعدات اللازمة لتنفيذ العمل (تزويد). ولكن استخدام اللغة – أى الخطاب – لا يقتصر معناه، كما رأينا فى هذا الكتاب، على أداء المهام، بل يتضمن أيضًا التعبير عن الهويات الاجتماعية والعلاقات الاجتماعية وتشكيلها وإعادة إنتاجها، ومن بينها أساسًا علاقات السلطة.

وليس لدينا، من منظور التحليل النقدى للغة، ما نعترض عليه فى القول بأن تنمية القدرات اللغوية للأطفال يقتضى حصولهم، هم ومن يعلمهم، على 'نموذج' ما للغة، ولكن صورة اللغة والخطاب تختلف اختلافًا جذريًا عن التصور النفعى الوارد عاليه. وما دامت الدراسة النقدية للغة تنسب إلى اللغة دلالة اجتماعية أشد ثراءً وأثقل وزنًا، فإنها تنظر إلى تعليم اللغة من زاوية أوسع. وما دمت أنا قد أقمت مناقشتى لتعليم اللغة على أساس اختصاصات لجنة كنجمان، فإن للقارئ أن يعتبر أن هذا القسم يمثل إسهامًا فى المناظرة من وجهة نظر بالغة الاختلاف عن بعض الأفكار التى دعت إلى إنشاء اللجنة.

وتقضى الاختصاصات بأن توصى اللجنة بما يلى:

- تقديم نموذج للغة الإنجليزية، منطوقًا أو مكتوبًا، بحيث يمكنه أن

(١) يعتبر أساسًا لطرائق تدريب المعلمين على تفهم أساليب عمل اللغة الإنجليزية.

(٢) يعتبر مرجعًا للمناقشات المهنية عن جميع جوانب تعليم اللغة الإنجليزية.

- وضع المبادئ اللازمة لإرشاد المعلمين إلى مدى وجوب شرح هذا النموذج للتلاميذ وأساليب هذا الشرح، لتوعيتهم بطرائق استخدام اللغة فى شتى السياقات.

- ما يحتاج التلاميذ إلى معرفته عمومًا عن أساليب عمل اللغة الإنجليزية، ومن ثم ما كان ينبغى أن يتعلموه وما يُتوقع أن يفهموه فى هذا الصدد فى سن السابعة، والحادية عشرة والسادسة عشرة.

وسوف أبدأ بمناقشة النموذج المشار إليه فى أولى الاختصاصات، ثم أناقش البند الثانى والثالث معًا تحت عنوان "المبادئ الإرشادية"، وإن لم أقترح أهدافًا محددة للأطفال فى سن ٧، و١١ و١٦.

النموذج

سبق لى أن حددت خصائص الخطاب فى الفصل الثانى، ولخصتها فى تعريف يبينه الشكل ٢-١، وهو تعريف يقدم نموذجًا معينًا للغة، أرى أنه ملائم لتعليم اللغة، فعناصره الرئيسية هى النص، والتفاعل والسياق، وأكدت مسألتين فى تلك المناقشة تتصلان بموضوعنا الراهن، أولاهما أن الخطاب لا يقتصر على النص، أو على الشكل اللغوى. ويبدو أن نوع النموذج المتصور فى 'الاختصاصات' المذكورة مجرد نموذج للغة الإنجليزية باعتبارها نظامًا صوريًا، وهو ما لا يفى بالغاية على الإطلاق باعتباره نموذجًا تعليميًا، لأنه لا يفيدنا بشىء عن التفاعل والسياق. والمسألة الثانية تتعلق بالسياق، أى بأن العلاقات الاجتماعية هى التى تتحكم فى الخطاب من خلال اعتماد الخطاب على 'الموارد الذاتية' للمشاركين، ومن خلال إسهامات الخطاب فى تشكيل هذه العلاقات الاجتماعية. وأنا أرى أن النموذج المناسب لتعليم اللغة عليه أن يبرز طبيعة الخطاب واللغة التى يشكلها المجتمع وتشكل المجتمع.

والواضح أن اختيار النموذج يعتمد على رأى المرء فى تعليم اللغة، وفى التعليم بصفة عامة. وأعتقد أن علينا التمييز بين التعليم والتدريب، وأن هذا ينطبق على اللغة مثلما ينطبق على العناصر الأخرى للمنهج الدراسى. فالآراء النفعية فى تعليم اللغة المشار إليها آنفًا تبدو لى موجهة إلى التدريب، إذ تركز على نقل المعارف والمهارات، مفترضة أن مضمونها لا إشكاليةفيه، ومتجاهلة أصولها الاجتماعية. ويصادف المرء تصورًا مماثلًا للتعليم الأدبى، عادة ما يدعو إليه هؤلاء الأشخاص أنفسهم، باعتباره نقلًا للقيم الثقافية المهيمنة، وتعليم الأطفال ما تعتبره الحكمة التقليدية 'أدبًا عظيمًا'. وأنا أقول إن التعليم على العكس من ذلك ليس مجرد نقل أو تقديم أشياء (وإن كان

يتضمن ذلك إلى حد ما) بل إنه يتمثل فى تنمية الوعى النقدى للطفل ببيئته ووعيه الذاتى النقدى وقدرته على الإسهام فى تشكيل عالمه الاجتماعى وإعادة تشكيله.

ومن ثم فليس من التعليم فى شىء أن نقدم إلى الأطفال أى عنصر من عناصر بيئتهم الاجتماعية التى صنعها الإنسان وتتعرض للتغيير على أيدى الإنسان كأنما هو عنصر من عناصر البيئة الطبيعية التى لا سلطان لهم عليها. ومع ذلك، فإن هذه الرؤية 'التغريبية' للغة على وجه الدقة [أى التى تفصلها عن المجتمع] هى التى دأبت التقاليد على نقلها فى المدارس [إلى التلاميذ]. فالذى نفتقده فى حالات جد كثيرة هو منظور اللغة بصفتها نتاجًا للمجتمع ومنتجة له، وهو ما يؤدى إلى تقديم نظم الخطاب التى أُضْفِيَتْ عليها المشروعية والصبغة الطبيعية كأنما هى مشروعة وطبيعية أصلًا، وإلى اعتبار التخفيض الاجتماعى لقيمة اللهجات المحلية عند معظم الأطفال تعصبًا لاعقلانيًا لا أثرًا من آثار علاقات السلطة، وإلى الاستهانة بالتشكيل الأيديولوجى للخطاب والخطأ فى تصويره فى صورة سوء استخدام اللغة 'المثقلة' بالدلالات من جانب أفراد لا خلاق لهم. ومن شأن أمثال هذه الأساليب المستخدمة فى تصوير اللغة أن تمنع الأطفال من تفهم اللغة باعتبارها المادة اللازمة للوعى النقدى، أى أن تمنع تحقيق أى توجه تعليمى حقيقى للغة.

وتقول حجتى إن مثل هذا التوجه لابد أن يقوم على أساس نموذج نقدى للُّغة مثل الدراسة النقدية للغة. ومفهوم تعليم اللغة الذى أقترحه يؤكد تنمية الوعى النقدى بين الأطفال بأنماط الخطاب فى مجتمعهم، أو ما سوف أدعوه الوعى النقدى باللغة. وحجتى ترجع صدى انتشار القبول الذى نشهده حاليًا لضرورة جعل 'الوعى اللغوى' عنصرًا من عناصر المناهج المدرسية، وإن كان مضمون برامج الوعى اللغوى القائمة ليس بصفة عامة نقديًا!

المبادئ الإرشادية

يرتبط الوعى أو الإدراك بعلاقة جدلية بالممارسة و(بما قلت آنفًا إنه) الكفاح. وليست الغاية من تعليم اللغة تحقيق الوعى لذاته، بل باعتباره عنصرًا لازمًا لمسايرة نمو

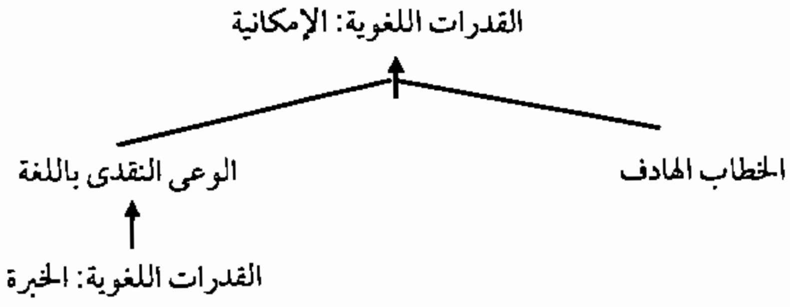
قدرات الأطفال على إنتاج الخطاب وتفسيره. ولست أشير هنا وحسب إلى تنمية قدرات كل طفل فرد، بل أيضًا إلى تنمية القدرات الجماعية للأطفال المنتمين إلى الفئات المقهورة اجتماعيًا. وأنا أميل إلى اعتبار هذه المهمة مهمة التحرر الأولى لتعليم اللغة، إذ إن الوعى النقدى باللغة يُسَهِّل بناء 'الخطاب التحررى' (انظر أدناه) الذى يطعن فى نظم الخطاب المهيمنة، ويخترقها، وقد ينجح أخيرًا فى تغيير شكلها، أى باعتباره جانبًا من جوانب كفاح الفئات المقهورة اجتماعيًّا ضد الكتلة المهيمنة.

أى إن "المبادئ التى ينبغى أن ترشد المعلمين إلى المدى الذى ينبغى الوصول إليه فى شرح هذا النموذج للتلاميذ وأساليب هذا الشرح"، ومن ثم "ما ينبغى أن يتعلمه التلاميذ"، ذوات جذور راسخة فى هذا التصور للعلاقة ما بين تنمية القدرات اللغوية والوعى النقدى باللغة. والشكل ٩ – ١ يمثل، منهجيًا، نموذجًا لتعلم اللغة يتفق مع التصور المطروح هنا، ويمكن أن ينطبق إما على تعليم الأطفال الأفراد، أو على التعليم الجماعى للفئات الاجتماعية من الأطفال.

ويقدم هذا النموذج مبدئين إرشاديين رئيسيين:

١ – اقتران الوعى بالممارسة: أى إن تنمية القدرات اللغوية للأطفال يعتمد على الاقتران بين الممارسة الهادفة للخطاب وبين الوعى النقدى باللغة.

٢ – البناء على أسس الخبرة: أى إن الوعى النقدى باللغة ينبغى أن يُبنى على القدرات اللغوية الموجودة وعلى خبرة الأطفال.



الشكل ٩ – ١ تعلم اللغة.

وسوف أناقش هذين بالترتيب.

من المفيد عند مناقشة أول هذين المبدئين أن نميز بين مستويين فى تنمية الوعى النقدى باللغة:

المستوى الأول: الوعى بالموارد الذاتية فى الإنتاج والتفسير

المستوى الثانى: الوعى بالعوامل الاجتماعية التى تتحكم فى الموارد الذاتية

ينتمى المستوى الأول إلى مرحلة التفسير فى الإجراءات التى قدمتُها فى الفصلين الخامس والسادس. ويتعلق بمساعدة الناس على الوعى بما لديهم من موارد حافلة منوعة للخطاب، وكيف ينهلون منها عند إنتاج النص وتفسيره. ويتمثل جانب مما يحدث هنا فى التفهم الصريح للغة بصفتها نظامًا صوريًا، وأما التركيز هنا فينصبُّ على إدراك القدرات الكامنة فى اللاوعى. وهكذا فإن مبدأ اقتران الوعى بالممارسة يوحى من ناحية بأن أفضل سبيل إلى تحقيق هذا الوعى هو تنمية الوعى الذاتى لدى الأطفال بالخطاب الهادف الخاص بهم (أى الخطاب الذى يمارسونه بأنفسهم باعتبارهم منتجين له أو مفسرين له لتحقيق أغراض حقيقية، لا ما يمارسونه كتدريب أو ما يمارسه الآخرون)، كما يوحى من ناحية أخرى بأن نطاق الخطاب الهادف المتاح للأطفال سوف يتسع بنمو وعيهم.

وينتمى المستوى الثانى إلى مرحلة الشرح فى الإجراءات المشار إليها. فما إن يزدْ وعى الأطفال بالوظائف التى تقوم بها مواردهم الذاتية فى الخطاب حتى يتسنى لهم طرح الأسئلة عن أصولها الاجتماعية، وآثارها الأيديولوجية فى علاقات السلطة، وكيف يمكن إعادة إنتاج الموارد الذاتية والعلاقات الاجتماعية التى تقوم عليها هذه الموارد فى الخطاب. والمستوى الثانى من مستويات الوعى ذو أهمية جوهرية للمدارس التى تريد تنمية القدرات اللغوية للأطفال إلى الحد الذى يسمح لهم بفحص الممارسات والقيود القائمة على المنطق السليم والخاصة بنظم الخطاب المهيمنة حاليًا، والطعن فيها وتغييرها، بدلًا من تدريب الأطفال وحسب على إجادة الالتزام بالأعراف السائدة.

ومبدأ اقتران الوعى بالممارسة يوحى بأن الوعى بالسيطرة الاجتماعية على الخطاب الهادف للفرد وآثاره يعتبر وسيلة فعالة لتحقيق الوعى النقدى على هذا المستوى الذى يوسع من حدود الأعراف ويخرقها، فى غمار الكفاح الفردى، والكفاح الجماعى بصفة خاصة.

ويعنى مبدأ اقتران الوعى بالممارسة تحديد ما ينبغى أن يتعلمه الأطفال عن اللغة، وأما مبدأ البناء على أسس الخبرة (كما سوف نرى) فيبين كيف ينبغى تعليمهم ذلك. ينبغى أن يطلع الأطفال على 'نموذج' واضح للغة لأن تنمية القدرات اللغوية تعتمد على الوعى النقدى باللغة، على نحو ما قلته عاليه. والحق أن لنا أن نعتبر أن القدرة على الحديث أو الكتابة النقدية عن اللغة تمثل فى ذاتها جانبًا مهمًا من جوانب القدرات اللغوية الكامنة لدى الطفل، وتسهل غيرها من القدرات أيضًا. وهذا يتطلب ميتالغة، أى لغة للحديث عن اللغة، وإن كان لابد من وضعها بعناية حتى لا تمثل للأطفال لغة غريبة أو رطانة. وإذا ما توافر 'النموذج' الذى أقترحه، فعلى هذه الميتالغة أن تمكن الأطفال من الحديث عن النصوص، والتفاعلات، والسياق الاجتماعى، أو جميع مراحل الإجراءات التى قدمتها فى الفصلين الخامس والسادس، وهى الوصف والتفسير والشرح.

ويقول المبدأ الثانى إن الوعى النقدى باللغة ينبغى أن يبنى على ما لدى الطفل فعلًا من قدرات وخبرات لغوية. فالأطفال (والناس عمومًا) يتمتعون بفهم قائم على المنطق السليم لأسلوب أداء ما يستطيعون أداءه لغويًا وأيضًا لمسائل أخرى كالتمييز بين أنماط الخطاب أو مواقع الذات المتاحة لهم وغير المتاحة، وكيف تتعرض لغتهم لإعلاء قيمتها الاجتماعية أو تخفيضها بالقياس إلى غيرها وهلم جرًا. ويزعم مبدأ البناء على أسس الخبرة أن الوعى اللغوى، مثل الوعى الاجتماعى بصفة عامة، يمكن تنميته بأقصى قدر من الفعالية إذا تلقى الأطفال المساعدة على التعبير لغويًا عن مثل هذا الفهم وهذه الخبرة، وإذا أصبحت تعبيراتهم المذكورة أساسًا لبناء الوعى.

ويأتى بنا هذا إلى السؤال: كيف ينبغى أن يتعلم الأطفال الأمور المتعلقة باللغة، وأنا أقترح دورة من ثلاث مراحل:

(١) تأمل الخبرة: يطلب من الأطفال تأمل خطابهم الخاص وخبرتهم بالقيود الاجتماعية المفروضة عليه، وأن يعبروا عن تأملاتهم لتلاميذ فرقتهم.

(٢) مَنْهَجَةُ الخبرة: يبين المعلم للتلاميذ كيف يعبرون عن هذه التأملات بشكل منهجى حتى تكتسب صفة المعرفة.

(٣) الشرح: تصبح هذه المعرفة مادة للمزيد من التأمل والتحليل من جانب التلاميذ ابتغاء التوصل إلى شروح اجتماعية (انظر المستوى الثانى من الوعى باللغة عاليه).

ثم إننا نجد عنصرًا رابعًا فى الدورة نتعرف عليه داخل المبدأ الأول وهو

(٤) تنمية الممارسة: إذ يستخدم الوعى الناشئ من (١) – (٣) فى تنمية قدرة الطفل على ممارسة الخطاب الهادف.

ومن الممكن تكرار الدورة على الدوام: فمع نمو الوعى، يصبح من الممكن زيادة التأمل والفحص باطراد للخبرة الماضية والممارسة المتطورة، ويمكن أن تصبح مساهمة المعلم ذات ثقل أكبر وهلم جرًّا.

وهاكم الآن مثالًا، منهجيًا بالضرورة، لإيضاح هذه الدورة. قد نختار التركيز على خبرة الأطفال بالكتابة، بهدف توسيع قدرتهم على استخدام اللغة المكتوبة فى مجالات تقضى الأعراف باستبعادهم منها، مثل كتابة التاريخ. وليس فى هذا الإجراء أى جديد، فكثير من معلمى اللغة الإنجليزية يلجأون إليه. ولكن الذى لا يفعلونه بصفة عامة هو ربطه منهجيًا بتنمية الوعى النقدى بالأسلوب الذى أقترحه. وفى حدود الدورة المذكورة، للمعلم أن يطبق الإجراء بالخطوات التالية:

(١) تأمل الخبرة: اطلب من الأطفال النظر فى استخدام الكتابة بدلاً من الكلام ووصف أغراض ذلك، أى ما يرون أن الكتابة ترمى لتحقيقه، وأغراض الكتابة

عندما يستخدمها غيرهم، وتصورهم لأنواع الكتابة التى تأتى بأرفع منزلة اجتماعية.

(٢) منهجة الخبرة: قدم عرضًا منهجيًا للفوارق بين الكلام والكتابة، والمنزلة الاجتماعية لشتى استخدامات الكتابة، وتوزيع إمكانات المشاركة فى الاستخدامات ذات الهيبة.

(٣) الشرح: استخدم (١) و(٢) أساسًا لتأمل التلاميذ للأسباب الاجتماعية التى تفرض القيود على إمكان المشاركة فى الاستخدامات ذات الهيبة؛ وليكن التركيز على التاريخ، والقيود المفروضة على من يكتب التاريخ، وعلى مادته، وعلى اللغة التى يكتب بها، وهلم جرًّا.

(٤) تنمية الممارسة: نظم للأطفال مشروعًا لكتابة التاريخ، بحيث يُشجعون على توسيع الأعراف و خرقها فى كتابة التاريخ، وقد يكون ذلك (أ) بكتابة تاريخ فئة معينة، مثل النساء أو الأطفال فى المجتمع المحلى، إذ كثيرًا ما لا يكتب تاريخ هذه الفئات، و(ب) باستخدام لغة فى الكتابة لا تستخدم عادة لأمثال هذه الأغراض، مثل لغة من لغات الأقليات أو مستوى غير معيارى من مستويات اللغة الإنجليزية (ج) إذا كانوا مؤرخين جادين، أى إن كانت كتابتهم ترمى إلى تحقيق غرض حقيقى وتتجاوز كونها تدريبًا، فمن الممكن تشجيعهم، قل بإيداع نسخ من كتاباتهم التاريخية فى مكتبة محلية.

ويرمى هذا التمرين فى المرحلة الرابعة إلى أن ينتج الأطفال ما أشرت إليه آنفًا بتعبير 'الخطاب التحررى' أى الخطاب الذى يخرج عن الأعراف المهيمنة حاليًا بصورة ما. ونستطيع التمييز بين الخطاب التحررى باعتباره وسيلة تمكين، والخطاب التحررى الذى يسهم فى تغيير نظم الخطاب القائمة. فأما التمكين فيعنى أن الأشخاص الذين تستبعدهم الأعراف عن أنماط خطاب معينة أو مواقع ذات معينة داخل أنماط الخطاب، يتلقون العون على تجاوز الأعراف من دون تغييرها تغييرًا جذريًّا، 'بدخولهم' أنماط

الخطاب أو مواقع الذات المشار إليها. ويتسم التمكين بقدرة كامنة على إحداث 'الصدمة'، ويستطيع مساعدة الناس على التغلب على إحساسهم بالعجز، وذلك بأن يبين لهم أن نظم الخطاب القائمة لا تستعصى على التغيير. وأما التحول فى نظم الخطاب فيعنى الهدم المنتظم للنظم القائمة وإعادة بناء نظم جديدة، وفق ما عرضه الفصل السابع.

وإذن فإن ملخص ما ذكرته استنادًا إلى المبدئين الإرشاديين اللذين قدمتهما آنفًا يقول إن تنمية القدرات اللغوية للأطفال ينبغى أن تتوسل بالجمع بين قدراتهم وخبراتهم الراهنة، ووعيهم النقدى المتنامى باللغة، وقدرتهم المتنامية على المشاركة فى الخطاب الهادف.

المراجع

اعتمدت اعتمادًا كبيرًا فى هذا الفصل على البحوث الخاصة بالوعى النقدى باللغة التى أجريتها مع زملائى فى جامعة لانكاستر، وغيرها مثل كلارك وآخرين (1990) وكلارك وآخرين (1991)، وفيركلف (1992b). وانظر أيضًا المجلة المتخصصة **الوعى اللغوى** ٢٠٠٨، ١٩٩٩. وفيما يتعلق بالوعى اللغوى انظر هوكنز (1984) والمنهج القومى لتعليم اللغة الإنجليزية، (1985). كما وجدت أن فرير (1972) وفرير (1985) من الدراسات ذوات القيمة البالغة بسبب نظراتها الثاقبة فى التعليم، بما فى ذلك فكرة الاعتماد على الضمير، وهى التى اعتمدت عليها عاليه. انظر أيضًا جيرو (1997). والمقتطفات الخاصة بتعليم الإنجليزية كلغة ثانية مقتطفة من بينهام (1986). وفيما يتعلق بالأهداف الرسمية لتعليم اللغة الإنجليزية، والمنهج القومى الذى وضع مؤخرًا انظر وزارة التعليم والعلوم (1984).

الفصل العاشر

اللغة والسلطة عام ٢٠٠٠

تغير العالم منذ نشر الطبعة الأولى من هذا الكتاب عام ١٩٨٩، بل إن عام ١٩٨٩ نفسه كان بداية لمجموعة كبرى من التغيرات، ألا وهى انهيار الاتحاد السوفييتى والدول الاشتراكية فى وسط أوروبا وشرقها. ولم تكن هذه التغيرات عميقة فى ذاتها وحسب، بل إنها أحدثت آثارًا عميقة فى الطرائق التى يبصر الناس بها العالم فى العادة. وبصفة عامة فقد ازدادت نظرة الكثير من الناس إلى العالم عما كانت عليه منذ عقد واحد من زاوية الأبنية والعمليات والعلاقات العالمية. وهذا لا يعنى قطعًا أن العالم قد 'تعولم' فى غضون عشر سنوات، أو أن الدول الأمم فقدت فجأة دلالتها، ولكنه يعنى أن الاتجاهات نحو العولمة التى كانت قوية أصلًا منذ الثمانينيات وما قبلها أصبحت تبدو فى عام ٢٠٠٠ أهم مما كانت عليه آنذاك.

ولهذا تأثير مباشر فى مسألة السلطة. لا تزال علاقات الهيمنة قائمة بطبيعة الحال ولا تزال دلالتها قائمة داخل الدولة الأمة ومؤسساتها، ولا يزال من يحتاجون إلى الطعن فى علاقات الهيمنة فى حاجة إلى العمل على هذا المستوى (إلى جانب زيادة نشاطهم المحلى). ولكننى أعتقد أن ساحة الهيمنة الأولية أصبحت الآن عالمية لا قومية. وعلينا أن ننظر إلى العلاقات والأبنية والعمليات الاجتماعية على المستوى الدولى حتى نفهم ونحارب الآثار السلبية (التى يمكن تجنبها) للمجتمع الرأسمالى المعاصر، ومن بينها الفقر والفجوة التى تتسع ما بين الأغنياء والفقراء؛ وعدم المساواة؛ و'الإقصاء الاجتماعى'؛ وبعث النزعة القومية، والوطنية المتطرفة، والعنصرية؛ والاستغلال المزدوج للكثيرات باعتبارهن نساءً وعاملات؛ والاستغلال الذى من المحال استمراره لموارد العالم الطبيعية. وهذا يعنى أننا إذا أقمنا التحليل على أسس قومية أو محلية، فمن المهم لنا أن ندرك أن هذه الأسس تقع فى إطار دولى يتولى تشكيلها. والواقع أن

الأسلوب الأفضل للتعبير عنها اعتبارها جدلًا بين العالمية والقومية/ المحلية، بمعنى أنها عملية ذات اتجاهين للتكييف والتشكيل.

وأرمى فى هذا الفصل إلى مناقشة بعض جوانب هذا النظام العالمى الجديد من حيث قضية اللغة والسلطة. وتعتبر مسائل اللغة والسلطة ذوات أهمية جوهرية فى تفهم النظام الجديد، وفى سياسات النظام الجديد، ما دامت للغة أهمية متزايدة فى الحياة الاجتماعية. وضروب الصراع من أجل فرض النظام الجديد أو مقاومته، تعتبر فى جانب منها صراعات على اللغة، أى حول الطرائق الجديدة لاستعمال اللغة، وحول الصور اللغوية الممثلة للتغيير. وأنا أناقش 'عولمة الخطاب'، و'خطاب العولمة' الذى ما فتئ يزداد قوة وبأسًا. وسوف أوضح دور اللغة فى فرض النظام الجديد وفى مقاومته بأمثلة من أساليب عمل الشركات المتعددة الجنسيات، وظهور خطاب سياسى دولى جديد يمثل يسار الوسط ('الطريق الثالث') والمعارضة من بعض التيارات السياسية مثل حزب الخضر. وسوف أختتم هذا الفصل بمناقشة للعلاقة بين الدرامة النقدية للغة والبحوث الاجتماعية والسياسية داخل النظام العالمى الجديد.

اللغة فى النظام العالمى الجديد

العولمة فى المقام الأول نشاط اقتصادى، ومذهب الليبرالية الجديدة الذى ترتبط به يرتكز على توفير الحد الأقصى من حرية التجارة، وحرية انتقال البضائع والأموال والأشخاص على المستوى الدولى. وأما مضمونها فهو التحول فى العلاقة ما بين السوق والدولة، وهى العلاقة التى اتسمت بها الرأسمالية فى معظم فترات القرن العشرين، بحيث تحرر السوق من الضوابط التى تضعها الدولة، وتقوض دور الدولة فى توفير الرعاية الاجتماعية، وتحويل الدولة إلى مُدَافِعٍ محلىٍّ عن حرية السوق وداعية لها. والمؤازرون لهذا النظام الجديد يشيرون إلى طاقته الهائلة على خلق الثروة، مفترضين أنه إذا كانت مكاسب البعض سوف تزيد عن مكاسب البعض الآخر، فإن الجميع سوف يكسبون شيئًا ما. ويقول المعارضون إن السوق المتحررة من ضوابط الدولة تزيد الفجوة اتساعًا بين الأغنياء والفقراء دوليًّا وداخل الدولة الواحدة، وتحرم معظم الناس

حرمانًا جذريًّا من الحياة الآمنة، وتتسبب فى أضرار بيئية لا حدود لها. والعولمة لم تكتمل إلا جزئيًّا، ويسعى إلى توسيع نطاقها الذين يجنون منها أقصى فائدة، ويتخذ سعيهم صورة الكفاح من أجل فرض نظام جديد قلنا إنه بالدرجة الأولى نظام اقتصادى، ولكنه ليس اقتصاديًّا وحسب، فإلى جانبه تجرى عولمة أعم وأشمل، وتتضمن على سبيل المثال السياسة والثقافة.

وأقول أنا إن مسألة اللغة والسلطة مسألة جوهرية فى التحليل الأكاديمى للنظام العالمى الجديد وضروب الصراع حوله. لماذا؟ لأننا نشهد ظاهرة مهمة ومستمرة هى 'التحول إلى اللغة' فى الحياة الاجتماعية المعاصرة، أى إن اللغة أصبحت عنصرًا تزداد أهميته باطراد فى الحياة الاجتماعية. والعولمة نفسها تشير إلى جانب من أسباب هذه الظاهرة. فالعولمة تقتضى 'العمل عن بعد'، ومعنى هذا أن العمليات الاجتماعية والعلاقات الاجتماعية قد اتسعت رقعتها فأصبحت فى مساحات شاسعة من حيث الحيز الجغرافى والاختلافات الاجتماعية والثقافية. ومن ثم فإن الصور الممثلة لهذه العمليات وهذه العلاقات فى الخطاب تزداد أهميتها باطراد للحفاظ على نوع ما من النظام داخل التعقيد الظاهر، فإن جانبًا مما يربط الأشخاص بعضهم إلى بعض — كترابط العاملين فى شركة متعددة الجنسيات على سبيل المثال — يعتمد على اشتراكهم فى تصور ما يؤدونه من أعمال. ولكن اللغة، فى الوقت نفسه، تزداد أهميتها لما يؤدونه من أعمال، إذ إن ما تقوم به الشركات المتعددة الجنسيات، وما تنتجه وتبيعه من بضائع وخدمات، يزداد ارتباطه بالطرائق الخاصة لاستخدام اللغة. وانظر على سبيل المثال إلى سلسلة فنادق متعددة الجنسيات مثل فنادق هيلتون، تجد أن جانبًا كبيرًا من 'بضائعها' يتكون من أسلوب استعمال اللغة فى المعاملات بين موظفى الشركة وعملائها، فى الوثائق المطبوعة واللافتات، وفى الدعاية لهذه الفنادق وهلم جرًّا.

و'التحول إلى اللغة' يعنى أن الكفاح فى سبيل فرض النظام الجديد أو مقاومته يعتبر إلى حد كبير كفاحًا فى سبيل لغة جديدة أو ضدها. وهكذا يصبح البحث النقدى فى اللغة عنصرًا مهمًّا من عناصر السياسة الخاصة بالنظام العالمى الجديد. وهذه فرصة

متاحة، مثلما هى تمد للدراسة النقدية للغة، فلها أن تسهم إسهامًا له وزنه فى القضايا ذات الأهمية الحيوية لمستقبل البشرية (انظر الخاتمة).

عولمة الخطاب

تشترك اللغة مشاركة مزدوجة فى الصراع من أجل فرض نظام الليبرالية الجديدة، إذ نرى أولًا أن الطرائق الجديدة للوجود والسلوك التى يقتضيها هذا النظام تعتبر من جانب معين طرائق جديدة لاستعمال اللغة. ونرى ثانيًا أن جانبًا مهمًا من فرض النظام الجديد يكمن فى الحصول على قبول صور خاصة تمثل التغيير. وضروب الكفاح ضد النظام الجديد تقاوم الطرائق الجديدة لاستعمال اللغة وهذه الصور الجديدة. فأما عن الطرائق الجديدة لاستعمال اللغة فلنا أن نتحدث عن 'عولمة الخطاب'، ولا يعنى ذلك أن الخطاب أصبح متجانسًا على نطاق عالمى، (وإن لمحنا اتجاهات لتحقيق التجانس) بل يعنى أن ما يحدث فى مكان ما يحدث فى إطار عالمى، إذ تشكله الاتجاهات الدولية المؤثرة فى الخطاب (مثلما يسهم الخطاب فى تشكيلها).

ولنضرب مثالًا على ذلك: إن معظم مشاهدى التليفزيون فى عالم اليوم يستطيعون مشاهدة قنوات محلية وعالمية. وهذه القنوات (مثل سى إن إن) تملكها وتنتجها أساسًا هيئات فى عدد محدود من البلدان الغنية فى أمريكا الشمالية وأوروبا، وخصوصًا فى الولايات المتحدة. وعلى الرغم من زعمها أنها عالمية، فإن صورة العالم التى تظهر على الشاشة صورة ذات نطاق بالغ الضيق، ومن المؤشرات على هذا أن 'الأخبار العالمية فى قناة سى إن إن مثلًا تتكون أساسًا من أخبار الولايات المتحدة (مثل فضائح الساسة الأمريكيين). ومن مظاهر ضيق النظر لهذه القنوات اللغة التى تستخدمها. فالذى يشاهده الناس فى شتى أرجاء العالم تغلب عليه ضروب الخطاب فى شمال الأطلسى من إعلان وأخبار وسياسة ورياضة وأزياء وهلم جرًا. وهكذا تسهم هذه القنوات فى عولمة أسلوب حياة وأسلوب لغة خاصة بشمال الأطلسى (وخصوصًا الولايات المتحدة).

ومن عواقب هذا الحضور 'العالمى' فى بلدان كثيرة مختلفة وجود مرجعية خارجية دائمة وأفق خارجى دائم لممارساتها فى الخطاب. فإن مجموعة أنواع الخطاب التى تشكل الخطاب السياسى فى البرازيل أو فى المجر أو فى تايلاند سوف تتغير بالضرورة فى المستقبل فى إطار أفق يتضمن مجموعة الأنواع التى تشكل الخطاب السياسى فى 'شمال الأطلسى'. ويعنى هذا أن ممارسات الخطاب فى أى بلد معين تتغير الآن بطرائق معينة داخل إطار العلاقات الدولية للسلطة. ولكن هذا لا يعنى بالضرورة أن الخطاب السياسى للبرازيل سوف يتغير باطراد حتى يتماثل مع الخطاب السياسى 'لشمال الأطلسى'.

لكل مجتمع نظام خطاب خاص وقوة محركة خاصة، ويتوقف على هذه القوة أسلوب استعمار الممارسات 'العالمية' له أو امتلاكها إياه. فقد أجريت دراسة، على سبيل المثال، على خطاب الأنباء الخاص بالتليڤزيون المجرى، وبينت أنه على الرغم من أخذه بالحيل الشكلية الباهرة (مثل استخدام الرموز العالمية فى الاستهلال وديكور الاستوديو المتحذلق) وبمعالم كثيرة من طرائق التقديم (مثل الانتقال بين الاستوديو وبين التقارير المصورة) الخاصة بأنباء التليڤزيون فى 'شمال الأطلسى'، فإن تغطيته السياسية لاتزال مختلفة إلى حد بعيد. وهو يمثل بصفة خاصة نوع الخطاب الخاص بالمناظرة البرلمانية ونوع الخطاب باجتماعات اللجان على سبيل المثال بصدق نسبى، بعيدًا عن تدخل 'المحررين' والتغييرات التى نعتادها فى بريطانيا. وبناء السياسة يوحى بأنها مجال مستقل تمثله 'الأنباء'، لكن خبرتنا بالسياسة تقول بأنها متحورة و'مضمومة' إلى غيرها. وتعتبر هذه الاختلافات جزءًا من الاختلافات فى النظام الاجتماعى ونظام الخطاب. كما تدل على أن عولمة الخطاب مجال للصراع لا مجرد مجال لإضفاء التجانس.

خطاب العولمة

إذا كنا نشهد عولمة الخطاب، فنحن نشهد أيضًا خطاب العولمة. والواقع أن لدينا مشكلة شعر عدد من كبار المعلقين على العولمة بضرورة التصدى لها، ألا وهى السؤال التالى: هل 'العولمة' و'المرونة' وما لف لفهما عمليات حقيقية أم مجرد جوانب-

للخطاب؟ إنها قطعًا من جوانب الخطاب، إذ تُستخدم هذه المصطلحات على نطاق واسع عندما يتحدث الناس عن حالة العالم الراهنة وكيف تتغير. وإذن فإن أحد الاحتمالات يقول إن هذه كلمات جوفاء، أى مجرد خطاب، مجرد أيديولوجيا. ولكن لدينا أدلة كثيرة على أن العولمة الاقتصادية مثلًا (بمعنى النشاط الاقتصادى الجارى على نطاق عالمى ما فتئ يتزايد) كيانٌ حقيقى. هل نقول إذن إن 'العولمة' و'المرونة' وما إلى ذلك أنشطة حقيقية وجانب من جوانب الخطاب؟ ولكن السؤال التالى يطرح نفسه: ما العلاقة بين عملية العولمة وخطاب العولمة؟

وينقلنا هذا السؤال إلى قضية مهمة عن علاقة اللغة بالسلطة فى العالم المعاصر. وقد اقترح عالم الاجتماع الفرنسى پيير بورديو إجابة له مفادها: إن العولمة عملية حقيقية ولكنها ناقصة، فهى تفيد بعض الناس وتضر البعض الآخر. ويسعى الذين يستفيدون منها إلى توسيع نطاقها، ومن بين الموارد التى يستخدمونها خطاب العولمة الذى يصورها فى صورة توحى بأنها 'أكمل' مما هى عليه فى الواقع، بل يوحى أيضًا بأنها من حقائق الحياة البسيطة التى من المحال علينا (إن كنا نتمتع بالعقل السليم) أن نتشكك أو نطعن فيها. وهكذا فإن خطاب العولمة يتوسل فى عمله بالأيديولوجيا. فهو خطاب سلطة، أى إنه خطاب يستخدمه إلى جانب موارد فعالة أخرى (مثل التبرعات التى يقدمها للأحزاب السياسية) أصحابُ السلطة ليزيدوا من سلطتهم. أضف إلى ذلك أن جانبًا مما يسعون إلى تحقيقه يتمثل فى عولمة خطاب العولمة، إذ إن مصطلحاتها الأساسية تُترجم إلى لغات كثيرة، وتُستخدم على نطاق واسع (فى السياقات المهنية للإدارة، والصحافة، والتعليم وهلم جرًّا) فى مجتمعات كثيرة. ومما يترتب على هذا كله أن علينا أن نبدى الحذر من تعبير 'العولمة'، بمعنى أننا نواجه مهمة شاقة تتمثل فى فصل الألفاظ الطنانة عن الحقيقة الواقعة، إن صح هذا التعبير.

لقد أشرت إلى خطاب العولمة مستخدمًا أداة التعريف، ولكن القضية المطروحة هنا فى الواقع قضية خطاب عولمة معين من بين شتى الضروب الفعلية أو المتصورة الأخرى. ولا يقتصر ما يُبنى فى صورة حقيقة لا تقبل التغيير من حقائق الحياة على

ظاهرة العولمة، بل إنه يعنى عملية 'التعولم' التى يجرى تنفيذها بأسلوب الليبرالية الجديدة على أسس السياسات الحديثة لبعض المؤسسات والمنظمات مثل الاتفاقية العالمية حول التجارة والتعريفات الجمركية (اتفاقية الجات) ومثل البنك الدولى، ومثل صندوق النقد الدولى. أى إن هذه عولمة ذات صورة خاصة.

إغلاق عالم الخطاب؟

تتسم الحياة الاجتماعية فى مطلع القرن الحادى والعشرين بمفارقة معينة: فإذا كانت قد أتيحت فيما يبدو مساحة غير مسبوقة للاختلافات الفردية والجماعية، فإننا نواجه فى الوقت نفسه نوعًا من 'التقنين' لبعض جوانب الحياة الاجتماعية، وهو يعتبر – إلى حد ما – تقنينًا للخطاب. وأعنى بذلك تضييق نطاق أساليب استخدام اللغة ونطاق ضروب الخطاب المتاحة لتمثيل العالم، أى ظهور أشكال قوية من ضروب الخطاب المهيمنة وطرائق استخدام اللغة، وانتشار هذه جميعًا عبر شتى مجالات الحياة الاجتماعية، وكذلك (من خلال عولمة الخطاب) عبر مختلف البلدان. ويتضح هذا الاتجاه إلى 'الإغلاق' فى شتى مجالات الحياة الاجتماعية، أى فى العمل، وفى السياسة، وفى الحياة الثقافية. ولكنه اتجاه لم يَسْلَمْ من التشكيك فيه، ومن أساليب ذلك اعتبار المفارقة التى أشرت إليها عاليه محاولةً لتقويض الانفتاح فى أسلوب الحياة الاجتماعية وفى الخطاب الذى شهدته الستينيات والسبعينيات والإيحاء بأن الاتجاه إلى التقنين اتجاه خلافى تحاصره الشكوك. فلننظر فى بعض الأمثلة.

"التيسير": التقنين فى مجال العمل

فيما يلى مقتطف من وقائع اجتماع عُقِدَ فى شركة كبيرة لصناعة المنسوجات فى أستراليا. ويصف الباحث السياق على النحو التالى: "يعتمد بقاء الشركة على احتفاظها بعدد معين من عملائها الدوليين فى شركات صناعة السيارات. ويشترط هؤلاء العملاء أن يلتزم موردوهم بأساليب عمل محددة لتحقيق "الجودة"، وتدور هذه الأساليب حول تنظيم العمل على أساس روح الفريق، وتوثيق الخطوات المتخذة. ويقدم العملاء

كُتَيِّبًا يتضمن إرشادات عملية بشأن تنمية الأساليب المذكورة، ويقومون بالتفتيش وتقييم أداء الشركة على فترات منتظمة". والمقتطف مصدره اجتماع عقده المشرفون أساسًا لمناقشة الاجتماعات التى عقدوها فى الآونة الأخيرة وفقًا لما هو مشترط من ممارسات "الجودة". والمشاركون هم: سالى، المُيَسِّرَةُ [facilitator – وهى كلمة لا توردها أحدث المعاجم على الرغم من شيوعها فى النصوص الإدارية الحديثة بمعنى مدير الجلسة أو moderator] وهى أستاذةٌ تعلم القراءة والكتابة فى المصنع، وقد عينتها الشركة بموجب نظام وضعته الحكومة؛ و"بِنْ" المشرف على غرفة الخيوط الطولية أى السَّدَى [warp فى مقابل الخيوط العرضية أى اللُّحمة woof]؛ وجريس، المشرفة على غرفة النسج؛ وپيتر، منسق الإنتاج؛ وجيمز، عامل السَّدَى.

بـــــن: خطر لنا أن – كما تعرفين – أقصد ربما، قمت بدور المُيَسِّرِ لمجموعة جريس أو شىء من هذا القبيل حيث أبتعد عن الناس قليلا ومم.

ســالى: نعم.

بـــــن: فعندى خلفية عما يحدث وأود الحفاظ على مسارهم الصحيح وأدعهم... أى عليهم فعلًا أن يعتمدوا على بعضهم البعض بدلًا من اعتمادهم على قيام المشرف بالعمل.

جريس: يعنى. أظن أنه يعنى. فى المجموعات التى سنصادفها أن ذلك ما ينبغى أن يحدث. أعنى أعرف الوحدات الأولى التى تبدأ العمل وأعتقد أن علينا أن نسير فى هذا الطريق ونحاول توجيه الناس إلى هذا الطريق وهكذا سوف نصبح، يعنى، مسؤولين عن الاجتماع ولكن علينا أن ندفع الأشخاص لتكوين فرقهم الخاصة ونكون نحن بمثابة الميسر فقط لا

جيمز: رئيس الفريق

[...] نعم

جريس: أعنى أن البداية صعبة. وأظن أن الناس يقابلون المشاكل فيها وهذا هو

السبب الذى يدفعهم إلى التطلع إليك يا 'بن' وكما تعرف أشياء من هذا القبيل

بيتـر: لست الوحيد الذى يصادف مشكلات فى الحفاظ على ذلك

[متحدث مجهول]

بيتـر: لكننى لا أستطيع الحفاظ عليه الآن كما تعرف. منذ يومين كما تعرف صادفت متاعب وأنت تعرف حجم العمل الذى يتزايد بمعنى أنه يعيدنى إلى آخر الصف كما يقال والأمر فظيع

جيمز: إذن فما تريده حقًّا هو الـ(غمغمة) أن يكون لديك فريق. أن تنشىء فريقًا وتريد أن تكون من بين الأشخاص الذين ينبرون لتيسير [...] عمل الفريق

بيتـر: لمجرد الحفاظ على الفريق كما تعلم لمجرد الحفاظ عليه أى الحفاظ على تدفق العمل

بـن: الذى أحاول أن أقوله

بيتـر: والسبب

بـن: هو أننى أقرب مما ينبغى لهؤلاء الأشخاص لأننى أخرج من الفريق كما إننى المشرف على أفراده خارج الـ... خارج مكان العمل حيث. ربما. أى إننى كنت أقول بتيسير عمل فريق آخر حيث لا أشغل موقعًا فوقهم كما تعرف فلست المشرف عليهم أو مهما يكن الأمر

[متحدث مجهول] نعم

بـن: لى أن أعود إلى عملى ولهم أن يعودوا إلى أعمالهم ولا يزالون [غمغمة] كما تعرف أنه فريقهم أكثر من كونه

سـالى: فريقك أنت[*]

هذه مناقشة حول أسلوب إدارة اجتماعات فريق ما، وهو تدور حول تحديد معنى كلمتى "ييسر" و'الميسر' من خلال إقامة علاقات تعادل واختلاف بين هاتين الكلمتين وغيرهما. وفيما يلى ملخص تقريبى لعلاقات التعادل والاختلاف المذكورة، فأما علاقة التعادل فتقوم بين التعابير الموجودة فى العمود الأيمن، وأما علاقات الاختلافات فتقوم بين هذه المجموعة من العبارات وبين العبارات فى العمود الأيسر:

يُيَسِّر/ المُيَسِّر	قائد الفريق
الحفاظ على مسارهم الصحيح	الاعتماد على المشرف
تجعلهم يعتمدون على بعضهم البعض	توجيه الأشخاص إلى المسار الصحيح
الأشخاص ينشئون فرقتهم الخاصة	أن يتولى المسؤولية
الحفاظ على الفريق	المشرف
الحفاظ على تدفق العمل	

من المعالم البارزة فى هذا المقتطف معلمٌ يؤكد العمل 'التفاوضى' الذى يجرى من خلال التفاعل، ونعنى به التحرز أو الاحتراز، وتدل عليه التعابير المرتبطة بإقامة علاقات تعادل مثل 'كما تعرف'، 'يعنى'، 'مجرد'، 'نوع من' وهلم جرًّا. ولكن أهم ما يعنينا فى المقتطف الحالى أن مصطلح 'التيسير/ الميسر' ينتمى (مع الفريق) إلى خطاب 'الجودة' الجديد الذى فُرِضَ على الشركة فرضًا. ونرى الأشخاص ينشئون من هذا المصطلح مجموعة من علاقات التعادل والاختلاف من خلال كلمات وتعبيرات مألوفة، وبهذا المعنى يتخذون خطوة على طريق استيعابه فى خطاب مكان العمل.

والأمثلة من هذا النوع توحى بأمرين. الأول أن العلاقة بين الشركات المتعددة الجنسيات ذات الجبروت وبين مئات الآلاف من الشركات التابعة لها أو التى تعتمد عليها بطرائق شتى علاقة قائمة على العنف الرمزى. فالأولى ترغم الأخيرة فى الواقع

(*) الترجمة ترمى إلى النقل الصادق لصورة النص الأصلى بفساد أبنيته نحويًّا وأسلوبيًّا تحقيقًا لغرض المؤلف فى تقديم قطعة 'حية' من الحوار الواقعى.

العملى على استخدام اللغة بطرائق جديدة. ويتعلق هذا بالأسلوب الذى تصور به ما تفعله (خطاب عمل الفريق الذى لدينا فى هذا المثال) وكيف تفعل ما تفعله (كتنظيم الحوار فى الاجتماعات على سبيل المثال). وهذه الشركة فى أستراليا، وهى بلد تتمتع بثراء نسبى وقوة نسبية. وأما فى الدول الفقيرة فى إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية وفى أوروبا الشرقية، فإن العنف الرمزى ذو طابع أشد حدة.

ولكننا نرى، ثانيًا، أن هذا المثال يوحى قطعًا بوجود طاقة كامنة على المقاومة. فما أندر ما يتخذ الناس لأنفسهم لغة جديدة أو خطابًا جديدًا فى أذهان خلت من كل شىء، وما أندر أن ينحصر الأمر فى مجرد نبذ القديم واستقبال الجديد. والأقرب للمعتاد ما يحدث فى هذا المثال، ألا وهو استيعاب القديم للجديد، الأمر الذى يؤدى إلى تهجين الجديد والقديم. ومن المسائل ذات الأهمية البالغة أنه حيثما يحدث ذلك فربما تتمكن الشركات الجبارة المتعددة الجنسيات من فرض اللغة الجديدة، لكنها لا تستطيع بالسهولة نفسها أن تتحكم فى عمليات التهجين المعقدة التى نشأت منها، ولا فى الإمكانات الطويلة الأجل لاحتواء اللغة الجديدة التى تقاومها، أو السيطرة عليها أو تهميشها أو حتى الاستيلاء عليها.

الخطاب السياسى "للطريق الثالث": التقنين فى السياسة

فلنأخذ مثالًا ثانيًا على الاتجاه نحو 'التقنين' فى عولمة الخطاب. والخطاب السياسى 'للطريق الثالث' يرتبط فى المقام الأول بحزب العمال الجديد فى بريطانيا، وخصوصًا حكومة حزب العمال التى تولت السلطة فى مايو ١٩٩٧ بزعامة تونى بلير، إذ تمثل الزعم بأنها تتجاوز الانقسام 'القديم' بين اليسار واليمين، فأنصارها يقولون إن 'الطريق الثالث' ليس حزب 'العمال القديم'، ولا الاتجاه 'اليمينى الجديد' عند المحافظين، بل يمثل موقعًا يتجاوز هذا الانقسام.

وكثيرًا ما يلخص البعض فحوى 'الطريق الثالث' بعبارات مثل "الجمع بين المبادرة الحرة والعدالة الاجتماعية"، أى الزعم بأن حزب العمال الجديد لديه سياسات

تُحَرِّرُ ممارسة النشاط الاقتصادى لتوليد الثروة وتُحَقِّقُ العدالة الاجتماعية فى الوقت نفسه. وكان الافتراض القديم يقول إن على أية حكومة أن تختار هذا أو ذاك، ولكن حزب العمال الجديد يزعم أنه قادر على الجمع بينهما. ويعتبر 'الطريق الثالث' جزءًا من الاتجاه إلى إزالة الفوارق السياسية بين الحزبين الرئيسيين، وقد علق عليه الكثيرون، والاتجاه إلى تهميش مفهوم السياسة الذى يقول إنها صراع بين الأحزاب التى تمثل مصالح مختلفة حول توزيع الموارد الاجتماعية فى المجتمعات المعاصرة. ولنا أن ننظر إلى هذا من زاوية العلاقة المتغيرة بين قطاع الأعمال العامة والدولة، وهو ما أشرت إليه آنفًا، أى إننا لا نكاد نرى ضرورة أو مساحة لشكل السياسة الذى يجعل الدولة تقوم بوظيفة الفرع المحلى للشركات الدولية. فإذا نظرنا إلى الطريق الثالث من زاوية اللغة، وجدنا أنه 'يغلق' الخطاب السياسى: أى إنه خطاب سياسى يُنْشأ من تهجين نوعى الخطاب 'القديمين' لليسار واليمين، وبذلك يُضَيِّق من نطاق ضروب الخطاب السياسية الرئيسية.

وتنتشر فى هذا الخطاب صيغة "لا يقتصر على بل يشمل"، كما نرى مثلًا فيما يلى: "رؤيتى للقرن الحادى والعشرين تقوم على سياسة شعبية تمزج وتوفّق بين اتجاهين كانا يعتبران متضادين فى الماضى، وهذا خطأ، وهما النزعة الوطنية والنزعة الدولية؛ والحقوق والمسؤوليات؛ وتشجيع المبادرات الفردية والهجوم على الفقر والتمييز" (تونى بلير). ومن معالم لغة العبارات المتوازية (حيث يستند تنظيم الكلمات أو العبارات أو الجمل إلى قوائم أو إلى سلسلة ترتبط بحرف العطف والتنسيق، أى الواو، كما فى هذه الحالة) أنها تضفى بعض الغموض على العلاقة بين الوحدات المترابطة. فقد يُفهم مثلًا من جمعك بين 'س' و'ص' أن 'س' = 'ص'، وهو فهم غير مؤكد، ولكننا لا نستطيع أن نزعم فى هذه الحالة أن تونى بلير يناقض نفسه إذا قامت حكومته مثلًا بتأكيد المسؤوليات أكثر من تأكيدها للحقوق (وهو ما تفعله حقا). وإذا أردنا التعبير عن القضية تعبيرًا أشد حدة وإثارة للخلاف قلنا إن صيغة "لا يقتصر على بل يشمل" — أى ما يزعمه حزب العمال الجديد من التوفيق بين الأضداد — تعتبر أسلوبًا بالغ الفعالية لطمس حدود الخيارات وتعميتها. فما الذى يمثل الأولوية لحزب العمال الجديد:

تشجيع المبادرة الفردية أم الهجوم على الفقر والتمييز؟ الواقع أن إجراءات حكومة حزب العمال الجديد تدل على أنه لا يولى الأولوية للأول على الأخير بالأفعال وإن لم يولها له بالأقوال.

ويتضح إخفاء الأولويات والامتيازات أيضًا فى المصطلحات الأساسية التى يستخدمها حزب العمال الجديد، وعلى سبيل المثال فى أسلوب استعمال مصطلح 'الشراكة'. ونحن نجد أن المركَّبات اللفظية الأساسية التى يستخدم فيها هذا المصطلح تتضمن تعبيرات معينة مثل "الشراكة بين القطاعين العام والخاص"، ومفاده أن تصبح الحكومة شريكًا لرجال الأعمال. وهنا أيضًا لا نجد إلا إيحاءً طفيفًا بتساوى كفتى الشريكين، ولنا أن نتشكك فى صحته إذا اهتدينا بقرارات السياسات الحكومية. فعلى سبيل المثال كتب مارتن وولاكوت، مراسل صحيفة الجارديان، مقالًا عن الاتحاد الأوروبى يقول فيه "إن الشركات الأوروبية الضخمة قد بدأت تحدد، بنبرات عالية صارخة، ما يجوز للساسة أن يفعلوه وما لا يجوز لهم"، و"إن الحكومة تبذل جهودًا مخلصة فى محاولتها تلبية متطلبات رجال الأعمال" (صحيفة الجارديان، ٦ أغسطس ١٩٩٩). وهاك مثالًا عمليًا: إذ تشجع حكومة حزب العمال الجديد 'شراكات' معينة، مثل بيع ٤٩٪ من أسهم هيئة الرقابة على الطيران المدنى إلى القطاع الخاص، ولو كانت حكومة المحافظين قد أقدمت على ذلك لوصفه حزب العمال الجديد 'بالخصخصة' وهو المصطلح الذى يعارضه الحزب الآن بكل قوة.

ولكن ما شأن هذا بالعولمة؟ ليس 'الطريق الثالث' ظاهرة بريطانية وحسب، إذ يؤكد تونى بلير أنه سياسة دولية جديدة، كما اتخذ خطوات عملية لتحقيق ذلك، إذ دعا إلى عقد 'حلقات دراسية' دولية عن 'الطريق الثالث' مع رؤساء الحكومات المتعاطفة، ومن بينهم بل كلينتون، الرئيس الأمريكى، وشرودر، المستشار الألمانى، ورؤساء بعض الحكومات الأخرى مثل البرازيل والسويد وإسبانيا. وقد علمنا بجانب كبير من المبادئ السياسية 'للطريق الثالث' من كلينتون ومن الديموقراطيين الجدد فى الولايات المتحدة الأمريكية. كما إن الحكومات التى تمثل تيارى الوسط ويسار الوسط على

المستوى الدولى تطبق سياسات منوعة شديدة الشبه بالسياسة المذكورة، إذ نلمح اتجاهًا على المستوى الدولى لخفض مستوى الرعاية الاجتماعية الحكومية. ولنا أن نصف 'الطريق الثالث' بأنه تيار يسار الوسط الذى تخلى عن الديموقراطية الاجتماعية مفضلًا قبول الصورة الجديدة للرأسمالية العالمية القائمة على الليبرالية الجديدة والتكيف معها.

ومن المعالم البارزة فى الخطاب السياسى 'للطريق الثالث' اشتماله على ما أشرت إليه عاليه بتعبير خطاب العولمة، أى تمثيل العولمة بصورة تنتمى لليبرالية الجديدة. فخطب حزب العمال الجديد ووثائقه حافلة بما يمكن أن نسميه "قصص الاقتصاد العالمى"، أى القصص التى تحكى كيف تغير العالم الحديث، وخصوصًا الاقتصاد الحديث. ويصدق هذا نفسه، مثلًا، على الحزب الديموقراطى الجديد فى الولايات المتحدة. وهاكم على سبيل المثال ما كتبه بل كليتون عن التغيير:

> فى غمار انتقالنا من العصر الصناعى إلى عصر المعلومات، ومن الحرب الباردة إلى القرية العالمية، يكتسب التغيير سرعة هائلة ونطاقًا شاسعًا. إذ تستطيع المعلومات والأموال والخدمات أن تنتقل حول العالم، بل وتنتقل فعلًا، فى طرفة عين. والقوة الحاسوبية فى كمبيوتر فورد تاوروس أكبر مما كان كمبيوتر الصاروخ أبوللو ١١ يتمتع به عندما اصطحبه نيل آرمسترونج إلى القمر. وفى الوقت الذى يستغرقه طفل ولد اليوم فى تعلم القراءة، تكون الإنترنت قد أصبحت متاحة لأكثر من ١٠٠ مليون شخص. بل إن قط الأسرة نفسه، واسمه سوكس، لديه صفحته الخاصة على الشبكة العالمية. والفرص التى يقدمها هذا العصر فرص فذة... ولكن تحديات هذا العصر فذة كذلك وتكاليف عدم مواجهتها عالية.

وبلاغة كليتون تشبه بلاغة بلير، فكل منهما يستخدم الصورة المجازية التى نستطيع وصفها بأنها تمثل 'شلال التغيير'، وهو ما يعنى تقديم نماذج للتغيير ذات تأثير متراكم، بحيث ينوء القارئ بأثقال النماذج مثلما يجرف الشلال المرء بقوة اندفاعه المياه.

وها هو ذا بلير يتحدث عن التغيير:

> يكمن التحدى الحاسم فى الربط بين أهدافنا وبين عالم تعرض لثورة حقيقية من التغيير. فالتكنولوجيا والتجارة والأسفار تحول شكل حياتنا. إذ سوف يعمل شبابنا فى صناعات مختلفة، كثيرًا ما تتعلق بالاتصالات ووضع البرامج، لا بالإنتاج بالجملة الذى بلغ أرذل العمر. فسوف يعمل الكثيرون بأعمال تجارية صغيرة أو يملكونها. مضى عهد الالتزام بعمل واحد مدى الحياة. ولم يعد نظام العمل من التاسعة صباحًا إلى الخامسة مساءً نظامًا عالميًّا. كما إن المرأة تعمل، وهو ما يأتى بفرص جديدة وإن كان يتسبب فى مظاهر توتر جديدة فى الحياة الأسرية، وأصبحت بلدان جنوب شرقى آسيا قادرة على منافستنا، وعلى قدم المساواة، فى مجالات عديدة. ويجرى تبادل الأموال عبر الحدود الدولية بمقادير هائلة على مدار ساعات اليوم. جديد، جديد، جديد: كل شىء جديد. وأمامنا مهمة عاجلة تتمثل فى تجديد النموذج الديموقراطى الاجتماعى للتصدى لهذا التغيير.

(من بيانه أمام مؤتمر الاشتراكيين الأوروبيين، يونيو ١٩٩٧)

ولكن ما يهمنا هنا أساسًا هو رسم التغيير فى صورة سلسلة من النتائج التى تتخذ شكل قائمة غير منهجية. وأما العمليات التى تؤدى إلى إنتاج هذه الآثار والعوامل التى تحركها فهى غائبة. فعلى سبيل المثال، نجد أن عبارة "مضى عهد العمل الواحد مدى الحياة" تمثل القلق على العمل باعتباره حقيقة واقعة بسيطة (إذ تعتمد العبارة على ما يمكننا اعتباره 'عملية وصفية'، فعلى الرغم من أن كلمة 'مضى' فعل، فإنها تقوم هنا بوظيفة الصفة) لا باعتبار هذه 'الحقيقة' نتيجة للقرارات التى تتخذها الشركات لتحقيق مصالحها الخاصة فى ظروف خاصة. والنص يبنى المستقبل من خلال التنبؤات ("سوف يعمل الكثيرون بأعمال تجارية صغيرة أو يملكونها") مع استعمال الحرف 'سوف'، بَدَلًا من كلمات مثل الخطط أو الاستراتيجيات (مثلًا: "سوف نشجع إنشاء الصناعات الصغيرة"). وحيثما تكون آثار التغيير عمليات فى ذاتها، (مثل: "تستطيع

المعلومات والأموال والخدمات أن تنتقل حول العالم بل وتنتقل فعلا فى طرفة عين" [كلينتون] و"يجرى تبادل الأموال عبر الحدود الدولية بمقادير هائلة على مدار ساعات اليوم" [بلير]) فإن النص لا يحدد الفاعل فى هذه العمليات. وهكذا تغيب عن النص القوى الفاعلة الرئيسية فى الاقتصاد العالمى، ويغيب عنه كذلك المسؤولون عن الاتفاقات الدولية التى ساعدت على إنتاج هذا العالم 'الجديد، الجديد، الجديد' أى الشركات التجارية العملاقة والحكومات. والشكل الأساسى لهذه القصص فى غاية البساطة، إذ يقول: هذا هو حال العالم اليوم، ومن ثم فهذا ما يجب أن نفعله. والواقع أن المنتمين إلى يسار الوسط قد اعتنقوا منطقًا سياسيًّا يقول إن الاقتصاد الرأسمالى حقيقة لا تقبل الجدل من حقائق الحياة، ولا تستطيع الحكومات أن تفعل أى شىء لتغييرها، وكل ما تستطيع الحكومات أن تفعله ينحصر فى توفير الظروف اللازمة لنجاح 'شركاتها' وسكانها فى الاقتصاد العالمى باعتباره حقيقة مُسَلَّمًا بها. ومعنى هذا التخلى عن الديموقراطية الاجتماعية التى تعتبر الرأسمالية وحشًا خطرًا يتسبب فى إلغاء الضوابط على السوق، وترى أن مهمة الحكومات فرضُ هذه الضوابط.

أسس المقاومة

إذا أقررنا بوجود اتجاهات ترمى إلى التقنين والإغلاق، فلابد أن نقر بأنها تلقى معارضة معينة، وربما تتمكن من السيطرة فى بعض الحالات (كأن تُفرض داخل الشركات الكبرى دون مقاومة تذكر على سبيل المثال) ولكنها تلقى المعارضة من الأحزاب السياسية الصغرى، والحملات، وجماعات الضغط، وبعض قطاعات أجهزة الإعلام وهلم جرًّا.

وهاك على سبيل المثال مقتطفًا من كتيب نشره حزب الخضر البريطانى عشية انتخابات الاتحاد الأوروبى عام ١٩٩٩:

طعن فى العولمة

سياسات حزب الخضر تقدم بديلًا جذريًّا عن تقبل العولمة، الذى يشغل

مكان القلب فى المشروع الأوروبى الحالى بأعين معصوبة.

ولكن حزب الخضر يؤمن بأن مستقبل أوروبا يكمن فى تدعيم اقتصادات محلية أقوى وأكثر تنوعًا، وأشد التزامًا بالمعايير البيئية والاجتماعية والديموقراطية. وترمى سياساتنا الصريحة إلى تقليل اعتماد البلدان على الاقتصاد العالمى، وزيادة استجابتها للحاجات المحلية...

ومدخل حزب الخضر يتناقض تناقضًا مباشرًا مع مدخل جميع الأحزاب الأخرى الذى عادة ما يتسم 'بالقدرية'، فهى تزعم أن العولمة محتومة ويمكن أن تكتسب المزيد من الأبعاد الإنسانية من خلال بعض التعديلات الطفيفة. ولكن هذا يتجاهل الأدلة المتزايدة المستقاة من شتى أرجاء العالم، وهى التى تبين العواقب الوخيمة لمذهب حرية التجارة المعهود الذى لا يخضع لضوابط: مثل تحريف الديموقراطية، وارتفاع مد التفاوت الاجتماعى، وتدمير الموارد الطبيعية، وتشتيت المجتمعات المحلية.

ويزداد اتخاذ القرارات الأساسية التى تؤثر فى حياتنا من جانب شركات متعددة الجنسيات لم ينتخبها أحد، ولا يحاسبها أحد، ولا يعرف هويتها أحد. وتستطيع أكبرها أن تصل إلى كل بلد من بلدان العالم تقريبًا. والشركات العشر الكبرى ذات رأسمال يفوق ميزانية مائة من أصغر البلدان.

إن العولمة الاقتصادية تغذو مظاهر التفاوت المتنامية. ويزداد انقسام العالم إلى شطرين، شطر يتمتع بثراء لا يجارى، وشطر يضم من يعيشون فى فقر بلا أمان.

وإلى جانب انتقادات 'الخُضْرِ' للتأويلات التى وضعها خصومهم للعولمة (وهو ما سوف أعرض له أدناه) فإن هذا النص يختلف عن نصوص حزب العمال الجديد أولًا فى وصف العولمة باعتبارها عمليات تتحكم فيها قُوىً مسؤولة (فالنص يشير فعلًا إلى الشركات المتعددة الجنسيات، وهو ما لا يشير إليه السياسيون فى حزب العمال الجديد قط) كما يحدد النص المشاركين فى هذه العمليات ('من يتمتعون بثراء لا يجارى'، و'من

يعيشون فى فقر بلا أمان')، كما يشير النص إلى العولمة باعتبارها 'مذهب حرية التجارة المعهود بلا ضوابط'، وهذه إشارة إلى ما أسميته الليبرالية الجديدة أعلاه، ويشير إلى أن العولمة تبنى لها صورة محددة. ويقيم النص مجموعة من التعادلات بين 'العولمة'، و'الاقتصاد العالمى'، و'مذهب حرية التجارة المعهود بلا ضوابط' و'الشركات المتعددة الجنسيات التى لم ينتخبها أحد ولا يحاسبها أحد ولا يعرف هويتها أحد' و'الشركات العشر الكبرى'. كما يقيم النص التضاد بين 'الاقتصاد العالمى' وبين 'الاقتصادات المحلية'/ 'الحاجات المحلية' (مع الإشارة إلى أن الأول يمثل خيارًا لا شيئًا من المحال أن نتحاشاه كما يقول حزب العمال الجديد). وألوان التعادل والتضاد المذكورة تمثل – نَصِّيًّا – فى مجموعها نظامًا للتصنيف يختلف كل الاختلاف عما يجده المرء فى نصوص حزب العمال الجديد. ويصدق هذا أيضًا على الربط هنا بين الخطاب البيئى والخطاب اليسارى، فالجملة التى تقول "إن الشركات العشر الكبرى ذات رأسمال يفوق ميزانية مائة من أصغر البلدان" تنتمى إلى الأسلوب اليسارى الذى يجسد مظاهر التفاوت الاجتماعى الشديد أو مظاهر الظلم الفادح فى عبارة إحصائية.

ويتضمن النص إحالات معينة إلى نوع اللغة التى يستخدمها حزب العمال الجديد وغيره، فعبارة "إنها تزعم أن العولمة محتومة" وعبارة "إنها قدرية" تشيران فيما يبدو إلى أسلوب تصوير الاقتصاد العالمى الجديد فى صورة الحقيقة التى لا تتغير ولا تقبل التشكيك فى صحتها (انظر تعليقاتى على ذلك عاليه). ولكن النص لا يتضمن فعلًا انتقادات صريحة للغة. ما الذى يمكن لمثل هذا الانتقاد أن يضيفه إلى طعن حزب الخضر فى العولمة؟ أو فلنأت بصيغة أخرى لهذا السؤال، وهى: ما الذى يمكن للخطاب النقدى أن يقدمه إلى النشطاء السياسيين أو الاجتماعيين بحيث يتجاوز الموارد التى لديهم فعلًا؟ تقول صياغة المقتطف إن الأحزاب الأخرى "تزعم أن العولمة محتومة، ويمكن أن تكتسب المزيد من الأبعاد الإنسانية من خلال بعض التعديلات الطفيفة"، وإن هذا يتجاهل الأدلة المتزايدة المستقاة من شتى أرجاء العالم على "العواقب الوخيمة". ولكننا إذا أنعمنا النظر فى لغة حزب العمال الجديد فسوف نجد انتقادًا أشد وأقوى هنا، وهو ما بدأت أشير إليه فى تعليقاتى عاليه: أى إن حزب العمال الجديد

'يزعم' أحيانًا أن العولمة محتومة، ولكن الذى يفعله باستمرار هو افتراض ذلك سلفًا، كأنها كان مجرد حقيقة واقعة، لا تقبل التشكيك فيها كالحقيقة التى تقول إن المطر يهطل من وقت لآخر، و'يتجاهل' الاتفاقات الحكومية الدولية، والاستراتيجيات القائمة على التواطؤ بين الحكومات والشركات التجارية والتى أدت إلى نشأة الاقتصاد العالمى ذى الصيغة الليبرالية الجديدة بشكله الحالى. فإذا شئنا صياغة القضية بأسلوب يثير الخلاف قلنا إنها ترسم للعولمة صورة مضلِّلة وتقصد التعمية. والسياسيون المعاصرون يتمتعون بالوعى بأهمية اللغة بصفة عامة، لكننى أعتقد أننا إذا تعمقنا فى فحصنا النقدى للخطب والنصوص السياسية فسوف نزيد من تفهمنا للممارسة السياسية والكفاح السياسى.

الخاتمة: الدراسة النقدية للغة، والبحث الاجتماعى والسياسة

تعتبر الدراسة النقدية للغة، وما تتضمنه من التحليل النقدى للخطاب، من التطبيقات لمدخل معين إلى البحث الاجتماعى فى إطار دراسة اللغة. وتوجد أساليب مختلفة للبحث الاجتماعى تتميز بما يطلق عليه هابرماس 'اهتمامات معرفية' مختلفة. ونحن نميز هنا بين البحث الاجتماعى الموجه إلى تحسين الأداء ('تحقيق الانضباط فى مواعيد القطارات') وبين البحث الاجتماعى الرامى إلى تحرير الإنسان. ويتميز الأخير، أى البحث الاجتماعى النقدى، بآرائه الخاصة فى الأنطولوجيا الاجتماعية وعلم المعرفة الاجتماعى، أى بماهية الحياة الاجتماعية وكيف نجرى البحوث فيها.

ولديه كذلك قائمته الخاصة بأسئلة البحث. فالعاملون فى مجال البحث الاجتماعى النقدى يرون أن قائمتهم تتشكل على ضوء المشاكل التى يواجهونها بسبب التغير الذى يطرأ على العالم، كما تتغير صورتها وفقًا لهذه المشاكل. إذ إننا، فى أية لحظة مهما تكن، نواجه مشكلات كثيرة متنوعة، وهو ما يتوقف فى جانب منه على فئات الناس الذين ندرسهم وعلى مجال الحياة العامة الذى ننظر فيه. ونحن نحاول هنا تلبية حاجة جوهرية، وإن شابت ذلك صعوبة ما، ألا وهى أن نحاول، من خلال البحوث والمناقشات، أى نعمل معًا على تحقيق الاتفاق حول الأولويات، وتحديد القضايا

الكبرى لعصرنا. ومن المفارقات أنه لابد من التوصل إلى اتفاق كفيل ببلورة هدف البحث النقدى، وضمان استمرار الاختلاف حتى نتجنب الجمود المذهبى المعهود.

وتتلاقى اليوم فروع كثيرة من البحث النقدى حول انتقاد الليبرالية الجديدة. وأرى أن ذلك المجال هو ما ينبغى للتحليل النقدى للخطاب أن يركز فيه جهوده، أى حول الصراع المعاصر حول النظام العالمى الجديد المصطبغ بالليبرالية الجديدة، إذ لا توجد قضية أكبر من السؤال الذى يقول: هل يمكن تبرير التدمير الهائل للمجتمعات البشرية والموارد الطبيعية، الناجم عن الرأسمالية الجديدة، بما يمكن أن يأتى به من الثروة؟ وقد تكون لدى الآخرين أولويات أخرى، مثل تحرير البشر من التعصب العرقى البشع الذى شهدناه أخيرًا فى شبه جزيرة البلقان، أو وضع حد للاستغلال المنتظم للعاملات المأجورات فى المنازل وفى المصانع (وهو الذى يتبدى بصورة صارخة حاليًا فى بعض بلدان العالم الثالث مثل المكسيك وإندونيسيا). أما أنا فأجد إن علينا تحديد أهم القضايا الأساسية للغة والسلطة التى تشكل غيرها.

ينتقد البعض البحث الاجتماعى النقدى بسبب انحيازه، ما دام التزام المرء بالاهتمام بالمعارف التحررية يعنى، بطبيعة الحال، أنه منحاز! ولكننى أتصور أن الأوهام الخاصة بحياد البحث الأكاديمى قد انقشعت قطعًا هذه الأيام، إذ تحولت الجامعة على امتداد العقدين الماضيين، بصراحة متزايدة، إلى فرع من فروع الاقتصاد العالمى الجديد، وذلك فى إطار تعبئة غير مسبوقة للحياة الاجتماعية من أجل تلبية مطالب الذين يسيطرون على الاقتصاد. ولاتزال النظرة إلى التعليم الجامعى والتعليم على مستويات أخرى تزيد من اختزاله فى مجرد إعداد الناس للعمل. وتدور معظم البحوث الممولة فى مجالات توصف بأنها أولويات قومية للحكومة ورجال الأعمال. أى إن الحياة الأكاديمية قد فُرضت عليها علاقة وثيقة ومتشابكة مع دنيا الأعمال والحكومة، والحديث عن استقلال الجامعات يمثل فى معظمه الحنين للماضى. ولا تتمثل القضية فيما إذا كانت الجامعات سوف تفضل إقامة روابط معينة مع شرائح اجتماعية معينة أخرى، بل تتمثل فى أنواع الروابط التى تفضلها. ولكن تفضيل أية روابط لا ينبغى أن يعنى

'التخلى عن المعايير الأكاديمية'، فالعمل الأكاديمى ضرب متميز من الممارسة الاجتماعية، ونتائجه تخضع – كما ينبغى – لتقييم الأقران له داخل الجامعات، وللتقييم خارجها، وهو ما ينطبق على البحث النقدى أيضًا.

ويمثل البحث الاجتماعى النقدى نضالًا – ومحاولة كثيرًا ما تكون شاقة – لتصحيح هذا التحيز الشديد. إنه نهج يمكن الجامعات من إعادة اكتشاف دورها المهم باعتبارها أماكن عامة أو ساحات تتيح للدارسين أن يناقشوا بعض جوانب الحياة الاجتماعية ويطعنوا فيها بعيدًا عن ضغوط القسر والمصلحة الخاصة.

وبعد انقضاء ما يزيد على عقد منذ صدور الطبعة الأولى من اللغة والسلطة أود أن أكرر إن التحليل النقدى للخطاب يدين بقيمته إلى كونه موردًا من موارد الكفاح ضد الهيمنة. وأرى أن غايته والغرض من التحليل النقدى للخطاب تزويد المنغمسين فى الكفاح الاجتماعى بمورد للبحث النقدى فى اللغة، فى الظروف الحالية التى يؤدى فيها 'التحول إلى اللغة' إلى جعل البحث النقدى فى اللغة جانبًا مهمًا من جوانب ذلك الكفاح. وأنا أعتقد أن الكفاح الأول لابد أن يكون الآن ضد الليبرالية الجديدة.

مواصلة البحث

هذا الجزء الأخير من الكتاب موجه بصفة خاصة إلى القراء الذين يودون مواصلة الاهتمام بالدراسة النقدية للغة، وهو يتضمن ملاحظات عملية موجزة عن مكان تحقيق ذلك وأسلوبه وما يصلح للتركيز عليه، ومقترحات للمزيد من القراءة.

إن أنجع طريقة لتنمية الاهتمام بالدراسة النقدية للغة تطبيقها، أى القيام بالتحليل النقدى لنمط معين أو أنماط معينة من الخطاب. وقد يتخذ هذا صورة الجهد الشخصى المحض، ولكن أهداف الدراسة النقدية للغة تتطلب القيام به من خلال فريق من نوع ما، وفيما يلى عدد محدود من الإمكانات المتاحة:

المكـــــــــان: المدرسة، الكلية، الجامعة

فرع إحدى النقابات

مجموعة نسائية

فرع هيئة أهلية

مركز شباب

حزب سياسى

مركز استشارات قانونية

الأســــــلوب: قاعة الدرس

حلقة بحثية غير رسمية أو خارج المقرارات الدراسية

عروض فيديو أو أفلام

عروض بصرية، واستخدام اللافتات

لعب الأدوار (التمكين)

موضوع التركيز: العنصرية، أو التمييز بين الجنسين (فى المحادثات العارضة مثلًا)

أجهزة الإعلام (تغطية أنباء النقابات أو الهيئات الأهلية)

الإعلان (عن لعب الأطفال مثلًا)

التعامل مع المسؤولين والمحاكم إلخ (لأصحاب القضايا)

الدور الأيديولوجى للصور (المطبوعة أو المذاعة تليفزيونيًّا)

هل يمكن لجلسات التشاور أن تخلو من التوجيه؟

فن المستحسن عند اتخاذ قرار القيام بمبادرة للدراسة النقدية للغة أن يضع المرء نصب عينيه عدة أمور، أولها أن أفضل مجال لتطبيق هذه الدراسة يشمل أنماط النصوص التى يرى المشاركون أنها ذات أهمية حقيقية لحياتهم وخبراتهم، وثانيها أن أشد الناس انفتاحًا على المداخل النقدية من نوع هذه الدراسة هم أشد المنغمسين فى الكفاح الاجتماعى. وثالثها أن التركيز على اللغة لن تكون له دلالة تذكر عند معظم الناس، وهكذا فلابد من إثبات أهمية اللغة بصفة عامة من خلال جهود مضنية، وذلك هو السبب الذى جعلنى أتجنب صياغة موضوعات التركيز أعلاه بالإشارة الصريحة إلى اللغة.

ذكرت فى الفصلين الخامس والسادس بعض المراجع التى قد يجد القراء فيها فائدة من حيث إجراءات تحليل الخطاب، بما فى ذلك شتى مستويات التحليل النصى. كما أشرت فى الفصل الأول وفى الكتاب كله إلى الأعمال الرئيسية الخاصة بالنظرية الاجتماعية، والتى سوف يفيد من قراءتها كل من يرغب فى تنمية اهتمامه بالدراسة النقدية للغة.

وفيما يلى قائمة بكتب راعيت الدقة الشديدة فى اختيارها وأردفت بها شرحًا موجزًا، وهى تتناول الدراسة النقدية للغة أو تعالج مسائل متصلة بها. وقد رتبت الكتب وفق صعوبتها، تقريبًا، مبتدئًا بأسهلها تناولًا وفهمًا.

كريس 1989 : هذا وصف موجز لرأى كريس فى الدراسة النقدية للغة، إذ يستخدم موادَّ توضيحية جيدة لتقريب القضايا النظرية المعقدة إلى الأذهان. وهو يستكشف كيف تتفق القدرة الخلاقة مع السيطرة الاجتماعية. وهو مفيد كمقدمة للدراسة النقدية للغة.

فاولر وآخرون 1979: هذا يمثل العمل المهم فى 'اللغويات النقدية' وهو المبحث الذى نشأ وترعرع فى جامعة إيست أنجليا. ويتضمن تحليلًا أيديولوجيا للمعالم النحوية واللفظية لنصوص معظمها مكتوب. ويرمى إلى تقديم إطار تحليلى يمكن استخدامه لغير اللغويين. ونزكى هذا الكتاب بشدة.

كريس وهودج 1979: يستكمل استكمالًا دقيقًا كتاب فاولر وآخرين ١٩٧٩.

ج. ب. طومسون 1984: دراسة قام بها عالم اجتماع للنظريات الاجتماعية حول الرابطة ما بين اللغة والأيديولوجيا. ويعتبر عرضًا شاملًا قيمًا لعمل بورديو وپيشيه وهابرماس وغيرهم.

ڤولوسينوف 1973: نُشر باللغة الروسية أول مرة عام ١٩٢٩. وهو وصف مهم

وذو تأثير كبير للأيديولوجيا واللغة، ويتضمن بحثًا نقديًا للتيار الرئيسى لعلم اللغة، ولا يزال ملائمًا للأوضاع الحالية إلى حد بعيد.

ليمكه 1995: دراسة نقدية للغة فى إطار التغيرات الاجتماعية والثقافية المعاصرة.

ڤوداك 1996: مجموعة من الأبحاث التى تبين شتى أساليب تطبيق 'منهج الخطاب والتاريخ' فى التحليل النقدى للخطاب.

تشولياراكى وفيركلف 1999: مناقشة نظرية للتحليل النقدى للخطاب باعتباره شكلًا من أشكال العلم الاجتماعى النقدى، وموردًا للبحث النقدى حول 'المراحل الأخيرة للحداثة'. وهو يعتبر أن تحليل الخطاب جزء من مبحث أعم وأشمل وهو التحليل الاجتماعى للممارسة الاجتماعية.

فيركلف 1992a: إطار لتحليل الخطاب باعتباره جانبًا من جوانب التغيير الاجتماعى (ارجع إلى الفصل الثامن من هذا الكتاب).

فيركلف 1995b: مجموعة من الأبحاث تشرح تطبيق التحليل النقدى للغة على شتى مجالات التغير الاجتماعى، بما فى ذلك التغير فى التعليم وأجهزة الإعلام الجماهيرية.

كريس وڤان لويڤين 1996: تطوير تجديدى لإطار 'السيميوطيقا الاجتماعية' ويتميز بتحليلات تطبيقية حافلة للمادة البصرية.

سكولون 1998: مدخل أصيل لدراسة خطاب الأنباء.

ج. وليامز 1999: وصف عميق للتطورات فى تحليل الخطاب النقدى الفرنسى.

ڤان دييك 1993: يطبق التحليل النقدى للخطاب فى مجال البحث فى العنصرية فى المجتمعات المعاصرة.

المراجع

فيما يتعلق بالعولمة انظر، على سبيل المثال، هارڤـى (1990) وجيدنز (1991) وفيما يتعلق 'بالتحول إلى اللغة' فى الحياة الاجتماعية المعاصرة وعلاقة التحليل النقدى للخطاب بالبحث الاجتماعى انظر تشولياراكى وفيركلف (1999)، وفيركلف (2000a). ويوجد تحليل للخطاب السياسى لحزب العمال الجديد فى فيركلف (2000b) وفكرة 'شلال التغيير' فى خطاب حزب العمال الجديد مقتبسة من كلارك ونيومان (1998) وأعرب عن امتنانى إلى لزلى فيريل للسماح لى باستخدام المقتطف من النص الخاص 'بتيسير' العمل فى الاجتماع الذى عقد فى مقر العمل.

المراجع

Akinasso, F.N. and Ajirotutu, C.S. (1982) Performance and ethnic style in job interviews, In Gumperz 1982.

Allan K. (1986) *Linguistic meaning*. Routledge.

Althusser, L. (1971) Ideology and ideological state apparatuses. In *Lenin and philosophy*. New Left Books.

Argyle, M. (1978) *The psychology of interpersonal behaviour* (3rd edn). Penguin.

Atkinson, J.M. and Heritage, J. (1984) *Structures of social action: studies in conversation analysis*. Cambridge University Press.

Baynham, M. (1986) Action and reflection: the Freirean argument in ESL. Paper given at the Linguistics and Politics conference, University of Lancaster, April 1986.

Bernstein, B. (1990) *The structuring of pedagogical discourse*. Routledge.

Bex, T. and Watts, R. (eds) (1999) *Standard English: the widening debate*. Routledge.

Bolinger, D. (1980) *Language – the loaded weapon: the use and abuse of language today*. Longman.

Bourdieu, P. (1977) *Outline of a theory of practice* (trans. R. Nice). Cambridge University Press.

Bourdieu, P. (1982) *Ce que parler veut dire: l'économie des échanges linguistiques*. Fayard, Paris.

Bourdieu, P. (1984) *Distinction: a social critique of the judgement of taste* (trans. R. Nice). Routledge & Kegan Paul.

Bourdieu, P. (1992) *Language and symbolic power*. Polity Press.

Brown, G. and Yule, G. (1983) *Discourse analysis*. Cambridge University Press.

Brown, P. and Levinson, S. (1978) Universals in language usage: politeness phenomena. In E. Goody (ed.) *Questions and politeness: strategies in social interaction*. Cambridge University Press.

Brown, R. and Gilman, A. (1972) The pronouns of power and solidarity. In P. Giglioli (ed.) *Language and social context*. Penguin.

Candlin, C.N. (1986) Beyond description to explanation in cross-cultural discourse. In L. Smith (ed,) *Discourse across cultures*. Pergamon.

Candlin, C.N. and Lucas, J.L. (1986) Interpretations and explanations in discourse: modes of 'advising' in family planning. In T. Ensink *et al*., *Discourse analysis and public life*. Foris, Dordrecht.

Cherny, L. (1999) *Conversation and community: chat in a virtual world*. Centre for the Study of Language and Information.

Chilton, P. (ed.) (1985) *Language and the nuclear arms debate: nukespeak today*. Frances Pinter.

Chouliaraki, L. (1995) *Regulation and heteroglossia in one institutional context: the case of a 'pragressivist' English classroom*. Unpublished Ph.D. thesis, Lancaster University.

Chouliaraki, L. and Fairclough, N. (1999) *Discource in late modernity: rethinking critical discourse analysis*. Edinburgh University Press.

Cicourel, A. (1973) *Cognitive sociology*. Penguin.

Clark, R. and Ivanic, R. (1999) *The politics of writing*. Routledge.

Clark, R., Fairclough, N., Ivanic, R. and Martin-Jones, M. (1990) Critical language awareness. Part 1: A critical review of three current approaches. *Language and Education* 4+4: 249-60.

Clark, R., Fairclough, N., Ivanic, R. and Martin-Jones, M. (1991) Critical language awareness. Part 2: Towards critical alternatives. *Language and Education* 5L1: 41-54.

Clarke, J. and Newman, J. (1998) A modern British people? New Labour and the reconstruction of social welfare. Occasional Paper, Department of Intercultural Communication and Management, Copenhagen Business School.

Coulthard, M. (1977) *An introduction to discourse analysis*. Longman.

Coupland, N. and Jaworski, A. (1997) *Sociolinguistics: a reader and coursebook. Macmillan.*

Department of Education and Science (1984) *English from 5 to 16*. HMSO.

Department of Linguistics and Modern English Language, University of Lancaster (1987) *Submission to the Kingman committee of inquiry into the teaching of English.*

Downes, W. (1984) *Language and society*. Fontana Paperbacks.

Dreyfus, H.L. and Rabinow, P. (1982) *Michel Foucault: beyond structuralism and hermenetics*. The Harvester Press.

Eagleton, T. (1991) *Ideology: an introduction*. Verso.

Eagleton, T. (1996) *The illusions of postmodernism*. Blackwell.

Edelman, M. (1974) The political language of the helping professions. *Politics and Society* 4: 295-310.

Eggins, S. (1994) *An introduction to systemic functional linguistics.* Pinter Publishers.

Emerson, J. (1970) Behaviour in private places: sustaining definitions of reality in gynaecological examinations. In H.P. Dreizel (ed.) *Recent Sociology No. 2.* Collier-Macmillan, New York.

Fairclough, N.L. (1985) Critical and descriptive goals in discourse analysis. *Journal of Pragmatics* 9: 739-63.

Fairclough, N.L. (1988) Register, power, and sociosemantic change. In D. Birch and M. O'Toole (eds) *Functions of style.* Frances Pinter.

Fairclough, N.L. (1992a) *Discourse and social change.* Polity Press.

Fairclough, N.L. (1992b) (ed.) *Critical language awareness.* Longman.

Fairclough, N.L. (1995a) *Media discourse.* Edward Arnold.

Fairclough, N.L. (1995b) *Critical discourse analysis.* Longman.

Fairclough, N.L. (2000a) *New Labour, new language.* Routledge.

Fairclough, N.L. (2000b) Discourse, social theory and social research: the discourse of welfare reform. *Journal of Sociolinguistics* 4.

Fairclough, N. and Wodak, R. (1997) Critical discourse analysis. In T. van Dijk (ed.) *Discourse as social interaction.* Sage.

Featherstone, M. (1991) *Consumer culture and postmodernism.* Sage.

Foucault, M. (1971) *L'ordre du discourse.* Gillmard, Paris.

Foucault, M. (1972) *The archaeology of knowledge* (trans. A. Sheridan Smith). Tavistock Publications.

Foucault, M. (1982) The subject and power. Afterword to Dreyfus and

Rabinow 1982.

Fowler, R. (1991). *Language in the news.* Routledge.

Fowler, R., Hodge, B., Kress, G. and Trew, T. (1979) *Language and control.* Routledge & Kegan Paul.

Freire, P. (1972) *Pedagogy of the oppressed.* Penguin Books.

Freire, P. (1985) *The politics of education.* Macmillan.

Garfinkel, H. (1967) *Studies in ethnomethodology.* Prentice Hall, Englewood Cliffs, New Jersey.

Garrod, S. (1986) Language comprehension in context: a psychological perspective. *Applied Linguistics* 7: 226-38.

Gee, J., Hull, G. and Lankshear, C. (1996) *The new work order: behind the language of the new capitalism.* Westview.

Giddens, A. (1976) *New rules of the sociological method: a positive critique of interpretative sociologies.* Hutchinson.

Giddens, A. (1991) *Modernity and self-identity.* Polity Press.

Giroux, H. (1997) *Pedagogy and the politics of hope.* Westview Press, Boulder, Colorado.

Goatly, A. (1997) *The language of metaphors.* Routledge.

Goodwin, C. and Heritage, J. (1990) Conversation analysis. *Annual review of anthropology* 19.

Gramsci, A. (1971) *Selections from the prison notebooks* (ed. And trans. By Q. Hoare and G. Nowell-Smith). Lawrence & Wishart.

Gumperz, J. (ed.) (1982) *Language and social identity.* Cambridge University Press.

Gurevitch, M., Bennett, T., Curran, J. and Woollacott, J. (eds) (1982) *Culture, society and the media.* Methuen.

Habermas, J. (1984) *Theory of communicative action vol. 1: Reason and the rationalization of society* (trans. T. McCarthy). Heinemann.

Hall, S. (1982) The rediscovery of 'ideology': return of the repressed in media studies. In Gurevitch *et al.* 1982.

Hall, S. (1984) The state – socialism's old caretaker. *Marxism Today* 28. 11: 24-9.

Hall, S. and Jacques, M. (eds) (1983) *The politics of Thatcherism*. Lawrence & Wishart.

Halliday, M.A.K. (1978) *Language as social semiotic*. Edward Arnold.

Halliday, M.A.K. (1994) *An introduction to functional grammar* (2nd edn). Edward Arnold.

Halliday, M.A.K. and Hasan, R. (1976) *Cohesion in English*. Longman.

Halliday, M.A.K. and Hasan, R. (1985) *Language, context, and text: aspects of language in a social-semiotic perspective*. Deakin University Press, Victoria, Australia.

Harvey, D. (1990) *The condition of postmodernity*. Blackwell.

Hawkins, E. (1984) *Awareness of language: an introduction*. Cambridge University Press.

Heritage, J.C. and Watson, D.R. (1979) Formulations as conversational objects. In G. Psathas (ed.) *Everyday language: studies in ethnomethodology*. Irvington, New York.

Hymes, D. (1962) The ethnography of speaking. In T. Gladwin and W.C. Sturtevant (eds) *Anthropology and human behaviour*. Anthropological Society of Washington, Washington, DC. Also in J. Fishman (ed.) *Readings in the sociology of language*. Mouton, The Hague.

Irvine, J. (1979) Formality and informality in communicative events. *American Anthropologist* 81: 773-90.

Jameson, F. (1981) *The political unconscious*. Methuen.

Jameson, F. (1984) Postmodernism, or the cultural logic of late capitalism. *New Left Review* 146.

Jenkins, R. (1996) *Social identity*. Routledge.

Jessop, B. (1990) *State theory*. Polity Press.

Jessop, B., Bonnett, K., Bromley, S. and Ling, T. (1988) *Thatcherism: a tale of two nations*. Polity Press.

Kramarae, C., Schulz, M. and O'Barr, W. (1984) *Language and power*. Sage.

Kress, G. (1989) *Linguistic processes in sociocultural practice*. Oxford University Press.

Kress, G. and Hodge, B. (1979) *Language as ideology*. Routledge & Kegan Paul.

Kress, G. and Van Leeuwen, T. (1996) *Reading images: the grammar of visual design*. Routledge.

Laclau, E. and Mouffe, C. (1985) *Hegemony and socialist strategy*. Verso.

Lakoff, G. and Johnson, M. (1980) *Metaphors we live by*. University of Chicago Press.

Lecercle, J.-J. (1999) *Interpretation as pragmatics*. Macmillan.

Leech, G.N. (1974) *Semantics*. Penguin Books.

Leiss, W., Kline, S. and Jhally, S. (1986) *Social communication in advertising*. Methuen.

Leith, D. (1983) *A social history of English*. Routledge & Kegan Paul.

Lemke, J. (1995) *Textual politics: discourse and social dynamics.* Taylor & Francis.

Levinson, S. (1983) *Pragmatics.* Cambridge University Press.

Lury, C. (1996) *Consumer culture.* Polity Press.

Lyons, J. (1977) *Semantics.* Cambridge University Press.

McLellan, D. (1986) *Ideology.* Open University Press.

Marx, K. and Engels, F. (1968) *Selected writings.* Lawrence & Wishart.

Mey, J. (1985) *Whose language? A study in linguistic pragmatics.* John Benjamins Publishing Company, Amsterdam L Philadelphia.

Mills, S. (1997) *Discourse.* Routledge.

National Congress on Languages in Education (NCLE) (1985) *Language awareness.* Centre for Information on Language Teaching and Research.

New York Times, The (eds) (1973) *The Watergate hearings.* Bantam Books, New York.

Pateman, T. (1980) *Language, truth and politics* (2nd edn). Jean Stroud.

Pecheux, M. (1982) *Language, semantics and ideology: stating the obvious* (trans. H. Nagpal). Macmillan.

Pujolar, J. (1997) *De que vas tio? Genere I llengua en la cultura juvenile Barcelona.* Editorial Empuries.

Quirk, R., Greenbaum, S., Leech, G.N. and Svartvik, J. (1985) *A comprehensive grammar of the English language.* Longman.

Radford, A., Atkinson, M., Britain, D., Clahsen, H. and Spencer, A. (1999) *Linguistics: an introduction.* Cambridge University

Press.

Rogers, C. (1967) Some of the directions evident in therapy. In *On becoming a person*. Constable.

Sacks, H., Schegloff, E.A. and Jefferson, G. (1974) A simplest systematics for the organization of turn-taking for conversation. *Language* 50: 696-735.

Saussure, F. de (1966) *Course in general linguistics* (trans. W. Baskin). McGraw-Hill, New York.

Schank, R. and Abelson, R. (1977) *Scripts, plans, goals and understanding*. Lawrence Erlbaum, Hillsdale, New Jersey.

Scollon, R. (1998) *Mediated discourse as social interaction*. Longman.

Searle, J.R. (1969) *Speech acts: an essay in the philosophy of language*. Cambridge University Press.

Shapiro, M. (ed.) (1984) *Language and politics*. Basil Blackwell.

Shiffren, D. (1994) *Approaches to discourse*. Blackwell.

Sinclair, J. and Coulthard, M. (1975) *Towards an analysis of discourse: the English used by teachers and pupils*. Oxford University Press.

Stubbs, M. (1984) *Discourse analysis: the sociolinguistic analysis of natural language*. Basil Blackwell.

Talbot, M. (1998) *Language and gender: an introduction*. Polity Press.

Tannen, D. (1979) What's in a frame? Surface evidence for underlying expectations. In R.O. Freedle (ed.) *New directions in discourse processing*. Ablex, Norwood, New Jersey.

Therborn, G. (1980) *The ideology of power and the power of ideology*. Verso.

Thibault, P. (1991) *Social semiotics as praxis*. Minnesota.

Thibault, P. (1997) *Re-reading Saussure*. Routledge.

Thomas, J. (1995) *Meaning in interaction*. Longman.

Thompson, G. (1996) *Introducing functional grammar*. Arnold.

Thompson, J.B. (1984) *Studies in the theory of ideology*. Polity Press.

Van Dijk, T. (ed.) (1985) *Handbook of discourse analysis*, 4 vols. Academic Press.

Van Diik, T. (1991) *News as discourse*. Erlbaum.

Van Dijk, T. (1993) *Elite discourse and racism*. Sage.

Van Dijk, T. (1997a) *Discourse as structure and process*. Sage.

Van Dijk, T. (1997b) *Discourse as social interaction*. Sage.

Van Dijk, T. (1998) *Ideology*. Sage.

Van Dijk, T. and Kintsch, W. (1983) *Strategies of discourse comprehension*. Academic Press.

Vauhan, T.D. (1976) *Concepts of counseling*. Bedford Square Press.

Verschueren, J. (1999) *Understanding pragmatics*. Arnold.

Volosinov, V.I. (1973) *Marxism and the philosophy of language*. Seminar Press, New York.

Widdowson, H.G. (1979) *Explorations in applied linguistics*. Oxford University press.

Williams, G. (1999) *French discourse analysis: the method of post-structuralism*. Routledge.

Williams, R. (1976) *Keywords*. FontanaLCroom Helm.

Williamson, J. (1978) *Decoding advertisements*. Marion Boyars.

Wodak, R. (1996) *Disorders of discourse*. Longman.

Wodak, R., Nowak, P., Pelikan, J., Gruber, H., de Cillia, R. and Mitten, R. (1990) *Wir sind alle unschuldige Tater: diskursbistorische studien zum nackkriegsant-isemitismus.* Suhrkamp.

Zizek, S. (ed.) (1994) *Mapping ideology.* Verso.

المؤلف في سطور :

نورمان فيركلف

مواليد ١٩٤١، أستاذ اللغويات المتفرغ بجامعة لانكاستر.

أحد أهم مؤسسي "تحليل الخطاب النقدي" وتطبيقاته في مجال السوسيو لغويات (علم اللغويات الاجتماعية).

ومن مؤلفاته:

- *Language and Power.* London: Longman. (1989).
- *Discourse and Social Change.* Cambridge: Polity Press. (1992).
- *Media Discourse.* London: Edward Arnold. (1995).
- *Critical Discourse Analysis.* Boston: Addison Wesley. (1995).
- *Discourse in Late Modernity - Rethinking Critical Discourse Analysis.* With Chouliaraki, Lilie, Edinburgh: Edinburgh University Press. (1999).
- *New Labour, New Language?* London: Routledge. (2000).
- *Language and Power* (2nd edition). London: Longman. (2001).
- *Analysing Discourse: Textual Analysis for Social Research.* London: Routledge. (2003).
- *Language and Globalization.* London: Routledge. (2006).
- (Ed.). *Discourse and Contemporary Social Change.* Bern. (2007).

المترجم فى سطور:

الدكتور محمد عنانى

ولد عام ١٩٣٩، أستاذ الأدب الإنجليزى بجامعة القاهرة، والأديب والناقد، له خمسة دواوين شعرية وثمانى عشرة مسرحية، وأصدر نحو ٧٥ كتابًا ما بين مؤلف ومترجم من بينها تسع عشرة مسرحية لشكسبير، ترجمها شعرًا ونثرًا وفقًا للأصل، وملحمتى الفردوس المفقود وعودة الفردوس للشاعر ميلتون، وملحمة دون جوان للشاعر بايرون. وله كتب فى النقد الأدبى أهمها المصطلحات الأدبية الحديثة، ومجموعة كتب قيمة فى مبحث دراسات الترجمة، من أهمها نظرية الترجمة الحديثة.

حاز على وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى (١٩٨٥)، واختير خبيرًا بمجمع اللغة العربية بالقاهرة (١٩٩٦)، وفاز بجائزة التفوق فى الآداب (١٩٩٩) وجائزة الدولة التقديرية فى الآداب (٢٠٠٢).

التصحيح اللغوى: محمود الطبلاوى
الإشـــراف الفنى: حســـن كـــامـــل

كتاب اللغة والسلطة يدور حول العمل الذى تؤديه اللغة للحفاظ على علاقات السلطة وتغييرها فى المجتمع المعاصر، وحول أساليب تحليل اللغة بحيث تكشف عن هذا العمل بشقيه، وحول زيادة وعى الناس به، وزيادة قدرتهم على مقاومته وتغييره. وقد وُضع الكتاب بحيث تسهل قراءته على من لا يتمتع بخبرة سابقة في هذا المجال. ولكن تصدير الطبعة الثانية يبدو لى فرصة سانحة حتى أشرح، خصوصاً لمن يحيطون إحاطة أكبر بهذا المجال، سبب إصدارى طبعة ثانية، وكيف تختلف هذه الطبعة عن الطبعة الأولى، والعلاقات بين كتاب اللغة والسلطة وبين المطبوعات التى تلته.